J A D A L

الأكثر مبيعًا في نيويورك تايمز
NEW YORK TIMES BESTSELLER

ماري بينيدكت
وفيكتوريا كريستوفر موراي

رواية

أمينة المكتبة

ترجمة
خالد حافظي

GOOD MORNING AMERICA BOOK CLUB

The New York Times Bestseller

مكتبة 1308

جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

إهداء لـ..

أمينة الشفاء

أمينة العلاج

Sh---h

أمينة المكتبة

مكتبة | 1308

أمينة المكتبة

ماري بينيدكت
و فيكتوريا كريستوفر موراي

ترجمة: خالد حافظي

العنوان الأصلي باللغة الإنجليزية
The Personal Librarian
By Marie Benedict and Victoria Christopher Murray
2021
الطبعة الأولى: أغسطس 2022م
ISBN: 978-603-04-2833-5
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر©
Copyright © 2021 by Marie Benedict and Victoria Christopher Murray
Penguin Random House supports copyright

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

دولة الكويت
المملكة العربية السعودية
جمهورية مصر العربية
(+965) 99900912
(+966) 554658820
WWW.JADALBOOKSTORE.COM
JADAL.PUBLISHING
JADALBOOKSTORE
رقم الإيداع: 1444/1256

J A D A L

ماري بينيدكت
و فيكتوريا كريستوفر موراي

مكتبة | 1308

رواية

أمينة المكتبة

ترجمة
خالد حافظي

جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

الإهداء

إلى بيل باسميها:

بيل دا كوستا غرين

و

بيل ماريون غرينر

الفصل الأوّل

مكتبة
t.me/soramnqraa

28 تشرين الثاني/نوفمبر 1905

مدينة برينستون، ولاية نيو جيرسي

قُرِع الجرس الشمالي القديم معلناً الساعة، فأدركتُ أنني تأخَّرت، فحاولت رفع تنورتي الفضفاضة كي أستطيع الهرولة. لقد كنت أرغب في أن أطلق رجليّ للريح على طول مسارات جامعة برينستون، لكن بينما كنت ألملم طيّات تنورتي الثقيلة سمعت صوت ماما تقول: «بيل، تحلّي دائماً بأخلاق السيّدات»، فتنهّدت وقلت في نفسي: لو كنت سيّدة لما قرّرت الرَّكضَ.

ثم بدأت إنزال تنورتي، وأبطأت السير عندما صرت أُتعرّج عبر أراضي برينستون القوطية، التي كانت تغزوها أوراق الأشجار المتساقطة، فبدت كما لو أنَّها كامبريدج أو أكسفورد. أعلم أنّه لا يجب عليّ فعل أيّ شيء لجلب أيّ نوع من أنواع الانتباه الزائد، وبمجرّد مروري بقوس بلير مشيتُ، بخُطاً حثيثة، مشيةَ سيِدة.

لقد مرّت خمس سنوات على مغادرتي شقّتنا في مدينة نيويورك لأحلّ في هذه المدينة الجامعية الهادئة في ولاية نيو جيرسي، التي يثيرُ هدوءها أعصابي إلى الآن. مازلت أتمنى، في عطلة نهاية كل أسبوع، أن أتمكّن من العودة إلى حيوية مدينة نيويورك المفعمةِ بالطّاقة، لكنّ مبلغ الستين سنتاً ثمن تذكرة القطار أكبر ممّا تحتمل ميزانية عائلتنا، فبدلاً من العودةِ كنت أرسل المال إلى منزلنا.

وبمروري تحت برج تزيّنه شرفات، عدَّلتُ وتيرةَ سيري كي لا أصل إلى المكتبة وأنا ألهثُ من التَّعبِ. وعلى الرغم من أنّ ماما كانت تبعد 60 ميلاً عني الآن، ما زالت أصواتها عالقة في مخيّلتي: أنت تشتغلين في جامعة برينستون، ولا بدَّ لك من بذل مزيد من الجهد في تلك المؤسسة التي يطغى عليها الذكور. كوني حذرة من القيام بأيّ شيء يُظهر تفوّقك.

بمجرّد وصولي، دفعت ببطء الباب المصنوع من خشب البلوط الثقيل لتقليل صريره العالي، وتسلّلت بهدوء كي لا أسمح لنعل حذائي المصنوع من جلد العجول بإحداث جلبة عبر البهو الرُّخامي، قبل أن أصل خفية إلى المكتب، الذي كنت أتشارك فيه مع أمينتين للمكتبة. تنفّست الصعداء حينَ وجدتُ الغرفة خالية. لو لاحظتِ الآنسةُ ماك كينا وصولي المتأخّر لما اهتمّت، لكن لو لاحظت ذلك الآنسة آدامز فمن المؤكّد لدي أنّها ستشي بي لاحقاً لرئيسنا.

نزعت معطفي، ثم نزعت قبعتي، وحرصت على تنعيم شعري المجعّد المتمرّد، وإعادة خصلاته إلى مكانها، ثم ثنيت طيّات تنورتي البحرية الكئيبة تحتي، وجلست برفق على الكرسي. وفي غضون دقائق، انفتح باب المكتب على نحو مفاجئ، واصطدم بالجدار المغطى بألواح خشبية، فأصابتني حالة من الجزع، فاندفعت واقفة. ظهرت أمامي صديقتي العزيزة والوحيدة، وزميلتي في المكتبة، وشريكتي في السكن، جيرترود هايد. أمَّا أمينة المكتبة الأخرى، شارلوت مارتينز، فكان يمكنها اختراق هدوء القاعات المقدّسة دون خوف من التداعيات؛ لأنّها ابنة أخت الرئيس المحترم المسؤول عن مشتريات المكتبة. وشارلوت هذه شابة تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، وذات شعر بلون الزنجبيل وعينينِ مشرقتين، ولا أحد كان يضحكني مثلها.

اقتربت مني جيرترود وقالت، وهي تنظر إلى ساعة الحائط، وعلى وجهها ترتسمُ ابتسامة مثيرة: «آسفة على الإزعاج والبلبلة التي أحدثتها فيك يا بيل. أعتقد أنّني مدينة لك الآن باعتذارين: الاعتذار الأوّل، لأنّنا تركناك بمفردكِ هذا الصباح، ما أدّى -لا شك- إلى تأخّرك، والآن أدين لك باعتذار ثانٍ لأنّني جعلتك تنزعجين.»

«لا تكوني سخيفة فالخطأ هو خطئي. لقد كان يجدر بي وضع رسالتي إلى أمّي جانباً، وأن أذهب إلى الحرم الجامعي معك أنت وشارلوت»، ثم صحّحت كلامي قائلة: «أعني الآنسة مارتينز.»

لقد كنّا في معظم الأيام -أنا وشارلوت وجيرترود- نسير معاً من منزل عائلتيهما الكبير في جامعة درايف؛ حيث كانت لي غرفة هناك، وأشاركهما كلّ الوجبات هما وبقية أفراد أسرتيهما، الذين كانوا يعيشون في المنزل أيضاً. في البداية رحّبت بي شارلوت وجيرترود في دوائرهما المنزلية والاجتماعية بدفء وكرم، وقدّمتا لي إرشادات وفيرة في العمل. لا أستطيع أن أتخيّل كيف كان وقتي سيكون في برينستون من دونهما.

أخذت جيرترود تسخر مني قائلة: «بيل، لماذا تتلعثمين عندما تذكرين اسم شارلوت؟ أخبريني، فلا أحد هنا سوانا.»

كان يتعيّن عليّ ألّا أفصِحَ عمّا يخالجني؛ لأنّ جيرترود كانت لا تحتاج إلى تقييم سلوكها في كلِّ لحظة من كلّ يوم وفقاً للمعايير المجتمعية. ولكي تضمن أنّ تصرّفها مقبول، لم تكن في حاجة إلى مراقبة كلماتها، أو مشيتها، أو أخلاقها، أمّا أنا فكان يتعيّن عليّ فعل ذلك. حتى لو كنت مع جيرترود، يجب عليّ أن أتصرّف بحذر، بالنظر خاصةً إلى التدقيق الشديد الموجود في هذه المدينة الجامعية، التي تعمل كما لو أنّها قطعةٌ من الجنوب المعزول، الذي يعاني من الميز العنصري بدلاً من كونها تقع في الشمال الذي يفترض به أن يكون تقدُّمِياً أكثر.

ثم سمعنا صوت الوقع المميّز لحذاء الآنسة آدامز، محدثاً جلبة في الرواق خارج باب مكتبي، فهمّت جيرترود بالمغادرة، وقد أصدر قماش تنورتها حفيفاً حين استدارت للخروج. لقد كان لجيرترود ولع مثلي برفيقة مكتبي، لكنّها أرادت الفرار وهي مذعورة قبل أن تتورّط في محادثة مع الآنسة آدامز. لكنّها، قبل أن تخرج من المكتب تماماً، التفتت وهمست إلي: «هل ما زال لديك متسع من الوقت لحضور محاضرة الفلسفة الليلة؟»

لقد زاد عدد الدروس المفتوحة لموظّفي الحرم الجامعي وأعضائه منذ أن تولّى وودرو ويلسن رئاسة جامعة برينستون، وأسّس لإصلاح تعليمي شامل خلال السنوات الثلاث المنصرمة. ورغمَ أنّني كنت أستمتع أنا وجيرترود بالتحاقنا بالحياة الأكاديمية في صلب الحرم الجامعي، كنت أمقت بعض قرارات ويلسون الأخرى، مثل التمسّك بأن تكون برينستون جامعة للبيض فحسب، في وقتٍ اعترفت بهِ جميع مدارس اتحاد الجامعات الأخرى بحق السود في التعلّم. لكن لم يكن يفترض بي أن أعبّر بصوتٍ عالٍ عن مثل هذه الآراء.

لذلك أجبت جيرترود: «لن أفوّت تلك المحاضرة أبداً.»

***

لقد كان هدوء أكداس الكتب حولي يغطّيني مثل بطانية ناعمة، وكنت أسترخي وأنا أقلّب في صمت خافت دعامات الصفحات، وعبق أغلفة الكتب الجلدية يفوح من حولي. لقد كانت أيامي الطويلة، التي قضيتها بصحبة مخطوطات القرون الوسطى والكتب المطبوعة زمن اختراع الآلة الطابعة، تهدّئني وتبهجني. لقد كنت أتخيّل عمل مستخدمي المطابع الأولى وهي تحيي ذكرى اللّغة الإنجليزية، وتنشر على نطاق واسع أدبها من خلال العمل الدقيق لنقشها حرفاً بعد حرف، محوّلة الأوراق العذراء إلى نصّ جميل يلهم النسّاك والقراء، فينقلني خارج حدود هذا الزمان والمكان، تماماً كما يعتقد

بابا دائماً؛ فالكلام المكتوب بالنسبة إليه يمكن أن يكون بمنزلة دعوة مغرية لاعتناق الفكر الحرّ والتحليق في العالم الرّحب. وهذا الأمر ليس له من إطار تاريخي أكثر صدقاً مما كان عليه في فجر اختراع الكلمة المطبوعة؛ حيث كان يمكن، للمرّة الأولى، توجيه تلك الدعوة إلى الجماهير بدلاً من توجيهها إلى قلّة مختارة من النخب.

ثم سمعت صوتاً ناعماً صادراً من وراء أكداس الكتب: «آنسة غرين!»

لقد كانتا كلمتين بسيطتين، لكنّ لهجةَ زائري المتزنة ونبرته المميّزة زادتهما رونقاً. على أي حال لقد كنت في انتظاره.

فأجبته وأنا ألتفت صوبه: «طاب يومك سيد مورغان.»

رغمَ أنني كنت أتحدّث بصوت منخفض، كانت الآنسة سكوت تنظر إليّ من خلال مكتب التداول باستهجان وتجهّم. وما كان يقلقها في خطابي ليست نبرة صوتي، بل الطيبة في علاقتي مع زميلي أمين المكتبة، الذي كان صاحب فضل عليّ في توفير مجموعات الكتب.

السيّد جونيوس مورغان في الأصل مصرفي، إلا أنّه كان سخياً في تبرّعه للجامعة بعشرات المخطوطات التي تعودُ إلى القرون الوسطى والقديمة إجمالاً، وهذا هو السبب الذي جعله يشغل أيضاً المنصب الفخري بوصفه مساعدَ رئيس أمناء المكتبة. وأنا مقتنعة بأنّ الآنسة سكوت كانت ترى أنّ أيّ نوع من العلاقات التي قد تنشأ بيننا، حتى الودّية والمهنية التي نتشاركها، أقلّ من مستواه.

لقد كان رجلاً نحيلاً ذا شعر بني ناعم تبدو عليه علامات الطيبة من خلف نظّاراته الدائرية.

أمعن السيّد مورغان النظر إليّ وقال: «كيف حالك اليوم يا آنسة غرين؟»

«بخير يا سيّدي، وكيف حالك؟»

حرصت على أن تكون لهجتي مهنيّة ومتحفّظة. لقد أتى متأخراً عشرين دقيقة عن الموعد الذي ضبطناه، إلى درجة أنَّني خلته قد نسيه، لكن لم تكن لدي الجرأة للومه على تأخّره.

«لقد كنت أنوي إلقاء نظرة على ديوان فرجيل مثلما ناقشناه أمس إن كانت واجباتك ومشاغلك المهنية تسمح بذلك بطبيعة الحال.»

السيّد مورغان، الذي كنت أهمس باسمه جونيوس بيني وبين نفسي فحسب، يعلم أنّ حماستي تجاه مجموعة المخطوطات البالغة القيمة في المكتبة تضاهي حماسته، وأنّ أياً من مهماتي الأخرى لن تقف عقبة أمام تنفيذ ما وعدني به من اطّلاعٍ خاصّ.

كنا نتقاسم عشقاً مشتركاً للشاعر الروماني القديم فرجيل؛ فقد ضمَّت المكتبة واحداً وخمسينَ مجلداً من شعره. لقد كان نقاشي مع جونيوس حول الرحلات المظلمة في الإلياذة والأوديسة إحدى أكثر اللحظات المشرقة في أيامي. وجونيوس كان معجباً بأوديسيوس، بينما كنت دائماً أتماهى مع إينياس، ذلك اللاجئ الطروادي الذي كان يحاول يائساً مواجهة مصيره في عالم لا مكان له فيه، فقد كانَ مدفوعاً بالواجب، ومستعداً لأن يضحّي بنفسه من أجل خير الآخرين.

ابتسمت وقلت: «لقد قمت بتحوير الجدول الزمني الخاص بي يا سيّدي، وخصّصت لك الزمن الكافي.»

«رائع. إذاً أدعوك إلى أن تتبعيني.»

تبعت جونيوس، وأنا أجرّ أطراف ثوبي فوق الأرضية الخشبية، إلى غرفة صغيرة جميلة؛ حيث كانت تحفظ جميع مجلّدات الشاعر فيرجيل. وكان لا بد لي من كتم أنفاسي وكبح وقع قدميّ، بينما كنت أنتظر إخراجه حلقةَ مفاتيح ثقيلة من جيبه.

وفي الأخير، فتح الباب، وكشف عن الصناديق الزجاجية، التي كانت تحمل المجموعة القيّمة لتلك الكتب النادرة. وكانت أشعارُ فيرجيل الموجودة حينها تقتصرُ على ما يناهز مئة وخمسين كتاباً مطبوعاً، وقد تمت طباعة هذه المجلّدات في القرن الخامس عشر للميلاد، ومعظمها تبرّع به جونيوس.

لقد سبق أن رأيت هذه الكتب عدّة مرات حين كنت برفقة فريق الترميم. آه. كم كانت مقدّسة تلك اللحظات!

لقد تسلّل إليّ صوت السيّد مورغان، فشق طريقه إلى قدسية أفكاري.

«هل يعنيك الاحتفاظ بمجموعتي المفضلة؟»

لقد كان جونيوس يحمل نسخة سوينهايم وبانارتز من ديوان شعر فيرجيل، وهي من أندر الكتب. فكونراد سوينهايم وأرنولد بانارتز، وهما من رجال الدين الألمان، كانا من أوائل المستخدمين للآلة الطابعة في القرن الخامس عشر، والكتاب الذي كان يعرضه جونيوس هو أحد الإصدارات الأولى لتلك الآلة.

سألته، وأنا في ريبة من حقيقة إتاحة هذه الفرصة لي: «هل يمكنني القيام بذلك فعلاً؟»

«هذا مؤكد.» وبدت نظرة عينيه مشرقة من خلف زجاج نظّاراته. أظن أنّه كان من المثير بالنسبة إليه أن يشارك ذلك الكنز الأدبي مع من يهتم به بالقدر نفسه.

ثم مرّرت أصابع يدي في القفازات البيضاء المعروضة عليّ. لقد كان الكتاب أثقل ممّا كنت أتوقّع. بقيت جالسة أمام صفحاته المفتوحة. آه. كم كان بابا سيستمتع بمثل هذه اللحظة! لقد كنت أفكّر في أبي الذي أدخلني إلى عالمي الفنِّ والمخطوطات النَّقيين منذ أن كنت فتاة يافعة.

لقد قال لي بابا ذات مرّة: «في يوم من الأيام، سيصبح جمال عقلك وجمال الفن كياناً واحداً.»

رسمتْ كلمات بابا المحفورة في ذاكرتي ابتسامةً على وجهي، وأنا أتصفّح الورقات التي تميل إلى الصفرة، وأفحص الحرف «ت» المنقوش يدويّاً ليعلن عن بداية الصفحة، فقد أذهلني بريقه فوق الورقة الذهبية إلى درجة أنّني نسيت وجود جونيوس بالقرب مني إلى أن بدأ التحدّث: «لقد التقيت عمّي في المساء الفارط.»

ولم يكن جونيوس في حاجة إلى تعريفي بهويّة عمّه؛ فكل شخص في المكتبة كان يعرف أنّه ابن أخي الرأسمالي جي بي مورغان السيئ السمعة، وهو بالضبط السبب الذي جعلني لا أذكره أبداً أمامه، فأنا كنت أريد أن يفهم جونيوس أنّني أقدّره بناءً على سعة اطّلاعه فحسب.

«آه؟» أجبته بأدب، وأنا أجول بعينيّ بين ثنايا سطور الصفحة.

«نعم. التقيته في نادي جروليير»

كنت أعرف النادي، الذي يتحدّث عنه، بسبب سمعته المشهورة على أيّ حال. لقد تأسّس منذ نحو عشرين عاماً، في سنة 1884. وأعضاء هذا النادي الخاص هم من القرّاء الأثرياء، الذين يتمثّل هدفهم الرئيسي في دعم المنح الدراسية، وتعزيز مجموعات الكتب. كنت أجدُ متعةً في إلقاءِ نظرة خاطفة خلف أبواب المنزل الريفيّ المغلق الذي كانَ مقرّاً للنادي الواقع في الشارع الشرقي الثاني والثلاثين. ولَكن، لمّا كنت امرأة، فهم لن يقبلوا أَبداً أن أكون بينهم، فبالنسبة إلى هؤلاء الرجال، لن يكون جنسي هو خطيئتي الوحيدة.

قلت له، محاولة جرّه لإجراء حديث صغير: «هل سبق لك أن حضرت محاضرة مثيرة للاهتمام؟»

«في الواقع - يا آنسة غرين- لم تكن المحاضرة هي المثيرة للاهتمام.» لقد كانت نبرة صوته غير اعتيادية يشوبها نوع من الدعابة الغريبة.

دفعني الفضول إلى الانصراف عن الاهتمام بفيرجيل. لقد بدت على وجه جونيوس الهادئ، دائم البهاء، ولكن دائم الجدّية في الآن نفسه، ابتسامة عريضة. كان الأمر محيّراً بعض الشيء، فتساءلت في داخلي، وأنا أميل بعيداً عنه قليلاً: ماذا يحدث بحق السماء.

ثم سألته: «لا؟ أَلم تكن المحاضرة جيّدة!؟»

«كانت المحاضرة جيّدة، لكنّ النقاش الأكثر روعة وقع في المساء مع عمي حول فنّه الشخصي ومجموعة مخطوطاته الشخصية. لقد نصحته بها من وقت إلى آخر، كما نصحتهُ بالاحتفاظِ بها في المكتبة الجديدة التي هو بصدد بنائها مباشرة إلى جانب منزله في مدينة نيويورك.»

فقلت وقد رافقتني إيماءة صغيرة: «أوه. نعم. هل هو بصدد التفكير في اقتناء كسب جديد مثير للاهتمام؟»

توقّف جونيوس للحظة قبل أن يجيب: «أعتقدُ أنّه يبحث عن كسب جديد بطريقةٍ مغايرةٍ»، ثم أخذ يقهقه ويقول: «لقد أوصيته بإجراء مقابلة معك لينتدبك شخصياً أمينةً لمكتبته.»

الفصل الثاني

7 كانون الأول/ديسمبر 1905

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

بينما كانت عربة برودواي تتمايل على سكك الحديد، وهي في طريقها إلى أعالي مدينة نيويورك، وبينما كانَ الظَّلام يرخي ستائرهُ اللَّيليَّة فوقَ كلِّ شيءٍ حولي، كنت سعيدة تقريباً بأنّ زيارة السيّد ريتشاردسون، في وقت متأخّر بعد الظهر، إلى مكتبي قد أجبرتني على تأجيل موعد القطار الخاص بي إلى الساعة السابعة. لقد كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل، والسماء مازالت محتفظةً بزرقتها بلا قمر يلوحُ في أعماقها، ورغم ذلك كانت مدينة نيويورك مشرقة تدبّ بالحياة. لقد كنت أشاهد الأزواج، الذين يرتدون ملابس أنيقة وأيديهم متشابكة، وأراقب الطلاب الذكور العائدين من المكتبة أو المتوجّهين إلى الحانات، وكنت أرى معهم باعة الصحف وهم يعلنون العناوين الرئيسية للأخبار في محاولةٍ لشدّ انتباه المارة وتسويق صحفهم. ورغمَ تعوُّدي على صخب الليل؛ إذ سبق لي العيشُ في مدينة نشطة لأكثر من عشر سنوات قبل أن أنزح إلى مدينة برينستون الخاملة، كانت تلك الحيوية الليلية تفاجئني في كلّ مرّة أعود فيها إلى موطني.

الموطن! هذه الكلمة كانت دائماً تستوقف كلّ أفكاري. هل مدينة نيويورك تمثّل حقاً موطني؟ لقد عشت هنا منذ أن كان عمري ثماني سنوات، لكنّ المكانِ الذي أتذكّره قبل انتقالنا إلى نيويورك هو الذي يغمرني الآن بأحرّ الذكريات.

ومع تقدّم عربة برودواي، عدت إلى الماضي، وصرت أبتسم لرؤية تلك الفتاة الصغيرة التي كنت أتخيّلها في ذهني. لقد عاد بي الزمن، فتخيّلت نفسي عندما كنت فتاة صغيرة مستلقية على العشب أمام منزل عائلتي ذي الطابقين في شارع تي شمال غربي العاصمة واشنطن. وإلى جانبَي منزلنا، سكنت عائلة ماما. وكانت الجدّة فليت تقطنُ مع الخال جيمس والخال بيليني في منزلٍ يقع إلى يمين منزلنا. أما منزل الخال موزارت وزوجته وابنهما فكان إلى اليسار. هناك، كنت أشعر دائماً بالأمن والسلامة والكمال.

لا أزال أذكر ذلك اليوم الصيفي الدافئ جدّاً، الذي رحّبت بي أثناءه ظلال وارفة في بقعة عزيزة تحت شجرة الدردار؛ ولاأزال أزعم أنّ شجرة الدردار تلك هي ملكي منذ زمن بعيد، ولا أحد يجرؤ على إنكار هذا الحق لأغلى حفيدة مدلّلة عند الجدّة فليت، ربّة الأسرة. توكّأتُ على جذع الشجرة في ذلك اليوم، وفتحت صفحة رسم، وحملت قلمي، وأخذت أرسم التداخل المعقّد لشبكة أوراق تلك الشجرة. لقد كانت الجذور تقع في الفناء الأمامي لمنزل الجدّة، لكنّ الفروع امتدت بعيداً، فتجاوزت ساحة منزلنا لتصل إلى منزل الخال موزارت. ولكن بمجرّد أن أتيحت لي الفرصة للتعمّق أكثر، وتخيّل المزيد من الخطوط والتفاصيل، سمعت ماما وهي تناديني لتناول العشاء.

لقد تجاهلت النداء مرّتين قبل أن أسقط لوحة الرسم الخاصة بي، وأرمي قلمي على العشب، وأدخل المنزل. حتى في ذلك السن (حين كنت في الخامسة أو السادسة من العمر) كنت أعلم أنّه إذا ما اضطرّت ماما إلى مناداتي للمرّة الثالثة، فإنّني سأكون قد كسرت إحدى القواعد التي تحكم سلوك كلّ فرد في عائلة فليت بأكملها؛ إذ لا يسمح لنا برفع أصواتنا، ولا أن نفعل أيّ شيء من شأنه أن يجعل أيّ صوت من أصوات الكهول يُرفَعُ علينا. وتلك كانت بعضاً من عديد المبادئ التي تربَّينا عليها وعشنا بها، فَلِتَكونَ فرداً من أفراد عائلة فليت، يفترض بك أن تكون متعلماً جيّداً (فجميع عمّاتي وأعمامي ارتادوا

الجامعة)، وينبغي لك أن تكون مجتهداً (فكل نساء عائلتنا كن معلّمات في المدارس. أما رجالنا فكانوا جميعاً مهندسين). وأفراد عائلة فليت كانوا متواضعين من حيث اللباس والمظهر، لكنّهم كانوا على صلة جيّدة بالمجتمع، ومعروفين بدماثة أخلاقهم، وموقّرين دائماً، بغضّ النظر عن المعاملة التي كنّا نتلقّاها خارج الحدود الضيّقة لعالمنا الصغير.

«ها هي طفلتي المدلّلة!» قالت جدّتي عندما رأتني، وكالمعتاد دائماً فتحت ذراعيها واحتضنتني. وبمجرّد أن لامس أنفي قماش مئزرها اشتممت رائحة لذيذة بنكهة رقائق الخميرة التي كانت تعلق دائماً بقماش ملابسها. والطريقة التي كانت تحتضنني بها جدّتي كانت تجعلني أودّ أن أظلّ دوماً في حضنها إلى الأبد.

ثم أشارت إلى الطاولة، وقالت: «اذهبي الآن، واجلسي على مقعدك.»

جلست وأخذت أستمتع بذلك الوقت المميّز من اليوم، ولاسيما أنّ بابا كان في المنزل، وهو أمر نادر؛ لأنّه كان مشغولاً طوال الوقت بالقيام بالأشياء التي لم أكن أفقهها. وبمجرّد جلوسنا حول طاولتين؛ إحداهما مخصّصة لعشرة كهول والأخرى صغيرة مخصّصة لي ولأختيّ لويز وإثيل، وأخي راسل؛ وكلافتون ابن خالنا موزارت؛ ينطلق بابا في تلاوة دعاء التبرّك، ثم ينهض ليقف، وترتفع نظّاراته معه إلى فوق، ويقول:

«من أجل عائلة فليت، ليحفظكم الربّ دائماً، ويعمّ عليكم الخير والرخاء والسلام في جنّتنا الصغيرة هذه. لأجل حبيبتي جنيفيف المدلّلة، التي هي مصدر قوّتي المستمرّة، فلتغفري لي شغفي بإنقاذ العالم، ولتعلمي دائماً كم أحبك. لأطفالي الأعزاء، الذين لن يكونوا قادرين أبداً على فهم مقدار حبّي لهم، وليشكر كلّ واحد منكم الرجل الطيّب في الأعلى بسبب جوده وفضله وسبله الغريبة في بعض الأحيان.»

ضحك الجميع، وكنتُ أضحك معهم أيضاً، رغمَ أنّه لم يكن لدي أيّ علم بالمسألةِ المضحكةِ للغايةِ في ذلك الأمر. ولكن بعد ذلك، انحنى بابا على ماما وقبّلها، وهو سلوك معتاد كان يأتيه كلّما سمحت له الفرصة بفعله. وكنت أضحك وأحجب عينيّ، على الرغم من أنّ طريقة مسك أيديهما وقبلاتهما كانت تشعرني بالدفء.

ثم أيقظني اهتزاز العربة من أحلام اليقظة، فتنهّدت وعدت إلى الواقع. لقد مرّ ما يقرب من عقدين من الزمن منذ ذلك الوقت، ورغمَ أنّنا كنّا في البداية نعود، من حين إلى آخر، إلى مدينتنا أثناء العطل، مرّت عشر سنوات منذ زيارتنا الأخيرة. أما صلتي الوحيدة بالعاصمة واشنطن الآن فهي بطاقات عيد الميلاد، التي كنّا نتلقاها جميعاً من الجدّة فليت، والرسائل التي يبعثها الخال موزارت في بعض المناسبات. ولقد اعتاد شقيق ماما زيارتنا عندما انتقلنا لأوّل مرّة إلى نيويورك. لقد كان هو وبابا صديقين حميمين، وقد استقبل موزارت والديّ، لكنّه لم يزرنا منذ وقت طويل، وكلّ ما بقي لي الآن هو مجرَّد ذكريات. ورغمَ أنّ هذه الذكريات قديمة وضبابية بعض الشيء من حيث تفاصيلها، كنت غالباً أعتزّ بكلّ ما أتذكّره، وأنا أعلم أنّ العاصمة واشنطن ستكون دائماً موطني.

اهتزّت العربة مجدّداً، فألقيت نظرة من النافذة: هذه هي محطّتي. كان لا يزال أمامي بعد النزول من العربة المشي مسافة أربع عمارات سكنية لأصل إلى شقة عائلتي. واجهتُ، فورَ نزولي، الرياح الشتوية التي كان صفيرها يحيط بكلّ الأماكن من حولي. وعلى الرغم من أنّ امتطاء عربة نقل أخرى من المحطّة المركزية الكبرى كان يُفترض أن يكون محلّ ترحيب مني في تلك الظروف القاسية، التي ناهزت فيها درجات الحرارة حالة التجمّد، لم يكن لميزانية الأسرة، بالنظر إلى الطبيعة غير المخطّط لها لهذه الرحلة، ما يسمح لي بالقيام بذلك.

ثم حاولت الحثّ في السير، لكنّ حقيبتي، التي وضعت فيها أرقى فستان عمل رمادي لي، وأحدث أحذيتي الثقيلة ذات الكعب العالي، منعتني من فعل ذلك، ثم ابتعدت عن محطّة برودواي، وانعطفت على مستوى الشارع 113 الغربي إلى أن وصلت إلى العمارة، فحاولت تحريك أطراف أصابعي المتجمّدة لفتح الباب الأمامي البني، الذي كان يحمل الرقم 507، لكنّني أدركت، حين لم يفتح، أنّ القفل كان مكسوراً مجدّداً، وأنّ المفتاح كان غير ضروري. ليتنا نتمكّن من التنقل للسكن في مكان ما يكون فيه كلّ شيء يعمل.

ثم نزعت قفازاتي في الداخل، وصعدت الدرج إلى الطابق الأوّل. وأثناء صعودي كان هناك ضوء واحد على شكل الكرة الأرضية يتدلّى فوقي؛ على الأقل لقد تمّ استبدال المصباح المكسور. ومن حسن حظّي، حين وصلت، أن مفتاحي انزلق بسلاسة ودار في قفل الباب بكلّ يسر، ثم تسلّلت إلى شقّة عائلتي.

هذا هو المكان الذي انتقلت إليه ماما وأشقّائي منذ أكثر من عامين عندما بدأ أخي الأكبر، راسل، برنامج دراسته للهندسة في جامعة كولومبيا. وقبل ذلك، عاشت عائلتي وسط المدينة في الحي الغربي؛ حيث كان أغلب الجيران الطيّبين من الطبقة الوسطى، فهو حيّ مليء بالنجّارين، وضبّاط الشرطة، والمحاسبين، وأصحاب المتاجر، في حال كانوا رجالاً. أمّا النساء، فكنّ من الخيّاطات، أو موظّفات في المهن الإدارية، أو معلّمات؛ ومعظمهنّ من أصول ألمانية وأيرلندية وإسكندنافية. لقد كان هذا الحي الجديد يعجّ بالطلاب، والأساتذة، والعاملين من جميع الخلفيات التي تخدم الجامعة، وجلّهم تمكّن من العثور على شقّة في أحد المباني الأقل تكلفة، التي تبعد مسافة ثلاثة مجمّعات سكنية من كولومبيا. هناك، واصل أخي دراساته العليا المتعدّدة في مجال التعدين والهندسة الكهربائية وهندسة البخار، وهو مسعى سيعزّز المقدرة الاقتصادية لكلّ أفراد أسرتي. نحن فخورون به بشكل لا يصدّق.

لقد توقّعت أن أجد الشقّة مظلمة، وباب غرفة النوم مغلقة طوال المساء، وأن يكون راسل نائماً على الأريكة، لمّا كان يتعيّن على جميع إخوتي النهوض باكراً؛ فلويز وإيثيل ستقصدان عملهما بوصفهنّ معلّمات، وعلى راسل الالتحاق بفصوله مبكّراً. أما أختي الصغرى، ثيودورا، فكانت مطالبة بالذهاب إلى المدرسة. لكنّني وجدت، بدلاً من ذلك، ماما وهي جالسة في الصالون على كرسيها الهزّاز إلى جانب مصباح طاولة صغيرة. لقد كانت تبدو أشبه بباقة من الأزهار سريعة التلف، مرتّبة تماماً، بكاحلين متقاطعين ويدين مكتوفتين. لقد كانت مثل زهرة، بقسمات مرهفة وجميلة؛ بوجنتين شامختين، وأنف نحيف أشمّ كنت دائماً أحسدها عليه، وشفتينِ متورّدتين. ولم تكن هناك من إشارة توحي بأنّها بعمر الخمسين سوى الخصلات الرمادية، التي كانت تغزو شعرها البني الداكن. لقد كانت ترتدي، كالمعتاد، رداء الحرير المطرّز الذي كان هديّة لها من بابا قبل أن أولد.

همستُ كي لا أوقظ راسل: «مساء الخير ماما.»

خفقت عينيها العسليتين، ثم فتحتهما، واستغرق الأمر منها لحظةً لكي تنتبه إلى وجودي، ثم أجابتني بنعاس على الرغم من أنّ صوتها كان منخفضاً مثلي: «آه. بيل ماريون، أخيراً وصلتِ إلى المنزل.»

لا بدّ من أنّني قد أيقظت ماما من سبات عميق؛ إذ لم يسبق لها أن نادتني باسمي الأوّل والأوسط، فهذا الاسم لم يُستخدم إلا في طفولتي. وماما منعت استخدام أيّ شخص في عائلتنا اسمَ ماريون منذ أن انتقلت إلى مدينة برينستون. ربما كانت تريد أن تذكّرني بأنّني بيل دا كوستا غرين.

رسمتُ قبلةً لطيفة على خدّها، ثم قلت لها: «لم يكن من الضروري أن تسهري إلى هذا الوقت المتأخّر بقصد انتظاري يا ماما.» ثم ألقيت نظرة على أخي، رغمَ أنّه كانَ متجمِّداً في مكانهِ.

«الوقت ليس متأخَراً لتحية ابنتي»، ثم سحبت ماما ساعة جيبها، وقالت: «يا إلهي. إنّ الساعة تشير إلى ما بعد الحادية عشرة ليلاً. آه. كم أكره التفكير فيك وأنت في الخارج تجوبين شوارع المدينة بمفردكِ في هذه الساعة المتأخّرة من الليل.»

«كنت آمل أن أصل في وقت مبكر، لو امتطيت قطار الساعة الخامسة مساء، لكنّني كنت مضطرّة إلى إنهاء مهمّة قبل أن أغادر. «

ردّت، وكان هناك بريق في عينيها، رغم أنّ الضوء كان خافتاً: «أنا الآن سعيدة برؤية وجهك الجميل فحسب يا بيل. ينتظرك يوم شاق غداً.»

غداً، سيكون يوماً مهمّاً لعائلتي بأكملها، فما يعود بالنفع على واحد منّا يعود بالنفع علينا جميعاً.

ثم نهضت ماما، ولحقتُ بها إلى المطبخ. وهناك جذبتْ برفق كرسيّاً من الطاولة وجلستْ، وفعلتُ مثلها، وجلستُ إلى جانبها. لقد كان المطبخ يعجّ بنا حتى وإن كنّا اثنين فقط. وكانت هناك طاولة تتسع لستة أشخاص، أمامها خزانة تكاد تلائم المكان الضيّق بين الثلاجة والموقد. لقد كانت الشقّة ذات غرفتي نوم مكتظّة بأكملها، وتبدو صغيرة جدّاً بالنسبة إلى خمسة أفراد، لكنّ إيجارها كان مناسباً؛ فراتب المعلّم، الذي كانت أختاي تجنيانه، بالإضافة إلى القليل من المال الذي كانت تكسبه ماما من ساعات تدريس آلة الكمان لأطفال المدرسة، كان يكفي لتغطية الفواتير ودفع تكاليف تعليم راسل فحسب. وكان عليّ أن أرسل ما أمكنني من مَالٍ إلى المنزل، لكن لأنّني كنت مطالبة بدفع أجرة إقامتي في غرفتي الخاصة في برينستون، لم يكن ذلك المبلغ بالكثير. خاطبتني ماما بجدّية: «أخبريني عن الاستعدادات الخاصة بك لمقابلة التوظيف.»

لقد كنت سعيدة للغاية لرؤية ماما، لكنّني انزعجت الآن من طلبها؛ لأنّ سؤالها ونبرتها تعنيان أنّني ربما لا أكون قد أعددت نفسي على ما يرام. ورغمَ

أنّني كنت أطرح علانية عدّة سنوات من عمري، حين يسألني عامة الناس عن سنّي، فأنا، في الحقيقة، أبلغ من العمر ستّاً وعشرين سنة، ولي مسيرة مهنية ناجحة، على الرغم من حقيقة أنّ أمناء المكتبات لا يجنون الكثير من المال مقارنة بالمعلّمين. ورغم ذلك، إنّ ماما لا تزال تصرّ على التحدّث إليّ كما لو أنّني كنت ابنة التاسعة عشر ربيعاً. لكن لمّا كنت تربيت في كنف لغة الاحترام، لم يتبادر إلى ذهني التعبير عن انزعاجي، فقلت:

«جونيوس...»، ثم صوّبت نفسي، فماما لن تقبل مناداته باسمه العائلي، فقلت: «أقصد السيّد الشاب مورغان، الذي ساعدني بطبيعة الحال. لقد أعطاني قائمة لمجموعة السيّد مورغان، عمّه، وقد قمت بالبحث عن أعماله الفنّية وكتبه وتحفه بعين فاحصة لا لفهرسة تلك المجموعة على النحو الصحيح فحسب، بل أيضاً للقيام بإضافات منسجمة معها. كما سبق أن درست الرسومات المعمارية للمكتبة الجديدة، لكي أتمكّن من تقديم اقتراحات حول كيفية عرض مجموعته تلك وتخزينها.»

فقالت ماما، وقد ازدادت لهجتها الجنوبية الاعتيادية شدّة، وهي إشارة إلى أنّها جادّة: «جيّد جدّاً! أنا سعيدة لسماع أنّك على استعداد لمناقشة تصميم المبنى وقائمة الممتلكات الجديدة، على افتراض أنّه سيرى أنّ مقترحاتك مفيدة بطبيعة الحال؛ لأنّه لم ينتدبك بعد. لكنّ الأمر لن يتوقّف عند هذه الأسئلة، وأنت تعلمين ذلك يا بيل.»

«ماذا تقصدين؟»

رفعت ماما حاجبها الأيمن مثلما تفعل دائماً عندما تكون قلقة أو متشكّكة، وقالت: «ماذا ستخبرين السيّد جي. بي. مورغان، حين يسألك عن مسيرتك التعليمية؟ فهو، على ما أظنّ، يستطيع أن يختار من هم أفضل أمناء المكتبات، أصحاب الشهادات العليا المثيرة للإعجاب. وستضطرين إلى إثبات ما يميّزك.»

أنا أكره الاعتراف بذلك، لكنّ ماما لديها قدرة غريبة على الإشارة إلى العناصر الرئيسية التي غالباً ما تفوتني أو قد أتجاهلها. لقد أهملت التفكير في أفضل السبل لتقديم لمحة عن مسيرتي التعلمية الرسمية؛ لأنَ وظيفة أمين المكتبة لا تلزم طالبها بامتلاك تعليم محدّد، فلم يسألني أحد عن تعليمي في السنوات الخمس التي عملت فيها في برينستون.

«سأخبره أنّني درست في كلّية المعلّمين.»

قابلتني ماما بأيدٍ مكتوفة، كما لو أنّها هي من كانت تجري المقابلة معي، وقالت: «هل أنت متقدّمة بطلب للحصول على منصب معلّم؟»

«لا. من المؤكد لا.» غالبت نفسي كي أخفي انزعاجي؛ لأنّني كنت على علم بأنّها كانت تساعدني في أن أكون على استعداد للإجابة على كلّ شاردة وواردة، لكنّ لهجتها ذكّرتني بالمحادثات التي سبق أن أجريناها قبل ستّ سنوات. كانت ماما تجادلني في تلك المناسبات، وتريد أن تقنعني بأن أسلك المسار الآمن نفسه، الذي اتخذته أختاي لويز وإثيل. لقد قالت لي حينها: «أنت في حاجة إلى مهنة مثل مهنة التدريس، التي يمكنك الحصولُ عليها في أيّ وقت، بغضّ النظر عن النكسات التي قد تواجهك.» لكن عندما أخبرتني إحدى زميلات الدراسة أنّ هناك شاغراً في مكتبة جامعة برينستون، لم أستطع منع نفسي من إجراء مقابلة بشأن ذلك الشاغر. وبعد أن حصلت على الوظيفة، أصبحت ماما تحاول استرضائِيّ أكثر.

«إذاً، لو لم تكوني أمام طلب للحصول على منصب معلم، فماذا يمكنك أن تقولي بدلاً من ذلك؟»

لقد كنت خالية الذهن، لكن بعد ذلك خطرت في بالي فكرة فقلت: «أعلم بالضبط ما سأقول؛ سأقول إنّ الزمن، الذي قضيته في جامعة برينستون، يُعدُّ أفضل مرحلةٍ تعليميّة لي في العالم.»

ضحكت ماما معبّرةً عن سرورها، ثمّ ضغطت بأصابعها على شفتيها كي لا تزعج راسل النائم على الأريكة، وقالت: «حسناً. إذا كان ذلك لا يُعدُّ من قبيل إيلاج الجمل في سم الخياط، فأنا أعلمك أنّني لست على دراية بما تقصدين.» ثم همست وأضافت: «لكنّه عين الصواب والكمال. ولمّا كان السيّد الشاب مورغان سيكون هناك، فإنّه سيطرب لسماعه ذكرك اسمَ جامعته الأم، ومن ثمَّ سيمدحك أكثر أمام عمّه.»

فأومأنا إحدانا إلى الأخرى في إشارة تأييد، إلا أنّ حاجب ماما اهتزّ مجدّداً، فقالت: «وماذا لو سألك عن أساتذتك والتدريب الخاص الذي تلقيته في جامعة برينستون؟ أعني بذلك مسيرتك «التعليمية»، كما وصفتِها؟ فجامعة برينستون، في نهاية المطاف، هي جامعة للرجال.»

استعدت مجدّداً توازني، ووجدت نفسي أتحدّث استناداً إلى أرضية آمنة، فقلت: «سوف أصف له التدريب الشامل، الذي قدّمه لي السيّد ريتشاردسون، رئيس أمناء المكتبة، والتوجيهات التي أسدتها إليّ الآنسة شارلوت مارتينز، أمينة المكتبة المسؤولة عن قسم الشراءات. وبطبيعة الحال، لو مارس عليّ ضغطاً أكبر فلن أنسى ذكر تربُّصاتي المهنية التي استفدت منها داخل نظام مكتبة نيويورك العامة، ودروس الببليوغرافيا التي تلقيتها في معهد أمهيرست الأعلى في صلب مكتبة فلتشر أثناء المدرسة الصيفية.»

«ممتاز يا عزيزتي!» تنفّست الصعداء فأطلقت ما يشبه الصفير الخافت، وقالت: «تخيّلي فرصة العمل مباشرة مع السيّد جي. بي. مورغان. إنّه الرجل الأكثر أهمّية في نيويورك، بل ربما يكون أعظم رجل في البلاد بأسرها.» ثم هزّت رأسها في إيحاء بأنّها متشكّكة، فآمنت بأنّ مقابلتي مع السيّد مورغان ستكون، بعد استجواب ماما، يسيرة. وعلمت ما ستقوله حتى قبل أن تفتح فاها للتحدّث مرّة أخرى. وبدأت حديثها كما لو أنّها كانت تودّ مجدّداً لا شرح وجهة نظرها فحسب، بل إقناعي أيضاً فقالت: «هذا هو بالضبط السبب

الذي جعلنا نختار هذا المسار. لا يجدر أبداً بشابة سوداء البشرة تدعى بيل ماريون غرينر التطلّع إلى نيل وظيفة عند السيّد جي. بي. مورغان. فقط فتاة بيضاء البشرة تسمى بيل دا كوستا غرين ستحظى بهذه الفرصة.»

لقد أثارت كلماتها عبق الماضي على نحو مفاجئ، فشعرت كما لو أنّني لم أعد امرأة ناضجة، بل مجرّد فتاة تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً. وعادت بي الذكرى مجدّداً إلى ذات مساء باكر، كان في وسعي أثناءه أن أشمّ رائحة الخبز الدافئ، وأن أنتشي برائحة حساء الدجاج. لقد انتقلنا من العاصمة قبل نحو عشر سنوات، حين حصل بابا على وظيفته الجديدة في جمعية معلم غرانت التذكاري، وخبرت طرق الاستمتاع بالمدينة ولاسيما أنّ شقّتنا كانت تقع في الشارع الغربي عدد تسعة وتسعين، بالقرب من حديقة سنترال بارك. لقد غمرتني السعادة العارمة أنا وإخوتي عندما انتقلنا إلى السكن في فضاء فسيح فيه أربع غرف نوم يتفرّع منها ممرّ طويل يقود إلى غرفة المعيشة من ناحية، والمطبخ وغرفة الأكل من الناحية أخرى. لقد شعرنا حينها بأنّ المنزل كبير بحجم حديقة سنترال بارك.

كنت جالسة في تلك الليلة، وأمامي طاولة المطبخ، أساعد تيدي في القيام بواجباتها المنزلية، حين قاطعنا صدى صراخ. لقد خلت أنّ الضجيج العالي صادر من جيراننا الذين يقطنون المنزل المقابل لنا، وهو منزل يسكنه تاجرٌ برفقةَ زوجته وأولاده الخمسة، الذين كانوا يحدثون الكثير من الجلبة من حين إلى آخر.

ثم سمعت صوت والدي المدوي وهو يستشيط غضباً: «كان يتحتّم عليّ أن أعرف منذ البدء أنّ هذا كان هدفك. وكان لزاماً عليّ أن أدرك أن هذا كان كلّ ما تريدينه. بل كان ينبغي لي أن أعرف ذلك منذ اللحظة التي اخترت فيها هذا الحي، ومنذ اللحظة التي التجأتِ فيها إلى تضليل المالك للحصول على هذه الشقّة.»

فردّت أمي، التي كانت متعوّدة على الهمس، بصوت عالٍ بمستوى صوت أبي نفسه: «كل ما قمت به كان من أجل أطفالنا.»

وسماعهما يتحدّثان بتلك الطريقة كان صادماً لي. بطبيعة الحال، لقد لاحظت أنّ نظرات العشق بينهما قد قلّت بمرور السنوات، وأنّ مصافحة أيديهما قد نقصت، وغابت عنهما القبلات المسروقة. وازداد منسوب التوتّر بينهما، لكنّني افترضت أنّ سبب ذلك يعود إلى أنّ أبي كان يحتاج إلى رفع صوته، في كثير من الأحيان، أثناء جمع التبرّعات لجمعية معلم غرانت التذكاري، وأثناء إلقاء الخطب الداعمة للمساواة في الحقوق بين البيض والسود، لكنّني لم أسمعهما يرفعان أصواتهما قط، فأفراد عائلة فليت لا يصيحون أبداً.

وبقيت متسمّرة إلى أن تململت تيدي في كرسيها. وحين نظرت عبر الطاولة اكتشفت أنّ أختي ذات السنوات العشر كانت ترتجف واضعةً مرفقيها على الطاولة، وتصمّ آذانها براحتيها، فسارعت إلى معانقتها، ثم تسلّلت خارج غرفة الأكل عبر الممرّ، واقتربت من مصدر الصوت أسترق السمع كي يتسنّى لي سماع والديّ بوضوح أكثر.

استمرّ أبي في تقريعه قائلاً: «ثمّ أتى دور دخول الأطفال إلى المدارس، فرغبتِ في التحاقهم بمدارس البيض.»

فصرخت أمي في وجهه قائلة: «لأنّني أريد لهم تعليماً أفضل.»

«لا يا جنيفيف، إنّ العيب يكمن فيك، فهذه هي الحياة التي كنت ترغبين فيها دائماً.»

فارتعش صوت أمي من وقع الانزعاج، وقالت: «كيف تجرؤ على قول ذلك لي؟ لم يكن ذلك ما أردت، بل كان ما يتوجّب عليّ القيام به. فأنا فرد من أفراد عائلة فليت؛ وأنا فخورة بتقاليدهم.»

فضحك أبي بمرارة، وقال: «تقاليدكم! آه نعم. أنت سليلة عائلة فليت العظيمة. أما أنا فمجرّد حفيد لعبد. أنت متزوّجة من رجل ينتمي إلى عائلة غرينر، رجل أقلّ بكثير من مستواك في الحياة.»

«ريتشارد. من فضلك لا تقل ذلك. أنت تعلم كم أحبّك.»

«وهل تحبينني فعلاً؟»

«نعم أحبّك، وأنا أعلم أنّك تحبّني؛ ولهذا السبب أريدك أن تتفهّم. أنت تتهمني بالتمادي والابتعاد عمّا أنا عليه، وهذا ليس ما أفعله.»

«نعم أنت على حق.»

ثم سمعت حفيف بعض الأوراق الذي تلاه صراخ والدي: «وهذا هو الدليل. لقد أبلغتِ عمّال التعداد والإحصاء أنّنا ننتمي إلى عرق البيض.»

لقد كان والدي يستشط غضباً، لكنّني لم أفهم مبرّر غضبه؛ فأي فرقٍ سيُحدِثه إبلاغُ ماما عمّال التعداد بلون بشرتنا لمّا كانت بشرتنا فاتحة مثل أيّ شخص يعيش في منطقتنا؟ بل كنا أكثر شقرةً من المهاجرين الذين وصلوا حديثاً، ورأيتهم في مانهاتن السفلى؛ أعني هؤلاء الذين ينحدرون من أصول إيطالية ومتوسطية، ويرونهم على أنّهم ذوو بشرة بيضاء، على الرغم من أنّها من أدنى نوع من اللون الأبيض. لقد كان مؤكّداً لديّ أنّ بابا كان لا يريد منّا أن نعيش في الأحياء التي كانت تعجّ بالسود، من قبيل حي النقاط الخمس، أو قرية غرينتش، أو حي تندرلوين أو هارلم. لقد كانت الأحوال في بؤر الجرائم تلك غير صحّية، وعادةً تكثر فيها الأوبئة والأمراض بانتظام؛ إذ لم يكن لدى بعض المنازل حتى المراحيض أو المياه الصالحة للشرب.

إذاً، أين يكمن الضرر في إبلاغ أنّنا من البيض لمّا كنّا نعيش مثل البيض؟

وبعد تلك الحادثة، لم تتم مناقشة تلك القضية مطلقاً. على الأقلّ لم تناقش بين الأطفال. لقد تعلّمت، منذ فترة طويلة، من بين العديد من دروس

آداب عائلة فليت، أنّ مسائل من قبيل العرق، والسياسة، والدين، لا يجب أن تناقش أبداً في الأماكن العامة، بل حتى على نطاق خاص، إلا في حالات نادرة.

ثم استعادت ماما طبيعتها في الكلام بالهمس، فأصبحت كلماتها مكتومة، ولم أستطع تمييز أيّ شيء بوضوح منها، إلى أن تكلّم بابا مجدّداً: «لماذا لا تفهمين -يا جنيفيف- أنّ لذلك تداعيات هائلة؟ لقد حوّلتِ وضعنا رسمياً إلى بيض، بعد كلّ الجهود التي بذلتها للدفاع عن حقوق السود وأصحاب البشرات الملوّنة في المساواة، وبعد كلّ المشاق والصعوبات التي اعترضتني في مرافعاتي في المحاكم، ومقالاتي في الصحف والمجلات، والخطب التي ألقيتها في المنابر منادياً بأنّه يجب معاملة جميع المواطنين على قدم المساواة، سواء أكانوا سوداً أم بيضاً أو ملوّنين، وأنّه لا ينبغي تعريفنا من خلال عدد قطرات الدم الأفريقية التي تجري في عروقنا، بل من خلال شخصياتنا وأفعالنا، وأنّه لا ينبغي علينا أن نخجل من أصولنا، سواء أكنا من السود أم من أصحاب البشرات الملوّنة، بل يجب أن نوحّد جهودنا في معركتنا ضدّ الميز العنصري. إنّ فعلك هذا يتعارض مع كلّ مواقفي، ويتعارض مع كل أفعالي.»

ثم سمعت صوت تأفّف وبصاق، فهل صدر ذلك عن أبي؟ كيف يكون في وسع رجل شهير بمهاراته الخطابية؛ مثل ريتشارد غرينر، أوّل خريج دراسات عليا في جامعة هارفارد من ذوي البشرة الملوّنة، والأستاذ السابق في جامعة كارولينا الجنوبية، والعميد السابق في جامعة هوارد للقانون، الذي كان يلقي الخطابات في جميع أنحاء البلاد؛ أن يعجز عن الكلام؟

«أَلم تستوعب -يا ريتشارد- أنّني دائماً أختار ما هو أفضل بالنسبة إلينا جميعاً؟ ولاسيما هنا في نيويورك؛ فهذه المدينة ليست مثل حيّنا المحميّ في موطننا. حتى هناك، القوانين بصدد التغيّر. لم تعد العاصمة آمنة، وأتصوّر أنّ التأقلم والاندماج هنا سيمنحان أطفالنا أفضل الفرص.» لقد كان صوتها هادئاً

وواضحاً الآن، كما لو أنّها لم تتأثّر بكل المناورات الخطابية أو المقدّمات المنطقية التي صدرت عن أبي.

لكنّني لم يسبق لي رؤية أبي وهو يردّ بمثل ذلك الغضب حين أجابها: «التأقلم؟ لكنّك بهذا الفعل لست بصدد التأقلم. أنت لا تحاولين الاندماج هنا؛ لأنّك بتقديم تعليم أفضل لأطفالك، واستئجار أنظف أماكن الإقامة لعائلتك، تحاولين أن تكوني بيضاء! هل تدركين أنّ ما فعلته هو السبب الذي جعل الناشطين السياسيين من زملائي يتجنّبونني؟ أَلا تستوعبين أنّ أفعالك هي الأسباب التي جعلت مَن هم من أصحاب البشرة الملوّنة في مكتب الحزب الجمهوري في شيكاغو يراجعون قرار انتدابي لتغطية حملة الانتخابات الرئاسية للسيّد ماكينلي؟ لقد ذاعت الشائعات، التي تقول إنّني أقيم في حيّ للبيض، وإنّني أعمل حصرياً مع البيض في جمعية معلم غرانت التذكاري، محاولاً بذلك تجاوز حدود لون البشرة. إنّهم يعتقدون أنّني أصبحت ليّناً مع البيض، وأنّني تخليت عن بني جنسي. ولو بلغ خبر إدراجنا بوصفنا بيضاً في قائمات الإحصاء، أو في أي وثيقة تعداد، مسامع أيّ شخص، فإنّه سيتّهمني بالخيانة، ولا أحد سينتدبني أو حتى يسمح لي بالتكلّم أو الكتابة عن القضايا العرقية مرّة أخرى. وتلك الأعمال هي مصدر حياتي يا جنيفيف.»

فأجابته ماما مجدّداً بصوت مرتفع: «يجب أن تكون العائلة دائماً في المقام الأوّل يا ريتشارد. لا بد من أن أكون أنا وأطفالك في أعلى أولويّاتك.»

فأجابها أبي، وكان صوته يشبه الولولة: «ومتى ستدركين أنّنا جزء من عائلة أكبر يا جنيفيف؟ ألسنا ننتمي إلى مجتمع أصحاب البشرة الملوّنة؟ يجب أن يكون لديك الفخر نفسه بذلك الانتماء، مثلما تفتخرين بكونك تنتمين إلى عائلة فليت، ويجب أن تفهمي مدى أهميّة أنّ تترعرع تلك العائلة جنباً إلى جنب مع عائلتنا.»

لقد كان بابا أشقرَ ذا بشرة فاتحة جدّاً إلى درجة أنّ الناس كانوا يظنّون، في كثير من الأحيان، أنّه أبيض، رغمَ أنّ كلامه وأفعاله كانت تقول العكس. لا بدّ من أنّه كلّف نفسه جهداً لبلوغ تلك الدرجة؛ لأنّ نبرة صوته كانت منتظمة. ورغمَ ذلك، ها هو لا يزال يرفع صوته على أمي قائلاً: «إنّ إبلاغك عن نفسك وعن أطفالنا أنّنا بيض يشبه إدارة ظهرك لشعبك، وإدارة ظهرك لنفسك»، ثم توقّف عن الكلام برهة طويلة من الوقت قبل أن يتكلّم مرّة أخرى، لكنّه عندما فعل ذلك، كان يكاد يهمس: «والأهم من ذلك كلّه إدارة ظهرك لي.»

فصدر عن شفتي أمي ما يشبه النحيب، وقالت: «لقد انتهت معركة كفاحك من أجل المساواة يا ريتشارد. لقد خسرتها وخسرناها جميعاً منذ خمسة عشر عاماً خلت عندما ألغت المحكمة العليا قانون الحقوق المدنية، الذي من شأنه أن يعطي جميع الأشخاص السود وأصحاب البشرات الملوّنة المساواة في الحقوق التي نستحقّها. ورغم ذلك تواصل التفكير في أنّ شيئاً ما سيتغيّر إلى الأفضل. إلا أنّ زمن الأمل قد أصبح في عداد الماضي؛ والأمور ستزداد سوءاً؛ فلا يوجد سوى السود والبيض، ولا لون بينهما، وسيظلّون دائماً منفصلين، وغير متساوين إلى الأبد، وسيتكفّل التمييز العنصري بذلك.»

أجابها بابا، وقد صاحبت صوته نبرة استسلام: «قد يكون هذا صحيحاً يا جنيفيف، لكنّ هذا لا يعني أنّنا يجب أن نستسلم، بل يجب أن نستمرّ في النضال، وإثبات ما نحن قادرون عليه.»

«لا أوافقك في ذلك. لقد حان وقت الاستسلام؛ فالقوى التي تعارض المساواة كبيرة جدّاً، ولا يمكننا التغلّب عليها، لكنّ عائلتنا لها ميزة خاصة، فبشرتنا فاتحة يا ريتشارد؛ إنّها هديّة وهبها الله لنا.»

فأجابها، وقد بدت عليه علامات الهيجان: «وهل تعتقدين أنّ لون بشرتنا الفاتح هديّة من الرَّب؟ أَلم يسبق لك التفكير في السبب الذي جعلنا نكون

فاتحي البشرة؟ أَلم يخطر في بالك أنّ السبب يكمن في العنف الذي سلّطه البيض على أسلافنا؟»

لقد تعجّبت من وقع كلامه؛ لأنَ كلماته هزّتني. لقد كنت أعرف، بطبيعة الحال، مثلَ تلك الأمور، لكن لا أحد كان يجرؤ على التعبير عنها بصوت صادح في منزلنا.

إلا أنّ ردّ ماما كان قاسياً حين قالت: «حريٌّ بنا في هذا البلد، بوصفنا أشخاصاً أصحاب بشرة ملوّنة، توظيف كلّ ميزة. لقد منحتنا بشرتنا الفاتحة اختياراً لا بدَّ لنا من استغلاله.» ثم توقّفت عن الكلام للحظة قبل أن تعلن: «لقد اخترت اللون الأبيض لأطفالي ولنفسي، ولا أستطيع أن أتّخذ هذا الاختيار نيابة عنك يا ريتشارد، لكن من فضلك اتّخذ هذا الخيار معي، قم به لأجلنا ولأجل أطفالنا.»

لقد اخترق توتّرهم هدوء المكان، وانتشر ليصل إلى غرفة المعيشة، والمطبخ، ليستقرّ في أذنيّ، فكتمت أنفاسي إلى أن سمعت صوت صدى خطوات شديدة تعبر المدخل؛ حيث مرّ بابا أمام غرفة الأكل في لمح البصر. لقد كان خياله يشبه خليطاً من الألوان الرمادية والسوداء والعاجية. أما ملابسه فلم يكن من الممكن تمييزها عن لون بشرته، ثم فُتح الباب الأمامي، فسمعت صريره، ثم أُغلق بعنف ترك فيّ مزيجاً من الارتباك والغضب والشوق الطفولي ظلَّ عالقاً في مخيّلتي.

وباتخاذ ذلك الفعل، تمّ الأمر، ولم أعد أسَمَّى بيل ماريون غرينر، ابنة المحامي ريتشارد غرينر؛ ذلك الرجل المدافع عن المساواة، وعاشر عضو موهوب في البلاد، ولم أعد أنسب إلى جنيفيف فليت غرينر، التي كانت تُعدُّ من نخب العاصمة واشنطن، ونخب مجتمع الأحرار من أصحاب البشرة الملوّنة. لا لم أعد كذلك؛ لأنّني، بعد زمن غير بعيد من تلك الحادثة، قبلت قرار والدتي كما لو أنّه كان القرار الخاص بي، وأصبحت المرأة البيضاء المعروفة باسم بيل دا كوستا غرين.

الفصل الثالث

8 كانون الأول/ديسمبر 1905

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

سألت جونيوس، أثناء مرورنا برسم مشكّل على نحو رائع: «هل هذا العمل لرامبرانت؟»

لقد كانت لوحة بورتريه ذهبية برّاقة لعجوز اشتعل رأسه شيباً، مركونةً فوق كومة من الكتب، من بين العديد من الأكوام الأخرى المنتشرة فوق الأرضية الرخامية المرصّعة بشكل معقّد، تحت قبّة القاعة المستديرة. وكان يتعيّن عليّ تخطيها لكي أتبع خُطا جونيوس، وهو يعبر المدخل الكبير. لقد أخبرني جونيوس أنّ السيّد مورغان كان لديه في مجموعته أكثر من مئة وخمسين لوحة لرامبرانت، تمّ شراؤها في عام 1900 من أحد جامعي التحف واسمه ثيودور إيروين، إلا أنّ تلك البورتريه لا يمكن أن تكون إحداها، فلا أحد يجرؤ على ترك إحدى القطع الفنّية، التي لا تقدّر بثمن، مرمية على الأرض.

أخذ جونيوس يتفحّص خربشات الرسم، ثم أصدر قهقهة بصوتٍ لم أكن لأصدّق أنّه يمكن أن يصدر من محبّ للتحف الفنية القديمة، وقال: «أعتقد أنّ اللوحة لرامبرانت فعلاً يا آنسة غرين. الخال بيربونت فحسب يمكن أن يرمي رسوم رامبرانت على الأرض، كما لو أنّها كانت إحدى الصحف الصادرة أمس.» وجونيوس كان ينتهز كلّ فرصة للإشارة إلى السيّد مورغان على أنّه الخال بيربونت المألوف؛ بالفعل جونيوس هو الشخص الوحيد في العالم،

الذي يستطيع أن ينادي عملاق الصناعة بالاسم الذي يفضّله (بيربونت) بدلاً من مناداته باسم جي.بي. مورغان.

ثم دخلنا مكتبة السيّد مورغان الجديدة عبر مجموعة من الأبواب البرونزية المزخرفة بشكل خرافي، التي تفتح على الشارع السادس والثلاثين. لقد أذهلني البذخ المفرط للمدخل المستدير؛ حيث تمّ، بحسب رواية جونيوس، تصميم الجدران والأرضية الرخامية على غرار حدائق الفاتيكان، وازدانت بالألوان ذات الظلال المختلفة من الرخام واللازورد. لقد كانت لوحات الشخصيات الكلاسيكية، والجِرَار، وزخرف أوراق نباتات الأقنثة وهي تزيّن السقف الجصي الأزرق والأبيض، الذي يقبّب ثلاثة طوابق مذهّبة ترقى من أعلى القاعة المستديرة، على الرغم من أنّ الدرج لا يزال قائماً في إحدى الزوايا غير المكتملة. وحتى إنّ كان مدخل مكتبة بيربونت مورغان غير مكتمل فإنّه خلّاب ويقطع الأنفاس.

ثم سمعت صوتاً يشبه دمدمة الرعد جاب صداه كلّ أنحاء القاعة المستديرة، يرتدّ من عمود إلى عمود كما لو أنّ برقاً كان يبحث عن شيء ما ليصعقه. لقد جزعت وتساءلت عن مصدر الصوت؛ فالأبواب الثلاثة، التي تؤدي إلى المدخل من الشرق والغرب والشمال، كانت مغلقة.

فالتفت جونيوس، ونظر إليّ، وقال: «لا داعي للقلق -يا آنسة غرين- انّه العم بيربونت.» لكنّ القلق تمكن مني، فمقابلة رجل ثريّ يُعدّ من بين أقطاب صناعة الصلب والسكك الحديد والكهرباء، ويُقال عنه إنَّهُ مزاجي، تحتاج إلى رباطة جأش، وأنا كنت آمل أن أجده في حالة نفسيّة حسنة. ومع استمرار دويّ الصوت، أدركت أنّه يصدر من وراء الباب الغربي؛ حيث يقع مكتب السيّد مورغان على ما أعتقد، ومن المؤكد أنه يشير إلى أنّ الرجل لم يكن في مزاج جيّد.

ثم انفجر الصوت قائلاً: «كم مرّة أخبرتك أنّني لا أريد أن أرى أيّ أوراق متعلقة بصناعة الصلب الأمريكي أثناء وجودي هنا في المكتبة!»

تلا ذلك الصوت غمغمةٌ جعلت الكلمات الصادرة عن رجل آخر معه في المكتب غير مفهومة، قبل أن يرتفع الصوت المدوّي مرّة أخرى: «لا بدّ من الاحتفاظ بتلك الوثائق في مكتبي في وول ستريت، إلا في حال طلبتها.»

وبينما كنا ننتظر انتهاء تلك الخطبة المدوّية، انتابني الشكّ فيما إذا كنت أرغب حتَّى الآن في إجراء تلك المقابلة. لم أستطع تخيّل العمل لدى رجل يتحدّث إلى أيّ شخص بتلك الطريقة. وأخيراً، فتح الباب، وخرج رجل أصلع طويل القامة لم ينظر في اتجاهنا، وأكاد أكون رأيته، على أيّ حال؛ لأنّ القلق كان يساورني بمجرّد أن ألقيت أوّل نظرة على مكتب السيّد مورغان العظيم ذي الطابقين.

لحقت بجونيوس، وفي الداخل تغافلت للحظاتٍ عن توتّر أعصابي من عظمة ما رأيت أمامي؛ فالمكان، إلى حدّ كبير، لم يكن بالفوضى العارمة السائدة في القاعة المستديرة في الخارج، ما عدا تناثر القليل من أكوام الكتب المجلّدة على ما يبدو، والخارجة من ثغرات بعض رفوف خزانة الكتب المحيطة بالغرفة، وتمثالين للسيّدة مريم العذراء متكئين على الجدار بشكل خفي؛ إذ لا يستطيع أيّ أحد ملاحظتهما. ومن الصعب ملاحظة أيّ شيء سوى الجدران المغطاة بالحرير القرمزي النابض بالحياة. واللون القرمزي لم يكن يطغى على الجدران فحسب، بل هو مهيمن أيضاً على أريكة مخملية، وعلى الكراسي ذات الجناحين، والنوافذ ذات الحواف الرخامية، وحتى على الكرسي المهيب المزخرف مثل العرش، الذي كان يرأس من خلفه السيّد مورغان مكتبه. والغرفة كانت تنبض حقّاً باللون الأحمر القاني، الذي جعلني أشعر بتشوّش في الذهن، إلى أن وقفت أمام الرجل الذي كان وسط الغرفة يدخّن السيجار.

إنّه السيّد جي بي مورغان وهو متكئ على حافة مدفأة كبيرة كانت تلائم عظمته. لقد كان يحدّق فينا من تحت حاجبيه الغليظينِ والسوداوينِ، بعينين برّاقتين ثاقبتين مثل بريق السيف المصقول بنظرة شديدة جعلتني لا ألاحظ أنفه الفظيع شبه البصلة الذي جعله محور اهتمام عدد لا يحصى من الرسوم الكاريكاتورية السياسية عنه.

لم أكن أتصوّر أنّ الاختلاف بين السيّدين مورغان سيكون لافتاً. قد يكون التفاوت بينهما في مواقف أخرى هزلياً ومثيراً للضحك، فالسيّد الشاب مورغان نحيل ومتوسّط الطول؛ أما السيّد مورغان الأكبر، فمترهّل الصدر وطويل القامة بشكل لافت للنظر، لكنّ الموقف الذي وجدت فيه نفسي لم يكن يحتمل الفكاهة؛ لأنّ الكثير من مستقبلي كان على المحك.

ثم عدّل جونيوس صوته قبل أن يتحدّث، وقال: «عمي بيربونت. إنّه لمن دواعي سروري أن أقدّم لك الآنسة بيل دا كوستا غرين.»، وأشار إليّ، وعلامات الفخر كانت بادية عليه.

فابتسمت، وأمسكت بطرفي تنورتي، وقمت بنصف انحناءة تحيّةً وفقاً لتقاليد الآداب التي كنت قد تدرّبت عليها في ذلك الصباح؛ حيث ألقت أمي عليّ محاضرة بشأن النقاط الدقيقة للسلوك، الذي قد يتوقّعه ذلك السيّد مني. فتمايل رأس السيّد مورغان صوبي، إلا أنّه لم يكن مستعداً للتعرّف إليّ. بدلاً من ذلك، التفت إلى جونيوس، وقال: «هل تسنّت لك الفرصة للقيام ببعض الأبحاث بشأن لوحات رامبرانت، التي عرض بيعها عليّ السيّد فاندربيلت؟»

«بلى. فعلت يا عمي بيربونت.»

«حسناً. كلّي آذان صاغية. لا أستطيع أن أعدك بأنّ بحثك سيجعلني أرغب في قبول عرضهم، لكن، كما تعلم، أنا دائماً على استعداد للاستماع»، ثم بدأ السيّد مورغان يجوب مكتبه الواسع جيئةً وذهاباً بسرعة هائلة.

وبينما كان العم وابن أخيه يناقشان محاسن مجموعة السيّد جورج فاندربيلت المكونة من 112 رسماً لرامبرانت، كنت أتأمّل السيّد مورغان الكبير لاستكشاف حقّ قدر الرجل. وبغض النظر عمّا سمعته عن فظاظةِ سمعته، ورغمَ صُراخهِ الذي شهدته للتو، كان السيّد مورغان مهذباً مع جونيوس، بل أعتقدُ أنَّهُ كانَ مهتمّاً به طوال فترة تلاوته الطويلة لما وجده في أبحاثه.

وقال جونيوس: «يا عمي. أعتقد أنّ رامبرانت يلتقط الكثير من التفاصيل الإنسانية في موضوعاته، التي يعالجها في رسومه، أكثر من تلك التي يعبّر عنها في لوحاته الزيتية، ومن ثم، إنّ تلك الخربشات ذات قيمة فريدة، بغضّ النظر عن قيمتها المالية.»

وبدا المللُ ظاهراً على السيّد مورغان بسبب تأمّلات ابن أخيه الطويلة، ثم توقّف عن الإنصات، والتفت إليّ من خلف مكتبه، ونفث دخان سيجاره، وقال: «دعني ألقي نظرة على الآنسة غرين التي جلبتها لي يا جونيوس.»

حينها سمعتُ صوت ماما يتردّد في الغرفة كما لو أنّها كانت معنا، وهي تقول: قفي باستقامة، بكتفينِ شامخينِ، ونظرة ثابتة لا تتزعزع. وطبّقت توجيهات أمي حرفياً حين صرت تحت أنظار السيّد مورغان، وأعدت التحديق فيه. لا بد من أن يفهم السيّد أنّني لست خائفة. وبغضّ النظر عمّا يعتقد أنّه بصدد رؤيته، على غرار لون بشرتي، أو حجم أنفي، الذي يبدو أكثر اتساعاً من إخوتي، ينبغي له أن يعتقد أنّني امرأة بيضاء، واثقة ومعتدّة بنفسي ومؤهّلة.

ظلّ السيّد مورغان يحوم حول مكتبه، وأنا صامتة، إلى أن وقف أمامي، ثم أمسكني وجعلني ألفُّ ببطء على شكل دائري، كما لو أنّهُ كان بصدد تقييم لوحة فنّية مزخرفة ثمينة. أما أنا فظللت أكرّر كلمات ماما في ذهني، محافظةً على هدوئي الذي ينمّ عن ثقة في النفس أمام ما يقوم به من فحص؛ لأنّ ذلك كان جزءاً من الاختبار.

ثم قال بينه وبين نفسه: «إنّها صغيرة جدّاً.»

وهذه ملاحظة كانت واضحة للعيان إلى حدٍ ما؛ فهو كان أطول مني بمقدار قدم، وله يدان ضخمتان جدّاً يمكن لإحداهما أن تغطي خصري.

لكنّه عندما وقف أمامي مجدّداً، أخذ يحدّق فيّ، على الرغم من أنّ زاوية فمه كانت تتجّه إلى الأعلى تحت شاربه، وقال: «يا لهما من عينين استثنائيتين! رماديَّتينِ بمزيج ظلال فيه من سواد الدخان ومن لون الفضّة. إنّهما جذّابتانِ وساحرتانِ جدّاً!»

لم أجبه، فما عساي أن أقول؟

ثم قال مجدّداً: «يا له من جمال حقيقي!» لقد كان يتحدّث كما لو أنّه كان يقيّم عملاً فنّياً، وليس مؤكّداً لدي ما إذا كان زير النساء الشهير هذا ينظر إليّ من زاوية أنّني امرأة، أو من زاوية أنّني أمينة مكتبة. أمّا تعليقه فلم يكن يحتاج إلى أيّ ردّ، لذلك اكتفيت مرّة أخرى بالصمت. ولكن السيّد مورغان أضاف بعد ذلك: «دا كوستا! إنّه لقب استثنائي.»

فأجبته، وأنا أكرّر الجملة التي تدرّبت على قولها في المنزل: «إنَّهُ لقب عائلتي، فجدّتي من أصول برتغالية.»

«آه!» ثم أومأ برأسه، إلا أنّ عينيه ظلّتا مثبّتتين عليّ، فأخذت أستنشق الهواء بهدوء كي أحافظ على تركيزي وثقتي في مواجهة دقّة مراقبته لي.

ثم ابتعد عني فجأة، وقال: «لقد سمعت وجهة نظر جونيوس بشأن تلك الرسومات، لكنّني أودّ أن أسألك عن وجهة نظرك أنت يا آنسة غرين. فما رأيك في اقتناء مجموعة رسوم رامبرانت التي في حوزة فاندربيلت؟»

فتنفست الصعداء بسبب التحوّل المفاجئ في مجرى الحديث، وإتاحة الفرصة لي كي أثبت خبرتي للسيّد جي بي مورغان. وقمت بتجميع كلّ قواي، محاولةً ذكر محتوى ما أعرفه من ملفات شافية وضافية عن الموضوع كانت

لا تزال عالقة في ذهني، فقلت: «لقد قام رامبرانت بإعداد جميع قوالب طباعة الرسوم بنفسه، على عكس معاصريه، وشمل ذلك نقش الخطوط على لوحة النحاس بالإبر المختلفة، وغمر تلك اللوحة بالمواد الكيميائية اللازمة بعد ذلك. لقد كان يعتقد أنّ النقش يجب أن يكون أداة فنّية مهمّة، وليس مجرّد وسيلة سهلة لنشر لوحاته الزيتية الأكثر تكلفة، كما فعل معظم معاصريه. ومن هذا المنظور، إنّ نقوش رامبرانت تُعدُّ تحفاً فنّية قُدّت بأنامل عبقري مبدع أشرف عليها بنفسه، وفيها مجموعة ضخمة من الموضوعات التي تُعدّ أعظم من أكثر لوحاته الزيتية الشهيرة.» وهنا توقّفت عن الكلام لبرهة من الزمن، ثمّ أضفت: «تلك النقوش رائعة، وستزدان بها مكتبة بيربونت مورغان، بل ستكون بفضلها أروع، هذا في حال منحتموني منصب أمينة للمكتبة.»

وعلى إثر ذلك الكلام، رأيت جونيوس، الذي كان في محيط بصري، وهو ينتفض. أما السيّد مورغان، فكان مهتمّاً بي حدّ الإعجاب، وبعد مرور لحظة طويلة، شعرت بأنّه يراني بكلّ تفاصيلي. ثمّ اهتز شاربه، فرأيت ملامح ابتسامة من تحت أنفه المنتفخ المشوّه، وعلى إثر ذلك نزل شاربه الأسود الكثيف إلى الأسفل. ذكّرتني ملامح ابتسامته والثقة العارمة التي كانت تعتريه بوالدي. كنت على وشك الالتفات إلى السيّد مورغان، بعد أن أحدث ذلك التشابه العابر سكينةً في داخلي، إلا أنّ وجهه تقلّب، ولاحظت عليه نوعاً من التوتّر العاصف.

ثم ألقيت نظرة على جونيوس، الذي كان متجمّداً في انتظار حكم عمّه. فذكّرت نفسي بأنّ جونيوس يمثّل حليفي، ويمكنني أن أجرؤ فأقول إنّه صديقي، وإنّ من الأهمية بمكان أن أعيد ترتيب أفكاري لتتناغم مع أفكاره، وأن أظهر التقارب في وجهات نظرنا، فقلت: «دعني أردّد صدى المشاعر نفسها، التي عبّر عنها السيّد الشاب مورغان، لأقول إنّكَ في حال اقتنيت مجموعة السيّد فاندربيلت، ستمتلك أكبر مجموعة رسومات لرامبرانت في

العالم. وعند عرضها معاً ستمنح العلماء وجامعي التحف فرصةً غير مسبوقة لدراسة تطوّر أسلوب هذا الرسّام العظيم ومهارتهِ. ستجلب لك مستوى فريداً من الشهرة والاهتمام بكلّ مجموعاتك الأخرى.» خلت أنّ بياني الأخير كان وقحاً نوعاً ما؛ لأنّ هذه المكتبة تُعدُّ مؤسسة خاصة للسيّد مورغان، ولم يسبق أن أشار علناً إلى أنّه ينوي فتحها للعلماء، لكنّني عندما ناشدت كبرياءه، كنت آمل أن ألمح إلى الآفاق الممكنة لتلك المؤسسة.

ثم عمّ الصمت، فكان الصوت الوحيد الطاغي على الفضاء الواسع للمكتب، المكوّن من طابقين، هو تكّة كانت تصمّ الآذان صادرة عن عقارب الساعة الذهبية الموضوعة على رف الموقد الحجري الضخم. فماذا كان يعلن هذا الصمت؟ أَكان إشارة تقدير أم هو، على الأرجح، غضب من عجرفتي؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل سينفجر السيّد مورغان في وجهي بالطريقة نفسها التي عامل بها ذلك الرجل الذي كان معه قبل دخولي إلى مكتبه؟ وفي الأخير، انفجر السيّد مورغان، وقال: «لماذا تعتقدين أنّه يجب عليّ اختيارُكِ أمينةً لمكتبتي الشخصية، وأفضّلك على جميع المتنافسين الآخرين الذين قابلتهم، ومعظمهم من كبار السن، ولهم خبرة تفوق خبرتك؟ كيف يمكن لك جعل مكتبة بيربونت مورغان استثنائية، ولا مثيل لها؟»

اتخذت خطوة واحدة نحوه، وقلت: «أنا سعيدة يا سيّد مورغان؛ لأنّك أشرت إلى أنّ المرشّحين الآخرين يختلفون عني في الخبرة والعمر و....» توقّفت هنا للتأكيد. «يختلفون عنّي من حيث الجنس، وأظنّ أنّ هذا الاختلاف الدقيق بين سماتي المميّزة وسمات أيّ شخص آخر هو ما يجعلني أكون المرشّح المثالي لمكتبة بيربونت مورغان. إنّ قلّة خبرتي النسبية تعني أنّني لا أمتلك أيّ أفكار مسبقة قديمة من شأنها أن تعيق تقدّم مكتبة مورغان بيربونت، وبدلاً من ذلك، أنا أؤمن بأنّ رؤيتي وطموحاتي، التي أودّ تحقيقها للمكتبة، لا حدود لها. إنّ شبابي وصغر سنّي دلالةٌ على امتلاكي

وقتاً لا محدوداً وطاقة منقطعة النظير سأكرّسهما لك ولمجموعتك. وشغفي بالمخطوطات النادرة والكتب التي رأت النور، منذ بدء فنّ الطباعة، يعني أنّني سأعمل بلا هوادة من أجل الحصول على العناصر المثالية لجعل مجموعتك لا تضاهى، والتعلّم من خبرتك في مجال التفاوض والسوق، وهي صفات أتقنها بطبيعة الحال. وحقيقة أنّني امرأة تعني أنّه في كلّ مرّة سأدخل فيها القاعة سأحظى باهتمام الجميع، وهو بالضبط ما تستحقّه مكتبة بيربونت مورغان.»

أومأ السيّد مورغان برأسه، وقال: «وكيف يمكنك أن تجعلي مكتبتي منقطعة النظير؟» إلا أنّه لم يسمح لي بالإجابة، بل واصل حديثه قائلاً: «أنا آمل أن أحصل على كتاب (موت آرثر) للسيّد توماس مالوري في نسخة طابعة وليام كاكستون، التي وضعتها على قائمة الإنجازات المستهدفة»، ثم نظر إليّ، كما لو أنّه ينتظر ردّة فعلي، وكان مؤكداً لي أنّني كنت أرى ما يشبه الابتسامة المتكلّفة البادية على وجهه. وأضاف: «لأنّني أريد نسخة كاكستون بالذات!»

ثم لاحظت الدهشة تغمره انطلاقاً من ملامح عينيه حين أجبته: «بالفعل، إنّها نسخة نادرة للغاية، وأظنّها إحدى أولى النسختين اللتين ظهرتا منذ بداية فنّ الطباعة، إذا لم أكن مخطئة، لكنّني سأبذل قصارى جهدي لجلب تلك النسخة وإضافتها إلى مجموعتك إذا أتيحت لي الفرصة.»

بدت ابتسامته مكشوفة الآن على نحو لا لبس فيه. لقد طُبع ذلك المجلد في عام 1485 من قبل مالك الطابعة والناشر الشهير ويليام كاكستون، الذي يُنسب إليه الفضل في جلب الآلة الطابعة إلى إنجلترا. وهو مجلّد بعنوان (موت آرثر)، ويروي أسطورة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة، وسعيهم إلى الحصول على الكأس المقدّسة الأسطورية. فهل كان هذا الكتاب بعيد المنال عن بحث السيّد مورغان المقدّس؟»

«أنت مثيرة للإعجاب يا آنسة بيل دا كوستا غرين!»

ثم عادت عيناه تراقبانني، لكنّني حافظت على تركيزي، وقلت: «إذا ما أتحت لي هذه الفرصة -يا سيّد مورغان- فسأضمن أن تكون لديك مكتبة لا مثيل لها، وسأجعل من مكتبة بيربونت مورغان، في حدّ ذاتها، التحفة الفنيّة التي تستحقّها.»

الفصل الرابع

مكتبة
t.me/soramnqraa

8 كانون الثاني/يناير 1905

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

يا إلهي. أيّ وعد هذا الذي أثقلت به كاهلي؟ قلت في داخلي وأنا أصعد الدرجات البرّاقة الواسعة للأبواب متعدّدة الألواح البرونزية لمكتبة بيربونت مورغان. لقد أدركت أنّه يتعيّن عليّ الإيفاء بوعدي بمجرّد وقوفي أمام تلك الأبواب، وأنّه ينبغي لي، ابتداءً من اليوم، أن أثبت للسيد جي بي مورغان، الشهير والسيئ السمعة في الآن نفسه، أنّه يمكنني أخذ مخطوطاته ومجموعاته الفنّية العالميَّة، والمبنى الخلاّب الذي شيّده، على عاتقي، وتأثيثه وتحويله إلى مكان أسطوري بصفتي أمينة مكتبة صاحبة بشرة ملوّنة.

شعرت بموجة من الضحك تتملّكني، ولم يكن في وسعي كبتها، وكانَ مردُّها مزيج من الحماسة تجاه آفاق الوعد الذي قطعته على نفسي، وفي الآن نفسه استحالة تحقيقه، لكنّني لم أسمح لنفسي بالتعبير عنه وإظهاره. لقد أجبرت نفسي مجدّداً على التفكير في مصير ماما وإخوتي في الشقّة، وركّزت على الحسابات التي سبق أن قمت بها منذ أن وصلتني الرسالة من السيّد مورغان، التي عرض فيها عليّ المنصب وراتباً قدرهُ خمسة وسبعون دولاراً في الشهر، ما سيوفّر دخلاً يناهز تسعمئة دولار سنوياً. كنت أحسب أنّه، بالإضافة إلى إيجارنا الشهري البالغ ستين دولاراً، ورسوم أخي راسل الدراسية، ومصاريف محلات البقالة، والفواتير الأخرى، والنفقات الطارئة، وبطبيعة الحال تخصيص بعض المال للملابس الجديدة التي سأحتاج إليها

بالتأكيد في هذا المنصب، سيكون لدينا متنفسٌ ماليٌّ صغيرٌ بين راتبي ودخل أختيَ في سلك التعليم؛ مبلغ أربعين دولاراً في الشهر؛ وهو مبلغ سأوفِّره لأوّل مرّة منذ أن تركنا بابا. في الحقيقة، سيمكّن راتبي أمي من التوقّف عن العمل معلّمةَ موسيقا.

لكنّ آمالي لم تكن متعلّقة بوضعنا المالي فحسب، بل توقّعت أنّ هذا الدور الذي أوكله إلي السيّد جي بي مورغان، سيتيح لي فرصة الوصول إلى مستوى أعلى من المجتمع، وهو ما من شأنه أن يعزّز مكانتنا بوصفنا بيضاً بالنظر إلى المستوى الاجتماعي الذي كنا نعيشه، والأعمال التي كنا نقوم بها حتى الآن.

واستعدت رباطة جأشي وثقتي بنفسي، بينما كنت أقف على أطراف أصابعي، وأقرع بيديّ المغلّفتين بالقفاز لوحة الباب الأيمن المركزية، ذلك الباب الذي كان ذات يوم، بحسب رواية جونيوس، يتبع إحدى فيلات فلورنسا في القرون الوسطى. ومجرّد القيام بطرقة خفيفة واحدة كان كافياً لإحداث صدى كبير يكاد يكون يكفي للإشارة إلى أيّ خادم بوجود شخص ما في الباب، لذلك قمت بنزع قفازي وفرك مفاصل يديّ إثر ملامستها سطح معدن الباب البارد.

وتساءلت، أثناء انتظاري، عن هويّة من سيفتح الباب؛ هل للسيّد مورغان خدمٌ من ذوي البشرة الملوّنة؟ ثم جالت في خاطري كلمات ماما من جديد، وهي تنبّهني وتقول: إذا صادف أن رأيت أيّ شخص ذي بشرة ملوّنة، فعليك أن تقفي أمامه بشموخ، وتتجنّبي حتى رؤيته. وإذا صادف أن وقعت عيناك عليه، فاكتفي برسمِ إيماءة، ثمّ ابتعدي عنه. وإيّاك، ثم إيّاك الدخول معه في محادثة.

وانفتح الباب، فحيّاني رجل أبيض طاعن في السن، كالح الوجه، طويل القامة، وأصلع يرتدي بدلة صوفية أنيقةً تشبه بدلة سكرتير، ولا تشبه، بأي

حال، ملابس الخدم، ثم أخذ ينظر إليّ من كل الاتجاهات، وقال في الأخير: «لا بدّ من أنّك الآنسة غرين.»

«نعم. أنا الآنسة غرين.»

تصوَّرتُ أنّ هذا الرجل هو نفسه ذلك الرجل الذي وبّخه السيّد مورغان يوم مقابلتي، لكن لمّا كان لم يقدّم لي التحيّة اللائقة، ولا حتى أدنى تعريف بنفسه، لم يكن في وسعي أن يكون مؤكداً لدي ما خمنته فيه.

ثم أجابني باختصار: «لقد كنا في انتظارك.»

فقلت في نفسي: هل هم بانتظاري؟ هل أنا متأخرة؟ ثم تذكّرت آخر تنبيه وجّهه جونيوس إلي بأنّ عمّه يريد مني أن أصل في الساعة الثامنة، فألقيت نظرة خاطفة على ساعة جيبي، فوجدت أنّ الساعة تشير إلى السابعة وتسع وخمسين دقيقة، ما يدلّ على أنّني أتيت بالضبط في الوقت المحدّد.

وتبعت خُطا ذلك الرجل الذي قادني إلى الداخل، ولاحظت أنّ اللوحات الجدارية، التي على السقف، التي كانت أعمال تركيبها جارية أثناء زيارتي السابقة، قد أخذت مكانها، وأصبح المدخل برّاقاً بلوحات السقف المزيّنة، وأرضيّات وأعمدة الرخام واللازورد المزدانة بالألوان الذهبية والحمراء المتنوّعة. ورغم وجود عدد قليل من أكوام الكتب، التي لا تزال ملقاة في محيط القاعة، بدا الفضاء، إلى حدّ كبير، مكتملاً؛ فهل تم ترتيب المكتبة بأكملها؟ وأيّ عمل سيوكل إلي إذا تمّ بالفعل تنظيم المؤسسة؟

ثم قال الرجل بغاية إرشادي: «من فضلك اتبعني.»

تبعته، ومررتُ عبر القاعة المستديرة إلى ما افترضتُ أنّه سيكون الفضاء الحقيقي للمكتبة. وبمجرّد دخولي، التقطت أنفاسي للحظات. لقد بدت القاعة الفخمة، التي كانت تشبه في ضخامتها واتساعها قاعة الرقص، بثلاثة طوابق من الخزائن المصنوعة من خشب الجوز التي كانت تمتدّ من الأرض

إلى السقف، وكلّها كانت فارغة، وتنتظر مني أن أملأها. وكان هناك أيضاً مدفأة رخاميّة منحوتة يعلوها سجّاد جداري من القرون الوسطى يحتلّ الجانب الأيمن من المكتبة. لقد كانت هذه المدفأة عظيمة إلى درجةٍ أنّ نظيرتها، التي رأيتها في مكتب السيّد مورغان، بدت قزمة بالمقارنة بها، وتصوّرت أنّ وجودها كان من باب الزينة والديكور فحسب، فلا يمكن لنار أيّ موقد أن تدفئ قاعة بذلك الحجم الهائل. أما السقف فكان يلمع بأوراق ذهبية وسلسلة معقّدة من الأقواس والقباب المزخرفة والمطلية، التي يبدو أنّ لها موضوعين متميّزين؛ حيث كانت الشخصيات التاريخية العظيمة وملائكتها الملهمة تزيّن الأقواس، بينما كانت علامات أبراج الحظّ تزيّن الفضاءات الموجودة بين كلّ قوسين، وهذا ما جعلني أشعر كما لو أنّني كنت أقف وسط صندوق للمجوهرات.

أما الرجل الذي ما زال لم يذكر اسمه، فعدّل من صوته، وقال، وهو يشير إلى صناديق خشبية أخرى مكدّسة وسط القاعة لم ألحظ وجودها من قبل، وهي مشتتة في فضاء ذلك المحيط المذهل: «أنت خبيرة في هذا المجال بطبيعة الحال، ولا بدّ من أنّ السيّد مورغان قد أحسن الاختيار؛ لأنّه رجل يُعرفُ برجاحة عقله، ولكن إذا كان عليّ أن أخمّن ما يجب عليك القيام به، فسأقول إنّ إحدى مهماتك الأولى ستكون إعداد قائمة بتلك الكتب وتنظيمها داخل الصناديق قبل تقرير أيّ الرفوف التي يجب أن توضع فيها»، ثم أشار إلى رفوف الكتب الشاسعة وأضاف: «هناك المزيد من الصناديق الموجودة في خزائن الطابق السفلي؛ لأنّ المكتبة ستضم جزءاً من المجموعة فقط، وأفترض أنّك ستنقلين تلك الكنوز. أليس كذلك؟» وقبل أن أتمكّن من الإجابة أضاف: «وهناك صناديق أخرى في مكتبك أيضاً.»

مكتبي؟

توقّعت أن يقودني الرجل إلى حجرة صغيرة مجاورة فيها مكتب صغير من خشب الجوز، لكنّه أشار إلى مقصورة خفيّة لا تتسع إلا لحفظ معطفي وقبعتي، وقال: «أفترض أنّك تريدين البدء في العمل على الفور يا آنسة غرين»، ثم غادر من دون أن يضيف أي كلمة أخرى.

وبمجرّد أن أغلق الباب، قمت بلفّة في أرجاء المقصورة، غير مصدّقة أنّ هذه الغرفة الرائعة ستكون مكان عملي، ثم أجّلت مرحلة استكشاف حجرتي إلى وقت لاحق؛ فصناديق الكتب كانت مفتوحة، وتنتظرني، وكان يجب عليّ أن أبدأ من هناك. مددتُ يدي لإخراج بطاقات ملاحظات الفهرسة الفارغة من حقيبتي، ثم سحبت أوّل مجلّد من الصندوق، وأثناء فحصي مظهره الخارجي، دوّنت على بطاقة الملاحظات الخاصة بي أنّ الكتاب يحتوي على بعض الشقوق الطفيفة في غلافه الأخضر، وأنّه لا يحمل عنواناً. وعند فتحي ذلك الكتاب بلطف، أدركت، منذ الصفحة الأولى، أنّه نسخة نادرة من رواية (دون كيشوت) تعود إلى القرن الثامن عشر، ومكتوبة بما يشبه اللغة الإسبانية، مرمية هناك على الأرض في صندوق.

وقلت بمجرّد أنّ انغمست في مطالعة صفحاتها القديمة: «يا إلهي!»

ثم سمعت صوتاً ودّياً متبوعاً بضحكة يقول: «أرى أنّك وجدت دون كيشوت.» اعتقدت أنّ صوت الضحك يشبه صوت نباح، لكنّه أضاف: «لقد اشتريتها في عام 1899 بوصفها جزءاً من مجموعة عائلة تووفي؛ فأفرادها لم يكونوا يفقهون حقّاً قيمة ما يمتلكونه.»

أصابتني الدهشة، عندما نظرت إلى عيني السيّد مورغان البرّاقة وقامته مفرطة الطول، وقلت: «آسفة يا سيّدي. لقد بدأت للتو. صرت أتلعثم وأتعتع إلا أنّه قاطعني قائلاً: «لا حاجة أبداً إلى الاعتذار حين يقودنا الفضول الفكري أو تقدير الفنون الجميلة إلى فعل مثل هذه الأشياء يا آنسة غرين.»

فأجبته: «نعم يا سيّدي»، ثم قلت في أغوار نفسي لا بدّ لي من تجنّب كلّ هذا الأدب المفرط. ماذا دهاني؟ أين اختفت ثقتي في نفسي؟ لقد سبق لي أن قرّرت أن أبقي السيّد مورغان متحمّساً من خلال مزج قليل من الاحترام بروح الدعابة الجذّابة. ويجب عليّ إيجاد سبل لتحقيق هذا الأسلوب عبر ابتداع نوع جديد تماماً من العلاقات مع هذا الرجل؛ أي نوعٍ من العلاقات التي لم يسبق له إقامتها مع امرأة خاصةً.

ثم قال: «أرى أنّ كينغ عرّفك جيّداً بالمكتبة»، ثم أضاف بفخر جليّ مستحق: «اسمحي لي أن أعتذر إليك بالنيابة عنه في حال كان فظّاً معك؛ فسكرتير أعمالي غيور، ولم تعجبه فكرة أنكِ والمكتبة قد تسرقاني منه ومن التزاماتنا التجارية.»

أجبته: «ليس في نيّتي فعل أيّ من ذلك يا سيّدي»، ثم تجرّأت على المزاح معه قليلاً، فأضفت: «على الأقل لن أفعل ذلك في البداية.»

لكنّني لم أرَ ابتسامة ترتسم على محيّاه في المقابل، فماذا دهاه؟

إلا أنّه قال: «من المؤكد أنني أعلم أنّك لا تنوين فعل ذلك يا آنسة غرين»، ثم أضاف، وقد غمرت محيّاه ابتسامة واضحة: «إلا أنّ ذلك الأمر سيكون نتيجة طبيعية للزمن الذي سنقضيه معاً.»

حينها قلت في داخلي: هل ما سمعته منه عبارة عن تلميح غير مباشر مبطّن في كلماته؟ لكنّني نهرت نفسي عن التمادي في ذلك التفكير؛ لأنّني ببساطة كنت بصدد استيعاب مدى شهرته من خلال لهجة كلامه.

«لا أظنّ أنّ كينغ قد أراك مكتبك. أليس كذلك؟»

«لا. لم يقم بذلك، على الرغم من أنه ذكره لي.»

«هذا هو طبعه دائماً، فهو يشبه العجوز البخيل، ولو لم يكن لديه ذكاء مفرط في عالم الحسابات والأرقام لكنت طردته منذ زمن طويل»، ثم توقّف

عن الكلام، وبقي لا يرفع عينيه عني أبداً، ثم أضاف: «حسناً، لا داعي للقلق، فحالما نستقرّ هنا، لن تضطري إلى رؤية كينغ كلّ يوم، فهو يتنقّل بين مكاتب عملي والمكتبة، اعتماداً على المكان الذي أحتاج إليه فيه. سيكون لدينا كامل موظفينا هنا، وبطبيعة الحال، سيكون هناك خادمان؛ فتاة لإعداد وتقديم الوجبات الغذائية والمشروبات إذا لزم الأمر، وحارسة لتوفير الأمن وحماية مجموعة الكتب. وفي الوقت المناسب، سيكون لديك مساعدتك الخاصة بك.»

حاولت المحافظة على هدوئي بمجرّد توقّعي أن يكون لدي مساعدة خاصة بي طوال الوقت، وقلت: «هذا يبدو رائعاً يا سيّدي، وهو ليس بالقليل لما تستحقّه مجموعتك.»

ثم استدار وغادر الحجرة، ففهمت أنّه يفترض بي اللحاق به؛ فتبعت خطاه محاولةً اللحاق به وهو يخرج من المكتبة متّجهاً مجدّداً صوب القاعة المستديرة، ثم عبر الباب المجاور لمكتبه. وعندما أصبحت إلى جانبه سألني: «هل أعجبك التخطيط الهندسي الذي صمّمه المكتب المعماري المشترك للسادة مكيم، وميد، ووايت؟ من حسن حظّنا أنّنا عملنا مع السيّد مكيم بدلاً من السيّد وايت. أليس كذلك؟»، ثم نظر إليّ ورفع حاجبه الأيمن في ما يشبه علامة الاستفهام، فاعتقدت أنّ ذلك اختبار آخر.

لكنّ ذلك الأمر لم يكن بمنزلة التحدّي الذي يصعب تجاوزه؛ لأنّ ذكر أسماء المهندسين مكيم، وميد، ووايت كان محور كل قصّة إخبارية حديثة. وحضور المهندس المعماري الشهير، والمليونير المجنون، والممثّلة الشهيرة، كانت العناصر الأساسية لإثارة الفضائح التي يرغب فيها أيّ صحفي. لقد مات ستانفورد وايت، المهندس المعماري، الذي اشتهر بإنشاء قوس ساحة واشنطن، بطلق ناري بثلاث رصاصات من هاري ثو، الزوج السابق المجنون لإيفلين نسبيت الجميلة، وتم ذلك في ماديسون سكوير غاردن. بطبيعة الحال،

لم يخبرني جونيوس باسم الشركة المعمارية التي صمّمت مكتبة بيربونت مورغان، وأنا على يقين بأنّ جونيوس كان يعتقد أنّ حقائق محاكمة جريمة القتل، التي أُزهقت فيها روح ستانفورد وايت، غير مناسبة لأن تسمعها أيّ امرأة. ومن الظاهر أنَّ السيّد مورغان لا يشاركه الرأي نفسه بشأن حساسية النساء ورهافة حسّهن.

أجبته بموضوعية: «من حسن الحظ حقّاً أنّك عملت مع السيّد مكيم.»

أومأ برأسه، ثم أخذ يجوب وسط الغرفة جيئة وذهاباً، ثم عاد نحوي، وأخذ يحدّق في وجهي مجدّداً بنظرة حادّة، فشعرت بقليل من التوتّر اضطرني إلى الابتعاد عن مجال بصره، وركّزت اهتمامي على الغرفة المكوّنة من طابقين من الخزائن المصنوعة من خشب الجوز. لقد كان سقف الجص المذهّب مزداناً بتسع لوحات رائعة من طراز عصر النهضة للآلهة اليونانية. أما المدفأة الحجرية الإيطالية، التي زادت في كمالها زينةٌ من منحوتات الملائكة الجميلة، فكانت تشرف على كلّ أرجاء تلك القاعة الضخمة.

صدرت زلّة لسان مني على شكل سؤال: «هل هذا هو مكتبي؟» تمنيت حينها لو كان في وسعي سحب تلك الكلمات، فصورة أمينة المكتبة الجريئة، التي قدمتها له أثناء لقائنا الأوّل، لا تستطيع أن تتفاجأ بمنحها هذا المكتب الضخم.

ثم بدت ابتسامة عريضة على ملامح وجهه اتسعت لتصل إلى ما بعد شاربه، وقال: «هل تعتقدين أنّه سيكون مقبولاً؟»

تمالكت نفسي وقلت: «أعتقد -يا سيّد مورغان- أنّ هذا المكتب سيكون بمنزلة القاعدة المثالية، التي يمكن من خلالها إطلاق حجر الأساس لمكتبة بيربونت مورغان الفريدة.»

الفصل الخامس

8 كانون الثاني/يناير 1905

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

شعرت بصعوبة أثناء صعودي الدرج، وأنا متجّهة نحو شقّة عائلتي، وكدت أدرك أنّني كنت أرتجف من البرد الذي أصابني إثر نزولي من العربة. صحيح أنّ الساعة كانت متأخّرة، فأنا ظننت أنّني سأعود إلى المنزل بعد الساعة السادسة أو السابعة. بالفعل لقد بقيت في مكتبة بيربونت مورغان بعد أن غادر جميع موظّفيها لهذا اليوم، باستثناء حارسة الأمن المكلّفة بحماية كنوز المكتبة في كلّ مساء. ورغم ذلك لم أكن متعبة. لقد شحنتني فكرة الجلوس على ذلك الكرسي المخملي خلف ذلك المكتب المنحوت من خشب الجوز، وأنا أشرف على المخطوطة التي لا تقدّر بثمن، والمجموعة الفنّية للسيد جي بي. مورغان؛ شحنتني بالخفّةِ والطاقة الجامحة التي لا توصف.

لقد كنت أنتظر العودة إلى المنزل على أحرّ من الجمر لأخبر ماما وإخوتي بكلّ تفاصيل يومي الأوّل في العمل.

إثر تخبّطي المعتاد، أثناء عملية إدخال المفتاح في القفل، نجحت في فتح الباب متوقّعة أن أجد أخي راسل على طاولة المطبخ يراجع لأحد امتحانات الهندسة، أو اكتشاف أنّ أختيّ لويز وإثيل جالستان على أريكة تُعدّان جذاذات الدروس لصباح اليوم التالي. إلا أنّني لاحظت أنّ مدخل الشقّة والصالون كان يعمّهما الظلام الدامس من دون أدنى بصيص للنور

الذي قد يتسلّل من المطبخ، أو من غرف النوم، فشعرت بخيبة أمل؛ إذ لم أكن أتخيّل أنّ ماما وإخوتي ليسوا في انتظاري لسماع ما حصل معي في يوم عملي الأوّل.

ثم أضاء نور مصباح غازي الشقّة، وسمعت صرخة تقول: «مفاجأة!» لقد كانت ماما، ولويز، وإثيل، وراسل، وتيدي، جالسين حول طاولة المطبخ، ملتفين حول كعكة تم شراؤها من المتجر، وهو سلوك نادراً ما يقع في صلب عائلتنا. ثم صمّت مسامعي تهاليل البهجة والتهاني، وتشابكت الأيادي لمعانقتي. لقد كان الجوّ احتفالياً عارماً، وفوضى إخوتي، وهم يتكلّمون الواحد تلو الآخر بحماسة محتدمة، كان وقعها عليّ مثل تأثير شراب الشمبانيا.

«أخبرينا عنه: كيف كان؟»

«هل هو مخيف مثلما يبدو في الصور المنشورة في الصحف؟»

«صفي لنا أنفه. كيف يبدو؟»

أما أنا فكنت أضحك، سعيدة جدّاً بأنّ في وسعي الاسترخاء في ملجأ عائلتي والاحتفال بالحماسة التي انتابتني على نحو جامح لم يكن في وسعي كبته في ذلك اليوم.

«هل لديه حقاً كلّ تلك المبالغ الضخمة من المال؟»

«هل رأيت أياً من تلك الأموال؟»

قلت لهم: «على رسلكم. بادئ ذي بدء، دعوني أصفه لكم.» جلس الجميع على المقاعد، وأخذت أقلّد لهم دويّ صوت السيّد مورغان، بينما كانت لويز تقوم بتوزيع قطع من الكعكة. كنت أحاول أن أعطيهم انطباعاً عن صوته الرنّان، ونظرته المقلقة، وهو انطباع فظيع، بطبيعة الحال، لكنّه كان جيّداً بما يكفي لجعل إخوتي يضحكون.

ثم انتقلت إلى الحديث عن مكتبة بيربونت مورغان، فهيمن عليهم السكون والانتباه، وصاروا يتابعون بعيون جاحظة على استعداد لالتهام التفاصيل بأسرع مما كانوا يلتهمون قطع الكعكة السكّرية. ولم يكن في وسعي إشباع فضولهم بما فيه الكفاية، لكن رغم شهيّتهم المفرطة لمعرفة كلّ شيء، حجبت عنهم بعض الجزئيات المهمة.

لم أشأ البتّةَ أن يعرفوا أنّ حماستي كانت محفوفة بالقلق، وأنّني كنت طوال اليوم مضطرّة إلى تهدئة صوت جامح في رأسي مليء بالارتباكِ بشأن استعدادي لهذه المهمّة، وقدرتي على العمل مع رجل مزاجي، متقلّب وزئبقي، مثل السيّد مورغان. ولم أكن أرغب في مقاسمة مخاوفي معهم؛ لأنّهم سبق لهم أن نسجوا بالفعل أفكاراً عن طبيعة التغيير الذي سيعمّ حياتهم بناء على المال الذي سأضيفه إلى ميزانية أسرتنا. وقلت في نفسي: لا بد لي من تحمّل هذا العبء من الذعر وحدي.

قالت لي تيدي في ما يشبه الهمس: «هل تتوهّمين الآن أنّك تستطيعين مشاركة غرفة النوم معي أنا وماما؟» على الرغم من أنّها كانت تبتسم، لاحظت جدّية السؤال في عينيها.

وبطريقة ما، افتقدت الحرّية والاستقلالية اللتين كنت أنعم بهما في برينستون، كما أنّني افتقدت صداقتي مع جيرترود وشارلوت، فمعهما استمتعت بوشائج فكرية قويّة، بالإضافة إلى الكثير من الضحك. لكنّ إحدى متع العودة إلى غرفة نوم مشتركة في شقّة ضيّقة في مدينة نيويورك هي القرب الذي أمتلكه الآن من أختي الصغيرة؛ فأنا كنت، في الأغلب، قريبة جدّاً من تيدي أكثر من قربي من جميع إخوتي. قد أعزو ذلك إلى أنّني كنت أكبرهم بسبع سنوات عندما رزقنا بتيدي وعدنا بها لأوّل مرّة إلى المنزل، وهو ما اضطرّني إلى مساعدة ماما في غذاء أختي الرضيعة وملبسها ونظافتها. فقد كانت بالنسبة إليّ بمنزلة دمية حيّة أجدُ متعةً في احتضانها، والغناء لها،

ومشاهدتها أثناء نومها لساعات. وقربنا إحدانا من الأخرى لم يفتر على مرّ السنين.

أجبتها: «لا تكوني سخيفة يا تيدي، فأنا لم أعد إلى المنزل وأنا أحمل تاجاً على رأسي. أليس كذلك؟»

أجابتني وهي تضحك: «لا. من المؤكد، لا.» لقد كانت بشرة تيدي قد أضحت فاتحة مثل الفانيليا المتجمّدة على الكعكة. أما بقيتنا فلم نكن كذلك؛ إذ يمكن وصف لويز وإثيل، بشكل معقول، بأنّهما فاتحتا البشرة، أما أنا وراسل فلسنا كذلك.

ثم أخذت أقهقه معها، وأقول: «لا عليك. مازلت مثل سالف عهدي، لم يتغيّر فيّ شيء!»

حينها فحسب، انتبهتُ إلى مدى هدوء ماما بينما كان الباقي منغمسين في أكل الكعك والثرثرة؛ فهي الشخص الوحيد، الذي عادةً، يكون لديه معظم الأسئلة، لكنّها الليلة لم تنبس إلا بسؤال واحد فقط، عندما مسحت زوايا فمها، قبل أن تسأل: «هل ما زلت تشبهين بيل التي أعرفها؟»

«نعم. ما زلت بيل التي تعرفينها.» تمنيت لو لم تسألني ماما ذلك السؤال؛ لأنّ كل شيء في الغرفة قد تغيّر الآن؛ إذ تغيّرت ملامح عيون إخوتي، وفترت طاقتهم. بالمختصر تغيّر مزاج الاحتفال بأكمله. حتى الهواء الذي كنّا نتنفّسه صرنا نشعر بثقله، وأصبح يشوبه عبء تلميح منحرف انتابنا جميعاً.

تبخّرت ملامح الضحك، وأصبح أخي وأخواتي يتجنّبون النظر إلى قطع الكعكة أمامهم. لم نعد نسمع إلّا صوت كلّ شوكة أكل وهي تنفض الفتات الأخير من أطباقنا، ثم عم الصمت المطبخ، وخيّم عليه السكون.

شعرت بإحباط إخوتي وتعاطفهم معي، ولاسيما لويز وإثيل، فجميع إخوتي، بمن فيهم تيدي إلى حدّ ما، يعرفون أنّه على الرغم من أنّنا جميعاً

نعيش في هذا العالم الذي لا ينتمي إلينا، لا أحد يتحمّل العبء الأكبر من ذلك القرار أكثر مني.

بدوري، صرت أحدّق في كلّ فرد من إخوتي؛ المعلّمتين المجتهدتين لويز وإثيل اللتين كانتا تمثّلان مجموعة جميلة منسجمة من الفتيات غير المرئيات اللاتي يتقنّ فنّ الاندماج، وأخي راسل الذي يملؤه العزم المشرق بأن يكون مهندساً في القريب العاجل، وقد أصابه قليل من التجهّم يعكس سحنتي وقسماتي نفسها، رغمَ أنّها كانت تمثّل عائقاً يصعب عليه بوصفه رجلاً التغلّب عليه، فما بالك أنا بصفتي امرأة. ثم حدّقت في تيدي، التي كانت، بكلّ ما في الكلمة من معنى، صاحبةَ أفتح بشرة، وأصغرنا سناً. كلّنا كنا في رعاية ماما المحبوبة، وتحت أنظار عينيها الساهرة؛ فهي حارسة البيت التي غيّرتنا إلى الأفضل، على الرغم من أنّني كنت أحمل ندوب ذلك التغيير العظيم. لم يكن مدى ذلك التحوّل في حياة إخواتي أكثر من مجرّد إسقاط حرف الراء من لقبنا، إلا أنّ إسقاط حرف الراء من لقب غرينر ليصبح غرين كان أكثر توريطاً بالنسبة إليّ من باقي إخوتي. لقد أصبحت أضيف، مثل أخي راسل، اللقبَ البرتغالي دا كوستا إلى اسمي الأخير، بعد إسقاط اسم ماريون؛ لأنّ الروابط التي تربطنا بأفريقيا كانت أبسط من ظلال السمرة التي كانت في بشرتنا. لذلك اخترعت ماما اسم جدّة برتغالية لنا من أجل صرف الشكّ عنا وتجنّبنا حاجة أيّ شخص إلى مزيد من التثبّت أثناء التعرّف إلينا. أما أنا، فكان يتعيّن عليّ بذل مزيد من الجهد للعمل بسلاسة أكبر في عالم أبيض نقي.

لكنّ لون بشرتي لم يكن السبب الذي جعل ماما تسألني عما إذا كنت «لا أزال بيل التي تعرفها»، لا ليس ذلك هو السبب الذي يبرّر تحديقها فيّ بذلك الشكل كما لو أنّني كنت الحلقة الأضعف في بياض بشرتنا، على الرغم من حقيقة السرعة التي التحقت بها داخل ذلك العالم بشكل أفضل من أيّ شخص آخر في العائلة، وحقيقة أنّ منصبي الجديد يمكن أن يرفعنا إلى

مستوى حصين داخل ذلك العالم. لقد كان قلقها ينبع من حقيقة أنّني كنت أشبه والدي أكثر من باقي أفراد عائلتي في صفة العناد والجرأة. وعلى الرغم من أنّني لم أسأل والدتي مطلقاً عن قرارها، كان يمكنها أن ترى شكوكي وتكتّمي على العالم الذي اخترنا العيش فيه. أما أكثر أمر كان يثير قلقها فهو شعورها بالشوق الذي لم يفارقني تجاه والدي. وأنا على يقين بأنّ هذا اليوم يذكّرها بحفلة مفاجئة أخرى جمعتنا في السابق، عندما اجتمعنا جميعاً حول طاولة أكبر بكثير في شقّة أكبر بكثير من هذه التي تجمعنا الآن من أجل الاحتفال.

***

«أطفئي الشموع!» صاح كلّ من راسل، ولويز، وإثيل، وتيدي، وهم حول طاولة المطبخ، وتمنوا لي عيد ميلاد سعيداً، بعد أن أرعبوني بتلك المفاجأة. كانت الفرحة والحماسة تعترياني، بينما كان إخوتي يقفزون ويمرحون ويهتفون ويغنون. لقد كان بريق الشموع العشرِ يحوّل فضاء القاعة إلى ذهبي مشرق.

واصل إخوتي هتافهم وهم يقولون: «أطفئيها!»

لقد كانوا متعطّشين لعيش فرحة حدث عيد ميلادي بالغ الأهمية، لكنّني أردت أن أطيل زمنه لحساب الشموع، والقيام بأمنياتي، وأخذ نفس طويل لإطفاء كل شمعة على حدة، إلا أنّني أذعنت في الأخير؛ لأنّ الشمع كان يقطر على جليد الفانيلا المفضل عندي. وأنا على علم بأن لا أحد في الشق الآخر من الظلام، قبل أن تضيء ماما نور المصباح الغازي مجدّداً، وقبل أن يصفّق إخوتي ويهنئوني، كان يصفّق بصوت أعلى من تصفيق والدي.

ثم سألني راسل: «ماذا تتمنين يا أختي؟»

نهره بابا قائلاً: «لا يمكنها إخبارك بذلك. إنّه سرّ كبير!»، ثم لفّني بذراعيه وعانقني بدفء، وأضاف: «لا أستطيع أن أصدّق أنّك أصبحت بعمر عشر سنوات يا بيل ماريون.»

ضحكت كما تعوّدت أن أفعل دائماً كلّما أبدى لي بابا اهتماماً خاصاً، ثم سمعت نبرة توبيخ صادرة عن أمي: «ريتشارد!» كانت أمي تنتابها الغيرة كلّما قام أبي بذلك التصرّف معي.

فارتسمت على تقاسيم وجه أبي الوسيم شرارة من الغضب، فوجّهت إليه ماما عتاباً آخر جعله يلقي رأسه إلى الخلف ويضحك. لقد كانت قهقهة نابعة من القلب جعلت كل واحد منا، باستثناء والدتنا، يضحك بشدّة، رغمَ أنّنا كنّا نجهل السبب الذي جعل أبي يضحك بذلك الشكل. ثم قال أبي في الأخير: «دعينا نحتفل يا جينيفيف بعيد ميلاد بيل، فنحن لدينا فتاة جميلة لها مثل هذا الوجه الجميل والعقل الراجح، وأنا على يقين بأنّها ستكون أجمل حسناء في كوكب الأرض!»

صفّق إخوتي بينما كنت في حضن والدي ورعايته ومباركته، ثمّ أعلن حين بدأ الجميع يستمتعون بأكل قطع الكعكة اللذيذة: «لقد حان الوقت لفتح بطاقات المعايدة والهدايا الخاصة بك.»

لقد كان أبي أوّل من سلّم إلي ظرفاً فيه رسالة من الجدّة فليت تحمّست حين رأيتها. لقد استمرّت الجدّة في إرسال بطاقة لعيد ميلادي على مدار العامين الماضيين، وكنت أعرف أنّه سيكون هناك ورقة نقدية بقيمة دولار داخل الظرف. كنت قد فكّرت مسبقاً في نوع اللعبة التي يمكنني شراؤها من بازار شوارتز للألعاب.

ثم سلمني بابا هديّة ملفوفة في ورق زينة أزرق جميل، وعندما نزعت غلاف الهديّة من إحدى الزوايا، اكتشفت أنّ الهديّة تتمثّل في كتاب، لكنّني لم أفهم روعته إلا حينما أزلت الورقة بالكامل، فقرأت العنوان: (رسّامو مدينة البندقية في عصر النهضة) بقلم برنارد بيرنسون. لقد أذهلني الكتاب، وأنا أتصّفح ورقاته الأولى؛ إنّه كتاب رائع يشبه في روعته روعة اللوحات التي رأيناها أنا وأبي في عطلات نهاية الأسبوع عندما كنا نزور متحف الميتروبوليتان للفنون.

لقد كان بابا يتمتّع بطريقة مميّزة للكشف عن المعنى المبطّن في كلّ لوحة، والحياة التي يحاول كلّ رسّام خلقها. وعندما كنت أستمع إليه عن كثب كنت أشعر كما لو أنّني كنت أسافر معه في الزمن، فيعود بي إلى لحظة تشكيلها.

تعلّمت، أثناء غياب عيني ماما المؤرّقة، المزيد عن والدي، وكذلك عن الفنّ الذي شاهدنا عيّنات منه في تلك الرحلات التي قمنا بها إلى المتحف. لقد سمعت منه قصصاً عن ارتياده أكاديمية فيليبس، ثمّ جامعة هارفارد، حيث كان عنصراً من تجربة فتحت الباب للطلاب الآخرين من أصحاب البشرة الملوّنة، الذين كانوا ينتمون إلى اتحاد الطلبة، وشاهدته يضحك كلّما سرد لي حكايات عن ممارسته رياضة التجديف على طول نهر تشارلز مع صديقه أوليفر ويندل هولمز. لكنّني كنت ألاحظ علامات الحزن البادية في عينيه أيضاً لأنّني علمت أنّه قد قضى معظم شبابه باحثاً عن المال والفرص، بعد أن ترك والدُه، وهو رجل أسود حرّ سليل عبدين سابقين، العائلةَ من أجل العمل في مناجم الذهب في الغرب. لقد كان أبي يتعرض لتشويش ماما كلّما ناقش مثل تلك الموضوعات في المنزل، ولا سيّما حين يتعرّض للحديث عن كتاباته جنباً إلى جنب مع كتابات الآخرين من مؤيّدي حركة المساواة في الحقوق من أمثال فريدريك دوغلاس، فتضطر إلى طردنا نحن -معشر الأطفال- وجرّنا إلى غرفنا، كما لو أنّها لم تكن تودّ أن تنجّس آذاننا الشابة بدنس شؤون البلاد.

«شكراً لك يا أبي!» ثم أغلقت الكتاب واحتضنته. فابتسم بابا قائلاً: «سنقرأ ذلك الكتاب معاً، وكلّي علم بأنّ بعض اللوحات الموجودةِ بين ثناياه موجودةٌ في الواقع في متحف الميتروبوليتان للفنون. أريدك أن تتذكري يا بيل هذا الكاتب، فالسيّد بيرنسون خبير في الفن الإيطالي.»

أومأت له برأسي، وفتحت غلاف الكتاب مرّة أخرى، فوجدت تدوينة خُطّت على الصفحة الداخلية بنقوش تقول ما يأتي: «إلى ابنتي الحبيبة بيل

ماريون، بمناسبة عيد ميلادها العاشر. في يوم من الأيام سيتّحد جمال عقلك بجمال هذا الفنّ. مع خالص حبّي. والدك.»

ثم علّقت أمي، وهي تسترق النظر إليّ من خلف: «يبدو أنّ الكتاب لا يتناسب مع عمر طفلة مثل ابنتنا»، فأغلقته بسرعة؛ فأنا لم أكن أريدها أن ترى ما خطّه لي والدي، فهديّتي باتت مثيرة للجدل بما فيه الكفاية.

ثم هز والدي رأسه، وقال: «ابنتي ليست بطفلة»، وقرصني من أنفي، ما جعلني أضحك، وأضاف: «ستكون بيل ماريون عالمة بالفنون، أو مؤرخة في يوم ما؛ فهي لديها موهبة راسخة في تقدير الفنّ وفهمه، ولاسيما تاريخ الفنون، وهذا الكتاب يمثّل مجرّد بداية لها، وأوّل الغيث قطرة!»

فأومأت برأسي له في إشارة إلى الموافقة؛ لأنّ بابا إذا آمن بأنّني يجب أن أصبح عالمة بالفنون أو مؤرخة لها، فإنّ ذلك سيتحقّق بالفعل.

لكنّ ابتسامتي تلاشت عندما نظرت إلى ماما المحبطة، التي ردّت عليه كما لو أنّ الأمر قد تمّ نقاشه، وحُسم حلّه، وقالت: «لماذا تملأ رأس الفتاة بهذه الأشياء يا ريتشارد؟ لن تكون بيل ماريون عالمة فنون، فهي فتاة ذات بشرة ملوّنة، ولا بدّ لها من التركيز على مهنة مناسبة لها مثل مهنة التدريس. بيل ستصبح معلّمة.» أعلنت ذلك الأمر كما لو أنّه قد حسم.

هزّ أبي رأسه مجدّداً، وقال: «أوه. لا يا جينيفيف، فلننتظر ونرى ما ستنوي بيل القيام به.» ثم غمزني وقال: «الآن، من الذي يريد مزيداً من الكعك؟»

****

أخذ إخوتي يحدّقون في وجهي، متسائلين عمّا إذا كنت سأستمر في مشاركتهم سرد قصص عن السيّد مورغان، لكن لم أكن أحملُ حولهُ أكثَرَ ممَّا سردتهُ عنهُ في تلك الليلة.

لقد مرّت ثماني سنوات منذ أن أصبحنا ستة أفراد بلقب غرين، ورغم ذلك ظلّ غياب السابع معي لا يفارقني كلّ يوم، حتى في هذه اللحظة أفتقد والدي أكثر من المعتاد. وعندما ألقي نظرة على ماما مكتوفةَ اليدين، تضغط على شفتيها معاً، أتوق إلى رؤية بابا أكثر. أريده هنا لا لحمايتي من توبيخ عين ماما فحسب، بل للاحتفال. ففي نهاية المطاف، بابا هو من تنبّأ لي بهذا المصير، وهو الذي وضع الأساس لي لأكون بيل دا كوستا غرين، أمينة المكتبة الشخصية للسيّد جي بي مورغان.

***

أغلقت باب غرفة النوم خلفي، وأنا أقلّب بعض الكتب بين يديّ، وتجاوزت راسل الذي كان نائماً على الأريكة، وأنا أمشي على أطراف أصابع قدميّ كي لا أزعجه، ثم استقرّ بي الأمر بالقرب من طاولة المطبخ؛ حيث مددتُ يدي إلى كومة من الكتب وضعت في صندوق، وسحبت منها أحد الكتب. وبالانتقال إلى المكان المحدّد في الدرس الذي خصّصته لتثقيفي، قمت بفتح قاموس اللّغة اللاتينية على مصراعيه. حتى وإن لم يجعل السيّد مورغان ذلك جزءاً من مسؤولياتي الوظيفية، أخذت على عاتقي تعلّم اللغة اللاتينية، على غرار تعلّم لغات أخرى؛ لأنّ العديد من النصوص التي سأكتسبها للمكتبة ستكون مكتوبة بتلك اللّغات. ومن أجل تقييم أصالتها، كنت أحتاج إلى معرفة ما أنا بصدد قراءته. والليلة ستكون مخصّصة لأوّل درس لي في اللغة اللاتينية.

لكنّني سمعتُ، قبل أن أستهلّ الدراسة، باب غرفة النَّوم، التي أتشاركها مع ماما وتيدي، وهوَ يُفتحُ، واندهشت حين رأيت ماما وهي تقترب مني؛ لقد ظننت أنّها كانت نائمة عندما غادرت الغرفة. بدا وجهها نقياً، أمّا شعرها فكان مصفوفاً على شكل جديلة طويلة تصلُ إلى ظهرها، وكانت ترتدي فحسب ثيابَ النَّومِ الزّرقاء السماويَّة. لقد كان من النَّادرِ أن نرى ماما ترتدي ثيابها

الليلية من دون ارتداء ثوبها المطرّز، فمن المستحيل أن تغادر غرفة النوم من دونه.

ابتسمت لها، لكنّ شفتيها ظلّتا مغلقتين بإحكام؛ فتعابير التجهّم البادية على تقاسيم وجهها لم تتغيّر عن الليلة السابقة، ثم همست لي: «أردتك أن تتسلّمي هذا الظرف.» أخذت الظرف من يدها، إلا أنّ ماما ابتعدت عني قبل أن أطرح عليها أيّ سؤال، وعادت إلى غرفة النوم بشموخ وكبرياء، وهي تسير برأس أشمّ وكتفينِ مرتفعين، ثم ألقيت نظرة إلى الرسالة الموجّهة إلى ماما، وعلى الفور تعرّفت إلى خط يد الخال موزارت. لقد اندهشت حين علمت أنّ الخال موزارت يكتب رسائل منفصلة إلى ماما، وكذلك إلي وإلى إخوتي، فنحن لم يسبق لنا البتّةَ أن تبادلنا قراءة رسائلنا التي بيننا من قبل.

سحبت ورقة الرسالة من الظرف، وبدأت القراءة:

عزيزتي جينيفيف:

يفترض بي أن أبدأ هذه الرسالة، كالمعتاد، بإخبارك عن أحوال عائلتنا، وطمأنتك بأنّ كل شيء في المنزل على ما يرام، لكنّ الأخبار التي يجب أن أنبئَكِ بها ملحّة. أريدك أن تواكبي أخبار ريتشارد من طرفي أنا، لا من طرفٍ آخر. أعتقد أنّني أخبرتك سابقاً أنّ الرئيس ماكينلي سبق له، قبل اغتياله، تعيين ريتشارد في منصب دبلوماسي في الهند، لكنّ ريتشارد لم يذهب بسبب الطاعون الدبلي، لكن تمّ نقلهُ منذ ذلك الحين إلى مدينة فلاديفوستوك الروسية، التي أعتقد أنّك تعرفينها، لكنّ ما لا تعرفينه هو ما حدث في روسيا يا جينيفيف؛ لقد تزوّج ريتشارد امرأة يابانية عرفياً ولديهما طفلان...

تركتُ ورقة الرسالة فوق الطاولة من دون أن أنهي قراءة بقيّة السطور. لقد كانت يداي وشفتاي ترتجفان، وانتابتني موجة من الأسئلة: بابا متزوّج؟ ويعيش في روسيا؟ ولديه أطفال؟ كيف يعقل هذا؟ حيث لم يسبق لخالي موزارت البتّةَ أن ذكَرَ مواعيد أبي في الخارج في جميع رسائله إليّ، رغمَ ما

بدا عليهِ من تواصلٍ مع أمّي، فلطالما ربطها بكلِّ ما يحدثُ مع أبي. أعتقد أنّ الخال موزارت لم يستطع أن يلزمَ الصَّمت حيال هذا الأمر، وأنّه أراد حماية ماما من صدمة اكتشافه من شخص آخر.

لقد فهمت حزن ماما الليلة، وفهمت كنه سؤالها، فالتفتُّ إلى غرفة النوم، وتساءلت عما يمكن أن تكون ماما بصدد فعله وراء ذلك الباب المغلق. هل هي بصدد مقاسمة حزنها مع وسادتها، تبكي بصمت كي لا توقظ تيدي؟

شعرت بحرقة بعينيّ المغرورقتين بالدموع بمجرّد تذكّري ماما وبابا معاً، ويداهما لا تتفارقان، وتذكّرت كذلك قبلاتهما المسروقة. فعلى الرغم من مرور ثماني سنوات، كنت أعلم أنّ ماما لا تزال تحب بابا؛ وطالما اعتقدت أنّ هذا هو السبب الذي جعلها لا تطلب منه الطلاق. وربما كان هناك جزء منها هو الذي كان يبقي ذلك الباب مفتوحاً، وها هي قد أوصدته الآن ليظلّ مغلقاً إلى الأبد.

نهضت من مقعدي وفيّ رغبةُ الرَّكضِ نحوَ أمِّي والارتماء في أحضانها، لكنّني عدت لأجلس ببطء. أنا أعرف طباع والدتي، فهي لم تكن تريد نقاش الأمر معي، بل كانت ترغب مني فحسب أن أكون على دراية بهذا الخبر. ومن المفترض بي أن أدفن تلك المعلومات في أعماقي، مثلما فعلت مع أشياء أخرى كثيرة. وأظن أنّها لن تشارك هذا الخبر مع أيّ أحد غيري.

ثم كفكفت دموعي، التي سالت على خدي بحرقة، وأخذت أحدّق في الكتب التي كانت أمامي؛ هذه الدروس تمثّل أكبر أولويّاتي الآن. لقد أوضحت لي ماما الليلة أنّه لم يعد هناك أدنى ذرّة من الأمل في أن أتمكّن من العودة إلى أن أكون بيل ماريون غرينر لا بالقدر الذي كنت بجدّية أؤمن به. إنّ رفاه هذه العائلة يعتمد الآن على صعودي وتبني اسم بيل دا كوستا غرين إلى الأبد.

رفعت كتاب تعليم اللغة اللاتينية للمبتدئين، وتوقّفت عن مطالعته حين لاحظت تحرّك رأس أخي راسل على الأريكة، ثم فتحت بهدوء الصفحات عندما خلدَ أخي إلى النَّوم. لقد أرهقتني أخبار والدي إلى درجة أنّ النوم غاب عن جفني، فلم أستطع أن أخلد للراحة. سابقاً، كانت تعتريني رغبة في النجاح. أما الآن، فلم يعد من الممكن أن تكون تلك الرغبة مجرّد لهفة بسيطة؛ لا بد لي من الالتزام بالنجاح.

الفصل السادس

24 أيار/مايو 1905

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

«آنسة غرين!»

لقد بلغ صوت السيّد مورغان مسامعي بعد أن انطلق صداه من مكتبه، وشقّ طريقه عبر القاعة المستديرة وصولاً إلى مكتبي. وبمجرّد بلوغ أصداء خواره مسامعي، قمت بتسريح شعري، وتعديل ثنايا ثوبي الجديد الأخضر المائل إلى الزرقة، وأمسكت أوراقي وقلم حبري. لقد تعلّمت فنّ التحسّب لكلّ طارئ بمجرّد أن ينادي عليّ السيّد مورغان بما في ذلك التنبّه إلى أدنى التفاصيل.

الأمر لم يكن يحتاج إلى أي خداع أو تكلّف مني، فنداء السيّد مورغان لي كان يسبقه دائماً الصرير المميّز لكرسيه الذي كان يدفعه صوب مكتبه بحركة بطيئة مدروسة من قدمه التي تشبه مخلب الأسد على الأرضية الرخامية. والضجيج الذي كان يحدثه ذلك الصرير كان يتردّد صداه في جميع أنحاء المبنى، وهو ما يعطيني ما يكفي من الوقت لإنهاء جبل الأعمال المتراكمة على مكتبي، والاستعداد لما قد يحتاج إليه السيّد مورغان. ولو كنت ذات قدرات خارقة مثل السحرة لكان بإمكاني عبور القاعة المستديرة والظهور عند بابه بسرعة البرق حتى قبل أن يناديني، مثلما يقع في الأعمال الكوميدية للسحرة، لكنّني لم أكن أتمتّع بتلك القدرات، رغمَ أنّ ارتفاع مستوى نجاحي

أو نزوله كان يعتمد على هواه ونزواته، إلا أنّه لم يكن يبدو متلهفاً للغاية. وكل ما كان في وسعي فعله، بدلاً من ذلك، هو النهوض تحسباً لأيّ طارئ، والانتظار إلى أن أسمع اسمي؛ ثم أتجسّد أمامه.

ثم سمعته يصرخ مجدّداً: «يا آنسة غرين!»، قبل أن يدرك أنّني كنت أقف بالفعل أمام إطار باب مكتبه.

«نعم يا سيّدي!»

أجبته، وكلّي علم بأنّه سينظر إليّ وتعابير الدهشة والذهول تهيمن عليه، كالعادة دائماً، وأنّه سيتعجّب من وصولي السريع إلى عتبة بابه، فتكرار ردّ فعله أثناء عمله خلال هذه الأشهر كان يسلّيني. أمّا ما أعدّه أقلّ تسلية في كلّ لقاء لي مع السيّد مورغان فهو نداؤه الرنّان، مهما حاولت انتهاج السلوك الصحيح تجاه أيّ تفاعل يقوم به، حتى وإن كنت على استعداد للإيفاء بمجموعة المهمات المتزايدة التي كان يطالبني بإنجازها. ويبدو أنّ مسؤولياتي كانت تتعاظم شيئاً فشيئاً في تناغم مع تقديره لي، فأنا صرت مطالبة بفهرسة كنوزه وتنظيمها، وتقديم المشورة بشأن المشتريات، واستعادة اللوحات الفنّية والكتب التي أُعيرت إلى مختلف المؤسسات، والتعامل مع مطالب الزيارة المتعلّقة بالاطلاع على المجموعة، ولقاء التجّار الذين كانوا يزورون السيّد مورغان. لقد كنت أعتقد أنّ سنواتي التي قضيتها في إخفاء هويّتي الحقيقية على مرأى من الجميع، مع كلّ ما يصاحب ذلك من حذر وتكييف ذاتي لضمان أنّني اندمجت وتأقلمت، كل ذلك من شأنه أن يعدّني لمواجهة كلّ المطالب المتغيّرة للسيّد مورغان، وهي، إلى حدّ ما، كانت مطالب متقلّبة، إلا أنّ السيّد مورغان الموهوب، وصاحب البديهة السريعة، والمزاجي في الآن نفسه، لم يكن يشبه أيّ شخص آخر قابلته على الإطلاق، وكذلك كانت احتياجاته.

وبعد أنّ أعدّ السيّد مورغان نفسه، زمجر قائلاً: «هلِ أحرزت حتى الآن أيّ تقدّم بشأن نسخة كاكستون اللعينة؟»، وقبل أن أتمكّن من الردّ أضاف: «متى ستجلبين تلك النسخة إلى مجموعتي؟!»

لقد ظلّ السيّد مورغان يسألني منذ فترة طويلة، وبشكل دوري، عن نسخة كاكستون من كتاب (موت آرثر)، بالإضافة إلى كلّ مطالبه الأخرى. لقد شعرت، على الرغم من علمي أنه يتوق حقاً إلى امتلاك تلك النسخة صعبة المنال، بأنّ استفساره عنها كان يظهر عادةً عندما يغضب منّي بشأن شيء ما، فيلوّح بطلبها وسيلةً لتذكيري بأنّه هو صاحب السلطة والنفوذ من خلال لفت انتباهي إلى تلك المهمّة التي لم يتم الايفاء بها.

فأجبته: «ما زلت أقوم بإجراء تحقيقات عن أسماء كلّ جامعي الكتب المطبوعة الأولى والمتاحف الرئيسية، في محاولة للتأكّد من موقعها»، ثم أضفت: «إن كانت هذه النسخة لا تزال موجودة بالفعل فإنّني سأجدها.»

أدركت من طريقة تدويره لشفتيه وجحوظ عينيه أنّه لم يكن مسروراً بإجابتي. ورغم ذلك استمرّ في الحديث، وسألني: «هل وصلتنا صناديق من مكتبة لينوكس؟»، فالسيّد مورغان أعار الكثير من مجموعته الفنّية والكتب للمتاحف في جميع أنحاء العالم قبل أن يبني مكتبة بيربونت. لقد قام بذلك بوصفه وسيلةً للتخزين، بالإضافة إلى غايات أخرى. وأنا الآن لدي مهمّة لا أحسد عليها لاستعادة بعض تلك الأشياء، وترتيب عودتها بأمان إلى المكتبة، ومن ثمّ العثور على مأوى مناسب لها هنا أو في أيّ مكان آخر.

«لقد أخبروني أنّها ستصلنا غداً يا سيد مورغان.»

أصدر صفيراً محبطاً يشبه بغرابة صهيل الخيل، وقال: «هل تعدّ استعادة ممتلكات المرء في الوقت المناسب أمراً متعباً يكلّف الناس كلّ هذا العناء؟»، وأشار إلى رفوف كتبه في الزاوية الاحتياطية الوحيدة، ثم أضاف: «توجد فجوة كبيرة هناك أوّد منك ملأها بالكتب التي أعرتها إلى مكتبة لينوكس.

ولي....» توقّف لبرهة، وقال: «صديقة خاصّة ستزورني هنا غداً، وأود أن يبدو مكتبي بصورة مثالية.»

لم أكن بحاجة إلى معرفة هويّة صديقته الخاصّة؛ لأنّني تعلّمت منه أنّ هؤلاء «الأصدقاء» المعنيين قابلون للتغيير، وأنّ للصداقة عنده مفهوماً قصير المدى، فهو ليس لديه سوى عدد قليل من «الأصدقاء الخاصّين»، ولم يكن له في ذلك الوقت من عشيقات سوى زوجتين لأحد رجال الأعمال البارزين في مدينة نيويورك، فضلاً عن أرملة رجل رأسمالي إنجليزي. ولقد تعوّدت على حضورهنَّ الدوري في المكتبة. أما تلك الرغبة الملحّة في جعل مكتبه يبدو خالياً من العيوب، فكانت تشير إلى أنّ عشيقة جديدة قد تظهر على الساحة، وهو ما جعلني أتساءل عن وجاهة وحقيقة الشائعات التي قرأتها في أعمدة الصحف بشأن المنافسة القائمة بين السيّد مورغان والسيّد دايموند جيم برادي على كسب ودّ الممثّلة والمغنّية الشهيرة ليليان راسل. يبدو أنّني سأخالف قاعدة عدم إخبار أمي عن السيّدات اللاتي كنّ يزرن السيّد مورغان في حال زارتنا الآنسة راسل الشهيرة فجأة في المكتبة.مكتبة سُر مَن قرأ

«ما الوقت المحدّد لموعدك يا سيّد مورغان؟ لقد أخبرني رئيس المكتبة أنّ النقوش حسّاسة إلى درجة أنّها استلزمت منه اعداد صناديق معدّة خصيصاً لشحنها، ورغم ذلك لا يزال أمامنا أمر آخر، فهي ينبغي أن تصل في صباح الغد.»

«قد تصل صديقتي هنا في حدود الساعة....» قاطع كلامه صدى كلمة «بابا» وهي تتردّد في مدخل المكتبة؛ لقد أسكته صوت أصغر أبنائه؛ ابنته غير المتزوّجة البالغة من العمر اثنين وثلاثين عاماً، والتي تدعى آن.

قصص السيّد مورغان الغرامية ليست سرّية تماماً؛ فهو يجنّد آن كغطاء في بعض الأحيان لترافقه في السفر ومعهما عشيقته، إلّا أنّه غالباً لا يشجّع أيَ

شخص على طرح نقاش مفتوح بشأن علاقاته. والسرّية والتكتّم كانتا أوامر ذلك اليوم، لذلك أدركت أنّ ذلك الجزء من المحادثة سينتهي في الحين.

نادت آن والدها مرّة أخرى: «بابا!»

ردّ والدها صائحاً: «أنا في المكتب!»

السيّدة مورغان نادراً ما تزورنا في المكتبة، على الرغم من أنّ المكتبة تقع إلى جوار منزلها. أما حين يتعلّق الأمر بزيارة أطفال مورغان الأربعة، فالمسألة تختلف؛ فبالإضافة إلى زيارات آن كان بإمكاننا توقّع زيارة الجميلة جولييت، أو الزيارة المنتظمة لابنة السيّد مورغان المفضّلة، لويزا، وكلتاهما متزوّجة، لكنّ ابنه هو من كان يزورنا يومياً تقريباً عندما يكون والده في المكتبة. لقد بدأ جون بيربونت جونيور، الذي كان يفضّل مناداته باسم جاك، السيطرة على أعمال العائلة، وكان يتشاور بشكل متكرّر مع والده. لقد صادف أن سمعت محادثتهما في بعض المناسبات النادرة، وتفاجأت بالعلاقة المتوتّرة بينهما، فجاك كان دائماً محترماً، أما السيّد مورغان فهو سريع في إطلاق الأحكام ومتسلّط.

على الرغم من أنّ جولييت ولويزا وجاك تقبّلوا برحابة صدر وجودي في المكتبة، وتعاملي مع والدهم بعين ناقدة لعمله في الفن وجمع الكتب، وكانوا لطفاء جدّاً معي، كانت آن متسامحة، لكنّها لم تكن مرحِّبة بفكرة أن تكون لوالدها امرأة في منصب أمينة للمكتبة، حتى بعد مرور تلك الأشهر التي أثبتُّ فيها جدارتي، ومدى الفائدة التي كان السيّد مورغان يجنيها من خدماتي. وقد فاجأني برودها بالنظر إلى ما تعلّمته من جهودها لدعم النساء الأخريات. لقد كانت مالكة لجزء من فيلا تريانون، التي تقعُ قرب مدينة فرساي لمساعدة صديقتها إلسي دي وولف في تطوير مهنة الديكور الداخلي. كما ساعدت في تنظيم أوّل نادٍ اجتماعي للنساء في مدينة نيويورك، نادي المستعمرة، وقد زادت مؤخراً من اهتمامها بالنساء العاملات في مختلف الصناعات، وولعها بقضيّة حق المرأة في التصويت. وربما جعلها اطلاعها على خيانات والدها تشعر

بالخجل من معظم النساء اللاتي كنّ في محيط اهتمامه، أو ربما كانت تشعر بالغيرة من أن تشغل امرأة أخرى، خلافها، الكثير من وقت والدها خلال النهار.

دخلت آن إلى المكتب. لقد كان لها حاجبان غليظان سوداوان بلون وحجم حاجبي والدها نفسيهما، منتفشين إلى فوق ومن تحتهما تظهر عيناها البرّاقتان. لعلّ أولى الكلمات التي خطرت في بالي عندما قابلت آن، بعد مرور أيام فقط من بدء عملي في المكتبة، ما قالته من أنّني «قويّة.» إنّها امرأة طويلة القامة ذات أكتاف عريضة ووركين عريضين، لكنّها، بطريقة ما، تمكّنت من أن تبدو فخمة بفضل ارتدائها أغلى الأزياء. واليوم هي، على سبيل المثال، ترتدي بلوزة بيضاء بأطواق ضخمة وأكمام فضفاضة وتنورة سوداء مفتوحة قليلاً عند خصرها من المرجّح أنّ ثمنها يتجاوز راتبي الشهري، ورغم ذلك جعلها طاقم الملابس تبدو بمظهر كئيب، إلا أنّ ذلك لم يكن ينتقص من أيٍّ من قوّتها ومن طبيعتها الموقّرة.

ثم خاطبت والدها بطريقة توحي بأنّها كانت تحيّيني: «آه. أنت مع الآنسة غرين! هل أنا بصدد مقاطعتكما؟»، وشدّدت نطقها آخرَ كلمة نبست بها لتفتح باب التأويل لعديد التفسيرات.

خاطب السيّد مورغان ابنته بلهجة حذرة، لكنّها تنم عن اهتمام: «نحن بصدد مناقشة مسألة ما استعارته مكتبة لينوكس منا، لكن كما تعلمين أنت دائماً مرحّب بك لمشاركتنا النقاش في كل وقت.» السيّد مورغان كان يولي آن معظم رعايته أكثر من جميع أبنائه؛ رغم نشوء بعض الحساسيات السياسية الليبراليَّة بينهما، حتى غير التقليدية، ومن ثم إنّ وجهة نظرها كانت تتعارض مع وجهة نظر السيّد مورغان.

كنت أستشف خوفه من إحداثها قطيعةً داخل العائلة حتى وإن كان يستميت في جعلها مقرّبة منه.

ابتسمت آن لوالدها، رغمَ أنّ الضوء المحيط بها خفت عندما نظرت إليّ وقالت: «إنّ ماما تتساءل عما إذا كنت ستلتحق بنا لتناول طعام الغداء مع عائلة فاندربيلت، وإذا كان الأمر كذلك فهي ترغب في عودتك إلى المنزل معي.»

علمت، من خلال الصمت الذي لحق ذلك الكلام، أنّ السيّد مورغان كان ينتظر تفسيراً من آن للسبب الذي قد يجعله يعود إلى المنزل قبل الغداء بساعة، إلا أنّ آن ظلّت واقفة بثبات من دون إعطاء أي تفسير؛ فعلمت حينها أنّها تشبه والدها في خصال مثل العناد وقوّة الشخصية، بالإضافة إلى خصال أخرى. وتساءلت إن كان مبرّر ذلك الصمت هو حضوري بينهما. هل استوعب السيّد مورغان طلب ابنته غير المعلن؟ وسواء تعلّق الأمر بعالمه المهني أم الشخصي، فأنا غالباً كنت أشعر بأنّني بمنزلة حجر عثرة في طريق عالمه، دون فهم أصول المحادثات التي كنت أشاهدها، أو حتى إدراك الفروق الدقيقة فيها.

تنهّد السيّد مورغان وأصدر صوتاً جعل جوّ القاعة يبدو ثقيلاً، وقال: «سألتحق بكم في الوقت المحدّد للغداء، ولكن ليس قبله»، ثم أشار إليّ وأضاف: «لدي أعمال مع الآنسة غرين لا بد لي من إنهائها قبل الاجتماع معكم.»

ردّت آن بلهجة تحدٍّ: «أعمال؟»، ثم أضافت حين لاحظت عدم مبالاة والدها: «مثل ما تشاء يا بابا.»

لقد جرحها رفضه بطريقة ما، فهمّت بالمغادرة، لكن قبل وصولها إلى باب المكتب، قالت بنبرة حادّة لا غبار عليها: «لا أودّ إلهاءك عن الآنسة غرين الغالية!»

ثم غادرت وبقينا صامتين لا نسمع سوى صدى صوت كعب حذائها يتردّد في أرجاء القاعة المستديرة. وفي اللحظَة، التي هممت فيها بالعودة إلى مكتبي، تنهّد السيّد مورغان وقال: «اقرئي لي يا آنسة غرين.»

لم يكن ذلك بالطلب الجديد، رغمَ أنّه لم يكن ضمن الأعمال التي توقّعتها قبل الحصول على منصبي في المكتبة، فاتجهت صوب كومة من الكتب وقع تجميعها فوق أحد الرفوف وقلت له: «ماذا تودّ أن تسمع مني اليوم يا سيّدي؟»

لقد كانت تلك المناسبة الأولى التي يباغتني فيها بطلب قراءة أحد الكتب. كان بإمكان ذلك الرأسمالي الثري، الذي يبلغ من العمر ما يناهز السبعين عاماً، القراءة، ولم يكن يفترض بأمناء المكتبات عادة القراءة بصوت عالٍ لأرباب أعمالهم إلا إذا كانوا أطفالاً. لكنّني كنت مضطرّة في ذلك اليوم إلى قراءة آيات من إحدى أناجيله تروي قصّة النبي يوسف، ذلك الرجل الذي تحوّل من سجين إلى أمير. لقد هدّأت تلك الآيات من روعه، وهو الآن يطالبني بتكرار هذا السلوك بانتظام، وغالباً ما يطالبني بأن أقرأ له آيات من الإنجيل بصوت عالٍ، وعادة تكون نسخة الكتاب المقدّس من أوّل الكتب المطبوعة النادرة، أو يطلب مني قراءة أحد الكتب التي يفكّر في شرائها.

«افتحي أحد الأناجيل ورتّلي لي بعض الآيات عن قصّة النبي يونس.»

رغمَ أنّني كنت أميل إلى اختيار نسخة إنجيل أوائل القرن الثالث عشر المليء بالمواعظ؛ ذلك الكتاب الضخم البرّاق المكتوب بماء من ذهب، كنت أعلم أنّه لا يحتوي على آيات تروي القصّة التي كان يرغب في سماعها. لذلك اخترت الكتاب المقدّس المحمود، الذي طُبع في القرن الثامن عشر، والذي كان يمثّل نقطة محورية في المجموعة الأثرية لأي شخص آخر، لكنّه لم يكن كذلك في هذه المكتبة، ثم جلست في الكرسي المقابل لمكتبه، وانطلقت في التلاوة.

بمجرّد تلاوتي لتلك الحكاية القديمة للرجل الذي كان يرفض مناداته بالنبي، ما جعله يواجه عاصفة عاتية من إله منتقم، أخذت عينا السيّد مورغان في النعاس، وواصلت التلاوة، غير مبالية بما إذا كان السيّد مورغان نائماً أو

مستيقظاً، إلى أن أنهيت سرد قصّة النبي يونس وبقائه في بطن الحوت وقبوله النهائي بمهّمة النبوّة.

وسادت بضع ثوان من الصمت الجوّ قبل أن ينبس السيّد مورغان ببعض الكلمات: «أعتقد أنّني في أحد الأيام سأنجو فقط من عائلتي في حال ابتلعني أحد الحيتان بالكامل.» ولو كان ذكرُ عائلته موجّهاً إلى أي شخص آخر غيري، لكنت ظننت أنها فرصة، أو سبب قد يجعلني أسأل عن التيّار الخفي الذي ساد بينه وبين آن اليوم، لكنّني لن أفعل ذلك أبداً. يجب أن أكتفي بالافتراض فحسب.

ثم فتح عينيه على نحو مفاجئ وقال: «يا له من فستان جميل!»

فقلت: «شكراً يا سيّدي!»، وسررت بأنّه قد لاحظ ذلك. لقد أحسنت التصرّف في راتبي بعناية، فتمكّنت من إضافة ثوبين لائقين إلى خزانة ملابسي، واليوم كنت أرتدي ما أخبرتني به البائعة في متجر بي ألتمان على أنّه كان ثوباً لأميرة به سترة قصيرة تصل إلى الخصر، وهو على ما يبدو أحد أحدث التصاميم الجديدة لفصل الربيع.

ولم ينفك السيّد مورغان عن مدح حسن مظهري منذ أن بدأت العمل لأوّل مرّة في منصبي الجديد إلى الآن، وليست مؤكّدةً لدي كيفيةُ فهم كلماته، فالأفكار التي كانت تدور في خاطري كلّها كانت تحذّرني من سمعته، لكنّني أدركت، بمرور الوقت، أنّ السيّد مورغان كان يراني بعين الأب، جزئياً على الأقل.

«أنت تتمتّعين بذوق رائع في اختيار الملابس!»، فابتسمت لأنّ لهجته أحدثت فيّ مزاجاً جيّداً، ثم أضاف: «ليت آن توافق على الذهاب للتسوّق معك.»

لم تكن هذه المرّة الأولى التي يقترح فيها السيّد مورغان عليّ التواصل اجتماعياً بطريقة ما مع آن، لكن بدا من الواضح لي أنّه ليس مقّدراً لي ولـ آن أن نكون أصدقاء.

ثم غيّر السيّد مورغان موضوع الحديث مرّة أخرى، وقال: «بقي لنا من الوقت نصف ساعة قبل أن أغادر. أخبريني عن رأيك في هذه المخطوطة التي حصلت عليها من ليو أولشكي.»

لقد انتقلنا من الحديث عن بطن الحوت إلى الحديث عن ملابس النساء، وانتهينا بالحديث عن الناشر والتاجر الفلورنسي. هذا التحوّل الحاد في الانتقال من موضوع إلى آخر هو إحدى أكثر صفاته الثابتة التي كان يتعيّن عليّ التكيّف معها.

لقد سبق أن سلّمنا مساعد السيّد أولشكي، قبل بضعة أيام، نسخة نادرة للغاية من كتاب الخطب لشيشرون تعود إلى عام 1468، طبعها بانارتز وسوينهايم، من أجل إمكانية اقتنائها من قبل السيّد مورغان، وكنت قد قمت حينها بفحص ذلك المجلّد، وشعرت بسعادة غامرة حين تشرّفت بوضعه فوق طاولة مكتبي، واطّلعت على الترتيب الرائع لحروفه ووضوحها. كما قضيت وقتاً طويلاً في تقييم الرسالة المصاحبة التي كانت تذكّر بالثمن الذي حدّده التاجر لهذا المرجع.

«حسناً، يبدو أنّ الغلاف والصفحات الداخلية في حالة ممتازة. وبطبيعة الحال، لا أحد يجرؤ على نقد طباعة بانارتز وسوينهايم. ومن المؤكد أنّ هذا الكتاب سيكون خير خاتمة تختتم بها ذلك الجزء من مجموعتك.» هذا هو ما قلته له بثقة استعرتها من الأشهر التي قضيتها مع السيّد مورغان، الذي نصّبني أمينةً بيضاء البشرة لمكتبته، فأمدّني بالأمان من دون أن يسألني عن جذوري، سواء بالقيام باستفسارات علنية أم حتى بالقيام بنظرات خفية؛ لذلك كنت واثقة من نفسي إلى حدّ ما. نعم كنت كذلك، لكنّني لم أكن مرتاحة أبداً.

أومأ إلي برأسه مشيداً بما قلت، وقال: «إنّ ما قلتِه صحيح وكافٍ!»

فعلّقت على كلامه: «لقد تبرّع ابن أخيك بكتاب مماثل من طباعة بانارتز وسوينهايم إلى مكتبة جامعة برينستون، وهو بالتأكيد ما جعله يحصل على العديد من الأوسمة.»

قال، وهو يراقبني بعينين مهتمّتين، في تفاعل مع تقييمي: «نعم، نعم. أذكر أنّ لديه ديوان فيرجيل. هل لديك أيّ اعتراض على ذلك يا آنسة غرين. لا تخجلي أخبريني عن رأيك.»

تعجّبت كيف شعر بما كان يجول في خاطري، وقلت: «مقارنة بما يوجد في السوق يُعدّ السعر الذي يطلبه السيّد أولشكي مثيراً للسخرية ومهيناً لك.»

لقد اخترت كلمة «مهيناً» بعناية؛ لأنّ وليّ نعمتي كان يفتخر دائماً بدفع السعر المطلوب وعدم المساومة أبداً. لقد كان يرى أنّ المساومات «مهينة»، لذلك إنّ مجرّد الإشارة إلى أنّ السعر الذي حدّده أولشكي باهض لم يحرّك فيه أيّ ساكن، إلا أنّ السيّد مورغان لم يكن بالرجل الذي يتسامح مع الإهانات.

فقام من كرسيه منتصباً، وقال: «ماذا تقصدين؟»

قلت: «ما رأيك بثمانية آلاف فرنك؟ إنّه يطالب فقط بهذا المبلغ الزهيد؛ لأنّ جي بي مورغان بالنسبة إليه رجلٌ معروف بثروته وكرمه. لكن...»، ثم توقّفت عن الكلام لأسمح لنفسي بأخذ نفس عميق كي تبدو كلماتي هادئة، وكي أبدو واثقة من نفسي، ثم أضفت: «إذا أعطيتني الفرصة للعمل حارسةً لجميع الأبواب، فلن يكون لديه الجرأة نفسها في المستقبل، وستحصل على نسخة بانارتز وسوينهايم من خطب شيشرون، بل ستحصل لا على نسخة خاصة من عائلة ميديشي الحديثة ستضيفها إلى مقتنياتك التي تنمّ عن هوسك بالكتب فحسب، بل ستحصل أيضاً على نسخة كاكستون الخاصة بك.»

عبّرت شفتاه عن ابتسامة سارة، وأظنّني أدركت أن فكرة شابة أمينة مكتبة صغيرة تقف حارساً لرجل ضخم الجثّة سيئ السمعة يعرف باسم جي بي مورغان أثارت روح الدعابة فيه، لكن لعلّ مقارنته بعائلة مصرفية شهيرة من مدينة فلورنسا في عصر النهضة أرضته أيضاً.

ثم قال: «حسناً، إذاً، يا آنسة غرين، إذا كنت ترغبين في حمايتي وحماية مجموعتي التي هي بصدد النمو»، ثم أضاف وهو يقهقه: «فعليك أن تعرفي أعدائي. ويجب أن تحضري إلى الحفلة التي ستقام في منزل فاندربيلت في غضون أربعة أيام. هناك ستجدين جلّ خصومي من تجّار وخبراء وجامعيين على حدّ سواء.»

كانت تلك أوّل مرّة سمعت فيها موافقته وإذعانه. قلت في نفسي: هذا الدور الموسّع في المكتبة هو بالضبط ما كنت أرنو إليه، لكنّ منسوب الحذر ازداد بشكل مساوٍ للنشوة التي اعترتني عندما أدركت أنّه كان بصدد استدعائي إلى عالمه الاجتماعي، وهو محيط لا يشمل عائلته وأصدقاءه فحسب، بل يزخر أيضاً بألدّ أعدائه. وسوف أضطرّ إلى توخي الحذر حال دخولي إلى منزل إحدى أغنى العائلات في الولايات المتّحدة الأمريكية، فالأعداء يمكن أن يكونوا خطرين بشكل خاصّ على فتاة ذات بشرة ملوّنة تسمى بيل ماريون غرينر؛ لأنّها تعبر العتبة إلى العالم الأبيض الأوسع باسم بيل دا كوستا غرين.

الفصل السابع

24 أيار/مايو 1906

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

بمجرّد دخولي أروقة قصر فاندربيلت، وجدت نفسي محاطة بنساء يرتدينَ أثواباً خارقة للعادة بسترات ضيّقة لامعة بالكريستال واللؤلؤ، أمّا الرجال فكانوا يرتدون بدلات رسمية تزيّنها ربطات عنق بيضاء. ووجدت نفسي مضطرة إلى عدم الاندهاش. لقد شعرت بالفعل بأنّني هائمة مثل ظلّ يترنّح في فضاء مظلم مختفٍ عن العين أثناء البحث عن الضوء. وكلّ ذلك حدث وأنا مازلت لم أصل إلى قاعة الحفل الراقص بعد.

ثم قدّمت بطاقة دعوتي للحفل إلى أحد الخادمين لدى عائلة فاندربيلت، وهو رجل ذو شعر كستنائي يرتدي صدرية بيضاء ظلّ يلمح ويتفحّص وجهي كما لو أنّ عينيه البنّيتين الداكنتين كان بهما عدسات خاصة. وتحديقه فيّ جعلني أشعر بالتوتّر. تذكّرت حينها تعليمات ماما وهي تعبر ذهني: قفي باستقامة، بأكتاف شامخة، ونظرة ثابتة لا تتزعزع. أعتقد أنّني كنت أطبّق حرفياً كل تعليماتها، لكن من الواضح أنّ هناك خطأً ما قد وقع.

ظلّت عينا الخادم تحدّق فيّ وأنا أسلّمه تلك البطاقة المذهّبة ذات الحواف المنقوشة. تزايدت نبضات قلبي في الخفقان حين حوّل بصره من التحديق فيّ إلى تفحّص بطاقة الدعوة.

خطرت في بالي كلمات أمي مجدّداً: كوني حذرة من القيام بأيّ شيء يجعلك تبرزين في الصورة.

أَفعلت شيئاً من هذا القبيل أم أنّ هذه هي اللحظة المناسبة التي كنت أستعد فيها على نحو يومي تقريباً لتقديم نفسي؛ تلك اللحظة التي سيتم فيها الكشف عن سري؟ وبقيت أترقّب صدور أيّ سؤال منه، وأعدّ نفسي لتعابير السخط المناسبة التي سأوجّهها إليه ردّاً على ذلك الصنيع، إلى أن سألني الخادم: «هل أتيتِ بمفردك؟»

غضضت الطرف، وتنفّست الصعداء، فهو لم يكن قلقاً بشأن لون بشرتي إلا أنّ ارتياحي سرعان ما تبخّر عندما سمعته يكرّر سؤاله.

فقلت: «نعم.»

لقد أجبته ولم أكن مسرورة من نبرة التردّد التي رافقت صوتي، وخامرتني بعض الأسئلة الخاطفة: ماذا يخفي خلف سؤاله؟ وأيّ خطأ اقترفته؟

ثمّ هز رأسه، فأوحى إليّ بعلامات رفض واضحة، ومع ذلك أشار إلي بعد ذلك بالدخول، فسارعت إلى الدخول محاولةً تجنّب لومه الصامت. لقد كان في وسعي استشعار همساته الزائدة ورائي، وهو يتبادل الحديث مع باقي الخدم عن مدى رعونتي. لقد كانت همساتهم، على الأقل، تتعلّق بعدم كفاءتي الاجتماعية لحضور مثل هذا الحفل لا أكثر.

ولم أشعر بالأمان إلا حين وطأت قدماي أرضية القاعة الكبرى، وغابت عني أنظار الخدم. لماذا لم يخبرني السيّد مورغان أنّني بحاجة إلى مرافق؟ وهل لايزال هناك شيء آخر لا أعرفه سيحدث؟ ثم قبلت شرب كأس بلوري من الشمبانيا قدّمه لي نادل عابر، على أمل أن يهدّئ مشاعر عدم انسجامي مع المكان، لكن على الرغم من أنّ ذلك السائل الذهبي الفوّار ساعدني على الشعور بالارتياح في القاعة، أصبحت أواجه الآن محاولة الاختلاط بأناس لم

أكن أعرفهم؛ أناس من مقامات اجتماعية تفوقني؛ فهل يمكنني القيام بقفزة جيّدة رحبة؟

وتساءلت أكثر عن مصدر كلّ ذلك البريق المهيمن على القاعة؛ أَهو لمعان الأحجار الكريمة، التي كانت تزيّن السيّدات، أم الإطارات المذهّبة للتحف الفنّية المعلّقة على الجدران، التي تعود إلى روائع القرون الوسطى؟ لم يسبق لي أن واجهت كل ذلك النور المتألّق، بشكليه الثابت والمتحرّك، حتى في مكتبة بيربونت مورغان.

ثم أوقفت نفسي عن إلقاء نظرة خاطفة إلى الفستان الذي أمضيت أنا وماما وتيدي ساعات في تعديله، وتعجّبت من السبب الذي جعلني ألحّ على إضافة أكمام معقّدة من الدانتيل إلى ذلك الفستان القديم المصنوع من الحرير الزمرّدي، حتى وان كان الجدال مع ماما يتمحور حول أنّ تلك الأكمام كانت موضة عصرية، وليست مجرّد بهرج غير لائق. لقد بدت تلك الأكمام، التي حاربت من أجلها، مثل الأسمال الرثّة مقارنةً بالفساتين الحديثة مقوّرة الصدر، التي كانت تلبسها السيّدات في القاعة، بالإضافة إلى العباءات القصيرة للغاية التي بدت بمنزلة شكل آخر من أشكال الزينة. وحمدت الله لأنّ فكرة تيدي العبقرية بارتداء قبعة طويلة مزيّنة بالريش أنقذتني بالتأكيد من ملابسي التي لم تكن ملائمة، ومنحتني بعض الثقة.

وتساءلت: أين تعيش تلك النساء التي تشبه الطواويس في ضوء النهار؟ هل يتجرّدن من ريشهنّ، ويتجوّلن في الشوارع بلا هدف أو زينة من دون أن يعرفهن أحد؟ لقد جعلتني تلك الأفكار أضحك في داخلي، وأحمل كأسي الذي ملأه نادل آخر بمزيد من الشمبانيا. كيف كان بوسعي التفكير مسبقاً في ارتداء ثوب يتلاءم مع الحفل الراقص لعائلة فاندربيلت؟ فأنا لم أكن أملك أدنى وسائل الزينة، أو حتى من المرجح أنّني لن أملكها أبداً، لأتلاءم مع هذا الحدث، إلا في حال عثرت فجأةً على ثروة طائلة، وأسرفت جزءاً كبيراً منها

على الملابس. وأفضل ما يمكن أن أتمناه الليلة هو التخفي، وهو ما كان قد حدث لي على أيّ حال؛ حيث لم يتحدّث معي أحد بعد.

تخيّلت للحظة ما سيفكّر فيه بابا إزاء تلك الليلة، ثم توقّفت وأخذت نفساً عميقاً. لقد مرّت أشهر منذ أن قرأت رسالة الخال موزارت إلى ماما، ولا يزال غضبي وحزني جاثمين على قلبي. لكن في الآن نفسه، لم يتضاءل حبّي لوالدي، فأنا ما زلت أتوق إلى مشاركة هذه التجربة معه، فهو سبب وجودي هنا.

ثم تجاهلت التفكير في والدي، واتخذت قراراً بأنّ هذا هو الوقت المناسب لأقوم بجولة في القصر، ووجدت نفسي أتجوّل في محيط يعجّ بعشرات الأزواج، الذين كانوا يتحدّثون ويضحكون، وسرت في بهو حجري كبير بُني بأحجار مستوردة من مدينة كان الفرنسية، ومكوّن من خمسة طوابق، ودرجين نظيفين، وممشى مربع الشكل أكبر من شقّة عائلتي بأكملها، ثم دخلت إلى غرفة خلابة تقطع الأنفاس، وتفتح على الشمس، وتطلُّ على حدائق غنّاء. رأيت في تلك الليلة أيضاً أوّل ناس من أصحاب البشرة الملوّنة موجودين في جانب آخر من القاعة، وجلّهم من الخدم الذين كانوا يشقّون طريقهم بين الضيوف، فتسرّعت في تجنّب النظر إليهم. وعندها فحسب لمحت الآنسة آن مورغان وهي منغمسة في الحديث مع أختها جولييت، وشعرت بالراحة عندما ألقتا نظرة صوبي.

تحرّكت جولييت بتمايل جهتي. لقد بدت جميلة وهي تضع ثوباً بنفسجياً شفافاً مرصعاً ببلورات ملائمة، وتقف برونق خاص إلى جانب آن في ثوبها الرمادي الغامق؛ فابتسمتُ وسرت نحوهما، فحدّقت فيّ آن على نحو فاضح، قبل أن تمسك ذراع شقيقتها جولييت، وتجرّها للسير في اتجاه آخر عبر الأبواب المزدوجة المقوّسة الهائلة.

اجتاحني دفء ذلك الإحراج العارم، بينما كنت أحاول استيعاب ذلك الاحتقار، وألقيت نظرة إلى جموع أكتاف الحضور، لكن لا أحد، من بين

الخمسين أو ما يناهز ذلك من الضيوف الموجودين في تلك القاعة، كان ينظر إليّ. شعرت بالامتنان في تلك اللحظة لأنّني كنت غير مرئية، لكنّني واصلت سيري مثلما نويت طوال الوقت، وبقيت أتنقّل في ذلك الفضاء الفخم، أحاول ألا أسأل نفسي أيّهما أسوأ من الآخر: أَهو تفاعلي مع الخادم أم ازدراء آن لي.

ثم طردت أفكار الشعور بالنبذ الاجتماعي من ذهني، بينما كنت أسير في دهشة من هذا القصر الواسع الفاخر. غادرت الغرفة المطلّة على أشعّة الشمس، ودخلت مكتبة فاندربيلت، التي لم تكن، بطبيعة الحال، بالحجم الكبير نفسه لمكتبة بيربونت مورغان. إلا أنّ تلك الغرفة المفردة كانت مثيرة للإعجاب تزيّنها ألواح إنجليزية داكنة، ومدفأة منحوتة من الرخام الأبيض، ورفوف كتب ممتدة من الأرض إلى السقف مليئة بآلاف الكتب. صرت أتنقّل بين أروقتها حيث تتدلى الصور والمناظر الطبيعية من الجدران الأرجوانية المخملية، وتحوّلت إلى غرفة الأكل، التي كان في استطاعتها أن تستوعب ثلاثين شخصاً في وقت واحد، وفي الأخير دخلت غرفة الموسيقا ذات الأرضية الرخامية الساحرة؛ وكل مساحة في هذا القصر كانت تنمّ عن بذخ منقطع النظير. يبدو أنّ الغرض الأساسي من القصر كان إعطاء لمحة برقية لا عن ثروة مالكه فحسب، بل تصوّر طبيعة طبقة النبلاء التي ينتمي إليها، وذلك أمر غير مستغرب؛ لأنّ أفراد عائلة فاندربيلت هم من حديثي النعمة، وينتمون إلى تلك الطبقة الغنيّة حديثاً التي تنتسب إلى الدائرة الداخلية لمجتمع مدينة نيويورك، أو ما يسمى أفراد الأربعمئة عائلة، الذين قد تمكّنوا من البقاء في هذه المراتب ويحكمونها بقبضة من حديد منذ القرن الثامن عشر.

أما السيّد مورغان، فلم يظهر أيّ شغف حقيقي بامتلاك العقارات الكبرى مقارنة بالسيّد فاندربيلت؛ فمنزله المبني بالحجر البني الجميل كان يقع في زاوية بين شارع ماديسون والشارع السادس والثلاثين. لقد سبق لي أن زرته في مناسبة وحيدة فقط، عندما طلب مني التقاط رسم نسيه هناك عن غير قصد.

وهو منزل متواضع نسبياً مقارنة بمعايير المنازل العصرية التي كانت إلى جانبه في الجادة الخامسة، على الرغم من انغماس السيّد مورغان، بطبيعة الحال، في حبّ النساء، وجمع التحف، وحبّه لسفينته التي يبلغ طولها ثلاثمئة قدم، والتي سمّاها مركب القرصان الثالث الذي يحتاج إلى طاقم من سبعين رجلاً للإشراف عليه. يعيش أفراد عائلة مورغان في رفاهية وراحة، لكنّهم يفتقرون إلى البهرج واستعراض العضلات الذي كان موضة دارجة عند السلالة الجديدة من مليونيرات الجادة الخامسة، إلا أنّ ثروة السيّد مورغان ومكانته اكتُسِبتا منذ أجيال تعود أصولها إلى مدينة بوسطن، وهو ما يفسّر أيضاً استخفافه بالأعمال الفنّية والمخطوطات التي كانت تخفي ملامح الحداثة.

ثم سرت نحو قاعة الرقص اللامعة المكوّنة من طابقين؛ حيث تجمّع معظم الضيوف، إما للرقص وإما للمشاركة في محادثة حيّة. أدهشتني فكرة فتح قاعة رقص داخل كلّ منزل بالفعل، لكنّني حاولت إخفاء تأثّري بصعوبة فتح قاعة بتلك الضخامة بالنظر إلى روعة الفضاء وشساعته. لقد كانت هناك صفوف من الكراسي المذهّبة البيضاء إلى جانب القاعة، بينما تدلّت ستائر الديباج الذهبية الثقيلة على النوافذ، وتأرجحت فوقنا ثريات لا حصر لها. لقد أشعرتني هذه القاعة، أكثر من أيّ قاعة أخرى في القصر، بعظمة لا توصف؛ ولا أستطيع أن أجزم سبب ذلك الشعور؛ أَكان يعود إلى فخامة الديكور أم إلى غرور الضيوف؟ إلا أنّني كنت أوقن فحسب أنّني أشعر بوحدة مطلقة، وأنّني كنت ضيفة سخيفةً.

ثم انتقلت إلى المحيط الخارجي للقاعة، وصرت أجولُ بنظري فيها بحثاً عن السيّد مورغان، لكن كان من الصعب عليّ العثور عليه نظراً إلى تحرّك الأزواج الذين كانوا يرقصون الفالس فوق أرضية القاعة. أما بقيّة الضيوف الآخرين، فكانوا يتحرّكون في ذلك العالم بكلّ سهولة.

ثم قرّرت دراسة سلوكيات الضيوف والطريقة التي كانوا يتفاعلون وفقها، وأدركت من خلال مراقبتي للنساء أنّ كلامهنّ مصحوب بلمسات لطيفة من قبيل نفض الغبار عن كتف أحد الرجال بمروحة يدوية، أو القيام بلمسة خفيفة بالقفازات على ذراع رجل نبيل، وجلّ نظراتهنّ كانت حادّة، وفي كثير من الأحيان جانبية. أغلب هؤلاء النساء، الكبار والصغار على حد سواء، العازبات منهنّ والمتزوّجات، كن يتغزّلن. لن توافق ماما أبداً على مثل هذه المحادثات، لكنّني ارتأيت أنّني قد أضطر إلى التكيّف بغاية الانسجام مع الوضع.

لقد التقطت إحدى النساء نظراتي، فأدركت أنّه يجب عليّ الابتعاد؛ فعدت أدراجي بحثاً عن السيّد مورغان. أين هو؟ هل استخدم هذه الدعوة واجهةً للقاء إحدى صديقاته الاستثنائيّات؟ وإذا كان هذا هو الحال فكيف يفترض بي لقاء أعدائه من دون تقديمات رسمية منه؟

ثم شعرت فجأةً كما لو أنّ كل العيون كانت مسلّطة عليّ، فالتفت وأنا أبتسم متوقّعة رؤية السيّد مورغان، لكنّ عينيّ التقتا بعيني خادم لم يميّزها من بقية الحضور سوى فستانها الأسود البسيط ذي الياقات البيضاء، وفوقه مئزر أبيض بالكامل. ربما تكون سمرة بشرتها الداكنة هي من جعلتها بشكل آني غير مرئية للضيوف.

وعلى الرغم من أنّ غريزتي كانت تخبرني بالابتعاد عنها، شعرت بانجذاب غريب إليها، وظلّت أعيننا ثابتة محدّقة إحداها في الأخرى إلى أن سمعت تحذير ماما يخامرني: إذا صادف أن رأيت أيّ شخص ذي بشرة ملوّنة، فعليك أن تقفي أمامه بشموخ، وتجنّبي حتى رؤيته. وإذا صادف أن وقعت عينك عليه، فقومي بإجراء إيماءة فحسب، ثم ابتعدي عنه.

فأبعدت نظري عنها، وفي اتصال سريع قمنا به في الوقت نفسه، استطعت أن أرى أنّها كانت تعرف. للمرّة الثانية في هذا المساء، شعرت بعنف دقّات قلبي، بينما كنت أحاول استنتاج ما أراه في عيني المرأة. هل أغضبها خداعي؟

هل ستكشف هويّتي أمام المضيف؟ هل ستكشفها أمام رئيسي؟ هل سأفقد كلّ شيء قمت به في هذه اللحظة الوحيدة؛ لأنّني لم أستجب لتحذيرات ماما؟ هل يمكنني أن أتوسّل إليها ألا تكشف سرّي؟ هل بإمكاني أن أجعلها تفهم أنّ هذه الزلّة لن تؤذيني فحسب، بل ستؤثر في كلّ من أحبّه؟

كلّها أسئلة خامرتني وأرهقت ذهني عندما رأيتها تقترب مني. ابتسمت الخادم قبل أن أقرّر ما يجب عليّ القيام به. لقد كانت ابتسامة عريضة تنمّ عن فرحة وفخر جعلتني أشعر بارتياح غامر. لقد بدت تلك المرأة، المحدّدة بلون بشرتها، والمنقوش خيالها في ظلال عملة الدرهم الجديد، والقوانين المنهكة لتقسيم بلدنا وشعبنا إلى نصفين، فخورة بأنّ واحدة من بني جنسها قد تخلّصت من القيود التي لا تزال تفرض على بعض منهم، مثل السلاسل التي قيّدت أجدادنا.

ثم أومأت إليّ. استغرق الأمر مني لحظة لالتقاط أنفاسي ولأومئ إليها أيضاً، فقامت بملء كأسي بالشمبانيا قبل أن تتقاطع أنظارنا، ثم تحوّلت إلى رؤية الضيوف الآخرين، لكنّ عينيّ ظلّتا معها وقد انتابني فهم جديد للأمر. لقد استوعبت أنّني، بالإضافة إلى هدية المنصب الجديد الذي نلته، صرت الآن مسؤولة لا عن سعادة ماما وإخوتي فحسب، بل أكثر من ذلك بكثير. قد لا يعرف العالم الذي أعيش فيه أنّني من أصحاب البشرة الملوّنة، ولكن سيكون هناك بعضٌ من البشر، مثل هذه المرأة، ممن سيكتشفون سرّي، وأتمنى أن تمنحهم إنجازاتي، بطريقة متواضعة، الأمل.

شعرت، وأنا أراقب عبورها بين الضيوف، وهي مرئية ولا مرئية في الآن نفسه، من دون أن أوجّه إليها حتى أدنى إيماءة بالاعتراف، بطعم حموضة النبيذ الفوار الجيّد في فمي، ثم انتابني شعور بحزن يشوبه الغضب. ولم يعد في وسعي الآن سوى التفكير في أيدي الخادم التي سكبته. لقد تشقّقت تلك الأيدي، وتورّمت بسبب رفع الأحمال الثقيلة وخدمة البيض، بينما ظلّت

يداي مغلّفتين في قفازات الساتان الأوبرالية الطويلة. لماذا كان يتعيّن عليها أن تخدمني في حين كنت أنا السيّدة المتمتّعة بتلك الخدمة؟ لماذا منحني البياض الفاتح النسبي لبشرتي تلك الفرصة وذلك الامتياز؟ قد يبدو أنّ هذا الأمر غير مفهوم، إلا أنّه هو الواقع.

لقد جعلتني تلك الأفكار أرغب في الابتعاد عن ذلك المكان المنحط؛ إذ من الأفضل لي قضاء وقتي في دراستي الخاصة، أو العودة إلى المكتبة لوضع اللمسات الأخيرة على «كتالوج» الكتب، فالتفتّ للابتعاد عن الحشد، لكنّني حين كنت على وشك المغادرة والقيام بخطوة على عتبة قاعة الرقص، سمعت صوتاً يهتف باسمي.

لقد سمعت صوتاً يناديني من خلف: «آنسة غرين! هل هذه أنت؟ إنّها الآنسة غرين، أليس كذلك؟»

التفتّ فوجدت السيّد سميثسون من شركة بيرسون وشركاه. والسيّد سيميثسون هذا هو تاجر لوحات الفنون الجميلة، يقوم أحياناً ببعض الأعمال مع السيّد مورغان، وفي كثير من الأحيان يتشاجران. لقد سبق أن التقينا في مكتبة بيربونت مورغان في مناسبتين.

«أهلاً يا سيّد سميثسون.»

«تسعدني رؤيتك خارج أسوار المكتبة.»

«إنّه لمن دواعي سروري أن أكون خارج المكتبة.»

ظلّ السيّد يحدّق فيّ تعلوه نظرة متفاجئة بدت على تقاسيم وجهه البدين شديد الاحمرار، وقال: «تبدين جميلة؛ إذ لا شيء فيك يشبه على الإطلاق أمينة المكتبة.»

«لكن -يا سيّدي- كوني أمينة مكتبة لا يعني أنّني يجب أن أرتدي الملابس نفسها.»

لقد زلّت هذه الجملة غير المبالية من فمي قبل أن أتمكّن من إيقافها. ونوع التصاريح المرحة تلك كانت من بين الملاحظات التي قد أعرب بها لأيّ فرد من إخوتي، لكنّني لم أجرؤ البتَّةَ على التصريح بها إلى أيّ شخص غريب. كان في وسعي أن أشعر برفض ماما هذا السلوك لو كانت معي.

ضحك بصوت رخيم جعل رعاة الحفلة يلتفتون إلينا إلى درجة أنّه كان بإمكاني تقريباً استنتاج انتباههم في ملامح وجوههم.

أظنّهم كانوا يتساءلون: من تكون الشابة التي هي بصدد تسلية السيّد سميثسون؟

قال السيّد سميثسون لي: «إنّك في هذه اللحظة لا تبدين حقاً مثل أمينة المكتبة»، فأجبته وقد أنزلت عينيّ إلى الأسفل، ونظرت إليه من تحت رموشي: «حسناً. أنت تعرف ما يقولون.»

رفع حاجبيه تحسباً لوقوع أمر ما.

أما أنا فقمت بخطوة لأقترب منه، وبذلت قصارى جهدي لتقليد ما رأيت النساء الأخريات يفعلنه في القاعة عن طريق لمس إصبعي لكتفه، وإمالة رأسي إلى الوراء، وأنا أقول: «إنّ المظاهر خدّاعة؛ إذ هناك بالتأكيد أشياء قد تعني لي أكثر مما تراه عينا أيِّ إنسان.»

ضحك الرجل بملء شدقيه، وشعرت بالراحة للمرّة الأولى في ذلك المساء، إلى أن تجلّت ملامح الانشراح عليّ. تلك كانت الطريقة التي يجب أن أتصرّف وفقها من أجل الاندماج في جوّ الحفلة. لقد سبق أن نبّهتني ماما إلى أن أكون حذرة أثناء اختلاطي بالناس، لكنّني أدركت الآن أنّها كانت مخطئة، فمن أجل الاندماج داخل هذا الحشد، يجب أن أكون جسورة وجريئة لإخفاء اختلافاتي حين أكون على مرأى من الجميع.

التحق رجال آخرون بي وبالسيّد سميثسون. لقد اجتمعوا حولنا للقاء هذه الشابة، التي كانت تبدو منشرحة جداً، ومشاركتها بهجتها. تعرّفت إلى كلّ واحد منهم، وقبلت جميع مجاملاتهم ومديحهم، وكنت أردّ عليهم بدوري بالمجاملات نفسها إلى درجة أنّني قلت لأحدهم: «لا أشك في أنّك كنت تقول ذلك لكلّ امرأة تعرفها، لكنّني مع ذلك أعجبت بطريقة أدائك نفسها»، فانفجر الرجال بالضحك، وللحظة عابرة تذكّرت ماما مرّة أخرى؛ فهي لو سمعت ما قلت لشعرت بالفزع، لكنّني لم أعد أبالي بما ستقوله لي. وقلت في نفسي إنّ ذلك أيضاً ضروري لأصبح جزءاً من عالم السيّد مورغان.

وبحلول الوقت، الذي حدّدت فيه مكان السيّد مورغان بين الضيوف، تشكّلت دائرة من الرجال حولي. لقد كان السيّد مورغان بصحبة امرأة استثنائية غير مألوفة تناسب قالب «صديقته الخاصّة.» وبمجرّد أن انتبه إلى وجودي غادر صديقته بإلقاء كلمة موجزة، وتركها خلفه، وابتعد عنها مسافة خطوات والسيجار يتدلّى من فمه. تلاشت دائرة الرجال من حولي حال وصوله، فاندهشت من جديد من طبيعة قوّته الملموسة التي تجلّت أمامي الآن خارج المكتبة.

«آه. يا آنسة غرين. إنّي أرى أنّك تتحدّثين مع العديد من أعدائي»، وانتقلت نظرته من رجل إلى آخر قبل أن تستقرّ على السيّد سميثسون، وقال بصوت قويّ، لكن بلهجة مرحة: «ولاسيما هذا الشخص!»

ردّ عليه السيّد سميثسون، ورذاذ ريقه يتناثر من فمه: «طالما اعتبرتك يا سيّد مورغان بمنزلة الصديق الذي أثق فيه، وبمنزلة الحريف الوفيّ الذي أتعامل معه في بعض الأحيان.»

استقام السيّد مورغان بكامل طوله الشاهق، الذي يبلغ ستة أقدام وبوصتين، ورفع أحد حواجبه الرائعة، وسأله في ما يشبه المزاح: «وهل تحاول خداع كلّ أصدقائك الذين تثق بهم؟»

أدركت كنه اللعبة التي كان يلعبها السيّد مورغان؛ فهو يعلم أنّه يجب عليه الحفاظ على علاقات طيّبة مع جميع التجّار الرئيسيين ليتمكّن من الوصول الكامل إلى الأعمال الفنيّة والمخطوطات التي تأتي إلى السوق، لكن يجب على الأشخاص الأكثر تزلّفاً أن يفهموا أنّه لن يتسامح مع الاستغلال. وإذا أردنا تحقيق هدفنا المتمثّل في إنشاء أهمّ مجموعة مخطوطات في أمريكا؛ أي ما يعادل أرقى مجموعات أوروبا، فإنّه يتعيّن علينا أن نلتقط مجموعات كاملة، ونحن لا نستطيع أن نفعل ذلك عن طريق إبعاد أيّ تاجر رئيسي، ومن ثم يجب تضمين التحذير ولفّه بالمزاح والسخرية.

بدا السيّد سميثسون مرتبكاً، ثم مرعوباً، فكم من اتهامات ضئيلة من السيّد مورغان دمّرت عديد الرجال، ثم قال: «خدعتك؟ كيف؟»

قلت بخجل: «أَليس هذا هو الرجل الذي قدّم لك مخطوطة موزارت الموسيقية المعيبة؟» لقد كنت أتحدّث كما لو أنّه لم يكن مؤكداً لدي تماماً أنّه هو التاجر الذي يعمل لدى شركة بيرسون، والذي حاول تمرير نسخة مكتوبة بخط يد أحد طلّابه من كونشيرتو موزارت على أنّها نسخة أصلية ألّفها الأستاذ موزارت بنفسه.

فقال السيّد مورغان، وهو يومئ برأسه: «نعم إنّه هو.»

قلت وأنا أنظر إلى السيّد مورغان: «آه. لا داعي للقلق، فأنت لن تواجه مثل هذا الخداع مرّة أخرى.»

سألني كما لو أنّنا كنا قد تدربنا على هذه الأدوار: «ولماذا تظنّين أنّني لن أخدع مجدّداً يا آنسة غرين؟»

حوّلت نظراتي من السيّد مورغان إلى تاجر التحف الفنّية، وقلت: «لأنّه في المرّة القادمة، التي سنتعامل فيها مع السيّد سميثسون، سأكون إلى جانبك للتحقّق من صحّة وأصالة أيّ تحفة فنّية قديمة تعبر أبواب مكتبة بيربونت مورغان. وينبغي ألا تمرّ أيّ عيّنة من دون تمحيص أو تدقيق، وبطبيعة الحال،

هذا لم يكن خطأ السيّد سميثسون....» توقّفت عن الكلام لكي أمكّن التاجر من رؤية أنّني وفّرت له ذريعة لسلوكه السابق المشين، ثم أضفت: «وعليه سنحلّ المشكلة، قبل أن تصل إلى مكتبك يا سيّد مورغان.»

فقال السيّد مورغان: «ممتاز يا آنسة غرين!»

سألت السيّد سميثسون بلطف: «أليس هذا صحيحاً يا سيّد سميثسون؟»

بدا السيّد سميثسون قلقاً ومرتاحاً في الوقت نفسه؛ إذ تم اتهامه وتبرئته في الآن نفسه، وقال: «سيكون لي الشرف في أن أقوم بأعمال معك مرّة أخرى يا سيّد مورغان، وأنت أيضاً يا آنسة غرين سأتعامل معك بأيّ طريقة ترينها مناسبة.»

«جيّد جدّاً تعالي معي يا آنسة غرين.» هذا هو كلّ ما قاله السيّد مورغان ليتخلّص من السيّد سميثسون والآخرين، ونجح في صرفهم بتلك الكلمات البسيطة.

فاستأذنت السيّد سميثسون بقصد المغادرة بإيماءة خاطفة، وبعد ذلك سرت مع السيّد مورغان، وتركت ذلك التاجر مشدوهاً فاغر الفم.

قال لي السيّد مورغان بهدوء: «لقد أديتِ الدور بشكل جيّد للغاية يا آنسة غرين.»

فأجبته: «لقد سألت نفسي ببساطة: ماذا سيفعل ربّ عملي لو كان مكاني، ثم قمت بانتهاج أسلوبك نفسه.»

أطلق السيّد مورغان موجة عارمة من الضحك بدت مثل خوار الثور، وقال: «أنت تتحدّثين معي بأسلوب لا يجرؤ أحد آخر على القيام به يا آنسة غرين، ولا حتى الرجال من طبقات اجتماعية أرفع من طبقتك يجرؤون على ذلك بمن فيهم ابني.»

ذبلت نظرة عينيه العسليّتين البرّاقتين أثناء تقييمي بالطريقة نفسها التي قام بها يوم مقابلتي لمنحي منصب أمينة المكتبة، لكنّ تقييمه لي في هذه المرّة كان من دون أدنى شكّ من زاوية أنّني امرأة. وانطلقت الموسيقا في العزف، وتراقص الضيوف من حولنا، وبعد مجرّد جزء من الثانية، أصبح كلّ شيء صامتاً؛ فنحن صرنا بمفردنا. شعرت بحدوث تحوّل بيننا، فهو لم يعد تلك الشخصية الأبوية؛ ولم يعد رئيسي.

وبدلاً من الشعور بعدم الارتياح، شعرت بانجذاب، أو ما يشبه رعشة الإغواء، وانتابتني قشعريرة تسلّلت إلي من ذراعي، ولكن بعد ذلك سمعت الموسيقا مرّة أخرى، وعدت إلى حفل الرقص. مرّت لحظة، وإذا السيّد مورغان يقدّم إلي يده. لقد علمت أنّه شعر بالرعشة نفسها التي خالجتني، ثم قال على نحو مفاجئ بصوت خشن: «دعينا نتنقّل في أرجاء قاعة الرقص، فلدي بعض الأعداء الآخرين الذين أريدك أن تلتقي بهم.»

الفصل الثامن

29 أيار/مايو 1906

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

انفتح الباب الرئيسي للشقّة، قبل أن أتمكّن حتى من تمرير مفتاحي في القفل. لقد كدت أتعثّر لو لم تنتشلني يد شقيقتي تيدي الثابتة.

فسألتها همساً على شكل لوم، فالساعة كانت تشير إلى ما بعد منتصف الليل: «ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة المتأخّرة؟»

«لقد سمعت وقع خطواتك وأنت تصعدين الدرج—»، ثم أردفت بصوت منخفض: «ولم يكن في وسعي الانتظار حتى الصباح لأسمع عمّا وقع معك في الحفلة.»

لقد جعلتها حماستها تبدو مثل فتاة صغيرة، رغم أنّها شابة الآن في التاسعة عشرة من عمرها.

كان يتعيّن عليّ أن أخمّن أنّها ستبقى مستيقظة، فهي الأكثر اهتماماً بحياتي مع السيّد جي بي مورغان من بقية إخوتي. لقد كانت تطالع الصفحات التي تهتمّ بالمجتمع في صحف المدينة، كما لو أنّها كانت ستجتاز اختباراً عنها؛ وكانت مجلّة (منزل السيّدات) هي دليل دراستها لكيفية ارتداء الملابس. وعلى الرغم من أكمام الفستان المتواضع الذي ارتديته الليلة، لقد استفدت من نصائحها التي ساعدتني فعلاً، ولا سيما اقتراحها بشأن قبعتي. وبعد ما لاحظته هذا المساء، أظنّني سأحتاج إلى كلّ ما تعلّمته أختي عن الموضة.

ثم سألتها حال استلقائي على الأريكة البنّية الشاغرة: «أين راسل؟»

فردّت تيدي، وهي تلوّح بيدها، كما لو أنّها كانت تريد أن ترمي سؤالي بعيداً: «لقد خرج مع زملائه في الدراسة.» لقد كان هناك شيء واحد فقط تريد مناقشته الآن.

«حسناً.» جلسنا جنباً إلى جنب على الأريكة، ثم توقّفت عن الكلام إثر هيمنة موجة من التثاؤب عليّ، فالصباح لم يكن بالبعيد. وتساءلت: لماذا يستمتع الأثرياء بليالي نهاية الأسبوع، ثم أجبت نفسي بنبرة لوم: توقّفي عن مثل هذا التساؤل السخيف، فالأغنياء ليسوا ملزمين بالنهوض باكراً، بل يمكنهم النوم حتى الظهر إذا رغبوا في ذلك.

سألتها: «هل ترغبين في أن أحدّثك عن القصر أو عن الفساتين التي رأيتها، فكلاهما رائع.»

«أوه، حدثيني عن الفساتين بطبيعة الحال.»

بدا جمال أختي المشرق، على الرغم من أنّني كنت أراها من خلال إضاءة مصابيح الشارع الغازية الخافتة فحسب. وبدا شعرها البني الفاتح مسترسلاً ناعماً على عكس شعري الأشعث المتماوج الذي كنت أجبره على الاستكانة يومياً من خلال تحديثات متقنة وجبل من الدبابيس. وتمايلت خصلات شعرها، فأطّرت وجهها الحلو الأشقر.

ثم بدأت حديثي بوصف الفساتين التي رأيتها أثناء الحفلة: «إنّ أفضل ثوب شاهدته هو فستان أزرق داكن إلى درجة أنّه بدا لي تقريباً مثل حجر السج البركاني الأسود.» قاطعتني تيدي قائلة: «وهل كان ذلك الفستان الأسود أفضل ما رأيت من الملابس في تلك الحفلة؟» لقد كانت مذعورة من سماع أنّني فضّلت ذلك الفستان الذي كان بلون الحداد الكئيب.

«لكنّك لم تدعيني أكمل كلامي، لقد بدا الفستان في منتصف الليل أزرق مثل لون الحبر، تحيط بجميع أنحاء تنورته وبطانته بلورات وأحجار كريمة ملوّنة على نمط الأبراج.»

شهقت تيدي من الدهشة.

وواصلت حديثي: «وعندما رقصت المرأة، بدا الفستان مثل سماء الليل الدامسة.»

ضغطت أختي بيدها على صدرها. لقد استوعبت سبب ردّ فعلها، فأنا كدت أقوم بالشيء نفسه عندما رأيت الفستان وصاحبته تجرّ أطرافه على أرضية قاعة الرقص الرخامية في الوقت المناسب الذي عزفت فيه السيمفونية. ثمّ وصفت لتيدي العباءات الأخرى التي كنت أعلم أنّها ستعجبها، ونقلت لها بريق الجواهر وانتشار الأحجار الكريمة واللؤلؤ المزينّة لسترات العباءات.

تجنّبت الإشارة إلى أختي عن المناسبتين اللتين أحدثتا ارتجاجاً في داخلي في تلك الليلة. كما لم أخبرها بأيّ شيء عن تلك الثواني من الانجذاب بيني وبين السيّد مورغان. وبالمثل، لم أذكر لها شيئاً عن الخادم السمراء وتأثير تواصلنا فيّ، فتيدي لن يكون في وسعها استيعاب مثل تلك المواقف؛ لأنّها سكنت عالم ماما الأبيض طوال حياتها تقريباً. لقد كانت تكاد تبلغ من العمر عاماً عندما غادرنا العاصمة، وبمجرّد أن حللنا نيويورك أقمنا بشكل أساسي بوصفنا بيضاً حتى قبل أن تغيّر ماما أسماءنا وتنقّح ماضينا.

وفي بعض الأحيان، عندما أنظر إلى تيدي، وشعرها الناعم، وبشرتها المرمرية، وعينيها الفاتحتين، أتساءل عمّا إذا كانت تعرف شيئاً عن الأصول العنيفة لبشرتنا البيضاء، وماذا تتذكّر عن بابا، أم أنّ دروسها كلّها كانت مستمدّة من ماما؟

وبمجرّد استحضاري لماما، قدمت من غرفة نومها وهي تضع ثوبها الأزرق. مجدّداً لم تكن ترتدي ثوب الحرير المطرّز الذي أهداه إليها بابا،

ذلك الثوب الذي لطالما كانت ترتديه دائماً. لقد كانت عيناها منتفختين بالنوم. أما فمها فتصلّب على شكل خط صارم عندما رأتنا ونحن نتهامس فوق الأريكة.

لقد كانت ماما قاسية معنا حتى قبل استلامها رسالة الخال موزارت عن بابا. لقد كان وجودنا في نيويورك بمنزلة الكفاح الذي يتجاوز مواردنا المالية في كثير من الأحيان. أما الحفاظ على هويّتنا الحقيقية في السرّ فكان بمنزلة العبء الذي يزداد ثقلاً مع مرور الوقت، ففي كل يوم كنا نخسر أشياء أكثر في عالم أصبح لا يقبلنا على نحو متزايد. وبينما كانت قوانين العنصرية مهيمنة في جنوب البلاد، امتدت مخالب قانون جيم كرو إلى نيويورك أيضاً؛ لقد عزّزت العديدَ من السياسات الميز العنصري، وعزلت العديدَ من أصحاب البشرة الملوّنة في أسوأ الأحياء، وحصرتهم في الأعمال التي كانت زهيدة الأجور، وفي أحقر المراتب. ومنذ أن غادرنا بابا، صرنا نعيش على الحافة، لكنّنا عشنا بالتأكيد وجوداً أفضل بوصفنا بيضاً مما لو كنا نعيش الحقيقة، والفضل يعود في ذلك إلى ماما.

قلنا لها في انسجام تام، قبل أن تلقي علينا محاضرة: «المعذرة يا ماما!»، ثم ضحكنا على ما قمنا به من تمرّد صغير.

فقالت لي تيدي: «طابت ليلتك يا بيل»، ثم أعطتني قبلة خاطفة، وانطلقت بسرعة نحو غرفة النوم.

فقلت لها: «يجب عليّ أن أستعد للنوم، وسأخبرك عن الحفل الراقص غداً.»

لم تنبس ماما ببنت شفة، بل ظلّت تنظر إلى طاولة غرفة الأكل. لقد كانت كومة كتب اللّغة منتشرة فوق الطاولة، فهل كانت أمي غاضبة لأنّني تركت كتب التمارين اللغوية الخاصة بي، ولم أحفظها في مكانها المناسب؟

«ألا يفترض أن تكون لديك دراسة يومية لا بد لك من القيام بها؟ لا أعتقد أنّ لديك الوقت الكافي للتوفيق بين العمل والحفلة، ولا أظنّ أنك تريدين أن تخسري الأرضية التي اكتسبتها في العديد من اللّغات.»

لقد فاجأتني تلك الكلمات، فأنا كنت مجتهدة في دراستي، ولكن لما كانت تلك الدروس خياري الشخصي فلا ضير لو خسرت ليلة من دون تعلّم، لذلك أجبتها: «إنّ الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل يا أمي، وأعتقد أنّ الدراسة يمكننا تأجيلها هذه الليلة.»

«هل مؤكّدٌ لديك ما تقولين يا بيل؟» لم يكن ما قالته بمنزلة السؤال، ثم أردفت: «لقد أخبرتني عن مدى أهميّة اللغة اللاتينية والألمانية والفرنسية بالنسبة إلى مؤسستك. فهل تعتقدين أنّ شخصاً آخر مثل جي بي مورغان سيطرق بابك مرّة أخرى لو فشلت في هذه المهنة؟»

أفشل؟

أغلقنا أعيننا، تماماً مثلما أغلقنا مؤقتاً باب أمانينا. أريد أن أكون ببساطة ابنتها لهذه الليلة فقط، فقط هذه المرّة، أريد أنّ أكون غالية عندها فتعتني بي بحنان مثلما كنت أعامل تيدي، أو حتى تنظر إلي بثبات على أنّني لويز أو إثيل، اللتان كانت ستغفر لهما السقوط إذا خيبتا آمالها. أريدها أن تقول لي أن أذهب إلى غرفة النوم كي أتمكّن من وضع رأسي على صدرها، وأخفّف القليل من أعبائي.

قالت لي أمي، وهي تومئ إلي بأن أتبعها قبل أنّ تتحرّك نحو طاولة غرفة الأكل: «تعالي معي.»

ثم توقّفت لبرهة، فأنا كنت أجلس في كلّ ليلة، وأمامي تلك الطاولة، أدرس إلى أن يغمض جفني وأخلد للراحة. وتساءلت عما ستفعله ماما بينما كنت أتبع خطاها نحو الطاولة إلى أن جلست على أحد الكراسي، وطلبت مني أن أجلس على الكرسي الآخر.

بسطت ثنايا فستان الحفلة الذي كنت أرتديه مثل بطانية الليل، ثم فتحت كتاب النصوص اللاتينية المدرسي، وانتقلت إلى الفصل المتعلّق بمتمّمات الجمل.

سألتني ماما: «من أين يتعيّن علينا أن نبدأ؟»

هي لم تكن تعرف أدنى شيء عن اللاتينية، لكنّني كنت ممتنة لها لأنّها ستجلس معي، فرعايتها لي قد لا تشبه رعايتها لإخوتي إلا أنّها تُعد رعاية في نهاية المطاف. لقد كنت أدرك أنّ ماما لا تزال حقاً تنظر إليّ على أنّني ابنتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع

4 تشرين الثاني/نوفمبر 1906

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

لقد مرّت عشرة أشهر منذ دخولي عالم السيّد مورغان. انتقلت فيها من مهام فهرسة مجموعته الفنّية وتنظيم الكتب في رفوفه، إلى تقديم المشورة بشأن عمليات اقتناء التحف وحضور حفلات الأوبرا، ومآدب العشاء، وحفلات الرقص، وبناء على طلبه وبأمرٍ منه حضور أيّ محفل يلتقي فيه بالشخصيات الاجتماعية المرموقة وخبراء الفنّ على حد سواء. وصرت أشعر بالارتياح أثناء تبادل أطراف الحديث مع أفراد عائلة آل فريكس حول اللوحات الفنيّة المرسومة زمن عصر النهضة، والتحدّث إلى مدير متحف الميتروبوليتان السيّد كاسبار بوردون كلارك بشأن التفاصيل الدقيقة لفنون الديكور، والقيام بدور الراقصة على الركح مع السيّد جون دي روكفلر، أو الجلوس بين أفراد عائلة كارنيجي أو عائلة فيبس في مسرح الأوبرا. وبالرغم من ذلك كلّه، مازلت أستغرب لماذا لا يزال من الصعب عليّ السير عبر القاعة المستديرة إلى مكتب السيّد مورغان، وأواجه حرجاً عند طلبي منه التركيز على مسألة ملحّة؟

لقد صرت أبحث عن أعذار للمرور أمام مكتبه، على أمل اكتشاف أنّه قد حوّل انتباهه إلى الكتالوج الذي وضعته فوق مكتبه منذ أكثر من ساعتين. إلّا أنّ الكتالوج ظلّ هناك مفتوحاً على الورقة نفسها التي تصفّحتها أمامه. ولم يعد في وسعي التفكير إلا في شيء واحد عاجل اليوم هو اقتراب الموعد النهائي لتقديم العطاءات عن بعد لمزاد بوسطن، بينما ظلّ الكتالوج من دون

مراقبة، والسيّد مورغان لم يحرّك ساكناً بشأن هذا الموضوع. وعلى الرغم من أنّه أصبح يعتمد عليّ في تقديم الأثمان المحتملة للنظر فيها، كان يتخذ القرارات وفقاً لنسقه الخاص، وكثيراً ما يطلب مني استشارة الخبراء للحصول على آراء أخرى داعمة. ولم يكن في وسعي أيضاً الوصول إلى اللوحات الفنّية والمخطوطات القادمة إلى السوق؛ لأنّ هناك العديد من التجّار الذين كانوا لا يرغبون في التعامل معي، أو يعملون معي فحسب لأنّهم يعتقدون أنّهم يستطيعون خداعي. على سبيل الذكر، لقد كتب السيّد برايس إلى السيّد مورغان رسالة تظلّم في الأسبوع الماضي يشكو فيها من -أقتبس هنا مما كتب-: «تلك المرأة التي في مكتبتك»، حين رفضت شراء مخطوطة على أساس أنّ حالتها كانت جيّدة إلا أنّها رثّة وأسوأ بكثير مما وصفه لنا.

لقد كتب السيّد مورغان ردّاً لاذعاً داعماً تقييمي، وأشار إلى السيّد برايس أنّ جميع المفاوضات المستقبلية ستتمّ معي، إلا أنّ تلك الرسالة كانت هي الوحيدة التي تلقاها. وعلى الرغم من أنّني كنت أقضي جلّ أمسياتي في الأوبرا والمسارح ومآدب العشاء مع جامعي التحف من أعيان المجتمع والتجّار وأمناء المكتبات، الذين كانوا من دوائر السيّد مورغان، لم يضمن ذلك الأمر لي مرتبة مساوية لي في صفوف زملائي.

وبينما كنت أحوم في محيط تلك القاعة المستديرة، توقّفت عند مكتب السيّد مورغان وشاهدته وهو يجلس على عرشه مثل الأسد -أنا كنت أحب أن أسمي مكتبه المزخرف وكرسيه بعرين الأسد- وهو بصدد قراءة احدى الصحف.

لقد أصابني تأخرنا عن المزاد بالإرباك، لكنّني لم أستطع إبداء مدى فزعي؛ فالسيّد مورغان كان يتفاعل بشكل سيّئ مع كلّ إزعاج لجوج أو إلحاح متعجّل. ودخلت مكتبه إلا أنّه لم ينتبه إلي، ولم ينزل صحيفة نيويورك ديلي نيوز من أمام ناظريه، فقمت بالجلوس برفق على الكرسي المقابل لمكتبه، وتنحنحت.

انتبه إلي في آخر المطاف، وقال لي بحدّة: «ماذا تفعلين هنا؟ لا أذكر أنّني ناديتك إلى مكتبي يا آنسة غرين.»

لقد اعتدت وعيده المتكرّر وتعليقاته الحادّة، فهي لم تعد تزعزعني، وأجبته: «سيّدي هل حظيت بفرصة إلقاء نظرة على الكتالوج ودراسته؟»

صرخ في وجهي وقال: «أنا منشغل بمواعيد أخرى لا بد لي من حضورها أهم من لهفتك المفرطة بالفنّ يا آنسة غرين!»

لم يعد صراخه يخيفني؛ لقد أصبح شيئاً يمكنني التأقلم معه ببساطة؛ لذلك أجبته: «يا سيّد مورغان، هذه مجموعتك، وليست مجموعتي. أريد المساعدة في نموها فحسب؛ حيث تنافس أفضل المؤسسات الأوروبية، الملكية والخاصّة على حدّ سواء. والفوز بذلك المزاد، والتمكّن من اقتناء تلك التحفة، خطوةً صحيحة نحو تحقيق هذا الهدف. فهل أنا مخطئة في تصوّر أنّك تشاركني الأهداف نفسها؟»

لقد كان يتعيّن عليّ دائماً تذكيره بتلك الكلمات في العديد من المناسبات، فالسيّد مورغان نادراً ما يحافظ على صرامته حين أواجهه بجرأتي. وعادةً يردّ حينها بابتسامة تجعلني أفكّر فيه في بعض الأحيان على أنّه مثل الرعد الذي لا يصاحب أيّ برق. إلاّ أنّ ذلك لم يكن يعني أنّه لا يمكن أن يكون مخيفاً وشرساً. لقد سبق أن رأيت شرر غضبه في موكب استضافته للرأسماليين وقادة الصناعة ومديري عالم الفنّ، الذين كانوا يمرّون عبر بابه؛ ورأيته حتى حين تثور حفيظته من أسئلة ابنه جاك، التي كان يَعدّها السيّد مورغان غبية. لكنّ غضبه الحقيقي لا يتمظهر على شكل زئير، بل يتمظهر على شكل صمت وهدوء غريب ومرعب كنت أحاول أن أتجنّبه دائماً مهما كلّفني الأمر.

«من المؤكد أنني أتقاسم معك كلّ أهدافك فهي، في نهاية المطاف، أهدافي اللعينة نفسها، بما في ذلك الحصول على نسخة كاكستون الملعونة من كتاب (موت آرثر). ألم تجديها بعد؟»

«أنا بصدد العمل على ذلك يا سيّدي.» لقد كنت أشعر دائماً بمغص في معدتي كلّما ذكّرني بنسخة كاكستون تلك، وبطبيعة الحال، كان السعي لتأمينها أولوية منذ أول يوم لي، لكنّه ثبت أنّه بعيد المنال على نحو جنوني.

«هذا هو السبب الذي جعلني أنتدبك، بالإضافة إلى عينك الثاقبة في تقييم المخطوطات القديمة وفنون العصور الوسطى.» تلاشى صراخه إلى أن عاد وجلس على كرسيه، ومد يده إلى الكتالوج، وأمسكه، وقال: «حسناً لما كنت لم أحصل على نسخة كاكستون حتى الآن، دعيني ألقِ نظرة على الإنجيل الثمين الذي ترغبين من مؤسستنا اقتناءه.»

كنت قد أحضرت معي نسختي الخاصة من كتالوج المزاد فسألته: «هل نستطيع البدء بقراءة عنصر الوصف؟»

قبل وصدر عنه صوتٌ يشبه النخير.

ثم طلبت منه: «من فضلك افتح الصفحة المتعلّقة بالعيّنة عدد ستة عشر.» انتظرت تركيزه على العيّنة ذات الصلة وقلت له: «يمكنك أن ترى في تلك الصفحة أنّ ذلك الانجيل قد طُبع في مطابع جامعة كامبريدج في عام 1638. وإذا واصلت في القراءة فستجد أنّه كان يمثّل النسخة الشخصية للملك تشارلز الأوّل، ونتيجةً لذلك وقع تغليفه بغلاف مخمليّ أحمر مطرّز بالفَضة، وقد كُتبت عليه الأحرف الأولى من اسم الملك وشعاره. وكما ترى، الأحرف بالفضّة والأحجار الكريمة زيّنت الشعار. ومثلما يدوّن الكتالوج إنّه في حالة حفظ مثالية. لقد كنت أتعقّب مصدر ذلك الكتاب المقدّس، ويبدو أنّ تلك النسخة أصلية.»

فأعلن: «اشتريه إذاً!»، ثم التقط الصحيفة مرّة أخرى. إنّ مجرّد قول الكلمات بالنسبة إلى السيّد مورغان يعني إنفاذها، آه. كم يُعدّ ساحراً هذا السيّد!

لقد غمرني الارتياح والفرح لسماع ذلك الإعلان، فأنا أجلّ ذلك الملك الإنجليزي الذي كان يحمل بين راحتيه ذلك الإنجيل، وهو في أشدّ محنه، حين رأى أنّه يتعيّن عليه من أجل سلامة مملكته (أو ربما حتى سلامته شخصياً عندما أطيح به واتهم بالخيانة) أداء الصلاة والدعاء. لقد تخيّلت نفسي، وأنا أحمل ذلك الكتاب القديم، وأفتح غلافه المخملي القرمزي، وأقلّب صفحاته السميكة لقراءة الكلمات المقدّسة المكتوبة في داخله، والسماح لتاريخها بالسير عبر يديّ. كما فكّرت في الفنّان الذي كلّف بطباعته، ونظم حروفه، فسهر على إخراجه في أبهى حلّة، واجتهد في تغليفه على ذلك الطراز الرائع، وكلّ ذلك في محاولة لتقريب الله من الملك عبر الكلمات المقدّسة المنقوشة في ذلك الإنجيل.

«هذا قرار رائع يا سيّد مورغان. سأعمّر الوثائق اللازمة، وأخطر دار المزاد.» هممت بالنهوض، لكنّ فكرة مثيرة للاهتمام خطرت في بالي فقلت: «أو تفضّل التحايل على المزاد بأكمله، وتعرض على البائع مبلغاً مغرياً؟ يمكنني التكهّن بثمن منصف، لكنّه سيكون مغرياً بالقدر الكافي، ومن ثم يمكنك مناقشة البائع على حدة وبشكل شخصي.»

لمحت بريقاً وتألّقاً في عينيه، وطلب مني أن أكرّر له ما قلت، وأفسّر الأمر، وأثريه بمزيد من التفاصيل. وفي تفاعل مع شرحي قال: «أنت ذكيّة يا آنسة غرين! لقد أعجبني هذا التكتيك، وأظنّ أنّنا سنستخدمه في المستقبل. ولكن في ما يخصّ هذا المجلّد بالذات دعينا نستخدم عملية المزاد التقليدية.»

«حسناً يا سيّدي»، ثم وقفت وأخذت نفساً عميقاً، واستجمعت كلّ شجاعتي، وقلت: «هناك طريقة واحدة يمكن من خلالها أن يتأكّد لنا أنّنا سنكون المشترين لذلك الإنجيل.»

فسألني: «ما هي؟»

قلت: «باستطاعتي حضور مزاد بوسطن، والقيام بالمزايدة بنفسي.»

صمت لفترة طويلة، ثم قال: «يمكنك القيام بذلك إذا غادرت في أقرب وقت- »، ثم نظر إلى عقارب الساعة المعلّقة فوق رفّ الموقد، وأضاف: «يمكنك الوصول إلى بوسطن بحلول الليل.»

لقد أعطاني الإذن!؟هذا أمر لا يصدّق. على الفور خطرت في بالي جميع الاستعدادات التي يجب عليّ القيام بها لتلك الرحلة، لكنّها تبقى مجرّد تفاصيل تافهة. إنّ هذه المغامرة ستكون رائعة وعظيمة، بل إنّها أكثر دعم علني لي من السيّد مورغان حتى الآن، وهي مغامرة من شأنها أن تسجّل اسمه مع جميع اللاعبين الرئيسيين في عالم الفنّ. وإذا نجحت فيها فستكون لدي كلّ الحظوظ الوافرة لتغيير مكانتي على نحوٍ جذري في هذا العالم الحصري.

لم أستطع كتم ابتسامة عارمة بدت على ملامح وجهي، وقلت له: «شكراً يا سيّدي! لن أخيّب أملك. ما الحدّ المالي المسموح الذي ترغب في وضعه بشأن مزايدتي؟»

صرخ في وجهي قائلاً: «لقد قلت لك إنّني أرغب في امتلاك ذلك الشيء يا آنسة غرين! وهذا يعني أنّه لا يوجد حدّ، ألا تفهمين؟»

لا يوجد حدّا!

«فهمت. لكن رغم ذلك لا يجب عليّ أن أسمح لك بدفع مبالغ زائدة في حالة ارتفاع العطاءات بما يتجاوز ما أعتقد أنّه ثمن منصف.»

أخذ يقهقه ويقول: «أوه هذا أمر لا يقلقني قدر ما يقلقني منافسوك؛ فأنا أشفق عليهم تقريباً.» توقّف عن الكلام للحظة، ثم قال، وقد تغيّرت نبرة صوته لتصبح أكثر ليونة: «إنّهم لا يمتلكون أدنى فكرة عن الشراسة التي تتربّص بهم داخل جسمك الصغير.»

جعلتني حدّة بصره أتنفس بصعوبة. لقد سبق أن رأيت مثل ذلك التعبير في الحفل الراقص في قصر فاندربيلت، ولا يمكن لي أن أخطئ فهمه في هذه

المرّة. لقد كانت نظرته مليئة بالتقدير، لكنّه سرعان ما استعاد لهجة العمل، فكانت كلماته جدّية حين قال: «لا تنسي أن تنظري في عيني البائع عندما تقومين شخصياً بتقييم ذلك المجلّد؛ فأنت ستحكمين على البائع تقريباً بقدر حكمك نفسه على الشيء الذي يبيعه.»

أطلقت إيماءة موافقة، وانتابني شعور غير ثابت ينمّ عن إعجابي غير المعهود بالسيّد مورغان؛ ففي الأشهر الستة تقريباً التي مرّت منذ تلك اللحظات التي تقاسمناها معاً أثناء حفل فاندربيلت الراقص، قمت بكلّ مجهودي للحفاظ على الكفاءة المهنية بيننا. ووجدت أنّ السيّد مورغان قد قام بتكرار الصنيع نفسه مجدّداً، وهو ما جعلني أتخيّل أحياناً ملامح انجذابنا القصير.

همّ بالوقوف وهو يسألني: «ألا يتعيّن علينا شرب نخب نجاحك؟» لم ينتظر جوابي، بل مدّ يده إلى إحدى زجاجات الكريستال، التي كانت موضوعة على طاولة مكتبه الجانبية، وسكب سائلاً بلون العنبر في كأسين مدّ إحداهما إلي وقال: «نخب بيل، هذه الخصمة الشرسة التي تخفي قوّتها خلف ابتسامتها الجميلة.»

توقّفت عن الكلام من وقع الدهشة أتساءل عمّا إذا كان سيضيف مزيداً من الكلام، إلا أنّ تعبيره عاد إلى سالف عهده كونه صاحب العمل وأنا موظّفة عنده، وعليه رفعت كأسي، لكنّني أعلم أنّني لم أتخيّل ما حدث في هذه المرّة.

ثم قال: «دعينا الآن يا بيل نشرب نخبنا ونخب مؤامرتنا الصغيرة! إنّنا معاً بصدد إنقاذ الماضي من أجل المستقبل. بفضل ثروتي وبفضل عينيك الثاقبتين والموهوبتين، وبفضل العمل الجاد، سننقذ ونحمي أجمل وأهمّ الكنوز التي يعرضها علينا التاريخ؛ تلك القطع الأثرية والمخطوطات التي تخلّد ذكرى التاريخ المادي للكتاب.»

لامست كأسي كأسه، وشعرت بالحرج الشديد من أن أسأله عن نوع الخمور التي سكبها، لكن أياً كان النوع، أخذت رشفة، ثم شعرت بحرقة في حلقي أثناء تجرّعي ذلك الشراب، وانتابتني نوبة من السعال. وبطبيعة الحال، من محاسن المصادفات كانت تلك اللحظة الدقيقة هي الآونة نفسها التي تصل فيها آن إلى المكتبة. آن تلك الابنة الحكيمة، التي تطلق نقدها في كلّ مكان، والتي تمثّل من حين إلى آخر سفيرة والدتها، التي تُعدّ في الآن نفسه الشخص الوحيد الذي يمتلك عناد والدها نفسه وصلابته.

قالت آن وهي تراقب المشهد: «أظنّ أنّ الوقت لا يزال باكراً للشرب، أليس كذلك؟» لقد كانت آن ترتدي اليوم فستاناً بلون الخوخ الداكن مع سترة مطابقة وشال فراء أبيض رمته على كتفها الأيمن. لقد بدت عصرية ومقتدرة، وزادت من الوقار والعظمة بلباس ذلك الزي.

وعندما لم يجبها والدها عن سؤالها، وكذلك فعلت أنا مثله، كرّرت سؤالها، وكانت نبرة الإدانة واضحة في صوتها، فشعرت بالحقارة. أعتقد أنّ من الممكن أن نكون أصدقاء، وخاصة في تلك الأحيان التي أكون فيها بصحبة آن الذكيّة وسريعة البديهة. لكنّ ما يُؤسَف له أنه يوجد الكثير من التوّتر بيننا في معظم الأوقات، ولا أعلم ما إذا كان السبب هو الغيرة أو مجرّد الكراهية، فكل جهد أبذله لسدّ الفجوة بيننا تقابله آن ببرود.

فقال السيّد مورغان بسخرية: «لا تكوني محبطة للعزائم يا آن. إنّنا بصدد شرب نخب انتصار الآنسة غرين في المزاد الذي سيقام في مدينة بوسطن غداً»، ثم عدّل تصريحه قبل أن يأخذ رشفة ثانية من شرابه قائلاً: «أعني انتصارها المحتمل.»

فسألته آن، وقد ارتفعت حواجبها الكثيفة عالياً على نحو مفاجئ: «أَلن ترسل كينغ كالمعتاد؟» لقد تعوّد السيّد مورغان في السنوات الماضية إرسال

سكرتيره كينغ ليحضر المزادات عوضاً عنه، ثم أضافت: «وماذا عن ابن عمي جونيوس؟ لطالما كنت أعتقد أنّه كان خبيرك الخاص في مجال الفنون.»

تساءلت، مثل آن، عن السبب الذي جعل السيّد مورغان لا يستدعي جونيوس بقصد القيام بمزيد من المشاورات، أو إرساله إلى مثل تلك المزادات، وخشيت أن يخلق تهميشه أيّ عداء بيننا. من حسن الحظّ أنّ الرسائل، التي كانت تأتيني من جونيوس، لم تثر أيّ مشاعر غيرة، أو الشعور بأنّه قد تمّ حرمانه من عطف عمّه، بل جعلته يشعر بالفخر فحسب بأنّ ابن أخيه، الذي يعمل تحت «حمايته» ووصايته، إنّما يعمل إلى جانب عمّه فحسب. وربما كان جونيوس يشعر بالارتياح الآن؛ لأنّه لم يعد يُسلّط عليه ضغط تقديم المشورة المتكرّر من قبل السيّد مورغان.

«إنّها مهمّة الآنسة غرين، فهي من سيقوم بتأمين اقتناء الإنجيل، الذي كان ذات مرّة في حوزة الملك.» لقد أوضحت لهجته لابنته أنّه لن يسمح بأيّ نقاش آخر بشأن تلك المسألة. ولكن عندما استأنف كلامه، اعتمد لهجة أكثر ليونة تعوّد على استخدامها مع ابنته الصغرى، فقال: «هذا سيعود بالفائدة على مجموعتنا الفنّية، وسيكون مثالياً لو اعتمدنا على الآنسة غرين. ألا تعتقدين ذلك يا آن؟ إنّها ستحاول إتمام مجموعتنا من نسخ الكتب التي طبعت زمن غوتنبيرغ.»

ابتعدت آن عن والدها وخاطبتني مباشرة: «إنّ هذا الأمر ليُعدُّ انقلاباً تام الأركان يا آنسة غرين، فأنت ستقفين في مكان والدي في ذلك المزاد العلني، ولا شكّ في أنّ شعبك سيسعدون بنيل هذه الفرصة.»

شعرت بالفزع في داخلي، إنّه لمن الغريب إشارتها إلى «شعبي.» حاولت إبقاء تقاسيم وجهي بلا تعبير، فهي لم تستفسر أبداً عن خلفيتي الاجتماعية من قبل، ولا استفسر والدها عن هذا الشأن أيضاً. لقد بدا الأمر دائماً على أنّني هناك بسبب جونيوس ووالدها.

حافظت على رباطة جأشي، وكتمت تعابير مشاعري، رغمَ تسارع معدّل دقّات قلبي، وأجبتها: «نعم. مؤكّدٌ أنّهم سيكونون كذلك.»

حاولت آن بجهد واضح تصنّع البراءة في ملامح وجهها وهي تسألني: «ذكّريني مجدّداً من هم أهلك؟»

لم أكن بحاجة إلى أن أذكّرها، فهي تعرف جيّداً أنّنا لم نناقش هذا الأمر مطلقاً، لكنّني أجبتها من دون تردّد: «إنّ أصولنا من ولاية فيرجينيا يا آنسة مورغان، لكنّ عائلتي المباشرة تعيش هنا في مدينة نيويورك.»

أمالت آن رأسها وقالت: «وما هي أصولك قبل ذلك؟»

ألقيت في داخلي دعاء صامتاً إلى الله الذي كنت قد أهملت ذكره إلى حدّ كبير، وواصلت سرد قصّتي: «إنّ جدتي تنحدر من البرتغال، على الرغم من أن ذكر هذا الأمر هو بأهمّية إرث عائلتي نفسه»، ثم قمت بمحاولة لجعلها تحدّثني عن أصولها، فقلت: «وبطبيعة الحال، أصول عائلتي هي أقل تواضعاً من أصول عائلتك»، وضحكت كما لو أنّني كنت أشعر بالحرج من ذكري لأصولي.

فجحظت عيناها، وقالت، بينما سار والدها بعيداً، ليسكب كأس شراب آخر: «حقاً؟ لقد خلت أنّني سمعت شيئاً عن أصولك الاستوائية.»

زاد منسوب الغضب في داخلي، وقرّرت ألا أسمح لهذه الابنة الغيورة بطردي عن طريق تهديدي بما تعتقد أنّها قد تعرفه عن أصولي، وقلت: «لا تصدّقي كل ما سمعتِه عني يا آنسة مورغان. وأنا بدوري سأتجاهل بالتأكيد أيّ ثرثرة سمعتها عنك.» والتقت عيناي بعينيها.

لن أسمح لنفسي بالتحدّث بصوت عالٍ أبداً عن الشائعات التي سمعتها في آخر حفل أوبرا حضرته. لقد سمعتها أثناء الاستراحة بينما كنت أشرب الشمبانيا مع تاجر الأعمال الفنّية الشهير السيّد جاك سيليغمان، وهو أحد أهمّ تجّار التحف والأعمال الفنّية في باريس ونيويورك.

عندما مرّت آن أمامنا نظرت صوبي، لكنّها لم تنبس ببنت شفة. لقد كانت تتحدّث مع صديقتيها المقرّبتين؛ الآنسة إلسي دي وولف مصمّمة الديكور الداخلي للمنازل، والآنسة بيسي ماربوري الوكيلة والمنتجة الأدبية، التي كانت تنوب عن الكاتبين الشهيرين أوسكار وايلد وجورج برنارد شو، بالإضافة إلى شخصيات أدبية بارزة أخرى، لكنّني كنت أعلم أن آن كانت تتجاهلني بشكل واضح بالطريقة نفسها، التي تصرّفت بها أثناء حفلة فاندربيلت الراقصة، بل ظلّت تتجاهلني في كلّ مرّة رأيتها فيها في الأماكن العامة.

لقد التفت إلي حينها السيّد سيليغمان وهمس: «لا تدعي برود الآنسة آن يزعجك؛ فالجميع يعلم أنّها لا تقضي وقتها سوى مع الآنستين إلسي وبيسي، وهما على علاقة غرامية معاً بحسب ما يقال.»

ضحكت معه كما لو أنّ العلاقات الغرامية بين النساء، أو ما يسمى زيجات بوسطن، كانت شائعة في عالمي، لكنّي في الحقيقة لم يصادف أن قابلتُ امرأة على علاقة رومانسية مع امرأة أخرى، ناهيك عن زواج اثنتين.

استمر السيّد سيليغمان في حديثه: «ليست مؤكّدةً لدي كيفيةُ حدوث مثل تلك الأشياء، لكن من الواضح تماماً أنّ هناك مجالاً متاحاً فقط لهؤلاء الثلاثة وأولئك الذين صنّفوهم بوصفهم أصدقاء خاصّين حميميين.»

أخذت رشفة أخرى من الشمبانيا، وأبقيت عيني محدّقة في آن وبيسي وإلسي من بين جميع من كانوا منتشرين في أنحاء القاعة. لقد أصبحت الرفقة المستمرّة لهؤلاء النساء الثلاث منطقية الآن؛ حيث أخفينَ علاقتهنّ الشخصية خلف شراكاتهنّ المهنية في فيلا تريانون في فرساي وفي نادي كولوني. لقد كنّ يختفينَ عن أنظار الناس، وأنا كنت أعرف القليل عن ذلك.

ظلّت تلك الذكرى عالقة في ذهني حين التقت عيناي بعيني آن. فغمزتني آن، والتفتت نحو لوحة رأتها آلاف المرّات معلّقة على حائط المكتب، وأحجمت عن الكلام. فعددتُ صمتها انتصاراً لي.

ثم اقترب منّا السيّد مورغان، وهو يحمل كأس شرابه، وقال: «كفّي عن هذا المزاح يا آن! يتعيّن على الآنسة غرين الاستعداد لرحلتها»، ثم رفع مجدّداً كأسه في اتجاهي، وأعلن قبل أن ينزله، بينما كانت ابنته تراقبنا بحذر: «نخب براعتك الفائقة!»

احتسيت رشفة أخرى من ذلك الشراب هدّأت أعصابي. ربما كانت آن تعتقد أنّها تعرف شيئاً عني، وأنّها قد تكون في انتظار أيّ عثرة ستعترضني، ولكن أنا هي التي ستذهب الى بوسطن الليلة، وأنا لن أسمح لها بإفساد صفاء ليلتي، أو تحطيم فرصتي في النجاح. لقد بنت آن حياة لنفسها، وأنا أخطّط لأن أفعل الشيء نفسه.

الفصل العاشر

5 تشرين الثاني/نوفمبر 1906

مدينة بوسطن، ولاية ماساشوستس

ركبت أمواج المياه العاتية الباردة للمزاد. كان زملائي مقدمو العروض بمنزلة بحر أبيض متلاطم من الرجال، الذين كانوا يرتدون بدلات منتصف الليل بألوان رمادية فحمية وزرقاء. تساءلت في داخلي: ما هي أفضل طريقة لخوض غمار تلك المياه؟ أيتوجّب عليّ السباحة مع توخي الحذر، فأستشعر درجة الحرارة كلّما سرت في مستويات أعمق، أم يتحتّم عليّ الغوص؟

كان بإمكاني أن أسمع ماما وهي تقول: كوني حذرة، ولا تفعلي ما من شأنه أن يظهرك في الصورة، لكنّني تعلّمت كم هو مهمّ أن يكون المرء جريئاً.

قرّرت أن أغوص بتهوّر.

لقد تعرّفت إلى أحد الوجوه المألوفة في ذلك الحشد، الذي كان يتكوّن من نحو مئة رجل أبيض، فجمعت ثنايا تنانيري في يدي الحرّة، وعبرت المدخل الرخامي نحو المجموعة التي يتجاذب معها السيّد إدواردز أطراف الحديث. هذا الرجل المحترم -إذا كانت تجدر تسمية تاجر بسمعته المشبوهة بالرجل المحترم- متخصّص في شراء وبيع الأعمال الفنّية التي تعود إلى عصر النهضة الإيطالية. لقد سبق أن قدّمه لي السيّد مورغان في إحدى الليالي في دار الأوبرا، ووصفه، بشكل خاصّ، بأنّه أحد «أعدائه الرئيسيين»، وتعجّبت من الطريقة التي رحّب بها رجل صناعي صعب الإرضاء مثل السيّد مورغان

بالتاجر في جناح دار الأوبرا الخاص به ضيفاً على الرغم من الشائعات التي كانت تقول إنّه كان يبيع التحف المزوّرة.

بمجرّد اقترابي من ذلك الرجل، فكّرت مثله في ما كنت قد ارتديته لتلك المناسبة. لقد كنت في حيرة أمس، حين كنت أحزم أمتعتي، بين اختيار فستاني الأخضر المائل إلى الزرقة، والفستان الرمادي المزيّن بخطوط الدبابيس الذي يبدو أكثر اتزاناً، والذي نصحتني ماما بارتدائه. في الأخير، استقرّ رأيي على ارتداء الفستان الرمادي، معتقدةً أنّه قد يجلب لي الحظّ نفسه الذي منحه لي عندما ارتديته أثناء مقابلتي الأولى مع السيّد مورغان، لكنّني تساءلت الآن عمّا إذا كان ارتداء الفستان الآخر، الذي يبدو أكثر جرأة من الفستان الذي أرتديه، سيكون أفضل ومتطابقاً مع أهدافي، لكن لا يهم فهؤلاء الرجال مصمّمون على ازدرائي بغضّ النظر عما كنت أرتديه.

يبدو أنّ العصابة الصغيرة المكوّنة من خمسة رجال رصّت صفوفها حال اقترابي منها. لقد تفطّنوا إلى وجودي لكنّهم تجاهلوني.

ناديت وكلّي يقين بأنّه حتى النذل لا يمكنه تجاهل النداء المباشر من أيّ سيدة: «سيّد إدواردز!»

التفت نحوي ببطء وقال: «هل هذه أنت يا آنسة غرين؟» أخذ ينظر إليّ شزراً، ويحدّق في وجهي كما لو أنّه لم يلاحظ حضوري حين مررت بأبواب البلوط الثقيلة في دار المزاد.

أجبته بابتسامة عريضة: «نعم أنا الآنسة غرين بشحمها ولحمها.»

أدركت أنّ من اللياقة ترك تلك المجموعة؛ حيث لم يكن أمامي من خيار سوى مغادرتهم، لكنّهم أفسحوا لي المجال، فتنحوا جانباً بما يكفي للسماح لي بإلقاء نظرة على وجوههم؛ ولم يكن هناك مساحة كافية بالنسبة إلي للانضمام فعلاً إلى تلك الزمرة. تعرّفت إلى تاجر من بينهم كان يعمل مع جامعة التحف الشهيرة إيزابيلا ستيوارت غاردنر.

خاطبني السيّد إدواردز قائلاً: «أنا مندهش لرؤيتك هنا. لقد توقّعت قدوم سكرتير السيّد مورغان، أو ربما قدوم ابن أخيه؟»، ثم أخذ يضحك بشدّة وتكلّف، وينظر إلى جماعته الذين شاركوه ضحكته.

أجبته: «لا أعلم السبب الذي جعلك تتوقّع ذلك.» مددت يدي مرّة أخرى لتعديل قبّعتي، ثم ربَتّ على كتف السيّد إدواردز بأطراف قفّازي، وقمت بإلقاء نظرة خاطفة عليه، وأضفت: «ألا تعلم أنّني أمينة مكتبته الشخصية!»

فهزّ حاجبيه قليلاً وقهقه من دون تصنّع الآن، وقال: «هل قلتِ أمينته الشخصية؟ كيف ذلك؟»

هذا هو بالضبط السؤال الذي أردت منه أن يطرحه فقلت: «أنا مسؤولة شخصياً عن إجراء كلّ عمليات امتلاك المقتنيات المهمّة، بالإضافة إلى كوني مسؤولة عن مجموعته الفنّية. وأنا مخوّلة شخصياً بالقيام بالقرارات والمشتريات كلّها نيابة عنه.» سكتُّ برهةً ثم أضفت: «وأنا أرى أنّني مناسبة تماماً لهذه المهمّة.»

ابتسم وأومأ برأسه، وأخذ ينظر مجدّداً إلى مجموعة أصدقائه وقال: «يبدو أنّها مهمّة كبيرة لسيّدة صغيرة.»

تنهّدت وأخفضت عينيّ وقلت: «نعم، إنّها مهمّة كبيرة للغاية. وكوني امرأة، أعلم أنّه يجب عليّ القيام بعملي على نحو مضاعف، مقارنة بأي رجل لأجعله يعتقد أنّني بنصف قدرته الجيّدة»، ثم ألقيت عليهم نظرة، وأرفقتها بابتسامة عريضة، وأضفت: «من حسن حظّي أنّها لن تكون مهمّة صعبة للغاية!»، ثم ضحكتُ وعدّلت وشاحي الأحمر القاني حول رقبتي ورميت بطرفيه ورائي، وقلت وأنا أهمّ بمغادرتهم: «طاب يومكم أيّها السادة!»

سمعت موجة تحيّة صادرة عن هؤلاء الرجال، إلا أنّها كانت موجة غير مسموعة لا يمكن إدراكها، لكن لا يمكن إنكارها أيضاً. سمعت خلفي إحدى همسات الوداع: «سررنا بلقائك يا آنسة غرين!» لكن سرعان ما تلاشت

أصواتهم عندما قُرِع جرس إعلان بداية المزاد، وأنا كنت حينها بالفعل قد أنجزت مهمّتي التالية، التي كانت في غاية الأهمية بالنسبة إلي، وتتمثّل في حجز مقعد لي في ذلك المزاد. لقد سبق أن قرأت مجلّدات السيّد مورغان، وما تنصّ عليه قواعد المزاد، وسألت زملائي بشأن ممارساتهم في مثل تلك المزادات. يبدو أنّ روّاد المزادات لديهم تفضيلات واضحة؛ إذ يبحث بعضٌ عن مقاعد في الصف الأمامي لتتمّ رؤيتهم، أو يجلسون في الخلف؛ حيث لا يمكن رؤية عروضهم إلا من قبل باعة المزاد. أما أولئك الذين يهتمّون أكثر بالتفاخر بعرض مواردهم المالية وقوّتهم فيختارون المركز. وأنا كنت أعلم بالضبط أين سأكون.

انتظرت إلى أنّ يستقر معظم الناس في كراسيهم، ثم سرت في الممرّ. وبمجرّد أن تأكد لي أنّ كل العيون محدّقة فيّ (وهذا أمر غير مستغرب بالنظر إلى أنّني كنت المرأة الوحيدة في القاعة) جلست في المقعد الأخير في الممر في الصف المركزي.

أخذ الدلّال مكانه في المنبر، وضرب بمطرقته على المنصّة، وقال: «لنا الشرف اليوم في أن نضع على ذمّتكم تركة السيّد روبرت ويلكينسون، جامع التحف المحترم الذي كان شغفه بالكتب والمخطوطات يجعله يتكبّد عناء السفر ذهاباً وإياباً عبر المحيط الأطلسي كلّ عام ليبحث عن أندر نماذج للتحف في كلّ من الولايات المتّحدة الأمريكية وإنجلترا. كما يعلم الكثير منكم -لا شكّ- تم تجميع مجموعة الراحل السيّد ويلكنسون على مدار سنوات عديدة من المبيعات الخاصة، وكذلك التصفية التي قامت بها المكتبات الشهيرة، بما في ذلك تلك التي كانت خاصة بالملوك والملكات. كان السيّد ويلكنسون معروفاً بعينه الثاقبة، ومعرفته الواسعة بالكتب، وفطنته في هذا المجال، وإن كان ورثته لا يحبّذون التفريط في مجموعته، لكنّ الظروف المؤسفة للرسوم والضرائب المعلّقة، التي يعرفها معظمكم عن كثب، تتطلّب منهم ذلك.»

انتظر الدلّال انتهاء أحد أفراد الجمهور من نوبة سعال حادّة انتابته، بينما ظلّ الباقي صامتين. تذكّرت حينها شائعة كنت قد سمعتها عن المزاد تقول إنّه كان هناك حديث عن شحن تلك الكتب إلى إنجلترا لبيعها هناك نظراً إلى محتوياتها ومصادرها الأنجلوسكسونية، إلا أنّ ذلك كان سيزيد الورثة تكلفة إضافية من المدفوعات الجمركية، وهو ما جعلهم يرفضون ذلك الخيار، ويقرّرون بيعها هنا.

سمعنا رنّة جرس المزاد مرّة أخرى، وأعلن الدلّال على إثرها: «سنبدأ اليوم بعرض بيع فئة الأناجيل النادرة والأعمال المهمّة لآباء الكنيسة الأوائل»، ثم شقّ أحد مساعديه طريقه وهو يرتدي ملابس حزينة إلى أن وصل إلى المنصّة، فعرض صندوقاً خشبياً مزيّناً بجميع أنواع اللؤلؤ، ثم توقّف ورفع غطاء الصندوق، فكشف عن مجلّد الإنجيل الذي كان في داخله، فقال الدلّال: «أودّ أن ألفت انتباه الحضور الكريم إلى القطعة رقم واحد.»

قلت في نفسي إنّ الانجيل الذي يعنيني يجب أن ينتظر بيع خمسة عشر قطعة أخرى، لذلك يتعيّن عليّ أن أغتنم هذه الفرصة للاهتمام بدراسة أساليب زملائي مقدّمي العروض. كانت الطرائق التي يشير بها هؤلاء الرجال إلى عروضهم مختلفة على نطاق واسع وتتنوّع؛ فمنهم من يميل إلى الرفع الطفيف لليد، ومنهم من كان يقوم برفع الكتالوج على شكل لفّة حذرة، وتساءلت عما إذا كانت تلك الإيماءات تعكس بعض السمات الرئيسية لمقدّم العرض.

عُرضت على المنصة كوكبة من المجلّدات الفاخرة التي لا تقدر بثمن إلى أن بلغ الدلّال أخيراً عرض القطعة رقم ستة عشر، وقال: «أمامكم يا سادة إنجيل الملك تشارلز الأوّل، وهو يعدّ بالتأكيد إحدى أهمّ الجوائز في هذا المزاد، بالرغم من أنّ مجموعة السيّد ويلكنسون، بطبيعة الحال، تحتوي على العديد من الأشياء الأخرى الثمينة. وكما هو مفصّل لكم في الكتالوج الخاص بكم، إنّ ما يميّز هذا الكتاب المقدّس لا كونه مملوكاً من قبل الملك

تشارلز الأوّل في القرن السابع عشر فحسب، بل لأنّه يُعدُّ أيضاً أفضل مثال فريد من نوعه. هل لنا أن نبدأ العطاءات بمبلغ ألف دولار؟»

أمسكت بوشاحي، بعد أن قررت استخدامه بمنزلة إشارة زيادتي للثمن، وإن كنت أعلم أنّه يجب عليّ أن أنتظر الوقت المناسب للمزايدة. يجب أن تكشف منافستي عن نفسها قبل أن أوضّح نواياي. شاهدت رجلين غير مألوفين يعرضان زيادات بمئة دولار إلى أن بلغ سعر ذلك الانجيل خمسة آلاف دولار. عندها رفعت وشاحي عالياً فبانت الومضة القرمزية على خلفية فستاني الرمادي المائل إلى الزرقة. سمعت رجلاً يهمس لرجل آخر خلفي ويقول: «هل قفزت لتصل مبلغ خمسة آلاف دولار؟»، فردّ عليه من كان إلى جانبه بنبرة صوت منخفض، وقال: «بحق السماء من تكون تلك المرأة؟»

«وماذا تفعل أيّ امرأة هنا على أي حال؟»

«امرأة ببشرة سمراء مثل تلك!»

أفزعتني تلك الكلمات، لكنّني حافظت على تركيزي على ما كان يعلنه الدلّال أنّه سيضبط العطاءات بزيادات تقدّر بخمسمئة دولار. عند هذه النقطة تنازل أحد اثنين من منافسيّ بهزّة سريعة من رأسه. أما الرجل الآخر فاستمرّ ينافسني بزيادة الدولارات مقابل الدولارات التي كنت أعرضها. وسرعان ما تجاوزنا مبلغ عشرة آلاف دولار. بعد ذلك عرضت، في ما يبدو وكأنّه حلم، مبلغ خمسة عشر ألف دولار.

بمجرّد أن أنزلت وشاحي عمّ الهدوء القاعة، وأدركت أنّ منافسي لم يردّ. لقد فزت!

دقّ الدلال بمطرقته على المنصّة، وقال: «تم بيع القطعة رقم ستة عشر، إلى السيّد-أعني السيّدة ذات الوشاح الأحمر في الصف الأوسط»، ثم بادلني بعض الإيماءات الوجيزة، ثم حوّل انتباهه إلى الإعلان عن مزاد القطعة التالية.

بمجرّد الانطلاق في إعلان الأسعار ورفع الأيدي، نهضت وسرت ببطء في ذلك الممرّ. تُعدّ مغادرة المزاد وهو في منتصفه ممارسة منافية للبروتوكول المعتاد، لكنّني أردت أن يفهم الجميع أنّ مكتبة بيربونت مورغان فريدة من نوعها، وأنّ أمينتها استثنائية.

الفصل الحادي عشر

9 شباط/فبراير 1907

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

أنارت الثريات دار الأوبرا الحضرية بإضاءتها المفاجئة، وانعكس ضوءها على ستائر المسرح الدمشقية الذهبية الشهيرة التي تمّ إنزالها للتو، فرمشت عيناي حين أعلن المسرح الفخم عن فاصل استراحة، فوجدت نفسي أكره أن أترك ورائي العالم الآسر لمسرحية (عايدة) الغنائية.

وضع أخي راسل يده على مرفقي، فسمحت له بتمرير ذراعه من تحت ذراعي بينما كنا ننهض من مقاعدنا المخملية الحمراء الفاخرة، ثم أزحنا الستائر التي كانت في الجزء الخلفي من الجناح المخصّص للسيّد مورغان، وخرجنا إلى منطقة البهو التي كانت محجوزة حصرياً لأصحاب الأجنحة التي تقع في الطابق العلوي من دار الأوبرا. تحدّثت مع أخي عن الفصل الأوّل والثاني من المسرحية، بينما كنّا نسير نحو نادل يحمل صينية من كؤوس الشمبانيا.

لقد صرت أحرص، منذ قيامي بأوّل خطأ اجتماعي ارتكبته أثناء حضوري بمفردي حفل فاندربيلت الراقص، على أن يرافقني شخص ما، وخصوصاً عندما أذهب إلى الأوبرا والمسرح. من بين من رافقني في الماضي، عندما لا أكون برفقة السيّد مورغان، أذكر لويز وإثيل، إلا أنّ ماما الليلة أصرّت على أن يرافقني راسل، وقالت لي: «من فضلك يا بيل سيحتاج أخوك إلى وظيفة في غضون بضعة أشهر.»

فأجبتها: «لكنّه لن يجد وظيفة أثناء حضوره في الأوبرا يا ماما. ما هكذا تورد الإبل!»

«أنا لا أتوقّع منه الجلوس وإجراء مقابلة عمل هناك، لكنّه يمكنه مقابلة أشخاص ذوي أهمّية في وسعهم مساعدته في تأمين منصب مهندس بمجرّد تخرّجه.»

ما لا تفهمه ماما، وما لا تريد سماعه، هو أنّ الحاضرين في أجنحة الأوبرا يعملون على مستوى أعلى بكثير من المستوى الذي يطمح إليه راسل، وأنّ لقاء المصادفة لن يكون له تأثير يذكر في تطلّعاته. لكنّ ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي جعلني أفضّل حضور تلك الأحداث مع إخوتي، فالجلوس إلى جانب لويز وإثيل، اللتين لهما بشرة أفتح مني، لا يطرح أبداً أسئلة عن أسلافي. الأمر مختلف دائماً عندما أكون مع أخي ذي البشرة السوداء، لكنّني استسلمت في الأخير لقرار أمّي، مثلما اعتدت أن أفعل في الأغلب.

وفي الردهة، استقبلتني السيّدة هميلتون والسيّدة فيبس بالقبلات، وحيّاني العديد من معارفهما، الذين طلبوا التعرّف إليّ. فعلى إثر مزاد بوسطن، الذي حضرته قبل ثلاثة أشهر، اقتنصت صحيفة نيويورك تايمز تلك القصّة، وكتبت مقالاً عن أمينة المكتبة الناجحة؛ تلك الشابّة الجميلة التي تتحكّم بقوّة في السيّد جي بي مورغان الأسطورة، صانع مجد الأسواق، ومصرفي الرؤساء والملوك، ومنقذ اقتصاد الولايات المتّحدة الأمريكية، واستحوذت صورتي المرافقة للمقال على خيال الجمهور. والسيّد مورغان كان مسروراً من تلك الدعاية، ومبتهجاً من ذكر التناقض القائم بيننا على النحو الوارد في المقال. وعلى الرغم من أنّ ذلك المقال كان محموداً في مجمله، أثار في صفحة الشائعات ذكر حضوري في أحداث المجتمع، وجعلني على علاقة برجال لم أقابلهم من قبل، فصرت قلقة من السمعة السيئة التي قد تؤدي بالناس إلى مزيد من التدقيق في أصولي. وأمام عجزي عن القيام بأيّ شيء حيال صفحات

الشائعات، قرّرت إدارة التغطية العامة لنشاطي، من خلال رفض عشرات الطلبات التي جاءت لإجراء مقابلات شخصية معي.

ورغم ذلك، أسفرت متعة السيّد مورغان بهذا النجاح العام عن فوائد أثارت بعض مخاوفي؛ لقد منحني أوّل علاوة في راتبي، ما سمح لعائلتي بالانتقال أخيراً إلى السكن في شقّة تتكوّن من ثلاث غرف نوم، وتقع بالقرب من حديقة سنترال بارك، حيث يمكن لأخي راسل أن ينام الآن في سرير مناسب في غرفة نومه. وقد أعطاني السيّد مورغان حرّية أكبر في تحديد القطع الفنّية التي يجب أن نقتنيها. لقد حوّلت هذا الأمر إلى سلسلة من الانتصارات الصغيرة، فأمّنت اقتناء روائع، ثمّ مجموعات بأكملها من التحف بوّبتها داخل مكتبة بيربونت مورغان، على الرغم من أنّني لم أحصل بعد على نسخة كاكستون من كتاب (موت آرثر)، كلّما أراد أن يذكّرني بذلك.

وأومضت الأضواء للإشارة إلى نهاية الاستراحة، بينما كنت أنا وأخي راسل في الأسفل نحتسي ما تبقى مما كنا نشربه من شمبانيا. مررنا بمشقّة من بين صفوف الحشد نحو جناحنا، وكنا نكاد نقترب منه عندما سمعت صوتاً مميّزاً عالي النبرة ينادي: «آنسة غرين؟ آنسة غرين، هل هذه أنت؟»

لو كنت بمفردي لكنت تجاهلت ذلك النداء، وقمت بمحاولة أوّلية للهروب من خلال الاستمرار في الذهاب نحو الجناح المخصّص لي، لكن لمّا كنت برفقة أخي راسل أدركت أنّه سيمسكني من ذراعي. وهو ما تم بالفعل، بل قال ظنّاً منه أنّه يساعدني:

«بيل أعتقد أنّ تلك المرأة تناديك!» لقد كان أخي بريئاً، لا يدرك المكائد التي في وسع النخب القيام بها، ابتداء من الثرثرة التافهة، ونشر الشائعات والقيل والقال، إلى الخطط الحاقدة التي وضعت منذ زمن طويل للتدمير الاقتصادي.

لم يكن لديّ متّسع من الوقت لتعليم راسل بشأن تلك الشرور، وكل ما بإمكاني فعله هو التوجّه مباشرة نحو الآنسة إلسي دي وولف بابتسامة عريضة.

قالت بعد أن رسمت قبلتين على خديّ: «أظنّ أنّك الآنسة غرين أليس كذلك؟ جميل جدّاً أن أراك هنا.» لقد بدت لطيفة، وقد جمّعت خصلات شعرها الناعم إلى الأعلى على شكل عقدة فوق رأسها بدت فضفاضة، وقابلتني بغمزة ترحيب من عينيها؛ تلك المرأة المحترمة المتخصّصة في تصميم الديكور الداخلي للمنازل؛ فهي الشخص الذي خلق حقاً هذه المهنة، وأوحى الديكور الداخلي للمسرح المزيّن بالألوان الزاهية، التي أصبحت هذه السيّدة مشهورة بها وبمزاجها المبتهج. لكن كان لدي سبب جعلني أكون حذرة أثناء التواصل معها؛ لأنّه تأكّد لي خلال الشهر الماضي حميمية علاقتها مع آن، وما قاله لي السيّد سيليغمان، جزئياً على الأقل، أثبت لي ذلك. في الواقع، ووفقاً لرواية عدّة أشخاص آخرين، إلسي تعيش بالفعل مع بيسي في إقامة سوتون، وهما على علاقة غرامية يبدو أنّها قد ورّطت آن فيها حتى لو كانت مجرّد صديقة لهما.

فقلت لها: «إنّه لمن دواعي سروري أن أراك يا آنسة دي وولف»، وكنت أرجو ألا تكون لهجتي متصنّعة. لقد كنت أعلم أنّها ستنقل ما سيدور بيننا من حديث إلى آن؛ لذلك حرصت على أنّ لا يشوب سلوكي أيّ شائبة، فأضفت: «آمل أن تكوني قد استمتعتِ بمسرحية عايدة الموسيقية.»

أجابتني: «بالتأكيد استمتعت!»، ثم حدّقت مباشرة في راسل، فقمت بآداب تقديمها اللائق على مضض وقلت: «هلا تشرّفتِ بمقابلة أخي راسل دا كوستا غرين؟»

فردّ أخي: «سررت بلقائك يا آنسة دي وولف!» ثمّ سألها: «هل أنت صديقة لأختي؟»

أصابتني نوبة تأوّه في داخلي؛ آه. كم كان فهم راسل لهذا العالم بسيطاً ليفترض أنّ اختلاط الناس بعضهم ببعض يجعل منهم أصدقاء! إنّ مملكة

النخبة تحمل العديد من الدرجات وأنواع العلاقات، وعدد قليل منها فقط يحتوي على صداقة فعلية.

بارتجال حاولت الآنسة دي وولف تفسير طبيعة علاقتنا: «أصدقاء؟ حسناً... هل أنت شقيق بيل؟»، ثم أخذت تحدّق في ملامحنا المتشابهة ولون العينين الرمادي المشترك بيننا، وقالت: «نعم بالفعل أرى التشابه الصارخ بينكما!»

شعرت بضيق متزايد حين رأيت تبادل المجاملات بين راسل والآنسة دي وولف، التي كانت تركّز في أسئلته على مستواه التعليمي وطموحاته، تماماً مثلما كانت تريد ماما. وتساءلت: أيّ انطباع انتاب الآنسة دي وولف حين كانت تتطلّع إلي وإلى أخي ونحن نجلس جنباً إلى جنب وهي ما هي؛ مصمّمة الديكور المشهورة بحسّها البصري الدقيق. ذلك هو بالضبط الموقف الذي أردت تجنّبه.

فقلت: «حسناً لقد سررت برؤيتك»، وبدأت التحرّك نحو جناحنا على أمل أن يتبع أخي خطاي، لكنّ الآنسة دي وولف واصلت حديثها كما لو أنّ أخي كان رهينة عندها وأسيراً لكلامها. راسل كان مجبراً على عدم تركها من دون أن تنهي حديثها، فقواعد السلوك المهذّب والآداب تمنع مثل هذه التجاوزات.

قالت له: «نعم، أنتما إخوة، فلون البشرة هو نفسه، وكذلك السمات نفسها؟ إنّه لأمر مثير للاهتمام.» أدركتُ، انطلاقاً من تعبيرها المركّز، أنّ الاستقصاء الحقيقي قادم لا محالة فسألته: «هلّا ذكّرتني بأصول أهلك؟»

تسمّرت في مكاني. لقد كان ذلك السؤال هو السؤال نفسه، الذي طرحته آن عليّ في آخر لقاء لنا. يبدو أنّ الآنسة دي وولف كانت مبعوثة من قبل ابنة السيّد مورغان للتجسّس عليّ.

ردّ أخي على نحو أوتوماتيكي بالجملة نفسها التي كان جميع أفراد العائلة يردّدها: «تعود أصول جدّتنا إلى البرتغال.»

فقالت بنظرة يشوبها الشكّ، وبنبرة تطغى عليها الريبة: «نعم من البرتغال. هذا ما سبق أن قيل لي، لكنّني خلت أنّكم من أصول استوائية.»

لم يعد هناك شكّ الآن في أنّ آن والآنسة دي وولف قد تحدّثتا عني، لكن ما الغاية من كلّ تلك الأسئلة؟

واصلت الآنسة دي وولف حديثها: «لقد خلت أنّ أصولكم ربما تنحدر من مكان أشبه بكوبا!؟»

لقد كنت أعرف ماهية ما تلمح إليه حين ذكرت أنّ أصولنا من كوبا، فضغطت بيدي على صدري لتهدئة نفسي، والتظاهر بأنّ ما قامت به هو لفتة تسلية، وقلت وأنا أضحك كما لو أنّني كنت مسرورة من سماع كلماتها، على الرغم من أنّني كنت غاضبة في داخلي: «كوبا؟ أوه، لا، لكنّني أرغب بالتأكيد في زيارة هذا البلد يوماً ما.»

سألتني وهي تشكّك صراحةً في صدق كلامي: «هل من المؤكّد أنّ أصولك ليست كوبية؟ لقد سمعت الكثير من الشائعات في هذا الصدد-.» قاطعتها بموجة أخرى من الضحك، ولوّحت لها بيدي، والمزيد من الضحك، لأنّه لم يكن مؤكّداً لدي مدى تماديها في مواصلة ذلك الاستقصاء، ولا كان مؤكّداً أيضاً مدى قدرة أخي راسل على الصمود أمام ذلك التحرّي المستمر. ثمّ قلت لها: «لا تصدّقي كل ما سمعتِه يا آنسة دي وولف.»

أجابتني بحزم: «من الصعب مقاومة الشائعات المتكرّرة يا آنسة غرين!»

قلت: «مؤكّدٌ لدي أنّك أنت بالذات، من بين جميع الناس، تفهمين درجة استعصاء الشائعات، ومدى صعوبة التخلّص منها. وأنا أرى أنّ ذلك الأمر يمكن أن يكون صحيحاً بشكل خاص مع الشائعات التي قد تحوم حول

أيّ امرأة قويّة مثلي ومثلك، لكن ألا ترين أنّ من العيب أن تقوم بعض النساء بالافتراء والقيل والقال والمزيد من إذاعة الشائعات عنا؟» توقّفت عن الكلام من دون أن أتوقّع أيّ إجابة منها، لكنّني توقّعت ردّة فعلها. ثمّ أضفت: «أنا بالتأكيد تجاهلت الثرثرة التي سمعتها عنك وعن الآنسة ماربوري.»

وأدركت انطلاقاً من تعابير الجمود، التي بدت على وجه إلسي، أنّني قد حقّقت هدفي. لقد حاصرتها، وأوقعت بها من خلال تذكيرها بالتزامها المعلن بمصالح المرأة بينما كنت أُلمح بمهارة إلى الشائعات التي كانت تُقال عن حياتها الخاصة، فكيف يمكن لها الاستمرار في مضايقتي واضطهادي وهي تتبنى في الوقت نفسه علنياً دعم النساء، بالنظر خاصةً إلى أنّها تعرف الآن أنّني أدرك أنّ لديها أسراراً خاصة بها؟

قلت في أغوار نفسي، حان الوقت لمغادرتها، وأعلنت: «طاب مساؤك يا آنسة دي وولف. استمتعي بما تبقى لك من ليلتك!»

أمسكت في هذه المرّة يد أخي وقدته بقوّة إلى مقاعدنا. وبمجرّد أن خفت نور الثريات للإعلان عن بداية الفصل الثالث والرابع من المسرحية همست في أذنه: «ألا ترى ما كانت بصدد فعله؟»

«نعم أنا آسف عما وقع!»

بدأت الأوركسترا بالعزف، فجلسنا متسمّرين في أماكننا بصمت. لم أكن في حاجة إلى الاستفسار عن أفكار أخي؛ فأنا أعرف بالضبط ما كان يفكّر فيه، فنحن في بعض النواحي نُعدّ الأكثر تشابهاً بين أشقائنا، ولاسيما أنّ ملامحنا لا تمنحنا دائماً مساحة التنفّس نفسها، والتحرّك مثل إخوتنا. لقد كنّا مثل من كان يسير على حبل مشدود، نحاول الحفاظ على توازننا، ويجب أن أتصالح مع نفسي بشأن حقيقة أنّ الشكوك التي تحوم حولي لن تختفي أبداً.

الفصل الثاني عشر

1 تشرين الأول/أكتوبر2- تشرين الثاني/نوفمبر 1907

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

لقد تحوّلت الوتيرة البطيئة لعمليات شراء التحف، التي بدأت من مزاد بوسطن، إلى رحلة سريعة، واستمرت نجاحاتي في الازدياد. لقد قرّرت أنا والسيّد مورغان أن تصبح مكتبة بيربونت مورغان أكثر من أعظم مقرّ في أمريكا يحتوي على أهمّ مجموعة من الكتب التي طُبعت زمن بداية ظهور آلة الطباعة، وأروع المخطوطات المستنيرة، لتكون تاريخاً حياً للكلمة المكتوبة والكتب المطبوعة، وهذا -لعمري- هدف يستحقّ كل الجهود. إنّ هذه المكتبة ستحتوي على أرقى الأشياء التي امتلكها أو أنشأها الحكّام والعائلات المالكة والفنّانون والمخترعون في كلّ مجال، بما في ذلك: ساعة نابليون، ودفتر ملاحظات دافنشي، وأوراق شكسبير، وعلبة نشوق الإمبراطورة كاترين العظيمة، ورسائل الرئيس جورج واشنطن. وعندما كنت أضع جواهر عائلة ميديشي الإيطالية في الخزانة المحصّنة، كنت أشعر بأنّ إرثهم كان ينتقل منهم إلى السيّد مورغان ومكتبته، وأنّني حقّقت تطوّره إلى ما يشبه ميديشي العصر الحديث مثلما وعدته.

لكنّ الحياة يمكن أن تتغيّر فجأة. لقد انخفضت أسعار التحف التي كانت في السابق تباع بأثمان ضخمة بسبب شائعات تتكهّن ببوادر انهيار اقتصادي في الأفق، وأعلنت عناوين الصحف عن ملامح ظروف قاسية تتهدّد الجميع، وتنبّأت بما هو أسوأ، وظلّت بورصة تداول الأسهم في نيويورك تتهاوى يومياً،

وتنامى الخوف من تأثير ذلك على البنوك. لقد سمعت محادثات داخل مكتب السيّد مورغان تذكر تفاصيل المضاربة المفرطة في الأسهم المتعلّقة بالسكك الحديد والتعدين والنحاس؛ والاستثمار المفرط في الشركات الائتمانية غير المنظّمة التي كانت على حافة الإفلاس؛ كما سمعت عن القروض المصرفية المدعومة بالأسهم، والسندات المتداعية بوصفها ضماناً لها.

يبدو أنّ اقتصادنا عبارة عن بيت من ورق، لكنّ السيّد مورغان كان يؤكّد لي أنّه لا يوجد أيّ داع للقلق. وبالفعل كان يشير إليّ بأنّه يجب أن نستمر في الإنفاق رغمَ انهيار الاقتصاد، ثم يسألني إثر ذلك عن السبب الذي يبرّر تقديمه تلك التوصيات.

لقد كان يثقفني ببطء في مجال الأمور المالية، وأطلعني على وثائق الميزانيات المالية وبيانات الربح والخسارة، وأوصاني بقراءة أعمدة المال والأعمال في الصحف.

تأمّلت في المشكلِ الذي طرحه، والذي يبدو كأنّه اختبار، وظلّ يخامر ذهني فترة طويلة، وفكّرت في الطريقة التي كان السيّد مورغان يقيّم بها الشركات وفرص الاستثمار، وقلت له في الأخير: «يجب ألا ندرس القيمة الحالية للكتب والفن، بل قيمتها المستقبلية، التي قدّرناها على أنّها هائلة. ونظراً إلى سعرها المنخفض، مقارنةً بمستقبل قيمتها المرتفعة، إنّ الأعمال الفنّية والمخطوطات المعروضة في السوق تقدّم فرصاً فريدة وقيمة ممتازة. ويجب أن نمضي قدماً في هذا التمشي.» لقد أنهيت كلامي وبقيت أنتظر حكمه.

فقال وهو يبتسم: «آه. يا آنسة غرين، إنّك ترين ما تغافلت عنه عينا أيّ شخص آخر، إنّهم عميٌ لا يبصرون مثلك!»

لكن حتى إنفاقنا الانتهازي لم يكن في وسعه تحمّل الانكماش غير المحدود للسوق المالية. وبحلول بداية شهر تشرين الأول/أكتوبر، أعلنت الصحف انهيار أسهم النحاس، ما سيؤدي إلى انخفاض الأسهم الأخرى مثلما يقع في لعبة الدومينو. وصار التنبيه واقعاً حين أدرك الناس أنّ الأسهم تعمل فحسب بوصفها ضماناً لنسبة كبيرة من القروض والسندات المصرفية، ثم أصبحت المخاوف حقيقة، وتشكّلت طوابير الناس خارج البنوك بنيّة سحب أرصدتهم من حساباتهم. لقد كنت أراهم وأنا في طريقي إلى العمل، حتى أنا وأمي خبّأنا حقيبة صغيرة من النقود تحت سريرها. وتساءلت عندما قرّر السيّد مورغان إيقاف المشتريات، ولم يعد حتى يسألني لأسابيع عن نسخة كاكستون الثمينة، فيما كان يتعيّن على ماما الانضمام إلى طوابير الناس المصطفّة أمام البنوك بقصد سحب جميع مدّخراتنا.

سمعت السيّد مورغان يناديني في اللحظة التي دخلت فيها إلى القاعة المستديرة في صباح العاشر من تشرين الأول/أكتوبر، واستغربت ذلك؛ لأنّه كان من المقرّر أن يغادر السيّد مورغان المدينة في الليلة السابقة لحضور المؤتمر الأسقفي المزمع عقده في مدينة ريتش موند في ولاية فرجينيا، ناهيك عن أنّني عادةً أصل قبله إلى العمل.

اتجهت إلى مكتب السيّد مورغان حتى قبل أن أنزع معطفي، ودخلت المكتب، فوجدته متكئاً أسفل كرسي عرشه، إلى درجة لا تكفي للآخرين لأن يلاحظوا وجوده، لكنّ الساعات التي قضيتها مع هذا الرجل جعلتني أدرك حتى التحوّلات الدقيقة في وضعية جلوسه، وأتنبّه إلى غياب البريق المعتاد لعينيه اللتين كانتا تشبهان عيني الصقر.

فقلت: «نعم يا سيّد مورغان ما حاجتك؟»

تجنّب النظر إليّ قبل أن يردّ: «اجلسي من فضلك!»

انتابني القلق، فأنا كنت أعرف بالفعل ما سيقوله، وانهالت عليّ الأسئلة من كلّ حدب وصوب: هل سيتعيّن على تيدي ترك دراستها في الكلّية؟ هل سيتعيّن على ماما العودة إلى التدريس مرّة أخرى؟ ماذا عن شقّتنا الجديدة؟ لقد سكنا هناك مدّة عام فقط. لم يبقَ أمامي سوى أمل وحيد هو أن أكون قادرة على العثور على وظيفة جديدة، أو ربما العودة إلى العمل في مكتبة جامعة برينستون.

قال: «لقد انتحر صديق لي من بوسطن.»

نزلت كلماته عليّ كالصاعقة، لكنّني لم أنبس ببنت شفة.

تابع كلامه: «لقد حدث ذلك في الليلة الماضية في مدينة سان فرانسيسكو. يبدو أنّ شركته الاستثمارية كانت بالفعل على حافة الخراب المالي، لكنّ الأزمة عجّلت في إفلاس شركته بانهيار تجاوز الحافة. لقد وجدته زوجته المسكينة وقد أنهى حياته بطلقة مسدس.»

ثم هزّ رأسه، قبل أن ينزل عينيه إلى الأسفل، فأدركت أنّ تلك الحركات كانت إشارة منه إلي بضرورة أن أتركه، فقلت له قبل التوجّه إلى مكتبي: «أنا آسفة للغاية لسماع مثل هذه الأخبار السيّئة يا سيّدي!»، ثم عدت إلى مكتبي، وجلست على الكرسيّ وأنا أرتجف من هول الأخبار التي سمعتها. لقد شعرت في جزء منها بالراحة؛ لأنّني ما زلت أحتفظ بوظيفتي في وقتٍ كان فيه الكثيرون من الناس عاطلين عن العمل. لكنّني بمجّرد أن أزحت دافع الأنانية، اغرورقت عيناي بالدموع بسبب المصير المأساوي لرجل وعائلة لم يسبق لي لقاؤهما.

ورغمَ أنّ السيّد مورغان غادر بالفعل ليحضر المؤتمر الأسقفي في ذلك المساء، لكنّه قبل أن يذهب لاحظت عليه بروز تحوّل في تفكيره، فهو لم يعد يعتقد أنّ تلك الأزمة ستزول، وما من أحدٍ كان يعتقدُ خلاف ذلك.

بعد انقضاء ثلاثة أسابيع من التوتّر، أصبح السيّد مورغان؛ ذلك الرجل الذي أنقذ معيار الذهب في عام 1895، وأنقذ الاقتصاد الأمريكي معه من خلال السيطرة على تدفّق الذهب داخل وخارج البلاد، والذي أنشأ أكبر شركة للصلب في العالم، وأوّل شخص ضخّ مليار دولار لتمويل اندماج شركة أندرو كارنيجي للحديد مع اثنين من أكبر منافسيه؛ يلبي نداء البلاد للمساعدة، ويتمّ استدعاؤه مرّة أخرى من مؤتمره. وبمجرّد وصوله إلى مدينة نيويورك بقاطرته الخاصة، قام بتجميع لجنة من المصرفيين الشباب للتحقيق في مختلف اللاعبين الاقتصاديين والقيام بجرد لأسمائهم.

وفي الوقت الذي عبر فيه الأبواب البرونزية الثقيلة للمكتبة في صباح الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر، بدا فيه كأنّه أصغر بعشر سنوات من الرجل الذي غادر، وقام بإيماءة إلي وهو يسير بخطا مليئة بالحيوية، قبل أن يقود عشرة رجال إلى مكتبه لعقد اجتماع قال إنّه يأمل منه إنهاء الأزمة. لقد شعرت حينها بقوّته، وأدركت في الصميم أنّ تلك الأزمة الاقتصادية ستحلّ. لكن في غضون ساعة فتح باب مكتبي على مصراعيه.

فزعت من صوت الباب، وفوجئت باكتشاف أنّ من فتحه هو السيّد مورغان فقلت: «هل أنت، أو أيّ من ضيوفك، تحتاجون إلى مساعدتي يا سيّدي؟»

دخل مكتبي بنسق سير غير معهود، ثم جلس على الكرسي المقابل لمكتبي، وقال: «ليتك تقدرين على المساعدة يا آنسة غرين!»

فقلت: «أنت تعلم أنّني مستعدّة للقيام بأيّ شيء لتقديم المساعدة.»

أجابني بلهجته القاسية المليئة بمشاعر الإحباط أكثر من مشاعر الغضب: «هل بإمكانك ايقاف حماقات المصرفيين وأصحاب السندات والشركات الذين أحضرتهم إلى المكتبة اليوم؟»

ضحكت مما كان يفكّر فيه، وقلت: «إذا كان في وسعي ذلك فسأفعل يا سيّدي.»

فقال وقد رافقته ضحكة كئيبة: «ربما تكونين الشخص الوحيد الذي في وسعه القيام بذلك، فأنا لم يحالفني الحظّ حتى الآن.»

فأجبته: «أنا لا أعرف القيام بذلك. أما أنت فقد تمكّنت من جعل الحكومة تتعهّد بتوفير مبلغ خمسة وعشرين مليون دولار لمساعدة شركات الوساطة، وساعدت في جمع ثلاثين مليون دولار لمساعدة مدينة نيويورك بقصد تلبية نفقاتها. ناهيك عن طلبك في قدّاس أحد الأسبوع الماضي أن يعظ الزعماء الدينيون في المدينة الناس للالتزام بالهدوء. واسمح لي أن أقول -يا سيّدي- إنّ كل ما قمت به يُعدُّ عملاً رائعاً، وليس هناك شكّ في أنّه أبطأ تصفية الأسهم المتداولة في السوق والبنوك.»

ابتسم وقد بدت عليه علامات السرور من تقييمي للوضع، وقال: «نحن ننتظر حلول رحمة من عند الله يا آنسة غرين، فما نحتاج إليه يُعدُّ معجزة!»

على أي حال، لم تؤثّر فيّ حيرته، فأنا أعلم أنّه يحتاج إلى الكثير من التشجيع، فقلت له: «لقد حقّقت العديد من المعجزات من قبل يا سيّد مورغان، ولا أشكّ في أنكَ ستفعل ذلك مجدّداً»، ثم نظرت إليه وقلت في داخلي: يجب أن يكون واثقاً من قدرته على إصلاح هذه الكارثة؛ لأنّه إذا لم يستطع، فمن سيكون في وسعه القيام بذلك؟ ثم خاطبته: «وما هي خطّتك؟»

أخذ يتأمّل للحظة، ثم قال: «حسناً، لقد أبقيت الأبواب الأمامية للمكتبة مقفلة، بعد أن جلبت ما يكفي من مؤونة قد تكفينا لمدّة طويلة، لأنّني أخبرت هؤلاء الرجال الماليين الملاعين أنّنا لن نغادر هذا المكان حتى يتم حلّ هذه المعضلة. ولقد وضعت المصرفيين في المكتبة، بينما أبقيت أصحاب الأسهم في مكتبي، أما أنا فسأتحصّن معك هنا إلى أن أحصل على كلمة منهم تعلن أنّهم توصّلوا إلى بعض المقترحات.»

«إنّه لمن دواعي سروري أن أحظى برفقتك يا سيّدي، وإذا كان لديك بضع دقائق الآن، فلن أمانع في أن تخبرني بآخر التطوّرات.»

اعتكف على مكتبي، وبدأ في رسم بعض الخرائط التي تلخّص الوضع حتى تلك اللحظة التي تسبّبت في نقاشنا في ذلك الصباح. لقد كنت مفتونة بشغفه ورغبته في القيام بما هو جيّد للبلاد. وبمجرّد أن انتهي من تصوّر السيناريوهات المحتملة لتجاوز الأزمة، سمعنا طرقاً على باب مكتبي، فنهض وفتح الباب أمام الوجه المذهل لرجل أعمال ذي شعر فضّي.

لم يستطع ذلك الرجل، بمجرّد تخطيه عتبة الباب، إخفاء اجلاله للمكان، فحتى في خضمّ الكارثة، حافظ مكتبي الفخم المكوّن من طابقين على هيبته، ثم سألني كما لو أنّه كان لا يصدّق أن ترأس امرأة شابة مثل ذلك الفضاء الكبير، وقال: «هل هذا مكتبك؟»

أجابه السيّد مورغان: «إنّها الآنسة غرين أمينة مكتبتي، وهي تستحق كلّ شبر من هذه القاعة. بالله عليك لماذا تضيّع وقتها ووقتي باستجوابها؟»، ثم عبّر له بنبرة يشوبها نفاد الصبر: «يجب أن تعرض عليّ خطّة عمل.»

فقال: «لست بصدد استجوابها، بل ما قلته هو مجرّد سؤال. أمّا بخصوص خطّة العمل فإنّنا لم نهتدِ حتى الآن إلى أيّ خطّة.»

وقف السيّد مورغان وواجه الرجل وقال له بهدوء شديد وباتزان: «لا تعد إلى هنا حتى تحصل أنت وأصحاب الأسهم الملاعين على حلّ لهذه الأزمة، هل تسمعني؟»

قال: «اعذرني يا سيّد مورغان، ويا آنسة-آنسة- -.» تلعثم، يبدو أنّه نسي اسمي، فصرخ السيّد مورغان في وجهه، واستعاد مكانه على كرسيّه، وقال: «اسمها الآنسة غرين!» خرج الرجل من المكتب من دون أنّ يجيب عن سؤاله.

تمتم السيّد مورغان وقال: «يا له من غبي!»

جلست محاولةً تجاهل الإحساس الغريب الذي انتابني تجاه ترأسي المكتب، بينما يقابلني السيّد مورغان على كرسي الضيوف الذي كان يكاد يستطيع احتواء حجمه الضخم. قلت بعد أن تمتّعت بالنظر إليه للحظة: «أنت تعرف الحلّ بالفعل، أليس كذلك؟ هل يمكنك ببساطة مشاركته معهم؟»

«أنا لا أستطيع أن أقول هذا إلا لك فقط»، ثم نظر نحو حافة كرسيه وقال بصوت منخفض، لكنّه ليس بالهمس المشابه لغضبه: «أنا بصراحة لا أعرف ما يجب علينا القيام به. أشعر فحسب بملامحِ إجابة تتردّد في أقصى ذهني، لكنّها لم تتّخذ شكلها الكامل، أظنّها لن تتشكّل الا عندما يبدأ المصرفيون وأصحاب الأسهم في رسم الحلول الممكنة، حينها سأتّخذ القرار المناسب.»

أومأت إليه بإشارة موافقة، وأنا كلّي يقين بأنّه لم يكن في وسعه قول تلك الكلمات لأيّ شخص آخر بمن في ذلك ابنه أو بناته، وبالتأكيد حتى زوجته، أو أي من عشيقاته. فقلت في نفسي أنا اليوم أمثّل له أكثر من أمينة مكتبته، لقد أصبحت محلّ ثقته وأمينة أسراره. ثم خاطبته: «أنا على يقين بأنّ حلّك سيتشكّل.»

اعتكف مجدّداً على المكتب وقال: «يتعيّن عليك في الوقت الحاضر مساعدتي في تمضية وقت طيّب معك.»

«هل تودّ مني أن أقرأ لك كتاباً ما؟»، ومددت يدي لجلب كتاب إلا أنّه أوقفني قائلاً: «لست في مزاج جيّد يسمح لي بذلك. دعينا نقوم بهذا-»، ثم أخرج من جيبه مجموعة من ورق اللعب.

فقلت من وقع المفاجئة: «أوه!»

سألني وهو يخلط الأوراق: «هل سبق لك يا آنسة غرين لعب البريدج؟»

لقد جلب سؤاله لي ابتسامة ارتسمت على تقاسيم وجهي، وأثار ذاكرة ظلّت عالقة في ذهني، فأجبته: «أعرفها قليلاً. كنت أحبّ مشاهدة جدّتي وأصدقائها وهم يلعبون البريدج عندما كنت صغيرة في -.» توقّفت عن الكلام قبل أن أقول «في العاصمة واشنطن»، ولكن بعد فوات الأوان.

انتابت عينا السيّد مورغان حمّى الفضول عندما قال: «جدّتك؟ تلك المنحدرة من البرتغال؟»

هل ذكرتُ اسم الجدّة فليت للتو؟ وازداد خفقان قلبي، ولم يعد في وسعي تصديق الخطأ الذي اقترفته، ولا يسعني إلا أن أشرح تلك الزلّة من خلال مزيج من المفاجأة أثناء خلط أوراق اللعب أو عن طريق تسلية ربّ عملي وجعله مرتاحاً أكثر.

لكن قبل أن أجيبه استرسل السيّد مورغان في كلامه وقال: «لسبب ما خلت أنّ جدّتك تعيش في البرتغال، لكن لم أكن أدرك أنّها هنا.»

«لا. أعني، نعم. أعني، إنّها تعيش في البرتغال. أنت محقّ لقد زارتنا مرّة واحدة فقط، عندما كنت صغيرة في السن»، وأصبحت أتلعثم لإيجاد أي تفسير.

لقد كنت، طوال فترة عملي مع السيّد مورغان، واثقة من نفسي وثابتة، لكنّ الطريقة التي ينظر بها إليّ الآن تخبرني أنّني أبدو مهتزّة.

قال بعد برهة طويلة: «حسناً، إنّ لعبة البريدج تحتاج إلى أربعة لاعبين، إلا إذا لعبناها وفق نسخة معدّلة منها: ماذا عن لعب البيزيك؟»

لم أتنفّس الصعداء إلا عندما مال إلى الأمام ليقوم بتوزيع الأوراق، ويعلّمني قواعد اللعبة، وما يتعيّن عليّ فعله للعبها. لماذا كنت طائشة هكذا؟

ثم دقّت الساعة الثانية، ثم الثالثة، وبحلول الوقت الذي دقّت فيه الساعة الرابعة، قال السيّد مورغان: «ربما يستحسن بك أن تقرئي لي أيّ شيء يا

آنسة غرين»، فالتقطت إحدى روايات ديكنز من رفّ خزانتي، وانطلقت في قراءة رواية (الآمال العظيمة) بصوتٍ عالٍ. وغرقنا في دائرة مفرغة من لعب الورق، ثم القراءة، ثمّ مناقشة ما نطالعه، واستمرت عقارب الساعة في الدوران إلى أن أصبح ضوء النهار، الذي كان يميل إلى الزرقة إثر اختراقه بلور نوافذ العصور الوسطى المزخرفة، يميل إلى تحويل جدران مكتبي إلى اللّون البنفسجي، ثم يتحوّل إلى الضوء الذهبي الذي يغمر الكون في وقت مبكّر من المساء، وأخيراً يتحوّل إلى عتمة سوداء دامسة في ليلة بلا قمر. لم نقاطع عملنا الروتيني إلا عندما نادى أحد السادة السيّد مورغان أو إحدى الخادمات لجلب الأكل والمشروبات.

بعد منتصف الليل، نهض السيّد مورغان فجأةً من كرسيّه، من دون أن ينبس ببنت شفة، وخرج من مكتبي للمرّة الأولى منذ دخوله. وعندما عاد بعد أربعين دقيقة بدا مبتهجاً.

وأخذ يصرخ ويقول: «لقد حللتها.»

قفزت من مقعدي، وأمسكت بذراعه، وقلت: «هل فعلاً وجدت الحلّ؟»

فقال بفخر: «لقد وجدت طريقة لتعزيز الأسهم الضعيفة والشركات المتهاوية، ومن ثم وقف تأثيرها الكارثي على السوق بأكمله في حال فشلت. لقد رتّبت الأمر لتملك شركة الولايات المتّحدة للصلب شركة الفحم والحديد في ولاية تينيسي، التي ينبغي أن تدعم حصّة كبيرة من الشركات المتعثّرة، وتدعم الصناديق الائتمانية التي ستحتفظ بأسهمها ضماناً.»

أصابني توجّس، فسألته بعبوس: «لكن ألن يسبّب ذلك مشكلة تعارض مع قوانين مكافحة الاحتكار؟»

«سؤالك ذكي يا آنسة غرين!»، ثم واجهني بابتسامة عريضة وكبرياء، وأضاف: «سأجعل روزفلت يوافق على هذا الاتفاق، ولن ترفع الحكومة الفدرالية أيّ دعوى.»

فقلت له: «لقد وجدت الحلّ إذاً!»، ووقفت من دون تفكير على أطراف أصابع قدميّ، واحتضنت الجثّة العظيمة لذلك الرجل.

جذبني أكثر إلى جسمه وقال: «بوقوفك إلى جانبي، أشعر أنّني أستطيع أن أفعل أيّ شيء يا بيل.»

قمت بخطوة إلى الوراء مندهشة من الخطوة الجريئة الخاطئة التي أقدمت عليها. لقد سبق أن عشنا أنا والسيّد مورغان لحظات الانجذاب تلك، لكنّنا لم نبلغ أبداً هذا الحدّ. لكن من كان في وسعه منّا إنكار تلك الرعشة التي كانت بصدد النشوء بيننا؟

ماذا عساي أن أفعل؟ لا يمكنني الاستسلام لهذا الرجل الذي يكبرني بأربعين عاماً، والذي يعرف أنّه زير نساء وسيئ سمعة. فبدأت بسحب نفسي من حضنه، فتركني أفلت على نحو مفاجئ، ثم ألقيت نظرة عابرة إلى الأسفل، وأنا في داخلي ألوم نفسي على اندفاعي عندما شعرت بإصبعه تحت ذقني.

عندما ألقيت وجهي نحو وجهه استغرق الأمر مني لحظة لأنظر إلى الأعلى، وأرى ذلك التعبير الحنون مرّة أخرى، على الرغم من أنّني لاحظت أيضاً تعابير أخرى في عينيه اليوم. إنّه أكثر من مجرّد تقدير لأنوثتي؛ بل إنه الشوق. همس لي: «إنّ ارتباطاتي الرومانسية تنتهي دائماً بشكل سيئ، وأنا لا أحتمل أن أفقدك يا بيل، فأنت تعنين لي أكثر من أيّ امرأة أخرى، بل تعنين لي الكثير في معظم الوقت حتى أكثر من عائلتي. أريدك أن تقفي إلى جانبي؛ شريكةً لي، وأمينةً لأسراري، وأمينة لمكتبتي حتى نهاية العمر.»

أومأت إليه برأسي في إشارة قبول؛ لأنّني لم أستطع الكلام. وفي الأخير لم أتنفّس الصعداء إلا حينما قام بلفّة في القاعة، ثم ابتعد، وخرج من مكتبي.

الفصل الثالث عشر

20 آذار/مارس 1908

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك، والعاصمة واشنطن

ركبنا القطار مع العشرات من المسافرين الآخرين من مدينة نيويورك متّجهين إلى العاصمة واشنطن، وامتطينا عربة القطار، وجلسنا في الصف الأخير الهادئ؛ حيث كانت هناك ستة مقاعد شاغرة منتظمة بعضها إلى جانب بعض. لقد عانت عائلتي من الكآبة منذ أن تلقينا النبأ الصاعق بوفاة الجدّة فليت قبل يومين، وأمضينا نصف الساعة الأولى من الرحلة ونحن جالسون في صمت.

ثم نظرت من خلال النافذة، فشعرت بتمزّق بين مشاعر الفرح والغبطة التي كانت تغمرني بسبب إنجازاتي التي حقّقتها في مكتبة بيربونت مورغان، ومشاعر الحزن التي كانت تجتاحني؛ فمن ناحية كنت فخورة بالمكتسبات المهمة التي نجحت في إنجازها والارتقاء بمكانة المكتبة الذي تحقّق تحت إدارتي التي كافأني عليها السيّد مورغان بعلاوة مالية ثانية، ولقد سررت بالإيقاع الجديد الذي وجدناه في عملنا في الأشهر الأربعة الماضية منذ تلك اللحظة التي عشتها مع السيّد مورغان في مكتبي إبان الليلة التي أنقذ فيها البلاد من الخراب المالي. ولم نتحدّث مجدّداً البتّة عن ذلك الزمن الذي قضيناه معاً، رغمَ تسوية ذلك الأمر، بغضّ النظر عن الجاذبية التي كانت بيننا، وقرّرنا أن نكون أفضل بوصفنا ربَّ عمل وموظفَته.

ومن ناحية أخرى، إنّ المتعة التي كنت أشعر بها في عملي أثقلتها تلك الخسارة المذهلة. ورغم حقيقة أنّني لم أعد إلى العاصمة منذ أكثر من عقد من الزمن، لم يقلل مرور الوقت من الاتصال الذي كنت أشعر به تجاه مكان مشبع بالحبّ والعائلة، والرابط الذي كنت أشعر به تجاه نوع مختلف من الحياة، لكنّني كنت أتساءل كيف سيكون الأمر من دون جدّتي؛ تلك المرأة التي ما زلت أتذكّر حضنها الدافئ كما لو أنّ ذراعيها ملفوفانِ حولي للتوّ.

قالت إثيل أخيراً: «يجب أن نشغل أنفسنا بشيء ما»، ثم أخرجت من حقيبة يدها مجموعة من ورق اللعب، وقامت بخلطها وتوزيعها على الطاولة التي كانت معدّة بين المقاعد الأربعة؛ حيث كان خمستنا محشورين. ألقيت نظرة على ماما عبر الممر لأرى ما إذا كانت ستستهجن هذه الفسحةَ الصغيرة التي اتخذناها في خضمّ حدادنا، لكنّ عينيها كانتا مغمضتين، وأظنّ أنّ قعقعة القطار قد جعلتها تخلد للنوم.

في البدء كنا نلعب بصمت إلى أن همست لويز: «ألا تشعرون بإحساس غريب وأنتم تعودون إلى العاصمة؟»

فردّ راسل: «لقد مرّت عشر سنوات على الأقل على مغادرتنا العاصمة.»

فعقّبت عليه ايثل في رجع للصدى، وقالت: «نعم بالفعل مرّت عشر سنوات. لكن متى كانت آخر مرّة عدنا فيها إلى هناك؟»

أجاب راسل: «منذ عشر سنوات على الأقل.»

فقمت بإيماءة تصحيح وقلت: «بل مرّت اثنتا عشرة سنة! كنت في السادسة عشرة من عمري في آخر مرّة ذهبنا فيها إلى عيد الميلاد هناك. لقد اعتدنا المزيد من الزيارات لقضاء العطلات واللقاءات العائلية، ولكن بعد ذلك توقّفنا عن الزيارة.»

سألتنا إثيل: «لماذا توقفنا عن زيارة مسقط رأسنا؟»

كيف لا تعرف إيثل لماذا لم نعد نزور موطن ماما؟ فهي أصغر مني بسنة واحدة فقط، لكنّها تبدو أحياناً أصغر مني بسنواتٍ كثيرة بسبب نسيانها وطاعتها العمياء لماما. أعتقد أنّ تلك هي طريقتها في التعامل مع حياتنا.

فأجبتها حين صمت الباقي عن الإجابة: «لأنّ بابا غادرنا، ولم نتمكّن حقاً من تحمّل الأعباء المالية لذلك المكان بمجرّد رحيله؛ ففي نهاية المطاف كان من الصعب على ماما في بعض الليالي إطعام خمستنا. أَلا تتذكّرين كيف كافحنا قبل أن نبدأ، أنا وأنت ولويز، في كسب رواتبنا، وقبل أن تبدأ ماما مسيرتها التعليمية معلّمةَ موسيقا؟»

فتمتمت إثيل: «لا أذكر ذلك حقّاً. أعتقد أنّني أحاول عدم التفكير في تلك الأوقات العصيبة.»

أما لويز فقالت: «بلى أتذكّر تلك الأيام. لقد كانت فظيعة، وأمي لم تكن قوّية كما هي الآن. لقد كانت تبكي طوال الوقت»، واغرورقت عينا لويز بالدموع.

قرّرت أن تنتهي المحادثة بكلمات لويز، رغمَ أنّنا جميعاً، أو ربما باستثناء تيدي، نعرف السبب الحقيقي الذي كان خلف توقّف تلك الرحلات والزيارات، رغم المشاكل المالية التي أدّت دوراً بالتأكيد. وبمجرّد أن اتخذت ماما القرار بأنّنا سنعيش بوصفنا أصحاب بشرة بيضاء، لم نعد نسافر إلى العاصمة. رأت ماما أنَّ أفراد عائلة فليت يمثّلون جزءاً من الطبقة العليا في المجتمع، ويعيشون بشكلٍ جيّد في المنطقة، لكنَّهم لا يزالون من أصحاب البشرة الملوّنة، ولم نتمكّن من خوض تلك المخاطرة إلا بعد حدث وفاة والدتها الذي ضمن لنا عبور حاجز اللون.

مرَّ المزيد من الثواني الصامتة إلى أن قالت لويز فجأة: «أتساءل أين يعيش بابا الآن.»

انفجر راسل وقال، وقد رافقه بريق من عينيه الرماديّتين الشاحبتين: «لا يهمّني أي جحيم يعيش فيه!» لقد كان يصرخ بصوت عالٍ جدّاً في غضبه الموجز من بابا. وهو ما أقلق راحة ماما، فأسكتناه لأنّ آخر شيء كنّا نحتاج إليه هو إيقاظ ماما الحزينة ببيان قاسٍ عن بابا.

لقد بيّن سؤال أختي وردّة فعل أخي لي أنّ ماما قد شاركتهم خبر إقامة بابا في روسيا وعائلته الجديدة مثلما توقّعت، ومثلما توقّعت ماما، لقد دفنت ذلك النبأ، ولم يكن لدي أيّ نيّة لاستحضاره الآن. لكن رغم أنّني كنت أخفي تلك الحقيقة عن والدي في أعماقي، لم أتمكّن من فعل الشيء نفسه مع مشاعري تجاهه. لقد كنت أتوق إلى يوم أستطيع فيه أن أراه وأشكره، أو ربما حتى تتاح لي الفرصة لأغفر له رحيله، أو أطلب منه أن يغفر لي اتباع ذلك الطريق المحفوف بالتزوير الذي ابتدعته ماما لنا. لكن بالنظر إلى أنّه يعيش في روسيا الآن مع عائلة جديدة، رأيتُ أنّ ذلك اللقاء لن يتم البتَّة.

ثم قمنا بلعب الورق، وعدنا إلى صمتنا وتركيزنا مع اللعبة إلى أن تكلّمت تيدي وقالت: «أنا لا أتذكّر العاصمة واشنطن على الإطلاق، ولا أملك سوى بعض الذكريات القوّية عن بابا.»

استوعبنا ملاحظتها. أما أنا فلم أشعر سوى بالحزن تجاهها لأنّ لويز وإثيل وراسل كانت لديهم ذكريات عن بابا اختاروا نسيانها، أمّا وضع تيدي فهو مختلف؛ لأنّ غياب ذكريات لها عن بابا ليس لها ذنب فيه. تمنّيت لو أنّ تيدي أتيحت لها الفرصة لمعرفة بابا على نحو أفضل مثلي، فأنا مازلت أقدّر دائماً فترة ما بعد الظهر التي كنت أقضيها معه في متحف المتروبوليتان، حين كنت أدرس الفنّ، وأستمع إلى قصصه عن الماضي، لكنّني لا أستطيع أن أعيد خلق ذكريات لها معه؛ لذلك رأيت أنّ من الأفضل ألا أقول شيئاً لأختي الصغيرة.

بعد ذلك توقّف القطار في محطّة مدينة نيو جيرسي، في ولاية فيلادلفيا، ثم توقّف في مدينتين في ولاية ماريلاند، ويبدو أنّ أصوات الصافرة لم توقظ

ماما إلا حين وصلنا إلى محطّة العاصمة واشنطن. حينها جمعنا أمتعتنا على عجل، وبدأ راسل الخروج من مقدّمة عربة القطار، لكنّ ماما أوقفته، وأشارت إليه بالعودة للخروج من الجانب الخلفي للعربة. قادتنا من خلال الباب الخلفي، وانتقلنا إلى عربة أخرى متّصلة بالقطار كانت مخصّصة للركّاب من ذوي البشرة الملوّنة. وأثناء مرورنا بتلك العربة ظلّ الركّاب من بني جنسنا يحدّقون فينا بوصفنا كنّا من ذوي البشرة الفاتحة المارين بعالمهم. لقد لاحظت أنّ المقاعد كانت بالحجم نفسه، لكنّ ذلك كان التشابه الوحيد مع عربة البيض؛ إذ لم يكن هناك تنجيد على المقاعد الخشبية الصلبة؛ كما لا توجد طاولات مثبّتة؛ ولا وجود لرفوف للأمتعة، وهو ما دفع الركّاب إلى ترك حقائبهم بين أقدامهم؛ والرائحة الكريهة المنبعثة من الحمّام الصغير الذي لم يكن في الحقيقة أكثر من دلو مرميّ في ذلك الركن جعلني أسكت وأشعر بالغثيان حين مررنا بجانبه. آه. كم كانت غريبة قوّة الجغرافيا والقانون! لقد مكّنتنا من مغادرة مدينة نيويورك بوصفنا أشخاصاً بيضاً، لكنّها حوّلتنا إلى أناس من ذوي البشرة الملوّنة بمجرّد وصولنا إلى العاصمة واشنطن.

نزلنا درج القطار المتداعي، وسرنا إلى المحطّة، وصرنا نبحث عن عربات نقل للتأجير. كانت هناك علامات منتشرة في جميع أنحاء المحطّة تشير إلى المكان المخصّص لمرور المسافرين من أصحاب البشرة الملوّنة، وذلك يعني أنّه مخصّص لما تبنيناه لأنفسنا للتو. والطريق أخذنا إلى أرجاء الجزء الخلفي لمحطّة القطار، عبر القمامة وأكوام الفحم المهملة، ثم رمى بنا إلى زقاق يبدو أنّه يفتح على شارع فرعي.

احتجّت تيدي بينما كنّا جميعاً نشقّ طريقنا عبر الممر الضيّق، المليء بالزجاجات المكسورة، وأكياس القمامة التي كانت نصف مفتوحة، والأحذية المهملة التي كانت منتشرة في كلّ مكان، وقالت: «لماذا يتعيّن علينا أن نسير من هنا يا ماما؟ يا له من مكان قذر!»

ردّت ماما وهي تهمس: «اخفضي صوتك. لقد أخبرتك عن السبب قبل أن نركب القطار في نيويورك؛ إذ كان يتعيّن علينا أن ندّعي أنّنا بيض هناك. أما هنا فيجدر بنا أن نكون من السود، ويمكن أن تكون تداعيات ذلك الأمر عنيفة. فماذا لو التقيتُ في محطّة القطار بشخص أعرفه، وتم الكشف عن وضعيتنا؟ حينها يمكن أن يتم القبض علينا، أو ربما يقع ما هو أسوأ. وطالما نحن هنا سنعود إلى أصولنا، وسنكون من أصحاب البشرة الملوّنة.»

غمرت خديّ تيدي حمرة الخجل. إنّها تعرف أصولنا، لكنّها لا تتذكّر العيش وفق تلك الطريقة، ولا تفهم حقّاً الأشياء التي يمكن أن نعاني منها إذا افتضح أمر أنّنا نعيش بوصفنا بيضاً؛ إنّها لا تقرأ الصحف التي أطالعها كلّ يوم في مكتبة بيربونت مورغان. لم تسمع عن مئات عمليات الإعدام خارج نطاق القانون التي تحدث كلّ عام، بمن في ذلك الطالب الجامعي الذي تم القبض عليه وهو يمرّ من أماكن البيض.

ثم خرجنا من ذلك الممرّ المظلم، الذي يفتح على شارع جانبي بالقرب من المحطّة، وبهرنا نور ما بعد الظهر الساطع. كان هناك طابور من عربات الإيجار، فالتحقنا بصفوف بني جنسنا من أصحاب البشرة الملوّنة، وأشار راسل إلى السائق عندما وصل دورنا، فصعدنا العربة المفتوحة، وصرنا نتمايل بينما كانت العربة تسير على طول الشوارع الوعرة. لم يكن في وسعي التعرّف إلى العاصمة واشنطن إلا حينما وصلت عربتنا إلى التشابك المألوف لمنازل عائلة فليت، التي تقع في الشارع تي، ثم زالت كل الغرابة وعدت تلك الفتاة التي تبلغ من العمر ثماني سنوات مرّة أخرى، وتذكّرت كيف كنت ألعب في الفناء الأمامي لجدّتي تحت شجرتي المفضّلة.

انهمرت الدموع الهادئة على وجهي، وأنا أخرج من العربة حاملة حقيبة سفري في يد، وحقيبة جلدية في يدي الأخرى. لقد عدت في النهاية إلى موطني.

انفتح باب منزل الجدّة فليت، وخرج الخال موزارت فاتحاً ذراعيه وهو يقول: «مرحباً!»

على الرغم من أنّ الخال موزارت كان يكتب لنا الرسائل بانتظام، لم يزرنا في نيويورك منذ عشر سنوات على الأقل. إلا أنّ ابتسامته الدافئة ظلّت هي نفسها، ولم تتغيّر، على الرغم من وجود الكثير من الشيب الطاغي على لون شعره أكثر مما كنت أتذكّر.

عانق ماما أوّلاً، ثم احتضن أخواتي وأخي، وفي الأخير احتضنني. ثم حمل الخال موزارت حقيبة ماما، لكن قبل أن يتخطى عتبة منزل طفولتنا المكوّن من طابقين، سألته ماما: «هل كل شيء على ما يرام يا موزارت؟ هل يمكننا البقاء هنا؟»

تلاشت ابتسامة الخال موزارت، وقال: «سيكون كلّ شيء على ما يرام يا جينيفيف. ثقي بي، يجب عليك أن تثقي بي.»

انتابني عبوس، فأنا لم أفهم معاني محادثتهما إلا حين دخلنا منزل جدّتي. لقد كان هناك رجل أعرفه باسم الخال بيليني هو أخو أمي، وكان يقف عند الباب الأمامي، وقام بتحيّتنا على الرغم من أنّ تحيّته لم تكن بدفء تحيّة الخال موزارت نفسه. أومأ ذلك الرجل قويّ البنية، ذو الشعر الفضي، لماما وهي تدخل إلى المنزل، إلا أنّه لم يعانق أيّ واحد منا، فبادرت أنا بعناقه. لقد كانت ذراعاه قاسيتين، ولم يحضنني مثل الخال موزارت، بل تركني بسرعة. لكن قبل أن أتمكّن من التفكير كثيراً في طريقة الاستقبال تلك، غمرتني الرائحة المتبقّية من طبخ جدّتي، وحاصرتني ذكريات التجمّع حول طاولتها في وقت الوجبات الغذائية.

ثم تبعنا الخال موزارت إلى الصالون، وعلى الرغم من أنّ الكثير من الأثاث كان مألوفاً، بدا بالياً وفي حالة رثّة الآن. لكن كل شيء كان لا يزال في مكانه؛ فأريكتا الجلوس موضوعتان حذو الجدران المقابلة، إحداهما قرمزية،

والأخرى بنيّة، وأمامهما طاولة صالون خشبية مستديرة. ثم رأيت كرسي جدّتي الهزاز أمام الموقد، وللحظة خلت نفسي أنّني أسمع تقريباً صريره عندما كانت جدّتي تناديني للجلوس في حضنها.

ثم ألقيت نظرة خاطفة على المكان، فلاحظت وجود امرأتين بشعرهما الرمادي تجلسان إحداهما بالقرب من الأخرى على الأريكة القرمزية، مكتوفتي الأيدي تعلوهما ملامح حزن وتعابير تجهّم. تعرّفت إليهما؛ إنّهما الخالة أدالايد والخالة مينيرفا، فابتسمت؛ إلا أنّهما لم تبادلاني الابتسامة نفسها.

وقفت ماما أمام أختها وزوجة خالي موزارت، ثم قالت لهما على شكل تحيّة: «مينيرفا، أدالايد!» لقد كانت هناك نبرة التماس في صوتها، لكنّهما لم تنبسا بأيّ كلمات، قامتا بإيماءة تعرّف فحسب.

قال الخال موزارت في الأخير: «ضعوا حقائبكم، واستريحوا قليلاً، فأنا أعلم أنّ رحلتكم بالقطار كانت طويلة.»

أجبته أنا وأختاي: «نعم يا سيّدي، شكراً جزيلاً!» يمكنني القول إنّني استشعرت أنّ إخوتي كانوا يشعرون بأجواء التوتّر التي كانت تلقي بظلالها على المكان.

ثم أخيراً تكلّمت خالتي مينيرفا، وقالت كلماتها الأولى إلى أختها: «نعم يا جينيفيف اجلسي على تلك الأريكة البنّية، اللهم إلا إن كنت ترينها أكثر سواداً بالنسبة إليك.»

تسمّرنا جميعاً في أماكننا، وصرخ الخال موزارت في وجه أخته: «ويحك يا مينيرفا!»

في تلك اللحظة فحسب، أدركت ما كان يجري. لم يخطر في بالي أبداً ما فكّرت فيه عائلة ماما بشأن قرارنا العيش بوصفنا بيضاً بمجرّد مغادرة بابا

لنا، ولم يدر في خلدي أبداً أنّ ذلك القرار سيغضب أيّ فرد من أفراد عائلتنا الموسّعة. فلماذا سيغضبهم؟ ألم يفهموا بعدُ المزايا التي كانت ماما تحاول منحها لنا؟

سألت الخالة مينيرفا أخاها: «حسناً. ماذا تتوقّع مني أن أفعل يا موزارت، سوى الجلوس هنا فحسب، وتجاهل حقيقة أنّ أختنا أدارت ظهرها لنا؟»

ردّت ماما: «لم أقم بذلك قط!»

فردّت الخالة مينيرفا، وهي ترفع حاجبيها بسخرية مفاجئة: «هل قلتِ إنّك لم تفعلي ذلك؟»

فأجابتها ماما وهي تبكي: «لا. لم أفعل ذلك، فأنا مازلت فرداً من أفراد عائلة فليت!»

فردّت مينيرفا بغضب: «أنت لا تتصرّفين مثل أيّ واحد منا، فأنت لم تسمحي لموزارت بزيارتك عندما كان في نيويورك؛ لأنّك الآن من آل غرين.»

لقد ذكرت الخالة مينيرفا لقبنا بازدراء، لكنّ ذلك لم يكن الأمر الصادم الوحيد. فهل كان ما فعلته ماما هو السبب الذي جعل الخال موزارت يتوقّف عن زيارتنا؟ لقد خلت أنّه كان يأتي دائماً لرؤية بابا، لكن هل توقّف عن الزيارة بسبب ماما، لأنّها لم تشأ رؤيته معنا؟ فكّرت في الأوقات التي كنت أفضّل فيها أن أكون مع لويز أو إيثيل، بدلاً من أن أكون مع راسل؛ لأنّ ملامح بشرتهما الأكثر شقرة تؤكد شقرة بشرتي. هل هذا ما تشعر به أمي تجاه أخيها أيضاً؟

قالت ماما وهي تتجاهل كلمات أختها: «أنا فخورة بكوني فرداً من هذه العائلة!»

«لكنّك لا تتصرّفين بفخر ذلك الانتماء. انظري كيف يتجلى ذلك في أطفالك»، ثم اتجهت جميع الأعين نحونا، وعلى الرغم من أنّني كنت في

الثامنة والعشرين من عمري، وقفت بصلابة، كما لو أنّني كنت على وشك سماع توبيخ. استمرّت خالتي في تجريحها: «إنّ أطفالك ليس لديهم أدنى فكرة عن هويّتهم، فهم يعتقدون أنّهم بيض، وهم بالتأكيد لا يعرفون أيّ شيء عن كونهم من عائلة فليت.»

اختلطت الدموع بالكلام عندما ردّت ماما: «أنت فحسب لا تفهمين يا مينيرفا أنّني كنت أماً هجرها زوجها، وتُركت مع خمسة أطفال.»

الآن تنفست الصعداء؛ فأنا ولويز، حتى إيثيل وراسل، كنّا نكاد نكون صغاراً عندما غادرنا أبي. لكن هل ذلك هو ما شعرت به ماما؟ الهجر؟ تألّم قلبي لأنّ ماما إذا شعرت بالهجر، فأنا أدرك كم أنّها كانت بمفردها. يبدو أنّ عائلتها شعرت تماماً مثلما شعر بابا فلا أحد منهم، باستثناء الخال موزارت، يستوعب ما عاشته ماما، ويبدو كما لو أنّهم الآن لا يريدوننا حتى بينهم هنا.

تابعت ماما كلامها: «لقد فعلت ما كان يجب عليّ القيام به لأمنح أطفالي أفضل الفرص وأفضل حياة.» وتبادلت أختها وأخت زوجها النظرات الطويلة، ما جعلها تضيف: «أنتما لا تعرفان طبيعة الحياة في نيويورك؛ إنّها تقع في الشمال، لكنَّ لديها ميزاً عنصرياً أكبر ممَّا تتوقّعان، ونحن لم نكن سننعم بالحياة نفسها التي كانت لدينا هنا.»

أجابتها مينيرفا: «مثلما كنت أقول دائماً، كان بإمكانك العودة إلى المنزل. ولو عدت لرحّبنا بك بأذرع مفتوحة يا جينيفيف!»

فتنهّدت ماما كما لو أنّ ذلك القرار كان حملاً ثقيلاً لا تزال تحمله، واستمرت مينيرفا في التقريع: «ومثلما كنت أقول دائماً، إنّ هذا الحي وهذا المكان الذي تمّ إنشاؤه لأشخاص مثلنا، لن يدوم»، ثم هزّت رأسها وأضافت: «لا تزال العاصمة تمثّل الجنوب، وأمام الطريقة التي تتغيّر بها البلاد، أتوقّع أن يؤدي الميز العنصري والهجمات الصارخة على الأشخاص من أصحاب البشرة الملوّنة إلى محو كلّ شيء.»

ثم خيّم الصمت الذي جعلني أرغب في حمل حقائبنا وأن ألوذ بالفرار، فذلك لم يكن بالترحيب الذي توقّعته؛ وهذا المنزل لا يفترض أن يكون الموطن الذي كنت أحنّ إليه.

وفي الختام أضافت ماما: «ومن دون...»، ثم توقّفت عن الكلام قبل أن تذكر اسم بابا، ونهضت باستقامة وكبرياء، وأضافت: «لقد قمت بما كنت أعلم أنّه الأفضل لأطفالي. فأن تكون صاحب بشرة ملوّنة في الولايات المتّحدة الأمريكية يُعدُّ عبئاً لا أريدهم أن يتحمّلوه.»

لقد تحدثت ماما ببلاغة لم أعهدها فيها من قبل. أَلا يمكن لأقاربها فهمُ أنّها على حق؟ لقد ظلّ هذا الجزء من العاصمة سالماً من أيّ أذى حتى الآن، لكنّ ملزمة الميز العنصري أصبحت تكتم الأنفاس، والقمع أصبح يتصاعد. في كل أسبوع صرت أقرأ مقالاً صحفيّاً آخر يتحدّث عن تجمهر الغوغاء من الرجال البيض لترويع الأحياء التي يقطن فيها الناس من البشرة الملوّنة، وجرّ الرجال السود من منازلهم بناءً على كلمات من النساء البيض اللاتي كن يكلنَ لهم التهم. وحدثت مذبحة أتلانتا قبل عامين، لكنّ المدينة لا تزال تترنح لتتعافى من أثر يومي أعمال الشغب العرقية التي بدأت بأربعة مزاعم بالاغتصاب من قبل نساء بيض، وانتهت بقتل أكثر من خمسة وعشرين رجلاً من أصحاب البشرة الملوّنة. لا أحد مستثنى من التشويه الذي يصاحب هذه العنصرية عميقة الجذور، فحتى الرئيس روزفلت واجه ازدراء الديمقراطيين الجنوبيين عندما حاول الترحيب ببوكير .تي. واشنطن في البيت الأبيض، وهي دعوة أسفرت عن تهديدات من مجلس الشيوخ بإعدام المئات من أصحاب البشرة الملوّنة. إنّ الميز العنصري في الحقيقة هو مجرّد عبودية، لكنّها مقنّعة باسم آخر، والإعدام خارج نطاق القانون هو أحد أسلحة أنصارها. سنكون عرضة للميز العنصري والتهديد بالإعدام خارج نطاق القانون إذا عشنا بوصفنا أصحاب بشرة ملوّنة في أيّ مكان من هذه البلاد.

ثم كشفت الخالة أدالايد ذراعيها، وقد رافقتها تنهيدة، وقالت: «أنا لا أتفق مع ما قامت به جينفيف»، ثم نظرت إلى كلّ واحد منا، وأضافت: «لكن كلّكم تعلمون أنّ الجدّة فليت لو كانت حيّة بيننا لما كانت لتسمح بهذا النوع من الكلام غير السار في منزلها. لقد كانت تريدنا أن نجتمع معاً لدعم بعضنا البعض، حتى لو لم تعجبنا القرارات التي اتخذناها.» ثم نهضت باندفاع من الأريكة، واتجهت إلى حيث كنت أنا وإخوتي واقفين بجمود، خائفين جدّاً من التحرّك، ولفّت ذراعيها حول لويز أوّلاً، ومن ثم استمرّت في احتضان كلّ فرد من إخوتي، وعندما عانقتني، تنفّست الصعداء. ثم قالت بعد أن احتضنت تيدي في الأخير: «لقد كبرتم جميعاً بشكل جميل!»، ثم تراجعت إلى الوراء وأخذت تنظر إلينا جميعاً: «لا بدّ من أنّ جينيفيف قامت بالاختيار الصحيح.»

ثم ابتسمت في وجه ماما، وللمرّة الأولى منذ أن سمعت خبر وفاة جدّتي رأيت والدتي وهي تبتسم.

فقال الخال موزارت: «إنّ ما قالته أدالايد هو عين الصواب؛ إذ يجب أن نركّز في الأيام القليلة القادمة على كلّ ما أوصتنا به الجدّة، وكلّ شيء متعلّق بعائلتها. دعونا نبقِ تركيزنا على ذلك، دعونا نركّز على ما لدينا من قواسم مشتركة، ولا نركّز على الاختلافات التي تقسم أواصرنا.»

شعرت بالارتياح عندما رأيت الجميع يعبِّرون عن توافقهم، وخاصة عندما غيّر الخال موزارت الموضوع، وقال: «لقد قرأت كل ما كُتب عنك في الصحف يا بيل، ولقد سمعنا أنّك أصبحت موظّفة لا غنى عنها عند السيّد جي بي مورغان.»

فقالت الخالة مينيرفا، وكأنّها قبلت الدخول في هدنة: «نعم. يا بيل صفيه لنا: كيف يبدو؟ هل هو بلا قلب كما تتحدّث عنه جميع الصحف؟»، ثم أشارت إلينا جميعاً بالجلوس، وأضافت: «تعالي إلى هنا، وأخبرينا كل شيء.»

وقالت العمّة أدالايد: «نعم يا بيل، تعالي إلى هنا، لكنّني لا أريد سماع أيّ شيء عنه. لقد قرأت في أحد أعمدة الإشاعات أنّك كنت من بين الضيوف الذين حضروا حفل زفاف مارجوري جولد وأنتوني دريكسل. هل هذا صحيح؟» قبل أن أتمكّن من الإجابة عن سؤال العمّة أدالايد أضافت: «الصور التي رأيتها لثوب الساتان الأبيض كانت شيئاً يفوق الخيال. أراهن أنّ ذلك الثوب كان مكلفاً!»

ابتسمت وقلت: «نعم لقد كان ثوبها رائعاً ومكلفاً، لكنّه لم يكن ذا قيمة مقارنة بقصر الجادة الخامسة الذي تبلغ تكلفة بنائه نصف مليون دولار، والذي منحها إياه والدها هديةَ زفاف.»

امتلأ جوّ الغرفة بآهات وهمسات عمّتي وخالتي، وبدا الأمر كما لو أنّ الهواء قد تم إطلاقه من منطاد مليء بالهواء الساخن. واجتمعنا كلّنا حولهما، وأنا أجيب عن جميع أسئلتهما. ورغم ذلك ظلّ هناك بعض التوتّر، فالابتسامات كانت مصطنعة قليلاً، والضحك كان مزيّفاً بعض الشيء، إلا أنّ كل أفراد عائلة فليت كانوا يحاولون تجاوز الانزعاج، وكل ذلك من أجل الجدّة المتوفاة. بعد نحو نصف ساعة، قال الخال بيليني الذي لم ينبس بكلمة واحدة منذ دخولنا: «يا جينيفيف هناك شيء واحد يمكنك القيام به لقطع شوط طويل في مساعدتي على مسامحتك.»

عمَّ الصمت الغرفة، وتصلّبت شفاه ماما بسبب كلمات شقيقها، وقالت: «ما هو يا بيليني؟»

توقّف خالي عن الكلام، فجعلني أحبس أنفاسي، بينما ظلّ هو ينظر إلينا، ثم قال: «هل ما زلت تعرفين كيفية صنع فطيرة البطاطا الحلوة عن ماما، لأنّه، على ما يبدو، أنت الوحيدة التي علّمتك طريقة إعدادها، وأنا بحاجة إلى قطعة من تلك الفطيرة قبل أن ترحلي.»

خيّم الصمت على الجميع لبضع ثوان، ثمّ ملأ الضحك الحقيقي أرجاء الغرفة، وزال كلّ التوتّر الآن، وشعرت أخيراً للحظة واحدة فقط أنّني في منزلي.

***

خرجت إلى الشرفة، وتركت بابها يُغلَقُ خلفي بعنف، وربطت حزام سترتي بشدّة كي لا تتسلّل إلى جسمي النسائم الباردة لشهر آذار/مارس. لقد بدا الشارع هادئاً في الصباح الباكر؛ وكانت الساعة تشير إلى قليل من الدقائق بعد السابعة. لقد نسيت السلام الذي يحلّ في هذا الوقت من اليوم بعد أن عدت إلى نيويورك لأكثر من عامين حتى الآن، وبعد مرور الوقت الذي قضتيه في برينستون.

لقد كانت هناك موجة من الضحك خلفي وراء باب الشرفة جعلتني أبتسم. وبلغت ماما وإخوتها خلال الأيام الثلاثة الماضية درجة من التفاهم، إن لم أقل إنّهم توصّلوا إلى مصالحة. في الليلة الماضية ظلّت ماما وأشقاؤها جالسين في الصالون يتسامرون حتى الساعات الأولى من الصباح، بينما كنت أنا وتيدي ننام في غرفة جدّتنا.

تنفَست الصعداء، فالوقت الذي قضيناه هنا للراحة بين أفراد عائلة جدّتي فليت كان حلواً ومرّاً؛ أما الجانب الحلو منه فيتلخّص في ما أُتيح لي بعد حدوث الاستقبال الأوّلي من تواصل متجدّد مع عماتي وخالاتي وأعمامي وأخوالي وأبناء عمومتي وأبناء أخوالي، الذين أحببتهم كثيراً، حتى من بعيد. أما الجانب المرّ فيه فيكمن في الدموع التي انهمرت من عينيّ بينما كانت نظراتي تجول من اليسار إلى اليمين وهي تقف على الأطلال. لقد كنت أودّ أن أذرف الدموع على منازل الأسر الثلاث، والمروج حيث كنا نجري ونقفز ونلعب. وعندما استقرّت عيناي على الفناء الأمامي للجدّة فليت وشجرتي المفضّلة، نزلت دمعة من عيني. لقد انتابني الكثير من المشاعر، لطالما فكّرتُ

في ذلك المكان بقدر ما أتذكّر بوصفه موطني، لكنّني أعلم الآن أنّ هذه المناسبة هي المرّة الأخيرة التي سأكون فيها هنا على الأرجح.

لكنّني مسحت دموعي حين سمعت باب الشرفة يفتح ثم يغلق ورائي، وابتسمت عندما التفت فوجدت أنّ من خرج هو الخال موزارت. قال لي: « إنّ جميع من في المنزل يبحثون عنك، لكنّني كنت أعرف أنّك ستكونين هنا»، ثم ضحك وأضاف: «أنا مندهش لأنّني لم أجدك جالسة تحت تلك الشجرة.»

فقلت: «وأنا مندهشة لأنّك تتذكّر ذلك.»

«من المؤكد أتذكّر. بل أتذكّر كل شيء. لكنّ شيئاً واحداً ظلّ عالقاً في ذهني هو مدى قربك من والدك.» أملت رأسي أثناء النظر إليه، لقد فوجئت بأنّه قد ذكر والدي، ثم قال: «أردت أن أقول لك إنَّ ريتشارد عاد من روسيا.»

جحظت عيناي من وقع هذا الإعلان.

أضاف: «لقد أخبرتني جينيفيف أنّك تعرفين بشأن عائلته الجديدة، وعلى الرغم من أنّني لم أشاركك تلك الأخبار، أنا سعيد لأنّك تعلمين ذلك.» ثم اقترب مني أكثر، وخفّض من نبرة صوته، على الرغم من أنّنا كنا بمفردنا، وقال: «أنت تعرفين أنّك كنت المفضّلة لديه من بين جميع أبنائه.»

ثم ضحكنا معاً.

قلت له: «أنا سعيدة حقاً لأنّك بقيت على اتصال معه يا خالي موزارت.»

خاطبني كما لو أنني ما زلت في العاشرة من عمري: «لقد كنّا أنا وريتشارد أصدقاء لفترة طويلة، قبل أن أقدّمه إلى جينيفيف، وعلى الرغم من أنّني كنت غاضباً جدّاً منه لترك أختي وترككم وأنتم مازلتم أطفالاً، استوعبت الأمر. لقد استغرق الأمر مني بعض الوقت، لكنّ الرغبة في جعل الولايات المتّحدة الأمريكية متساوية كانت تحترق في داخله. إنّه يحبّ الولايات المتّحدة

الأمريكية، وبسبب ذلك، أجده يتحدّى كل جانب من جوانب هذا البلد ليكون أفضل. وبحلول الوقت الذي سيتمّ فيه كلّ ذلك، لن يبقى لدي شكّ في أنّه سيحقّق جميع أهدافه؛ وسنكون أفضل أمّة، وسنحظى بالمساواة التي نستحقّها.»

لقد جعلني ذلك التصريح أشعر بالفخر، وفكّرت للحظة في أن أسأل الخال موزارت عن مكان والدي. فهل سأجرؤ على محاولة التواصل معه بعد أكثر من عشر سنوات؟ لكنّي بدلاً من ذلك سألته: «هل تمانع في إخباري من وقت إلى آخر عن أحواله؟»

هزّ رأسه وقال: «لا أمانع في القيام بذلك على الإطلاق. لقد سبق أن سمعت عن أخباره في مناسبة أو في مناسبتين أو ربما في ثلاث مناسبات في السنة. لكنّني سأخبرك كلّما تسنى لي ذلك»، ثم أضاف بعد توقّف طويل عن الكلام: «أنت تعرفين أنّه فخور بك حقاً!»

سألته مباشرة وبصفة آلية: «هل قال لك ذلك؟»

أمال الخال موزارت رأسه إلى الخلف، ونظر إلى الأعلى كما لو أنّه لم يكن يستطيع أن يقرّر كيفية الردّ، وفي الأخير قال بثقة: «نحن لا نتحدّث عن جينيفيف، أو أي واحد منكم»، ثم خفّض من نبرة صوته أكثر وأضاف: «لقد كان ذلك اتفاقاً غير معلن بيننا، لكنّني أعرف والدك جيّداً، ومؤكّدٌ لديّ أنّه يتابعك، تماماً كما نتابعك نحن، وأنّه فخور جدّاً بك!»

شعرت مجدّداً بانهمار الدموع وهي تسيل على الرغم من أنّني لم أكن حزينة.

«نحن جميعاً فخورون بك يا بيل ولكن....» توقّف لبرهة ثم أضاف: «أريدك أن تكوني حذرة!»

«ماذا تقصد؟»

«أنتم جميعاً هناك في نيويورك، وأنت تحظين بفرصة كبيرة.»

لم يكن من الضروري على الخال موزارت أن يقدّم مزيداً من الشرح، فأنا أدركت ما يعنيه، فقلت له، وأنا أنظر إلى شجرتي المفضّلة: «أنا أستوعب المخاطر. ففي كل صباح وبمجرّد أن أستيقظ، أعدّ نفسي، وكلّي علم بأنّني بمجرّد أن أخرج من باب المنزل، سأكون على خشبة مسرح وألعب دوراً، فلا تخف أنا حذرة بالقدر الكافي.»

«حذرة؟»

لقد جعلتني الطريقة التي قال بها تلك الكلمة التفت إليه.

ثم قال: «لا أعتقد أنّك حذرة بما فيه الكفاية يا بيل، فأنت تعملين لدى السيّد جي بي مورغان، وبعض الناس يقولون إنّه أحد أذكى الرجال في البلاد. وأنا لا أعلم ذلك، لكنّني أعرف أنّه أكثرهم قسوة. فماذا سيحدث لو اكتشف أنّك من أصحاب البشرة الملوّنة؟»

حرّكت رأسي بإشارة رفض على نحو قاطع، وقلت: «لن يكتشف ذلك، لقد كنت حذرة جدّاً! لكن، حتى لو كان سيقول شيئاً ما في هذا الصدد، فإنّ ماما قد خطّطت لتدريبنا جميعاً على أن نتفق على ذكر الأصول نفسها، لهذا السبب استخدمت اسم دا كوستا.»

ابتسم وقال: «نعم. لقد سمعت أنّ لديك جدّة برتغالية في مكان ما. وأنا سعيد لأنّ أمي لم تكتشف البتّة تلك المعلومة.»

لقد جعلتني كلماته أتردّد؛ لأنّها نبّهتني إلى شيء لم أضعه في الحسبان. كيف بلغ ذلك الأمر مسامع الجدّة فليت؟ يبدو أنّ خبر قرارنا بالعيش بيضاً انتشر على نطاق واسع.

ثم قال الخال موزارت: « أعرف كل شيء عن القصص التي أعددتِها في حال تساؤل شخص ما عن عرقك، والاحتياطات التي اتخذتها كي لا يحدث

ذلك، لكن المخاطر كبيرة يا بيل، فبمجرّد انكشاف أمر واحد سيتم القبض على لويز أو إثيل، فهما معلّمتان، وسيتم طردهما، وستكون تلك نهاية الأمر. أما بشأنك فأنا أخشى أن يكون هناك ثمن أعلى ستدفعينه مقابل خداعك.»

ضغطت على شفتي معاً من هول ما سمعته، بينما استمرّ الخال موزارت في الحديث: «أنا لا أحاول إخافتك يا عزيزتي، بل أحاول إنقاذك من خلال إعادة تفكيرك في أنّك تلعبين على مستوى قد تكون العواقب فيه مكلفة جدّاً. كوني حذرة فحسب، وتذكّري أنّك تتعاملين مع جي بي مورغان.»

عانقني الخال موزارت بعد ذلك، ثم قال: «اسمحي لي بأن أعود إلى الداخل، وأجمّع أفراد عائلتك معاً. علينا أن نغادر في الدقائق العشر القادمة أو نحو ذلك، من أجل التأكّد من أن يكون لديكم الوقت الكافي للانتظار في المحطّة.»

تركني الخال موزارت وأنا ألهث من هول ما حذّرني منه، فهل كان الخطر الذي اتخذته عالياً جدّاً؟ لقد فكّرت في العواقب بطبيعة الحال، وخاصّة مع رجل مثل السيّد مورغان، لكنّ سماع صوت خالي المفعم بالقلق، وذكره المخاطر بصوت عالٍ، جعلها أكثر واقعية. على أي حال، لقد فات الأوان للعودة إلى الوراء الآن؛ فالمال الذي أكسبه قد غيّر مجرى حياتنا، ونحن نعيش في منزل مريح، ولدينا أكثر مما يكفي من المال للطعام ولتغطية تكاليف جميع فواتيرنا، ويمكن لأمي وإخوتي الاستمتاع بالحياة قليلاً.

قلت في نفسي: نعم، إنّ الخطر عالٍ، لكنّ المكافأة تضاهيه. يجب أن أكون أكثر حذراً وأكثر تقدّماً في نجاحي كي لا يكون بياض بشرة عائلتنا موضع شكّ، ثم سمحت لنفسي بإلقاء نظرة أخيرة عبر المروج قبل أن نجتمع ونبدأ رحلتنا شمالاً إلى المنزل الوحيد الذي تركناه.

الفصل الرابع عشر

2 أيار/مايو 1908

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

سمعت صوتاً ينادي باسمي بمجرّد تجاوزي عتبة الرواق: «آنسة غرين! لقد اعتقدت أنّك لن تأتي أبداً.»

لقد كان صوت إدوارد ستيشن، الذي حيّاني باندفاع، ومدّ يده، فرددت التحيّة. لقد كانت هناك خصلة من شعره الداكن تتدلى على جبهته، فمدّ يده لتصفيفها، فتساءلت عمّا إذا كانت تلك الخصلة في وسعها أن تساعده في عمله بوصفه مصوّراً.

قلت له، بعد أن قمت بلمسة مرحة لكتفه: «آه. يا سيّد ستيشن! يجب أن تعلم أنّني لا أستطيع أنّ أتغيّب عن معرض الصور الخاص بك مهما كلّفني ذلك! لقد وددت لو وصلت باكراً، لكن لمّا كنت حضرت حفلة عائلة كارنيجي تعذّر عليّ القدوم في الوقت المحدّد، وأنت تعرف مدى صعوبة أن يخلّص المرء نفسه من سهرة مع الأغنياء والأقوياء؛ إنّهم يعتقدون أنّ وقتهم ثمين، وأنّ من الأفضل لنا أن نقضي وقتنا في خدمة أهوائهم مهما كانت مدّة ذلك الوقت، طويلة أو قصيرة.»

لقد ضحك على إشارتي الضمنية إلى جلسة التصوير الفوتوغرافي التي جمعته بالسيّد مورغان؛ حيث تم تعيين السيّد ستيشن من قبل الرسام فيدور إنكي قبل خمس سنوات لالتقاط بعض الصور للسيّد مورغان، استعداداً لرسم

بورتريه له كان الرسام بصدد إنجازها. كان السيّد مورغان جاهزاً للجلوس لمدّة ثلاث دقائق فقط لأخذ صورتين، ورغم ذلك كان سعيداً جدّاً بعمل السيّد ستيشن، واقتضابه في عملية التصوير إلى درجة أنّه دفع له خمسمئة دولار على الفور.

كنت أضحك بينما كان السيّد ستيشن يروي لي قصّة تلك الدقائق الثلاث، وفكّرت في مدى متعة الدردشة مع شخص في مثل عمري ومكانتي الاجتماعية مما هو معتاد بالنسبة إلي في تلك الأيام، ثم رفع يده على نحو تدريجي لتقديم رجل آخر اقترب مني: «أودّ أن أعرّفك -يا آنسة غرين- إلى شريكي في المعرض؛ إنّه ألفريد ستيغليتز.»

حيّاني زميله، الذي كان لديه شارب غليظ جعله يبدو أكبر من سنواته الثلاثين، وانحنى انحناءة سريعة على شكل تحيّة الملوك. لقد جمّع كلٌّ من ستيشن وستيغليتز قواهما قبل بضع سنوات لإنشاء هذا المعرض، الذي أطلقا عليه اسم (رواق 291 للفنون) في إشارة إلى عنوان موقعه في الجادة الخامسة عدد 291، ولكن أيضاً نظراً إلى انضمامهما إلى الحركة الانفصالية في عالم الصور للترويج للتصوير الفوتوغرافي باعتباره فنّاً راقياً. وكلا الرجلين كان ملتزماً برفع سمعة حرفته التي كانا يستخدمان فيها مجموعة متنوّعة من تقنيات الرسم لإضفاء أمزجة ومعانٍ محدّدة على موضوعاتهما، لكنّهما قرّرا في الآونة الأخيرة عرض آخر صيحة في الفنّ الحديث القادم من أوروبا، إلى جانب عرض صورهما الفوتوغرافية. وعندما دعاني السيّد ستيشن إلى معرضه الليلة، وعدني بعرض أكثر تألقاً، وقال لي: «سيكون عرضاً لا يمكنك تفويته!»

«مرحباً بك في معرض 291!» لفت مضيفي انتباهي إلى قاعة مزدحمة بالضيوف. لقد كانت الجدران تعجّ في مكان ما بصفوف الأوراق التي كانت ألوانها بين الفضّي والرمادي الداكن، وزادت من فخامتها حواشي الأقمشة التي كانت تغطّي نصفها السفلي. أفترض أنّ اختيار العرض على الجدران العادية

المحايدة كان لإعطاء انطباع فنّي لذلك بدت القاعة بسيطة جدّاً بالمقارنة بالعالم القرمزي لمكتبة بيربونت مورغان. «سنعرض عليك الليلة تحفاً نادرة احتفظنا بها لك خصيصاً يا آنسة غرين. سيكون لرواق 291 للفنون الشرف باستضافتك في المعرض الأمريكي، الذي أطلقناه لفنانَيْن أوروبيين مهمّين للغاية هما: النحّات الفرنسي أوغست رودان، والفنّان الفرنسي هنري ماتيس.»

ثم جعلني السيّد ستيشن أقوم بجولة برفقته في جميع أنحاء ذلك الفضاء، حيث تمّ تعليق الصور الفوتوغرافية جنباً إلى جنب مع الرسومات التي شكّلت بالأبيض والأسود، وعرّفها لي على أنّها أعمال لرودان. كنت أعلم أنّ ستيشن وستيغليتز كانا يأملان رفع مكانة التصوير الفوتوغرافي من خلال الجمع بين الصور والرسومات، بقصد جعلها أشكالاً مقبولة من الفنون الجميلة. وعلى الرغم من أنّني كنت معجبة بالصور الفوتوغرافية، التي كانت تزيّن ذلك الفضاء، أسرتني رسومات الفحم الرائعة أكثر.

فقلت، وأنا متعجّبة من الطريقة التي كان يجمع بها النحّات بين الكثير من المعاني بالقليل جدّاً من المواد: «لقد تمكّن رودان، بطريقة ما، من خلال عدد قليل من الخطوط الإضافية، من نقل الحركة والنيّة دفعة واحدة.»

فقال السيّد ستيشن، الذي كان مفعماً بالحيوية والطاقة، على الرغم من حقيقة أنّ عمله مصوّراً كان يتطلّب منه الالتزام بفترات طويلة من السكون: «لقد تمكّنتِ ببضع كلمات من التقاط جوهر رؤية ذلك النحّات.» ابتسم فبادلته بابتسامة عريضة، ثمّ أضاف: «ليتني أجعلك تتمكّنين من رؤية إحدى منحوتاته النهائية المعروضة في فرنسا في مواقعها الخاصة بكلّ مجدها ثلاثي الأبعاد.»

مازحته وقلت: «هل أنت بصدد استدعائي يا سيّد ستيشن لزيارة منتجع دعارة باريسي؟» انتابتني سعادة غامرة عندما رأيت خدي السيّد ستيشن حمراوين من الخجل، ثم تلعثم، وقال: «أوه أنا آسف يا آنسة غرين... ليست لدي الجرأة على استدعائك....»

ضحكت وقلت: «لا أملك سوى القليل من المرح يا سيد ستيشن.» بعد ذلك عدت بالسرعة نفسها للحديث عن دراسة الفنّ، فقلت: «إنّ مقاربة رودان للنحت مختلفة تماماً عن مقاربة النحّاتين الكلاسيكيين ومقاربة نحّاتي عصر النهضة التي أعرفها أكثر.»

ظلّ الرجلان يتسكّعان خلفي، ويردّان على أسئلة الضيوف من حين إلى آخر، بينما كنت أدرس معالمِ كلّ رسم. أعلم أنّهما كانا يريدان مني أن أعجب بالصور والأعمال الفنّية على حدّ سواء، لكنّني لم أكن أعلم بالضبط ما قد يعنيه لهما الحصول على موافقة أمينة مكتبة مورغان.

ثم خاطبني السيّد ستيغليتز، وقال: «هل يمكن لنا الانتقال إلى القاعة المخصّصة لعرض أعمال ماتيس؟»

لاحظت، وأنا أتبعه في الممر، وجود زوجين كانا يتعقّباننا. لقد كانا يشتركان في مشغل دراسة الصور والرسوم نفسه، كما لو أنّهما كانا يتجوّلان بشكل عرضي حول المعرض، لكن كان بإمكاني أن أرى أنّهما يبقيان قريبين منا للاستماع إلى صاحبي المعرض وهما يتحدّثان عن رودان وماتيس.

بمجرّد أن دخلت إلى قاعة المعرض المجاورة، تسمّرت في مكاني. لقد كانت هناك لوحة حيّة واحدة مثبّتة على الجدار المقابل لامرأة بدت تحدّق فيّ. لقد حاول الرسّام ماتيس، من خلال اللون البرتقالي النابض والوردي والأخضر، إظهارَ غابة فيها شخصية عارية وحيدة. لقد تخلّى المشهد عن الأبعاد الثلاثية التي كان يتم الحصول عليها بشق الأنفس، والتي أعيد اكتشافها في عصر النهضة لإنشاء صورة ثنائية الأبعاد جذّابة بشكل غريب مليئة بالعديد من الأنماط. لقد انبهرت، وفي الآن نفسه ارتبكت؛ لأنّني لم أرَ مثل تلك اللوحة من قبل.

سألني ستيغليتز بطريقة آلية من دون أدني تبصّر: «ما رأيك؟»

فلامه شريكه السيّد ستيشن وقال: «ألفريد!»

ضحكت وقلت: «لا بأس يا سيّد ستيشن، ليس هناك حاجة إلى وقوفكما معي على هذا النحو الاحتفالي أيّها السادة، وأودّ منكما أن تعلما أنّني لا أحبّذ ذلك!»

فتكلّم السيّد ستيشن في هذه المرّة، وسأل: «إذاً. ما رأيك؟»

عدت للنظر إلى اللوحة وقلت: «بوصفي خبيرة فنّية، أشعر بأنّني يجب أن أعلّق على الطريقة الرائدة التي يتعامل بها الرسّام ماتيس مع الموضوع التقليدي للغاية للمشهد الرعوي، وهو موضوع رأيته مراراً وتكراراً في اللوحات الكلاسيكية وفي لوحات عصر النهضة، ولكن...»، ثم توقّفت عن الكلام.

فقال الرجلان معاً: «ولكن ماذا؟»

التفتُّ إليهما وقلت: «للإجابة عن سؤالكما، لا أعتقد أنّ ماتيس يريدني أن أفكّر بل يريدني أن أشعر.»

تبادل الرجلان نظرة تفاؤل وارتياح، ثم قال السيّد ستيشن: «يبدو أنّك قد فهمتِ مغزاه.»

فقلت: «بلى. ربما يتعيّن علينا في يوم من الأيام تزيين مكتبة بيربونت مورغان ببعض اللوحات التي توحي بهذا الشعور الحديث»، ثم فكّرت في مدى قرب رواق 291 للفنون، فهو لم يكن يقع على مسافة بضع عمارات من مكتبة بيربونت مورغان فحسب، بل يبدو بعيداً جدّاً في الطريقة التي ينظر بها إلى الفنّ وقيمته.

فأجابني السيّد ستيشن: «لا نريد شيئاً أكثر من ذلك.»

بعد مرور ساعة كنت فيها عالقة برفقة لوحات ورسومات ماتيس الأخرى، شكرت الرجلين لدعوتهما والوقت الذي خصّصاه لي، ثم غادرت. لقد كانت الساعة تشير إلى ما بعد التاسعة ليلاً، وعادةً كنت في ذلك الوقت أحاول اللحاق بأيّ عربة ترام، أو ركوب مترو الأنفاق. لكن منذ عودتنا من العاصمة

واشنطن، كنت أعمل لساعات أطول، وبقيت كلمات الخال موزارت لا تغادرني. وعلى الرغم من أنّني مقتنعة بأنّ الاحتياطات التي اتّخذتها كانت كافية لحماية سرّي، كنت مقتنعة بالقدر نفسه بأنّ النجاح الهائل هو ضمان كافٍ أيضاً. ومنذ أن عدت من جنازة الجدّة فليت، عملت على التحقيق في المجموعات الرئيسية، وإقامة علاقات مع تجّار مهمين كي أتمكّن من الاستمرار في بناء ممتلكات السيّد مورغان. كنت، في كثير من الأحيان، لا أعود إلى المنزل إلا في حدود الساعة التاسعة أو العاشرة، أو حتى في وقت لاحق، إذا كانت المشاركة الاجتماعية تتطلّب مني ذلك، أو أعود إلى المكتب بعد أمسية في الخارج.

ولمّا كنت أسكن بالقرب من المكتبة، على مسافة بضع عمارات فقط، بدأت المشي حتى بلغت الجادة الخامسة. وكانت الشوارع حتى في ساعة متأخّرة تعجّ بالأزواج والأصدقاء الذين كانوا يتجوّلون. والجميع كان يستمتع بمساء ربيعي دافئ.

لكنّني سمعت بعد ذلك صوتاً ينادي: «آنسة غرين، يا آنسة غرين!»

التفت وذُهلت لرؤية السيّد ستيغليتز وهو ينادي ويركض نحوي، ويقول: «أنا سعيد جدّاً لأنّني لحقت بك»، ثم وضع شيئاً مستطيل الشكل في يدي، فقلت: «ما هذا؟»

«إنّها صورة فوتوغرافية لإحدى منحوتات رودان. ربما ستحتاجينها يوماً ما.»

شكرت السيّد ستيغليتز قبل أن أواصل طريقي، ولم أجبه بصوت عالٍ عمّا يدور في خلدي، فذلك «اليوم» لن يأتي أبداً.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

على الرغم من أنّني عملت إلى ما بعد الساعة العاشرة في الليلة الماضية، بقيت في مكتبي مدّة ساعتين على الأقل بحلول الوقت الذي وصل فيه السيّد مورغان إلى المكتبة، فحيّيته كالمعتاد: «صباح الخير يا سيّدي!»

لكنّه بدلاً من إلقاء نظرة خاطفة إلى مكتبي، أو إسعادي بتعليق موجز عن حفلة المساء التي قضاها برفقة عائلة كارنيجي، والتي خرجت منها الليلة الماضية لحضور حدث المعرض، اقتحم السيّد مورغان القاعة المستديرة، وتوجّه مباشرة إلى مكتبه من دون حتى إلقاء تحيّة قاسية، ثمّ أغلق بابه بعنف، وهو سلوك لم يأتِه أبداً من قبل في العامين اللذين عملت فيهما معه.

ما خطبه؟

لم أتعجّل الذهاب إلى مكتبه، فالسيّد مورغان كان يفضّل، في تلك المناسبات التي يغضبه فيها أيّ شريك تجاري أو أيّ تاجر أعمال فنّية، أن يترك بمفرده، ويمنح الوقت لترك غضبه يتلاشى.

لذلك عدت إلى أكوام الأعمال التي كانت مكدّسة على مكتبي؛ إذ لا بد لي اليوم من اتخاذ قرار بشأن المزاد القادم، وركّزت اهتمامي على ذلك الأمر، وبقيت أنتظر اتصال السيّد مورغان بي للالتحاق به في مكتبه. لكن مرّت الساعات ولم يظهر السيّد مورغان أمام بابي، ولم يبحث عني كما تعوّد، ولم يُجب حتى عندما قرعت حارسة الأمن بابه لتسليمه إحدى الرسائل. بحلول فوات ساعة الغداء انتابني القلق والحيرة، ولم أستطع تخيّل ما يجري.

لقد وقعت في ورطة؛ إذ يفترض بي وبالسيّد مورغان الحديث اليوم عن المزاد، فأنا لا أستطيع حقاً تجاهل ذلك النقاش. ربما سيساعده حضوري على العمل، وتجاوز أيّ شيء أو أيّ شخص تسبّب في غضبه، وسيسمح له بالتركيز على أعمال المكتبة.

نهضت وأنا أحمل أوراقي، وعدّلت تنورتي الصوفية قبل أن أعبر البهو، وأتّجه إلى مكتبه. بمجرّد رفع يدي لطرق الباب الخشبي المنحوت بشكل معقّد، توقّفت لأنّني شعرت باندفاع قلق مفاجئ انتابني. هل يمكن أن يكون «الشخص» الذي تسبَّب في غضبه هو أنا؟

لم أتذكّر نشوب أيّ خلاف بيننا مؤخراً، لذلك طردت ذلك الشعور بعدم الاستقرار بعيداً، وطرقت الباب، وقلت: «سيّد مورغان؟ هل تسمح لي بدقيقة من وقتك لمناقشة مزاد سوثبي؟»

عمّ الصمت.

لقد كانت هناك أوقات كان السيّد مورغان ينبّهنا أثناءها إلى أن «لا يدخل مكتبه أيّ أحد»، بما في ذلك سكرتيره كينغ، أو حتى أبناؤه. لكن ماذا لو كان مورغان لا يجيب لأنّه لا يستطيع فعل ذلك؟ ماذا لو كان مصاباً بأيّ شيء خلف ذلك الباب المغلق؟ بدافع القلق دفعت الباب بسرعة وفتحته.

لقد وجدت السيّد مورغان جالساً في مكتبه على عرش الأسد، ورأسه إلى أسفل كما لو أنّه كان منهمكاً بقراءة صحيفة. تنهّدت ولم أدرك حتى تلك اللحظة أنّني كنت قد حبست أنفاسي. إنّه بخير؛ ويبدو أنّه اختار فحسب عدم الردّ لسبب لا يمكن تفسيره.

انتظرت منه أن ينظر إلى الأعلى، ليتعرّف إليّ بأي شكل من الأشكال، لكنّه لم يفعل ذلك، حتى إنّه لم يحذّرني من دخول مكتبه من دون إذن. بدأ الخوف يسيطر عليّ، فقلت بعد ثوانٍ قليلة من الصمت: «أنا آسفة لمقاطعتك يا سيّد مورغان. لقد كان الجوّ في مكتبك يخيّم عليه السكون إلى درجة أنّني أصبحت قلقة عليك.»

سألني من دون أن ينظر إليّ: «هل كنت قلقة عليّ فعلاً؟»

تجهّمت وقلت: «نعم، هذا مؤكد. لقد بقيت خلف الأبواب المغلقة كلّ الصباح، وكان من المفترض أن نناقش بنود دار سوثبي للمزادات.»

فسألني بصوت منخفض جدّاً يكاد يكون غير مسموع: «لماذا يجب عليّ أن أجتمع بك؟»

لم أفهم سؤاله، لكنّني أدركت أنّ خطأ ما قد وقع، وأنّ السيّد مورغان لم تكن لديه مشكلة مع أيّ تاجر للأعمال الفنّية، أو أي شريك تجاري، أو أي شخص آخر، بل كانت مشكلته معي.

تذكّرت كلام الخال موزارت: «إنّك تلعبين على مستوى قد تكون العواقب فيه مكلفة جدّاً. كوني حذرة فحسب، وتذكّري أنّك تتعاملين مع جي بي مورغان.»

أخذ قلبي ينبض بعنف. لقد كانت كلمات الخال موزارت تطاردني خلال الأشهر الماضية، لكنّني تجاهلت تحذيره، واعتقدت أنّني اتّخذت احتياطات كافية، وأقمت الضمانات اللازمة، لكنّني الآن أشعر بأنّني أسقط بتهوّر من ارتفاع شاهق. هل اكتشف السيّد مورغان أمري؟

لقد خيَّم السكون على القاعة على نحو مخيف، وأنا كنت أرتعش؛ لأنّ الصمت إشارة واضحة إلى غضب السيّد مورغان. وقفت بلا حراك، ولم أرغب في أن أنطق بكلمة واحدة. لقد كانت أفكاري مشوّشة تدور في دوامة؛ فماذا يمكنني أنّ أقدّم للدفاع عن نفسي أمام الغضب والاتهامات التي قد تصدر عنه؟ لقد سبق أن أعطتني ماما على مرّ السنين عدّة طرائق لإنكار الحقيقة بشأن عرقي، لكنّني لم أستطع في تلك اللحظة تذكّر أيٍّ منها.

أخيراً تكلّم، وقال: «لقد قضيت الصباح في البحث في الصحف لمعرفة ما إذا كان يمكنني العثور على مقال آخر عنك.»

وانهالت عليّ الأسئلة: هل كشفت له أيّ صحيفة عن خداعي؟ هل كشفت له ابنته آن عن سرّي الذي قد يكون اكتشفه أيّ مراسل صحفي منها، فنقله كي يعلم العالم كلّه، بمن في ذلك والدها، بحقيقتي؟ ربما كان ذلك هو هدفها في نهاية المطاف.

لم يكن في وسعي فتح فمي، ولم أستطع التحدّث لتقديم المزيد من الأكاذيب حول خلفيتي الاجتماعية، أو إيجاد أيّ أعذار للكذب. أدركت أنّه يجدر بي أن أعترف فحسب، وأن أعتذر، وأتوسّل مغفرته ورحمته، لكنّ الخوف جعلني أصاب بالجمود.

فقال: «عادةً، أستطيع الحكم على الناس بطريقة صائبة.»

وأخيراً التقت عيناه بعينيّ، فحاولت ابتلاع الريق الذي تشكّل في حلقي.

«لكن يبدو أنّني أخطأت في الحكم عليك يا آنسة غرين.»

ماذا دهاه، فهو لم ينادني بالآنسة غرين منذ شهور؟

ثم حمل الصحيفة ووجّهها إلي، لكنّني لم أرغب حتى في لمسها، ناهيك عن قراءتها. ربما كان ينبغي عليّ قول الحقيقة له، ومحاولة إقناعه بتجنيبي وتجنيب عائلتي أيّ عقاب، على الرغم من أنّني كنت أشكّ في قدرة أيّ كلمة على تحويل دفّة غضبه. لقد كان السيّد مورغان لطيفاً معي حين سمعته عن طريق المصادفة في محادثات تحطّ من مكانة الجميع من يهود، وإيطاليين، ومهاجرين بولنديين جدد. وبينما كنت في منأى عن أيّ ازدراء علني، قد يكون لديه تجاه أصحاب البشرة الملوّنة في هذه البلاد. لم يكن في وسعي أن أفترض أنّه ليس لديه المشاعر نفسها تجاه شعبي كما يفعل مع كثيرين من الشعوب الأخرى.

ثم أمرني فقال: «خذي هذه الصحيفة»، فأطعته بلا تردّد، واهتزّت أوراق الصحيفة بين يديّ المرتعشتين، ثم أمرني مجدّداً: «اقرئي ما كتب في الصفحة السابعة في منتصف العمود.»

لقد شعرت بصعوبة في التنفّس، لكن كان يجب عليّ أن أواجه ذلك الموقف، وأن أقبل بعقابي. كدت أبكي أثناء تركيزي على قراءة المقال؛ لأنّني كنت أفكّر في مصير ماما وإخوتي؛ إذ سيتم تدمير كلّ حياتهم بسببي: ستفقد لويز وإثيل وظائفهما، وسيتعيّن على راسل وتيدي ترك دراستهما، وماما؛ لا يمكنني السماح لنفسي بالتفكير في مصير والدتي وتصوّر هول الأمر أكثر من ذلك، ولا يتعيّن عليّ فعل ذلك الآن على الأقل.

حبست أنفاسي وأنا أقرأ ذلك المقال الموجز:

هل أصبح السيّد جي بي مورغان حداثياً، أو أسوأ من ذلك، هل التحق بالحركة الانفصالية في عالم التصوير الفوتوغرافي؟ لقد أخبر طائر صغير مراسلنا عن حدث حصري قد وقع في الليلة الماضية في رواق 291 للفنون، وأنبأه أنّ عملاقاً تقليدياً في مجال الصناعة يفكّر في التخلّي عن جمع كنوز العصور الوسطى وعصر النهضة التي اشتهر بها. لقد قرعت الأجراس، وأعلنت السجلات النقدية في جميع أنحاء المدينة عن تسلّل أفكار هنري ماتيس إلى أسوار مكتبة بيربونت مورغان!

رمشت عيناي، ولم أستطع مقاومة الرغبة في مسحهما للتأكّد من أنّني كنت أرى بشكل جيّد. بطبيعة الحال، لم يكن ذلك الخبر سارّاً، لكنّه لم يكن المقال الذي توقّعته على الإطلاق. لقد كان مجرّد مقال مكتوب في عمود الشائعات التي تخصّ الفنّ، بدلاً من أن يكون عرضاً يتحدّث عن عرقي. الحمد لله لقد تمكّنت من البقاء على قيد الحياة.

«من تعتقدين نفسك بحق الجحيم؟» لقد كان صوت السيّد مورغان يفوق الهمس.

شعرت بالغثيان من نبرة سؤاله وصوته، لكنّني ذكّرت نفسي بأنّه على الأقل لم يسألني ذلك السؤال حرفياً. قلت: «ليس لدي أيّ فكرة يا سيّد

مورغان عن السبب الذي جعلهم يذكرون ذلك في هذه الصحيفة. من فضلك صدقني، فأنا لم أقل ذلك.»

«لقد زرت رواق 291 للفنون في الليلة الماضية، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيّدي.»

«لقد كنت أعرف أنّ الإشارة إلى «الأجراس» في ذلك المقال كان تلميحاً ذكياً عنك.»

فقلت: «نعم يا سيّدي ذلك محتمل»؛ حيث لم يكن هناك بدٌّ لإنكار ذلك.

«هم لم يؤلّفوا تلك القصّة من فراغ. من أين أتتهم بحقّ الجحيم، إن لم تكوني أنت؟»

تذكّرت معرض الليلة الماضية، ولم أكن أتخيّل أن السيّد ستيشين أو السيّد ستيغليتز سيسرّبان قصّة كتلك، لكنّ المعرض كان مليئاً بأشخاص آخرين، وأيّ واحد منهم كان في وسعه أن يكون مراسلاً صحفياً قد حرّف كلماتي بما فيه الكفاية لكتابة تلك القصّة، على الرغم من أنّني لم أقل ذلك على الإطلاق. فقلت: «لا بد من أنّ شخصاً ما قد سمعني عن طريق المصادفة، وأخرج كلماتي عن سياقها. أنا آسفة جدّاً يا سيّدي.»

لا يبدو أنّ السيّد مورغان كان يسمعني، أو ربما يكون ما قلته في تلك اللحظة غير مهمّ. يبدو أنّ ما كان يحتاج إليه هو السب والشتم، فقال: «إنّ مكتبة بيربونت مورغان مؤسسة تقليدية بارزة، وأنا لم أقم بأيّ إيحاء إلى أنّ تلك القمامة الحداثية ستعلّق على جدران مكتبتي. هل تفهمين؟»

فقلت عوضاً عن إنكار الأمر مجدّداً: «نعم يا سيّدي. أنا آسفة لقد كان خطأ -.»

قاطعني، وقال من دون أن يدرك مدى صحّة كلماته: «ليس لديك ترف ارتكاب الأخطاء يا آنسة غرين طالما أنّك تُعدّين سفيرتي وتعملين لدي.»

فقلت مرّة أخرى: «نعم يا سيّدي فهمت.»

لقد كانت عيناه قاتمتين عندما نظر إليّ وقال: «هناك شيء يجب ألا تنسيه أبداً.»

أومأت برأسي، فقال: «إنّ الاسم المنحوت فوق أبواب هذه المكتبة هو اسمي، وليس اسمك. أنا لا أريد تذكيرك بذلك مرّة أخرى.»

الفصل الخامس عشر

من الثاني إلى العاشر من كانون الأول/ديسمبر 1908

العاصمة لندن، إنجلترا

يبدو أنّه كان من المستحيل لي تصوّر الانتقال في غضون سبعة أشهر من حادثة رواق 291 للفنون إلى خوض أولى رحلاتي عبر المحيط الأطلسي. لقد نزلت من العربة فاعترضني صخب اللندنيين، الذين كانوا يرتدون ملابس أنيقة داكنة، ثم سرت في بهو فندق لنغهام الفاخر، الذي كانت تزيّنه أعمدة من الرخام ذات الرؤوس المذهّبة، وزادت من فخامته عطور محابس الزهور العجيبة الشاهقة. لقد كان البهو أفخم من أروقة عبّارة موريتانيا الجميلة؛ تلك السفينة الفخمة التي كانت تعبر المحيط الأطلسي، والتي ركبتها أنا وماما حين أبحرنا من نيويورك إلى لندن. وحين التفتُّ لرؤية ردّ فعل ماما وجدتها مبتهجة بينما كان البوّاب يساعدها في إنزال حقائبها. لقد كانت منبهرة بالمكان، وهو ما جعلني أبتسم. وعلى الرغم من شكوكي الأوّلية، أدركت أنّني قد اتّخذت القرار الصائب من خلال دعوتها لتكون مرافقتي في هذه الرحلة المهمّة.

بمجرّد دخولنا إلى جناحنا في الفندق، ارتمينا فوق أسرّتنا الفخمة، وغمرنا الضحك؛ لأنّنا كنا سعداء بحظّنا الوافر. لقد لاحظت في تلك اللحظة كم كانت والدتي تبدو مثل طفلة صغيرة؛ حيث بدت بشرة وجهها أفتح، بل بدت حتى أصغر سناً، وزالت مظاهر الحداد الكئيب الذي لم يغادرها منذ وفاة أمها.

لكن سرعان ما طفت على السطح طبائع ماما المألوفة، وبسرعة نهضت وأمرتني بالبدء في العمل، وقالت: «دعينا نخرج فساتينك الجديدة من تلك الحقائب قبل أن تتجعَد أكثر.»

أخرجنا الفساتين معاً، ونشرناها، وأزلنا تجاعيدها. لقد حملت معي قبل الرحلة ثلاثة فساتين جديدة كنت أتباهى بها؛ لأنّني كنت على علم بأنّه إذا كان يتعيّن عليّ إقناع وإبهار التجّار، وجامعي التحف، وأمناء المكتبات الإنجليز، يجب عليّ أن أنظر إلى نفسي من زاوية أنّني كنت أمثّل السيّد مورغان في تلك الاجتماعات أكثر من أيّ شخص آخر.

انتابتني موجة تأمّل في الأشهر السبعة الماضية، التي قضّيتها مع السيّد مورغان، بينما كنا نعلّق الفساتين في الدولاب. لقد قضيت ساعات لا تحصى في المكتبة، وجمعت مجموعة لا يستهان بها من المقتنيات المبهجة، على الرغم من أنّني لم أتمكّن بعد من الحصول على نسخة كاكستون، التي كانت تمثّل منية السيّد مورغان، لكن لم يكن مؤكّداً لدي أنّني كنت أعمل على النحو المطلوب إلا حينما طلب مني القيام بهذه الرحلة لالتقاط العديد من العناصر التي اشتراها خلال رحلته السنوية إلى لندن. كم كنت ممتنّة حين حظيت بثقته مجدّداً!

لكن لا يزال أمامي التركيز على تقديم أداء جيّد هنا، أيضاً، حيث لا تتلخّص مهمّتي في جلب وإعادة قطع السيّد مورغان فحسب، بل في القيام بشراء قطع أخرى بناء على مبادرتي الخاصة التي رخّص لي القيام بها. لقد استهدفت مجموعة هائلة من الكتب النادرة من نسخ كاكستون التي سيتم بيعها في المزاد العلني الأسبوع القادم. صحيح أنّها لا تحتوي على رواية (موت آرثر)، لكنّها ستجعل مجموعة كتب السيّد مورغان من نسخ كاكستون أكبر مجموعة في العالم. والأهمّ من ذلك أنها ستجعل السيّد مورغان فخوراً بها. وأنا أخطّط لأن أجعلها أجمل مفاجأة أعدّها له.

ثم أزالت ماما تجاعيد الفستان البنفسجي الزاهي وعلّقته. لقد كنت أعشق ذلك الفستان بشكل خاص، فعلى الرغم من أنّ تصميمه كان مواكباً للموضة، ويحتوي على الكثير من الدانتيل، أوصيتُ الخيّاطة بالحفاظ على النمط الكلاسيكي البسيط، دون إضافة أيّ طبقات ضخمة، أو أي ميزات تنميق؛ ما يجعله -كنت آمل ذلك- متعدّد الاستعمال يصلح في الآن نفسه للعمل ولحضور المناسبات الاجتماعية.

قالت لي ماما: «لا أعرف السبب الذي جعلك تختارين هذه الألوان الجريئة والمثيرة يا بيل.»

فأجبتها: «يا ماما، أنا لن أختلط أبداً مع زملائي، بل سأختلط مع هؤلاء الرجال الذين سينظرون إلي على أنّني مختلفة، وأجنبية لأنّني امرأة، أو....» سكت لأخذِ نفسٍ عميق قبل أن أواصل: «لقد وصلت إلى الاعتقاد بأنّ أفضل طريق للنجاح يكّون من خلال تبني قضيّتي الجندرية يا ماما، وحتى التباهي بأنّني امرأة.» لقد أصابت تلك الكلمات ماما بالفزع لكنّني واصلت كلامي «لا بد لي من إظهار أنوثتي بدلاً من محاولة الاختباء؛ لأنّني حينها سأحصل على تركيزهم، وسأثبت مهاراتي ومعرفتي.»

زاد قلق ماما فقالت: «ألا يجدر بك حقاً الاهتمام بنفسك أكثر يا بيل؟»

«الأمر ليس متعلّقاً بأنّني أستطيع إخفاء حقيقة أنّني امرأة من خلال ارتداء فساتين مبتذلة.»

«لكن إذا قمتِ بإثارة نظراتهم، فما الشيء الآخر الذي سيحدّقون فيه أيضاً؟»

لقد سبق لمخاوف الخال موزارت، والرعب الذي مررت به مع السيّد مورغان، أن ملأني بما يكفي من القلق؛ لذلك لم أكن في حاجة إلى أن تزيد علي ماما مخاوفها. أعلم أنّني كنت أسير مثل ذلك البهلواني الذي يمشي على حبل مشدود، لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ سأظلّ ملتزمة بهذا المسار. لذلك قلت

لماما: «إنّهم يرون لون بشرتي بغض النظر عما أرتديه. والغريب في الأمر أن ارتداء الملابس المثيرة هو عبارة عن اختباء أمام أنظار الجميع؛ لأنّه لا يمكن لأحد أن يتخيّل أنّ أيّ فتاة ذات بشرة ملوّنة يمكن أن تكون وقحة للغاية.»

هزّت ماما رأسها وقالت: «ليس في وسعي فهم مقاربتك لهذه الأمور يا بيل، ولا في وسعي أيضاً استيعاب هوسك أنت والسيّد مورغان بكل تلك الكتب القديمة. ربما أستطيع أن أقدّر قيمة تلك المخطوطات، التي طُبعت منذ زمن اكتشاف الآلة الطابعة، والتي عمل عليها الرهبان بجهد، لكنّني لا أستطيع أن أدرك قيمة تلك المجلّدات من نسخ كاكستون، التي أتيت من أجلها إلى لندن.»

شرحت لماما أنّ تاجراً ودبلوماسياً إنجليزياً يدعى ويليام كاكستون استخدم، في أواخر القرن الرابع عشر، تقنية الطباعة الجديدة، قبل أن يخترعها يوهان غوتنبرغ بعشرين عاماً لإعداد أوّل كتب باللغة الإنجليزية، وأشرت إلى أنّ كاكستون لم يوفّر، في نهاية المطاف، مجموعة أكبر من النصوص للمتحدّثين باللغة الإنجليزية فحسب، بل وحّد اللّغة الإنجليزية بطم طميمها، وأنّ كتبه مهمّة نظراً إلى ليس أهمّيتها التاريخية والأدبية فحسب، بل نظراً إلى أهمّيتها اللغوية أيضاً.»

لكنّ ماما أصرّت على موقفها فقالت: «أعتقد أنّ ذلك الأمر مفهوم يا بيل، لكن لماذا تحتاجين إلى الكثير منها؟»

«يا ماما، إذا نجحنا في جمع النسخ الستة عشر لكاكستون المعروضة في ذلك المزاد، وإضافتها إلى مجموعتنا، فسنحرز تفوّق مؤسستنا.»

بمجرّد أن ذكرت لها أنّ الشراء، الذي أخطّط للقيام به، سيرفع من مكانة المكتبة، ومن ثم سيرتقي بمكانتي، استوعبت الأمر، ولم تطرح مزيداً من الأسئلة؛ إذ لا يوجد، في نهاية المطاف، ما هو أكثر أهمّية بالنسبة إليها من نجاح أبنائها.

لكنّني لم أخبرها عن خطّتي غير التقليدية لإحضار جوائز كاكستون الثمينة إلى مدينة نيويورك، فذلك المخطّط يتطلّب مني إغراء اللورد أمهيرست الثري باقتراح مبلغ مقنع. إنّه مخطّط جريء من شأنه أن يزعج والدتي الملتزمة بالقواعد الأخلاقية، لكن من أجل الاستمرار في ردّ اعتباري عند السيّد مورغان، يجب عليّ تحمّل المخاطر التي لم أكن لأصادفها من قبل.

على الرغم من أنّه لم يكن لدينا سوى ساعتين فقط تفصلاننا عن تفريغ ما في حقائبنا وأوّل موعد عمل لي، كنّا مصمّمتين على القيام بجولة في بعض أحياء المدينة. لقد قمنا بنزهة خاطفة في شوارع بوند وأكسفورد لتسلية أنفسنا، والاستمتاع الموجز بنكهة العيش في لندن. لقد شعرت أنا وماما بالدوار من استيعاب فكرة أننا في أوروبا.

أكثر ما كنت أتوقّعه من هذه الرحلة هو أن أندهش من التاريخ الذي يعود إلى قرون، والذي يمرّ عبر مبانيها وسائقيها في الشوارع مثل ضخ الدم في الوريد. لقد كنت قد أعددت نفسي للتمتّع بتجربة أخذ المجموعات الفنّية الواسعة، التي أبدعها سادة القرون الوسطى، والعباقرة الهولنديون، والرسّامون الموهوبون في رسم البورتريه الحديث. وبلغ بي الأمر حتى التخطيط لاكتشاف ثروة العاصمة الإنجليزية وامتيازاتها وثراء مواطنيها، مدركة أنّه لا يمكن لأيّ قدرٍ من الوقت، الذي قضيته مع آل مورغان وأغنياء مدينة نيويورك، أن يكون بمنزلة إعداد مناسب للبريطانيين.

لكنّني لم أستطع أن أحزر أعظم هدية موجودة في لندن، فهنا، أثناء سيري في الشوارع، لم أشعر بالتقييم نفسه للون بشرتي، مثل ذلك الذي كنت أعيشه على نحو روتيني، وأتوقّعه باستمرار في الولايات المتّحدة الأمريكية. ربما يعود ذلك إلى أنّ مواطني لندن ليس لديهم الحاجة نفسها إلى تصنيفنا بحسب العرق، كما يفعل مواطنو أمريكا.

أَيعود ذلك إلى أنّ العبودية كانت غير قانونية في بريطانيا العظمى لأكثر من سبعين عاماً، ومن ثَمَّ إنّ نوع الميز العنصري الرسمي، الذي بدأنا نعيشه في الولايات المتّحدة الأمريكية، غير موجود، أم أنّ الطبيعة الراسخة للنظام الطبقي البريطاني تعني أنّ مكانة المرء أكثر أهمّية من عرقه؟ بالنظر إلى أني وماما ننتمي إلى طبقة النساء الثريّات في المجتمع، هل سيتم منحنا تلك المكانة أوتوماتيكياً هنا، على الرغم من أنّ بشرتنا ليست فاتحة مثل معظم المواطنين الإنجليز؟ لم أكن أعرف الإجابات، لكنّني شعرت بالراحة والحريّة التي لم أكن معتادة عليها.

بمجرّد عودتنا إلى فندق لنغهام، شعرت بحماسة تجاه لقائي الحاسم مع اللورد أمهيرست، وبدلاً من الاجتماع به في منزله في لندن؛ حيث سيصب عامل القوّة لمصلحته، برمجت لتنظيم حفلة شاي في غرفة الأكل في الفندق بانضمام ماما إلينا لشرب أوّل فنجان من الشاي، وأخبرتها أنّه يجدر بها أن تغادرنا بمجرّد طلبي الفنجان الثاني، فقواعد اللياقة تملي أن يكون المرافق حاضراً على الأقل في جزء من اجتماعنا.

وحال دخولي أنا وماما إلى قاعة الأكل، واجهتنا نظرات تقديرية من الضيوف الذكور. أتخيّل أنّنا كنّا أنيقتين؛ فأنا كنت أرتدي ثوبي البنفسجي الجديد المذهل. أما ماما فكانت ترتدي تنورة مصمّمة بلون البرقوق مع سترة بطول الخصر كنت قد اشتريتها لها في تلك الرحلة.

تبعنا رئيس الخدم، فقادنا إلى الطاولة؛ حيث كان ينتظرنا اللورد أمهيرست، ولاحظت مدى اختلاف ماما هنا؛ وما تغيّر فيها ليس تبدّد تعابير الحداد الحزينة التي كانت لا تفارقها فحسب، بل لاحظت أنّها بدأت تضحك ولا تتكلّم فحسب، بل تتجاذب أطراف الحديث أيضاً إلى درجة أنّني سمعت ثرثرتها هذا الصباح، وهذا أمر لا أذكر أنّها قامت به أبداً. حتى لمّا تحدّثنا قبل لقاء اللورد، لم تكن كلماتها مشحونة بأيّ تحذير أو توبيخ بشأن سلوكي

أو أسفي لموت الجدّة فليت. أظنّ أنّ ماما كانت تتمتع مثلي بالحرية التي منحتها لنا لندن.

أشار رئيس الخدم إلى الطاولة؛ حيث كان السيّد ذو الشعر الفضي وصاحب المظهر المميّز ينتظرنا، ولاحظت أنّ اللورد أمهيرست هو بالضبط كما وُصِف لي؛ مهذّب للغاية في سلوكه وآدابه. ثمّ تبادلنا المجاملات والدعابات بشأن رحلتنا العابرة للمحيط، وحالة الطقس في لندن، قبل المرور إلى الأمور الجدّية ومناقشة الأعمال. لقد كان منذ البداية، حتى أثناء حديثنا حول المزاد، يدافع عن الموقف الذي اضطرّه إلى بيع مكتبته. تقول الشائعات إنّ الأسباب المالية كانت تلزمه بالبيع، على الرغم من أنّني سمعت أيضاً أنّه كان ينفق معظم ثروته الضخمة على الآثار المصرية.

ثم طلبت ماما الإذن بالسماح لها بالمغادرة إثر طلبي فنجان الشاي الثاني، وأخذت رشفة من شاي البابونج، وقمت بإبداء ملاحظة، فقلت: «أنا أتفهّم أنّ من الصعب عليك التخلّي عن نسخ كاكستون.»

نظر إلى فنجانه الفارغ، وقال: «نعم يا آنسة غرين. من الصعب فعل ذلك بالتأكيد.»

«آمل أن تفهم يا لورد أمهيرست أنّه إذا كانت مكتبة بيربونت مورغان من المشترين المحظوظين لنسخ كاكستون الخاصة بك، فإنّ تلك المجموعة ستكون جزءاً عزيزاً علينا.»

فقال: «هل هذا صحيح؟»

«نعم، في الواقع، ستمثّل مع نسخ كاكستون التي في حوزوة مكتبة بيربونت مورغان تحفة مركزية!»

فردّ: «يشاع أنّ السيّد مورغان لديه مجموعة كبيرة ومتنوعة منها، ومن الصعب فهم أنّ نسخ كاكستون ستكون مركزية للغاية بالنسبة إليه.»

«بل ستكون.» التقت عيناه بعينيّ فقلت: «لقد كنتُ - يا لورد أمهيرست- مهووسة بالكتب القديمة منذ نعومة أظفاري، وكنت أطرب لرؤيتها، وشغوفة بتنشّق رائحتها، ويختلجني شعور رائع عندما أتلمّس أغلفتها وصفحاتها، ومفتونة بالأماكن التي قد تسافر إليها والحواجز التي قد تعبرها، ولا يوجد كتاب قديم يحمل الكثير من السحر بالنسبة إليّ مثل ذلك الذي قام بطباعته السيّد كاكستون.»

ظلّ ينظر إليّ، ثم قال: «ما هو عرضك يا آنسة غرين؟»

«لدي عرض ممتاز لك يا لورد أمهرست؛ سأكون سعيدة بتحديد سعر مثالي بشأن نسخ كاكستون الآن وعلى الفور، حتى قبل بداية المزاد، وإذا تمكنا من التوصّل إلى اتفاق، فلا داعي لوضعها في المزاد على الإطلاق. أتصوّر أنّ ذلك سيكون أسهل بالنسبة إليك، وسيعفيك من كلّ المصاريف الإضافية.»

وضعت ورقة العرض التي سبق أن أعددتها بعناية أمامه، لكنّه لم يقم بأيّ حركة لاستلامها، فرجوت الله أنّني لم أرتكب أيّ خطأ، وتذكّرت كلمات السيّد مورغان حين قال: ليس لديك ترف ارتكاب الأخطاء يا آنسة غرين.

كانت لدي حيلة أخرى، هي -لا شك- جريئة، لكنها مقترنة بالعرض العام الذي قدمته للتو، وربما ستنجح. فقلت وقد أنزلت عينيّ إلى الأسفل: «أكره أن أكون قد تكبّدت عناء السفر إلى هنا، ثم أعود إلى الوطن بخفّي حنيْن. في الحقيقة سأصاب باليأس إلى درجة أنّني لن أتمكّن من حضور المزاد مطلقاً.»

لقد كان لديه العديد من التحف الفنّية والكتب المدرجة في الكتالوج، وسيؤثر خروج مكتبة بيربونت مورغان من المزاد في المبلغ النهائي المدفوع مقابل تلك التحف أيضاً. ومن المعروف أنّ السيّد مورغان يقدّم عطاءات

عالية على العديد من الأشياء، وعلى الأرجح سيظنّ بعضٌ آخر من التجّار في المزاد أنّني سأفعل الشيء نفسه، ومن ثم ستكون زيادة مصطنعة للأسعار.

توقف وبقي واجماً عاجزاً عن الكلام، ثم مدّ يده فجأة عبر الطاولة، وحمل الورقة التي عرضتها عليه، ثم نهض وقال: «سأرسل إليك برقية أعلمك فيها بقراري، وستصلك هنا في الفندق في القريب العاجل»، ثم خرج من قاعة الأكل في الفندق.

قمت بدفع فاتورة الشاي، وانسحبت إلى غرفتي في الفندق، ثم بدت عليّ علامات الهدوء، لكنّني رفضت حضور المسرح مع ماما، كما خطّطنا، فأنا لم أشأ أن أفوّت تسلّم برقية اللورد أمهيرست. لكنّ الساعات مرّت من دون ظهور أيّ رسول، وانتظرت ردّه حتى ظهر اليوم التالي، قبل أن أقرّر الالتزام بموعد زيارة متحف فيكتوريا وألبرت. رافقتني ماما إلى هناك؛ حيث استمتعت بصحبة كوادر من العلماء والتجّار وأمناء المكتبات الذكور، وتجاذبت أطراف الحديث مع زملائي المؤيدين لعالم الفن، الذين كانوا في هذه المناسبة الوحيدة مهتمين لا بجنسي أو بلون بشرتي بل مهتمين بآرائي.

سألني السيّد جورج دورلاشر، التاجر الممثّل لشركة الإخوة دورلاشر، بينما كنا نقوم بجولة في متحف فيكتوريا وألبيرت، داخل الجناح المخصّص لمجموعة البورتريهات المصغّرة الشهيرة: «هل في وسعك تصوّر طبيعة الشعور الذي سينتاب رسامي تلك البورتريهات عندما تفصل صورهم عن الكتب المكتوبة بخط اليد التي كان من المفترض أن توثّقها؟»

فأجبته: «أعتقد أنّ الرسامين كانوا يعرفون أنّ صورهم يمكن أن تؤخذ من الكتاب نفسه، وتستخدم لأغراض أخرى، مثل تبادلها أثناء التعارف أو إعطائها هديَّةً؛ فنجمٌ مثل سيمون بينينغ قد لا يعجبه مثل هذا الأمر، لكن لا أظنه سيرفضه لو قدّم له.» قمت بإشارة إلى خزانة طويلة تعجّ بتلك البورتريهات

الرائعة، وأضفت: «لكن ربما يمكننا عرضها مع كتبها الأصلية من أجل احترام السياق الذي وضعت فيه بقصد إنارة فهم الزوار.»

قال آرثر بانكس سكينر، مدير المتحف ومرشدنا السياحي: «لديك أفكار مثيرة للاهتمام! يجب عليك العودة للقيام بجولة في المبنى الجديد، الذي سنطلق عليه اسم مبنى أستون ويب عند اكتماله في هذا الصيف، وسأرحّب بأفكارك حول الطريقة التي يجب أن يتم بها عرض مجموعة الصور الشخصية داخل ذلك المبنى.»

فغازلته بضحكة، وقلت: «وأنا لا أرغب في شيء أكثر من ذلك، لكن كن حذراً مما تعرضه عليّ، فأنا قد أعتبر عرضك على أنّه دعوة خاصة منك! لكن لن يكون من العدل تبادل أفكار من جانب أحادي يقع في الطرف المقابل للمحيط الأطلسي. أليس كذلك؟»

في الأيام التالية، تخليت عن فكرة انتظار ردّ اللورد أمهيرست، وبدلاً من ذلك أبلغت مكتب الاستقبال في فندق لنغهام بقائمة الأماكن اليومية التي أزورها في حال وصول البرقية أثناء غيابي. لقد عجّت أيامي بالدعوات لرؤية المجموعات الفنّية، وحضور مآدب الغداء والعشاء مع التجّار الذين كنت أعرفهم فحسب من خلال شهرتهم أو رسائلهم؛ من أمثال السيّد جورج ويليامسون، والسيّد جوزيف فيتزهنري، وأمناء المكتبات من أمثال السيّد تشارلز هرقل ريد، حارس قسم المتحف البريطاني للآثار البريطانية وآثار العصور الوسطى. وصحبة هؤلاء السادة كانت ضرورة مهنية، لكنّها جعلتني أشعر بالترحيب بطريقة مختلفة عمّا كان تجّار وأمناء مكتبات مدينة نيويورك يقومون به، بل حتى كانوا يعرضون رؤاهم حول الطريقة «الفجّة» التي كان رجال الفنّ في نيويورك يتصرّفون وفقها، ولا سيما أنّ بعض التجار منهم قد فتحوا فروعاً لهم في نيويورك. وأنا كنت أعلم أنّ هؤلاء الرجال سيذهبون إلى أبعد مدى من العطاءات في ذلك المزاد العلني، لكنّهم هم أيضاً يفهمون أنّني

سأقوم بالشيء نفسه، وأنّنا سنبقي على صداقتنا المهنية، بغض النظر عما سيقع في المزاد.

تناولت عشاء الليلة قبل الأخيرة؛ أي الليلة التي سبقت المزاد، أنا وماما وهؤلاء السادة. وإثر عدم تلقّي أيّ ردّ من اللورد أمهيرست، تخليت عن الأمل في أن يبيعني نسخ الكاكستون مباشرة؛ ووجدت نفسي مضطرّة إلى الدفاع عن حظوظي مع الآخرين في المزاد، واستنتجت أنّني قد ذهبت بثقتي المكتشفة حديثاً مع اللورد أمهيرست إلى مدى بعيد جدّاً. وعلى الرغم مِن أنّني تعلّمت الكثير من وجهة نظري الخاطئة تلك، لم أسمح للفشل بالتمكّن مني. على أي حال، لقد كانت الرحلة ناجحة بشتى الطرق حتى من دون شراء نسخ الكاكستون تلك؛ لأنّني نجحت في جمع كلّ ما اشتراه السيّد مورغان من أعمال فنّية بقصد إعادتها معي الى نيويورك، بالإضافة إلى نجاحي في تكوين شبكة علاقات مهمّة.

استمتعت بوقتي وأنا أراقب ماما، التي كانت منفتحة أكثر الليلة، فسحرت السادة بحركاتها البطيئة والأنيقة، كما فتنتهم بأخلاقها. تخيّلت كم كانت أمي فاتنة في عين والدي عندما كانت شابة مثقّفة. لكن ماذا عساه أن يقول فيها لو رآها الآن؟ وما عساه أن يقول بشأني؟ أيكون فخوراً بنجاحي أم تراه سيلومني على قبولي تبنّي العيش مثل البيض، فيعتقد أنّني لم أخذله هو فحسب، بل خذلت شعباً بأسره؟

قاطع السيّد فيتز تأملاتي وسألني: «ما هي خططك للمزاد غداً؟ هل أعطاك السيّد مورغان قائمة طويلة بالعناصر التي يتعيّن عليك شراؤها؟»

عندما طلب مني السيّد جوزيف فيتزهنري لأوّل مرّة مناداته بكنيته التي يستخدمها جميع التجّار، شعرت ماما بالخجل من تلك الفكرة، ولكن مع تواتر أيامنا في لندن، وبمشاهدتها أهمّية علاقاتي الاجتماعية وارتباطها بعملي،

والأهميّة المصاحبة للمعاملة بالمثل بما ينسجم مع مكانتهم الاجتماعية، أذعنتْ، بل بدأت بالفعل تناديهم بأسمائهم المسيحية أيضاً.

تدخَل السيّد جورج دبليو، بالنظر إلى أنّ لدينا سيّدين يُدعيان جورج في مجموعتنا، أحدهما السيّد جورج دورلاشر، والآخر السيّد جورج ويليامسون، ولقد تم التوصّل إلى اتفاق على أنّه يجب أن نسمي أحدهما جورج دي ونسمي الآخر جورج دبليو، تدخل وقال: «دعيني أحزر. أظنّ أنّ السيّد مورغان يريدك أن تؤمني له اقتناء إنجيل مازارين؟»

لقد كان تخمينه ممتازاً بالنظر إلى ميل السيّد مورغان المعروف لدى الجميع إلى جمع كتب غوتنبرغ. وإنجيل مازارين، الذي أشار إليه جورج دبليو، طبعه غوتنبرغ في سنة 1450، ووُجد في مكتبة مازارين في باريس، ومن هنا جاءت تسميته.

فقلت: «آه إنجيل مازارين. إنّه كنز بالفعل! ليته أرسلني لاقتناء ذلك الكتاب وإعادته معي إلى نيويورك. لكن ما يؤسف له أن السيّد مورغان راضٍ تمام الرضا عن مخزونه الحالي من كتب غوتنبرغ، على أي حال.»

صاح السيّد جورج دي، وقال: «استمعوا إلى كيفية تعاملها مع مجموعتها من أناجيل غوتنبرغ!»، فضحك باقي الرجال.

إذ لم تبق من بين 180 نسخة من أنجيل غوتنبرغ، وكل نسخة منها تختلف عن الأخرى، سوى خمسين نسخة فقط، وحقيقة أنّ السيّد مورغان يمتلك نسختين منها يُعدُّ أمراً أسطورياً.

فأجبته: «آه. ليته أراد نسخة ثالثة!»

ثم عمّت القاعة ثرثرة حول المزاد الذي سيقام في الغد، وأصبح كلّ تاجر يتحدّث عن موكليه أو مصالح مؤسساته. وكلّ واحد منهم كان يودّ أن يعرف ما يرغب الآخر في اقتنائه، وأفترض أنّ ذلك سبيل ينتهجه كلّ تاجر للبدء في

وضع استراتيجية خاصة به للدخول في المزاد. ثم بدأ الخدم رفعَ أطباق العشاء الأخيرة، ثم بدؤوا صبَّ القهوة والشاي استعداداً للتحلية، ثم اتجه رئيس الخدم نحو طاولتنا وفي يده ظرف وسألني:

«هل أنت الآنسة غرين؟»

فأجبته: «نعم.»

«لدي برقية لك»، ثم سلّمني الظرف.

سألني فيتز وقد لمحت بريقاً في عينيه: «هل هي تعليمات اللحظة الأخيرة القادمة من نيويورك؟» لقد أصبحت مولعة جدّاً بذلك التاجر البدين، فهو مضحك وشرس في الآن نفسه.

فأجبته بابتسامة فحسب، وانتظرت انغماسه في محادثة أخرى لأفتح المظروف بسكين فضّي، وارتعشت يدي تحسّباً للردّ، فاندفعت البرقية وكادت تسقط على الأرض قبل أن ألتقطها.

إنّها من اللورد أمهيرست؛ لقد قبلِ عرضي.

فسألني جورج دي: «يبدو أنّها تعليمات مثيرة للاهتمام. أليس كذلك؟»

فأجبته ولم أبدِ أيّ مشاعر ابتهاج: «شيء من هذا القبيل.»

ثم نظر جورج دي إلى المجموعة ليتأكّد له أن لا أحد كان يسمع، فخفّض من صوته، فأصبح يشبه الهمس، وقال: «هل بوسعك أن تعديني بشيء يا آنسة غرين؟»

مازحته وقلت: «كم مرّة طلبت منك مناداتي بيل فقط؟» تورّدت خداه وانتابه الخجل وجعله شعره الرمادي الأشعث محبوباً لي، فأضفت: «في نهاية المطاف، أنا أيضاً أصبحت أناديك بكنيتك.»

يبدو أنّ الألفة والحميميّة أمران لم يلائما بشكل جيّد ذلك الرجل الإنجليزي، لذلك وجدته يغالب نفسه لينطق اسمي، ويقول: «معك حقّ يا بيل! دعينا نعُدْ إلى الوعد الذي كنت بصدد طلبه منك.»

التفت إليه، وأوليته كلّ اهتمامي، وقلت: «هذا مؤكد. كلي آذان صاغية.» تمنيت فحسب ألا يكون طلبه ذا طبيعة رومانسية، فعلى الرغم من أنّني وجدت أنّ القليل من المغازلة يساعد في تسهيل التعاملات التجارية، ولاسيما أنني لا أستطيع تدخين السيجار وشرب البراندي بعد العشاء، وإقامة علاقة جنسية مثل زملائي، أحببت ذلك الرجل الإنجليزي، ولا أريد أن أضطرّ إلى رفض ما سيتقدّم به.

«هل بإمكانك أن تعديني بأن لا تزايدي عليّ بشأن نسخ كاكستون المطروحة في المزاد غداً؟» لقد كانت نبرة صوته توحي بأنّه كان يتوسّل وعيناه كذلك كانتا تتوسّلان، ولو لم أكن طموحة للغاية، ولم يكن لدي ذلك الإكراه بالنجاح؛ ولو لم أكن قد اكتسبت بالفعل مجموعة كاكستون من دون الدخول إلى المزاد، لربما كنت اقتنعت بكلامه.

وتساءلت في داخلي: كيف سأردّ عليه؟ إذ لا يمكنني الكشف عن انتصاري، وفي الوقت نفسه لقد تعوّدت على احترام هؤلاء الرجال، وكنت أفضّل ألا أكذب عليهم، أو أعترض على طلباتهم. ثم خطرت في بالي فجأة إجابة مثالية مذهلة، فقلت:

«نعم، أعدك بعدم المزايدة غداً.»

قلت ذلك بتشديد، فهو بالفعل ما سيقع؛ فأنا لن أكسر الوعد الذي قطعته على نفسي للورد أمهيرست، وفي الآن نفسه لن أكسر الوعد الذي قطعته لذلك الرجل المحترم. سأكون في المزاد، ولن يكتشف أنّني بحاجة إلى المزايدة عليه؛ لأنّني فزت بالفعل بجائزة المزاد، وآمل أن أكون قد فزت بثقة السيّد مورغان الكاملة معها.

الفصل السادس عشر

17 كانون الأول/ديسمبر 1908

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

سابقت العربة الرياح في شوارع المدينة المزدحمة، التي بدت لي أكثر قذارة وأكثر فوضى بعد الأيام التي قضيتها في لندن. ظلّت العربة تتصارع مع المزيج الوعر من الأوحال التي كانت عالقة بالسطح. كنت أحمل الصندوق الثقيل، الذي كان يحتوي على نسخ كاكستون. لقد كان يتعيّن عليّ حفظها بذلك الصندوق، وعدم إلحاق أيّ أضرار بهذه المكافأة قبل أن أريها للسيّد مورغان. كنت حريصة جداً على العودة المظفّرة إلى مكتبة بيربونت مورغان، وتلك المكافأة بين يدي.

بمجرّد توقّف العربة أمام المكتبة، تخيّلت نفسي أنّني أشبه ذلك الإمبراطور الروماني الذي عاد منتصراً من الحرب بعربات مليئة بالغنائم من الذهب، فتتزلزل أرضية الرخام، ويتساقط بعضٌ مما نُهب في أعقابه. وعلى الرغم من ثقل صندوق نسخ كاكستون، صعدت الدرج العريض، واتجهت إلى الأبواب البرونزية الثقيلة التي كانت تقف مثل حارس للمكتبة، وشعرت كما لو أنّ قوّتي لم تعد مستمدّة من السيّد مورغان بل من قوّتي الذاتيّة، واعتقدت أنّ تلك الجائزة، التي كانت بين يديّ، هي من كانت ستمنحني تلك السطوة.

سمعت صوت السيّد مورغان وهو يستقبلني حتى قبل أن أقرع الباب البرونزي. لقد فتح الباب لي وقال: «مرحباً بعودة محاربتنا المظفّرة!» لم يسبق لي أن رأيته يفتح الباب لي بنفسه.

دخلت إلى البهو الرخامي كما لو أنّني كنت معتادة على أن يفتح لي أحد أقوى رجال أمريكا الباب، وقلت: «لقد جئتك محمّلة بالهدايا وغنائم الحرب، إذا صحّ التعبير.»

فقال: «هذا مؤكد! أعلم أنّك لن تعودي خاوية الوفاض. لقد قرأت برقيتك.» لقد كان يشير إلى البرقية التي أرسلتها إليه قبل أن أستقل أنا وأمي باخرة موريتانيا للعودة إلى الوطن. فرك السيّد مورغان يديه معاً، محاولاً توقّع ما أحضرت إليه من هدايا، وقال: «دعينا نلقِ نظرة على جائزتك.»

مشينا جنباً إلى جنب، ووقعُ كعوب أحذيتنا يزلزل رخام الأرضية الملوّنة. شدّ انتباهي سقف البهو المنمّق بزخارفه البهيّة الزاهية وألوانه المشرقة النابضة بالحياة بشكل استثنائي، على الرغم من أنّني كنت قد شاهدته مئات المرّات في السابق، ولم يثر فيّ تلك المشاعر. آه. كم كان غريباً أن تبدو لي المكتبة جديدة ومفعمة بالحياة بعد قضاء بعض الوقت في شوارع ومباني لندن المليئة بالتاريخ، وكم كانت المكتبة النقيّة في تناقض مع صخب مدينة نيويورك.

أشار السيّد مورغان إلى مكان معيّن فوق الأرضية؛ حيث يجدر بي إنزال الصندوق، ثم بدأ في إزالة كلّ الأشياء التي كانت فوق مكتبه. وفي ثوانٍ رفعت غطاء الصندوق، ونشرت نسخ كاكستون على سطح المكتب، وقلت له بهدوء: «إنّها هدايا العيد لو شئت تسميتها على هذا النحو.» على الرغم من أنّ ما قلته لم يكن يعبّر عما كنت أشعر به؛ لقد جعلتني عودتي المظفّرة أشعر بالارتياح والابتهاج.

رفع السيّد مورغان بين يديه نسخة كاكستون من كتاب (مجموعة قصص طروادة)، وأخذ يتأمّل الغلاف، ثم فتح الصفحة الأولى، وتمالك أنفاسه وهو يشاهد أوّل عيّنة لأوّل كتاب طُبع باللغة الإنجليزية إلى درجة أنّني لاحظت بريق عينيه.

وقال: «أظنّ أنّه يجدر بنا الاحتفال بعودتك المبشّرة بكلّ خير بالقيام بموكب خاص على شرفك.»

أجبته على نحو متواضع: «أنا سعيدة للغاية لأنّك مسرور مما أنجزته.» فالسيّد مورغان نادراً ما كان يعبّر عن سروره بذلك الحجم.

«مسرور؟»، ثم أخذ يضحك، وأضاف: «بل قولي إنّني مفتون بمفاجأتك السارة»، ثم قوّس حاجبه وقال: «على الرغم من أنّها ليست نسخة كاكستون التي أريدها»، في تلميح إلى رواية (موت آرثر). ابتسم وأضاف: «إنّي أرى فيك الكثير من الأشياء، فأنت وكيلتي القادرة على التعامل مع أصعب ملّاك التحف من الأرستقراطيين منكودي الحظّ. ناهيك عن أنّني أرى فيك أيضاً وكيلة قادرة على التفوّق على أصعب التجّار. قد يبدو في الظاهر أنّ هؤلاء التجّار اللندنيين يمثّلون جوهر الأدب والأخلاق، لكنّهم يخفون تحت ذلك السطح أنّهم محتالون بارعون، بل أكثر براعة من أيّ شخص في بلادنا التي تقع في الجانب المقابل للمحيط.»

قلت: «ربما قد يشترك التجّار على جانبي المحيط، في نهاية المطاف، في تحقيق مآربهم!»

أخذ يقهقه ويسألني عن تفاصيل تعاملاتي مع اللورد أمهيرست، والوقت الذي قضيته مع تجّار مكتبات لندن وأمنائها. لقد سبق لي، بطبيعة الحال، أن كتبت إليه رسائل حدّثته فيها بإسهاب في كلا الموضوعين، لكنّه كان يريد الحكايات مباشرة؛ فأمتعته بقصّة موعدي مع صاحب نسخ كاكستون، وزياراتي التي قمت بها إلى المتحف ومآدب الأكل مع التجّار. ثم أخبرته عن اللحظة المفضّلة التي عشتها أثناء آخر مأدبة عشاء، والتي تسلّمت أثناءها البرقية والوعد الذي لفّقته لجورج دي بالتفويت في المزاد.

فقال: «حسناً. هذا هو ما يفسّر بالتأكيد الرسائل الحماسية التي تلقيتها من التجّار حين كنت في طريق عودتك إلى الوطن بالباخرة.»

تسمّرت في مكاني وتساءلت: هل كان يمزح معي؟ ثم سألته: «هل كانوا غاضبين مني؟»

«على العكس من ذلك. في الحقيقة هم بالتأكيد يحبّون نسخ الكاكستون تلك، لكنّهم في الآن نفسه يحترمون براعتك. ألا تريدين أن أنقل إليك ما قاله فيتز لي؟»، ثم توقّف ليتذكّر ما قاله ذلك التاجر في رسالته إلى السيّد مورغان، ثم قال: «آه. نعم لقد تذكّرت؛ لقد قال إنّه نجح في أنِ يحظى بوكيل جدير بالاحترام يشترك معه في مهارة فنّ التفاوض، وكيل تمكّن من تعليم الكلاب البريطانية المسنّة بعض الحيل الجديدة.»

ابتسمنا أحدنا للآخر، ومدّ يده ليصافحني، فبادلته المصافحة، وهمس لي: «أنت لست مجرّد أمينة لمكتبتي يا بيل.»

ألقيت نظرة إلى قامته الشاهقة عندما جذبني إليه، فشعرت بالارتباك في عينيه المتطابق مع شكوكي. لقد مرّ عام منذ أن أتيحت لنا تلك اللحظة في مكتبي، وعلى الرغم من أنّني تفطنت إليه في العديد من المناسبات، وهو يرسل نظراته الطويلة، لم أذكر أنّنا حظينا بفرص مشابهة، أو تقاسمنا لحظات أخرى مماثلة. أَتراه أعاد التفكير في طبيعة علاقتنا، أم تراني أنا التي قمت بذلك؟

شعرت بخفقان قلبي بمجرّد تقارب شفاهنا بمقدار بوصة، لكنّنا سمعنا حينها صدى أصوات متأتية من جميع أنحاء البهو، فتردّد صداها ليصل إلى المكتب. تركت يده وقمت بخطوة الى الوراء، وقلت: «من تراه أتى إلى هنا؟»

أخذ نفساً عميقاً ثم قال: «يبدو أنّني نسيت تقريباً أمرهما.» تنحنح وعاد إلى لهجته السلطوية، على الرغم من أنّه كان يتحدّث بهدوء، وقال: «إنّهما السيّد برنارد بيرنسون وزوجته، لقد قدما من إيطاليا لزيارة مجموعة كتبي.»

سألته خشية ما قد كانا سمعاه وقلت: «هل كانا موجودين في المكتبة طوال هذا الوقت؟» لقد كانت هندسة مكتبة بيربونت مورغان لا تتضمَن امتصاص تردّدات الأصوات؛ لذلك كان من الممكن سماع أيّ صوت في أيّ قاعة وإدراكه في قاعة أخرى، ثمّ تحوّلت رعشتنا بعد ذلك، فأصبحت ذات طبيعة فيزيائية بصرية غير مسموعة.

فقال: «نعم. لقد كانا هنا، وآمل أنّهما كانا منهمكين في تأمّل التحف الفنّية.»

شعرت بارتياح، ثم خامرتني أسماء الضيوف مجدّداً فسألته: «هل تعني برنارد بيرنسون الكاتب وخبير الفنّ الإيطالي؟» تذكّرت ذلك الكتاب الذي أهداه إلي بابا بمناسبة عيد ميلادي العاشر، بعنوان (رسّامو مدينة البندقية في عصر النهضة)، الذي كتبه المؤلف الذي كان يحمل اسم الضيف نفسه. بمرور السنين، كتب برنارد بيرنسون كتاباً آخر عن الرسامين الفلورنسيين في فترة عصر النهضة زاد من حبّي لفنّ وكتب تلك الحقبة.

«إنّه هو بشحمه ولحمه، وهو أيضاً أمين لإحدى المكتبات، ويساعد في إرشاد جامعي التحف في مشترياتهم»، ثم ابتسم وأضاف: «هو لا يختلف عنك، على الرغم من أنّ لديك، بطبيعة الحال، العديد من المواهب الأخرى المتميّزة عن مواهبه. ربّة عمله هي المزعجة إيزابيلا ستيوارت غاردنر أصيلة مدينة بوسطن مسقط رأسه. إنّه يقدّم نفسه بوصفه السلطة البارزة في فن عصر النهضة الإيطالي.»

لقد كان لدى السيّد مورغان القليل من اللقاءات الفعلية مع السيّدة غاردنر؛ إذ يكفيها أنّ لديها مجموعة فنّية خاصة بها كان الناس يناقشونها بشكل إيجابي، إلا أنّ السيّد مورغان لم يكن يحب المنافسة.

فسألته: «وما سبب قدومه إلى هنا، إذا كانت ربّة عمله موجودة في بوسطن؟»

أجاب: «أعتقد أنّه يحاول أن يبحث عن أعمال جديدة. ظاهرياً هو وزوجته هنا لإلقاء محاضرات، وليشاهدا مجموعات الكتب المهمّة.»

«وهل زوجته كاتبة أيضاً؟» لقد كنت مندهشة للعثور على امرأة أخرى في هذا المجال.

«لا. هي ليست بالكاتبة، بل لديها بعض الخبرة الفنّية التي تمكّنها من إلقاء بعض المحاضرات. وإذا سألتني عن طبيعتها فسأقول إنّها امرأة مزعجة لعينة وتفتقر إلى الجمال والجاذبية»، ثم تنهّد وأضاف: «لكنّ آن حضرت مأدبة عشاء معهما مؤخراً، ورتّبت إلقاء خطاب في نادي كولوني للسيّدة بيرنسون. ومن غير المستغرب أنّها دعتهما للاتصال بنا ورؤية المكتبة، فماذا عساي أن أقول؟» لقد سألني ثم أبدى تجاهلاً طفيفاً.

أما أنا، فلم أندهش إذ يبدو أنّ السيّد مورغان كان يبحث دائماً عن أرضية توافق مشتركة وطرائق لإرضاء ابنته الصغرى المدلّلة، بالنظر إلى الاختلاف المتزايد في وجهات النظر السياسية والاجتماعية بينه وبينها.

قال كما لو أنّه كان يخاطب نفسه: «أعتقد أنّه كان بإمكاني إثارة ما قيل في الشائعات إلى آن وسيلةً للاعتراض على هذا الاجتماع.»

«أي شائعات؟»

مال قليلاً، واقترب مني، وقال: «يعود أمر تلك الشائعات إلى بضع سنوات خلت عندما كنا نبحث عن رئيس جديد لمتحف المتروبوليتان.» لقد كان السيّد مورغان يترأّس مجلس إدارة متحف المتروبوليتان للفنون، ويشارك في صنع القرار الرئيسي فيه. «واقترح اسم بيرنسون، لكن كان هناك بعض الشائعات بشأن علاقاته مع أحد المزوّرين للتحف. وبحلول الوقت، الذي تم فيه دحض تلك الادعاءات التي كانت باطلة إلى حدّ كبير، كان القرار بشأن اختيار المدير قد تمّ اتخاذه بالفعل. وربما هذا يفسّر سبب انتقاد بيرنسون لعدد قليل من مشترياتي، وأساساً أعمال رافائيل على وجه الخصوص. لكنّني

أحاول تجاهل كلّ ذلك اليوم من أجل عيون آن»، ثم أضاف: «على أي حال، لم يكن بيرنسون لينجح أبداً رئيساً لمتحف الميتروبوليتان.«

«لماذا؟»

ارتفع حاجباه وتجعّد جبينه وقال: «لأنّه يهودي»، وبصق بنبرة سبق أن سمعتها منه من قبل، وأضاف: «أو يشاع عنه أنّه واحد منهم على أيّ حال، على الرغم من أنّ بيرنسون لا يدّعي ذلك.»

تنهّدت في داخلي، فمعاداة السامية كانت ظاهرة متفشّية مثل العنصرية الممارسة ضدّ أصحاب البشرة الملوّنة في هذه البلاد.

تصاعدت حدّة الأصوات ورافقتها قعقعة الخطا في البهو، وسمعت صوت امرأة ينادي السيّد مورغان، لكنّه لم يستجب. في الأخير، دخل رجل إلى المكتب، واعتذر عن مقاطعتنا. لقد كان رجلاً نحيلاً وسيماً معتدل الطول، صاحب عينين رماديتين مائلتين إلى الخضرة تحجبهما نظّارات طبّية دائرية صغيرة، وكان له شارب ولحية كستنائيّة. لقد كنت مندهشة من عاطفة لم يكن في وسعي تفسيرها جعلتني أشعر بالألفة تجاهه بمجرّد أن رأيته. اختفى ذلك الشعور بمجرّد دخول امرأة مبتسمة، فتشتّت تفكيري. لقد كانت أضخم من الرجل، لكنّها بذكائه نفسه وطابعه الفضولي نفسه.

نهض السيّد مورغان، وقام بخطوة صغيرة نحوهما، وقال: «اسمح لي يا سيّد بيرنسون وحرمك بتقديم أمينة مكتبتي الشخصية: الآنسة بيل دا كوستا غرين. لقد عادت لتوها من رحلة مظفّرة قامت بها إلى لندن؛ حيث سلبت من أحد المخابئ نسخ الكاكستون التي لا تقدر بثمن، ونزعتها بالرغم من أنف اللورد أمهيرست نفسه.» لقد كان تعبيره يشبه شعور فخر الوالدين بأحد أبنائهما، فشعرت بمدى تأرجح علاقتنا بعنف في غضون بضع دقائق.

حيّتني السيّدة بيرنسون أوّلاً، ثم تبعها زوجها في إلقاء التحيّة، فصافح يدي وقال: «إنّه لمن دواعي سروري حقاً معرفتك يا آنسة غرين. لقد سمعنا

حكايات عن فطنتك بالمخطوطات، ومهاراتك الهائلة بوصفك مفاوضاً حتى عبر المحيط الأطلسي.»

أجبته: «شهرتك سبقتك أيضاً يا سيّد بيرنسون.» لقد كنت مسرورة بلقاء أحد المؤلفين المفضّلين لديّ.

تدخّلت السيّدة بيرنسون قبل أن يتمكّن زوجها من الردّ، وقالت: «أوه. لقد حقّق برنارد خبرة واسعة في فنّ عصر النهضة على جانبي المحيط الأطلسي. إنّه متواضع للغاية، وهذا ما يمنعه من وصف نجاحاته ومؤهلاته، لكنّني مسرورة دائماً بمشاركة هذه المعلومات مع الجميع.»

يبدو أنّها تمرّنت جيّداً على الإدلاء بتلك التصريحات، وهذا ما جعلني أتعجّب مما إذا كانت تلك هي طريقتهما المعتادة التي تتصنّع التواضع زوراً للتعريف بتميّز السيّد بيرنسون أثناء المحادثات. لقد بدت كما لو أنّها كانت شريكاً تجارياً أكثر من كونها زوجته، فقلت: «كلّي تفهّم يا سيّدتي، لكنّ الشهرة التي ذكرتِها ليست هي الشهرة نفسها التي أشير إليها. لقد تعرّفت بالفعل إلى براعة السيّد بيرنسون حين أهدى إلي والدي كتابه الأوّل عندما كنت فتاة صغيرة.»

فقال بلا تكلّف، وقد بدت عليه علامات الدهشة: «هل طالعتِ فعلاً كتابي عن الفنّ في مدينة البندقية عندما كنت فتاة صغيرة؟»

«بلى، لقد طالعته بالفعل.»

«حسناً، على الرغم من أنّ ذلك يجعلني أشعر بالشيخوخة»، ثم قهقه وأضاف: «إنّه مثير للإعجاب يا آنسة غرين، فما دوّنته في ذلك الكتاب من نظريات وملاحظات معقّد إلى حدّ ما مقارنة بسنّك حينها.»

تجاهلت ملاحظته وقلت: «ماذا يمكنني أن أقول؟ ربما أكون قد نضجت باكراً.»

ابتسمنا أحدنا للآخر، ثم أخذ يحدّق فيّ، وتبادلنا النظرات، ولوهلة بدا الأمر كما لو أنّنا كنّا وحدنا، إلى أن تنحنح السيّد مورغان، فأبعدت نظري عنه. لقد شعرت بالحرج من السماح لعينيّ بالبقاء محدّقة في رجل متزوّج بحضور زوجته. يا لها من فضيحة. ستشعر ماما بالعار مما اقترفت!

خيّم الصمت المحرج إلى حدٍّ ما على القاعة، ووجدت نفسي مجبرة على تغيير فحوى المحادثة، فضحكت وقلت: «حسناً يا سيّد بيرنسون، يبدو أنّ ما وقع لا يعتبر بالتعرّف الدقيق بك؛ فمن الظاهر أنّني أعرفك منذ أن كنت في العاشرة من عمري.»

الفصل السابع عشر

22 كانون الأول/ديسمبر 1908

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

دقّقت النظر في جميع أنحاء الغرفة، وأنا أفكّر في مقدار المتعة التي ستغمر أختي تيدي، عندما سأقاسمها جميع تفاصيل العلاقة الغرامية، التي حدثت لي أثناء الحفلة الحمراء. من تراه يستطيع أن يحلم بأمسية كاملة مخصّصة للون الأحمر!؟ ترتدي أثناءها النساء فساتين متقنة بمختلف الألوان المتفرّعة من اللون الأحمر: اللون القرمزي، ولون الزنجفر، والكستنائي الداكن، والمرجاني، والزهري، وحتى الوردي الشفاف. وكنت أنا من بينهنّ أرتدي ثوباً كرزياً استثنائياً اشتريته في لندن. لقد جعلني ذلك الفستان أشعر بأنّني فاتنة بتصميمه الواسع على مستوى الخصر، وصدريته الملفوفة، وخط عنقه التربيعي، بكل ما فيه من حواشٍ شدّت انتباه كلّ الحاضرين.

لقد افترضت، عندما تلقيت الدعوة لأوّل مرّة من تاجر الأعمال الفنّية الشهير السيّد جوزيف دوفين وزوجته، أنّ اللون الأحمر سيقتصر على ملابس النساء فحسب، لكن كم كنت مخطئة! لقد كان كلّ شيء في القاعة باللون الأحمر ابتداء من السجاجيد إلى خلفية الجدران الحريرية الحديثة، إلى الأثاث، وصولاً إلى أواني الخزف، والزهور، والطعام، حتى اللوحات المعلّقة على جدران الجرانيت الدمشقي كانت تتميز باللون الأحمر الأساسي.

تمنيت لو كان السيّد مورغان إلى جانبي، لكننا ضحكنا معاً من فرط استخدام اللون الأحمر، بقدر ما سنضحك أحياناً على طبقات الزنجفر، التي كانت تزيّن مكتبه. لكن، بالرغم من أنّني كنت أتمنى أن أكون معه، شعرت بأنّني لم أعد بحاجة إلى حضوره أو حضور أيّ مرافق آخر؛ فأنا أمتلك الآن كوادر من معارفي، الذين يمكنني التواصل معهم، ويجب عليّ أن أختلط بهم؛ وهم أعدائي، كما يرغب في تسميتهم السيّد مورغان حين يشير إليهم.

لقد لوّح لي آرتشر هنتنغتون ووالدته أرابيلا بيدهما حين كنت أشقّ طريقي في محيط حلبة الرقص إلى جانب المرأة الثرية الرائعة أرملة رجل الصناعة الأمريكية الشهير كوليس هنتنغتون، الذي كان رائداً في مجال خطوط السكك الحديد الغربية. كنت أتحرّك فأترك العديد من الضيوف يحدّقون ويهمسون في أعقابي. لم يكن الضيوف يدركون أنّني كنت أراهم أو أسمعهم، لكن من المستحيل عدم الشعور بفضولهم، وأحياناً حتى الشعور بازدرائهم. ولو كان ذلك حدث منذ عامين لجعلني ألقي نظرة خاطفة خلفي أو أتساءل عمّا كانوا يتساءلون: هل كانوا يتهامسون على لون بشرتي أو غرابة ملابسي؟

مازلت أشعر بذلك الشعور نفسه الليلة، لكنّ ما تغيّر هو أنّني لم أعد أبالي، فبمساعدة مجلّات أختي تيدي، وبفضل تطوّر ذوقي في مجال الموضة، وبفضل ميزانيتي الهائلة المخصّصة للملابس، التي أحصل عليها من راتبي المتنامي، صرت أرتدي ملابس جيّدة مثل أيٍّ من هؤلاء الطواويس، بذوق فريد من نوعه في مجال الأزياء. أمّا فيما يخصّ لون بشرتي، فلقد أصبحت أشعر الآن بأكثر ثقة بأنّ سرّي آمن، خاصة بعد ذلك الخوف الذي اعتراني أثناء سوء الفهم الذي وقع لي سابقاً في المكتب مع السيّد مورغان. إنّه يعتقد أنّني بيضاء، لذلك لا داعي لاهتمامي بتخمينات الآخرين، فلا أحد منهم سيجرؤ على نطق كلمة تعبّر عن شكوكه، والمخاطرة بغضب السيّد مورغان. ابنته آن فحسب تجرّأت على تحدّي أحكامه، لكنّني لم أعد أخشى ادعاءات

آن في الآونة الأخيرة؛ لأنّها، في نهاية المطاف، امرأة ولها أسرار، ومثلي تماماً يجب أن تكون حذرة، وكما يقول المثل: الذي بيته من زجاج لا يرمي الناس بالحجارة.

خاطبتني السيّدة هنتنغتون عندما اقتربت منها ومن ابنها آرتشر: «كيف حالك يا بيل؟» السيّدة هنتنغتون هذه توصف أحياناً بأنّها أغنى امرأة في الولايات المتّحدة الأمريكية، وهي مهووسة بجمع اللوحات الفنّية، والتحف، والكتب النادرة، والمجوهرات. وغالباً كنت أواجه ممثّليها في منافسة شرسة فوق أرضية مبنى المزاد العلني، لكنّنا تمكّنا من التخلّص من ذلك النهج القتالي المتبع حين نكون في البيئات الاجتماعية.

قلّة قليلة منهم كانوا على دراية بالفنّ مثل تلك المرأة، التي لا تزال جميلة في منتصف العمر. لقد كنت أستمتع بتبادل أطراف الحديث معها عن الشائعات التي كانت تهمّ عالم الفن، وكنّا نحترم إحدانا الأخرى إلى درجة لا توصف.

ثم سألتني بسخرية: «هل تصدّقين كلّ هذا البذخ والإسراف في اللون القرمزي؟» لقد كان احتقارها للمشهد غريباً ومثيراً للفضول؛ لأنّ ثوبها المزيّن كان يحتوي على الألوان الحمراء أكثر من أيّ شخص آخر، بالإضافة إلى أنّها كانت مغمورة بالياقوت من أذنيها إلى رقبتها إلى معصميها، ناهيك عن أن بدلة ابنها كانت حمراء قانية مثل دم الثور.

ثم أضافت: «في أيامي، لم تكن هناك حاجة إلى كلّ هذا البهرج؛ فالناس كانوا يعرفون قيمة كلٍ منهم من دون ضرورة للاستعراض.»

أضفتُ: «أو ضرورة استعراض كلّ ذلك الفنّ المعلّق على جدرانهم والمعروض على رفوف خزائنهم.»

«بالضبط!» وأشارت بإيماءة تأكيد لتعبّر عن أنّها تشاطرني الرأي، وقالت: «أظنّ أنّ السيّد مورغان ربّ عملك يفهم ذلك.»

«إنّه مستوعب لذلك بالفعل.»

ثم حوّلت مجرى دردشتنا للحديث عن شائعة سمعتها عن مضيفنا وشقيقه هنري، صاحبي شركة الأخوين دوفين، وهما من أقوى تجّار الفنّ العدوانيين، الذين لديهم مكاتب في مدن مثل نيويورك ولندن وباريس. يبدو أنّ تلك الشائعة قد انتشرت كالنار في الهشيم في جميع مآدب الشاي التي كانت تقام بين السيّدات، وهي تتحدّث عن التزوير المحتمل الذي أقدم عليه الأخوان دوفين أثناء بيعهما مجموعة كتب للسيّدة هنتنغتون لإحدى الأرامل.

ولما كانت خطّتي تقوم على مواصلة المشاركة في أعمال تجارية مع الأخوين دوفين، كان من الضروري عليّ توخي الحذر من أيّ غش محتمل؛ لذلك صرت أبحث عن السيّد بيرنسون، وهو بدوره كان منغمساً في محادثة مع السيّد جوزيف دوفين.

لم أدرك إلا الآن أنّني لم أبحث عن السيّد بيرنسون منذ أن وصل إلى نيويورك على أمل أنّه سيحضر تلك الحفلة. وبمجرّد وصوله بدا مختلفاً عما كان عليه خلال آخر لقاء قصير جمعنا في مكتبة بيربونت مورغان؛ فهناك بدا لي مألوفاً وذكيّاً، بمنزلة زميل محب للفنّ وجامع للتحف، حتى وإن كان متواضعاً بطريقة ما بالقرب من السيّد مورغان. أما هنا فبدا وجهه مشرقاً بحيويّة تميّزه عن غيره حتى في غمار هذا البحر الذي تطغى عليه الألوان القرمزية. لقد كان هو الشخص الوحيد، الذي يرتدي بدلة سهرة تقليدية بالأبيض والأسود، فقط قطعة حرير حمراء كانت تزيّن الجيب الصغير الخارجي لسترته في إشارة إلى علاقتها بموضوع حفلة ذلك المساء. وهو لم يكن بالرجل الأطول في القاعة، ولا أكثرهم وسامة، لكنّ شيئاً ما فيه كان ساحراً فأسرني. فهل يمكن أن يكون لكلّ أيام الطفولة، التي قضيتها برفقة كلماته التي وُضعت ببلاغة على صفحات كتابه الفنّي، دور في هيامي به؟

على الرغم من أنّني عدت لأركّز انتباهي على السيّدة هنتنغتون، بقيت أشاهد السيّد بيرنسون، ولم يغب عن مجال رؤيتي. لقد كان يقف مع السيّد دوفين على مقربة مني، ويكادان يومئان أحدهما في وجه الآخر. أما السيّدة بيرنسون، فكانت تميل إلى النظر بعيداً عنهما، وإن كانت قريبة من الرجلين، وتقوم بكلّ جهودها للاستماع.

لقد كنت أشعر بالفضول بشأن الزوجين بيرنسون منذ اللحظة التي التقينا فيها، حتى خلال الأيام القليلة الماضية، فجمعت القليل من المعلومات عنهما. لقد تزوجا لمدة ثماني سنوات، منذ وفاة أوّل زوج للسيّدة بيرنسون، على الرغم من أنّها انفصلت عنه لسنوات، ولقد ترددت شائعات بأنّها كانت على علاقة غرامية مع برنارد بيرنسون طوال فترة ذلك الانفصال بأكملها، وهو ما وجدته مثيراً للاهتمام. أما في ما يتعلّق بالأبناء فلها ابنتان فقط من فرانك كوستيلو زوجها الأوّل. ولقد علمت أيضاً أنّ السيّد بيرنسون من براهمة بوسطن، ومن ألمع نخبها، وهو عالم في مجال الجماليات تلقى تعليمه في جامعة هارفارد، وهو ليس يهودياً كما ادعى السيّد مورغان؛ بل هو كاثوليكي روماني.

ثم قاطعت السيّدة هنتنغتون حبل أفكاري حين قالت: «أَلا يجدر بنا المشاركة في هذه الحفلة الحمراء؟» لقد كان هناك بريق من الرفض ممزوج بالفضول في عينيها. وكالعادة، أومأ ابنها برأسه، لكنّه لم يضف سوى القليل من الكلمات إلى محادثتنا.

ثم ابتعدنا عن بيرنسون ودوفين، واتجهنا إلى طاولة الطعام، التي كانت مصنوعة من خشب الجوز. لقد كانت هائلة؛ حيث يمكنها أن تضم أربعين شخصاً، وتحمل شتى أنواع الأكل الخارجة عن المألوف، التي كانت منتشرة أمامنا. ورغم ذلك، لم يكن لدي أي فكرة عما يجب تحديده؛ لأنّني لم أستطع تمييز طبق من الطبق التالي إلا بالشكل، حتى في تلك الحالة، لقد مثّل اختيار

الطعام تحدّياً بالنسبة إلي. كلّ شيء فوق الطاولة؛ من لحوم وخبز وخضروات وفواكه، تمّ صبغه باللون الأحمر.

بينما كنت أسمع السيّدة هنتنغتون، وهي تحاول أن تحزر الطبيعة الحقيقية للمواد الغذائية القرمزية، شعرت بشخص يقترب مني، فانتابتني رجفة، فأدركت هويّة الوافد الجديد حتى قبل أن التفت ليتأكّد لي من يكون: إنّه السيّد بيرنسون. لقد حيّاني وقال: «إنّه لمن دواعي سروري أن أراك مرّة أخرى يا آنسة غرين، وأحمد الله أنّ لقاءنا كان قريباً.»

لقد كان في عينيه بريق لامع رمادي تقريباً كان له تأثير عجيب عليّ، فشعرت بالانجذاب إلى نظرته، واستغرق الأمر مني وقتاً طويلاً لأنظر بعيداً عنه، وأجيب بالقدر نفسه من اللهجة المعقّدة التي بذلت جهداً كبيراً في تصنّعها: «سعيدة برؤيتك أيضاً يا سيّد بيرنسون.»

أنحني صوبي، فتأمّلت في ملامحه. لقد كان يرتدي بدلة أنيقة وفخمة. أما بقية السمات الأرستقراطية فكانت خلفية جيّدة للذكاء الثاقب المنعكس في عينيه. لقد وجدت مثل ذلك الاختلاف غريباً بحسب تجربتي المحدودة، نادراً ما يكون السادة الأرستقراطيون فضوليين للغاية؛ لأنّ نعومة حياتهم تضعف إمكانية وجود طبيعة أكاديمية عندهم. إلا السيّد مورغان، الذي كان ينتمي إلى طبقة النبلاء، فهو استثناء، وربما يكون السيّد بيرنسون هو كذلك استثناء.

وقال: «أنت تبدين جميلة في هذا المساء، فتصميم فستانك استثنائي ولافت للنظر على الرغم من بساطته»، ما جعل من ملاحظته الذكيّة عن الملابس تنمّ عن رجل استثنائي على الرغم من أنّني أفترض أنّ برنارد بيرنسون مشهور بعينه الثاقبة غير المألوفة. لقد سبق أن تلقيت الكثير من الإطراءات من العديد من الرجال، لكن لم يثر أيٌّ منها احمرار خديّ من الخجل بتلك الطريقة.

فقلت: «شكراً -يا سيّدي- على هذا الإطراء!»

أضاف: «لقد كان من دواعي سروري رؤيتك في بيئتك الطبيعية؛ أعني مكتبة بيربونت مورغان.» لقد رافقت كلامه ابتسامة لو صدرت عن رجل أعزب لقلت إنّه بصدد مغازلتي، لكنّه رجل متزوج، وزوجته موجودة في هذه القاعة نفسها، لذلك شعرت بالريبة من كيفية فهم أسلوبه أو كلماته، فحتى أكثر رجال المجتمع فسقاً كانوا يذعنون لقواعد الآداب غير المعلنة، فيتصرّفون بسلوك لائق أثناء وجود زوجاتهم.

قلت، وأنا أنصرف عن طاولة الأكل، وأبتعد عن السيّدة هنتنغتون وابنها: «لم يكن مؤكّداً لدي ما إذا كنت ستكون أنت، أو زوجتك بطبيعة الحال، هنا الليلة»، فتبعني السيّد بيرنسون إلى أن صرنا نقف معاً.

أومأ برأسه وقال: «نعم. نحن نحاول أن نأخذ فكرة عن أكثر المواقع السياحية عندما نكون في الولايات المتّحدة الأمريكية. هذه البلاد تعرض علينا الكثير منها. على سبيل المثال، هذا الاحتفال الجنوني ذو اللون الموحّد، الذي قد يجعلني أستحضر العديد من فنّاني عصر النهضة، الذين كانوا سيعشقون هذا العرض من أمثال ساندرو بوتيتشيلي، الذي كان يحبّ اللون القرمزي المشبع بعمق.» ابتسم كما لو أنّه استحضر ذكرى خاصة به، ثمّ سألني: «هل سبق أن رأيت استخدامه المبالغ للطلاء الأحمر في رسمه لوحة الربيع؟»

لقد كانت ابتسامته دافئة وجذّابة، ولم يسعني إلا الابتسام له، وتخيّل سيد عصر النهضة الأسطوري ساندرو بوتيتشيلي وهو يتبختر بيننا، يعبر القاعة محدّقاً في موكب تلك الحفلة الحمراء. لكن قبل أن أتمكّن من الردّ بأنّني لم أرَ أبداً لوحة بوتيتشيلي الشهيرة بأم عيني، أو الاعتراف له بأنّني لم أذهب إلى إيطاليا من قبل، قام السيّد بيرنسون بتغيير الموضوع، فقال: «لقد جمعت مكتبة بيربونت مورغان مجموعة رائعة من المخطوطات.»

فقلت باحترام اجتماعي مفترض لم أشعر به حقاً: «لقد كان شرفاً لي أن أواصل ما بدأه السيّد مورغان.» بالفعل لقد كنت أعرف القيمة التي أضفتها إلى مجموعة المكتبة.

«أنت لم تعطي نفسكِ ما تستحقينه من اعتبار، وأنا على دراية بالطريقة المبعثرة التي جمع بها راعيك الكتب والمخطوطات قبل أن تصبحي أمينة لمكتبته الشخصية، فأنا سبق لي أن رأيت إنجيل غوتنبرغ مرمياً في مكان، بينما تمّ رمي كتاب إليزابيث باريت براوننج الشهير في مكان آخر. لولا تدخّلك في ترتيب تلك المجلّدات المتباينة وتوسعتها إلى أن أصبحت مجموعة هائلة لديها القدرة على منافسة أفضل المتاحف.» أومأ برأسه كما لو أنّ إعلانه أصبح حقيقة، وأضاف: «إنّ ما قمت به مثير للإعجاب حقاً يا آنسة غرين.»

لا بد من أنّ خديّ قد أصبحا باللون نفسه لأطراف الفساتين التي كانت متطايرة تحلّق في فضاء الرقص المخصّص بتلك القاعة. وحمرتها المثيرة ليست بدافع الخجل من مدحه الذي كان على عكس المجاملات السطحية المعتادة التي كنت أتلقاها يومياً؛ فبرنارد بيرنسون هو الرجل الذي أعاد عملياً الاهتمام الحالي من قبل جامعي التحف والمتاحف على حدّ سواء بالأعمال الفنّية الإيطالية. لقد كانت كلماته عبارات عن الثناء المستحق.

فقلت له: «آمل أن أكون قد أنصفت الكنوز الموجودة تحت رعايتي.»

ضحك وقال: «لا حاجة لك إلى التعبير عن التواضع الزائف معي يا آنسة غرين. لقد فعلت أكثر بكثير من مجرّد إنصاف المجلّدات التي اكتسبتها، وتلك التي ورثتها في دورك بوصفك أمينة مكتبة. لقد وحّدتها كي تخبرنا قصّةً متماسكة عن أهمّية الكلمة المكتوبة؛ فشراؤك نسخَ كاكستون كان عملاً عبقرياً. حين أتذكّر أيامي شاباً في مكتبة بوسطن العمومية، ولحظات الاندهاش من آلاف المجلّدات التي كانت موجودة تحت تصرّفي، وأتخيّل كيف يمكن لتلك الكتب أن تغيّر حياتي، أعلم أنّ أياً من ذلك لم يكن

ممكناً من دون طابعات مثل تلك التي اخترعها كاكستون، الذي جعل الكلمة المكتوبة متاحة للجماهير. ومجموعة كتب مورغان، التي هي تحت رعايتك، ستحكي تلك القصّة.»

لقد تأثّرت بفهمه العميق لما كنت أحاول إكماله، ولاسيما أنّ كلماته ولهجته ورسالته في تلك اللحظة بدت مثل كلمات والدي؛ إنّه فهمٌ لطبيعة عملي الذي لم أسمع أيّ شخص يعبّر عنه من دون استثناء، بمن فيهم السيّد مورغان، فشعرت بأنّني أصبحت مرئية للعالم. لقد خفّفت مشاعره من وطأة انتقادات ربّ عملي، التي كانت مضمّنة في مجاملات السيّد بيرنسون، وهي بيانات وجدتها غريبة؛ لأنّها ستخدمه بشكل جيّد لكسب ودّ السيّد مورغان.

ثمّ أومأ برأسه في إشارة تقدير لي، وزاد من خشونة صوته وهدوئه، واستأنف كلامه، وقال: «إنّ السيّد مورغان محظوظ لوجودك إلى جانبه. ولكن يجب أن يتأكّد لك أنّه لن يقف في طريقك حين ترغبين في تحويل مجموعة الكتب إلى تحفة علمية لديها سرد نقدي تودّ إبلاغه ليس للخبراء فحسب، بل للإنسان العادي أيضاً إذا كانت متاحة لهم. أنا أكره أن أراه يعرقلك مع الكتب مثلما فعل مع اللوحات.»

مهما كان مدح السيّد بيرنسون لي، لم يعد في إمكاني تجاهل نقده للسيّد مورغان؛ لقد كان نقداً لاذعاً للغاية؛ فأنا والسيّد مورغان اقتربنا أحدنا من الآخر خلال الأشهر القليلة الماضية، ولا يمكنني تحمّل إدانته بأيّ شكل من الأشكال. فأنا، في نهاية المطاف، حامية المكتبة، ما يعني أنّه يتعيّن عليّ حمايته أيضاً، فقلت: «ماذا تقصد يا سيّد بيرنسون؟» لقد كان صوتي قاسياً وبارداً مثل الثلج، واختفى أيّ تدفق للدفء المتبقي على خديّ من مديح السيّد بيرنسون لي.

وفي تفاعل مع ردّ فعلي على سجّل كلماته، قال: «لم أقصد الإساءة، فالمكتبة لديها بالتأكيد روائعها.»

«نعم، إنّها كذلك، ولا يمكن إنكار إشعاع لوحة مادونا والطفل لفرانشيسكو فرانسيا.»

«هذا صحيح، ولا مجال للشك فيه. لكن ماذا عن لوحة العذراء والطفل لبراتوفيكيو؟ لقد اختلف المنظور، وغابت عنه الخبرة نفسها التي تتمتّع بها لوحات عصر النهضة الأخرى. فمن وجهة نظرك يمكن أن يتأكد لك أنَ الأعمال الفنّية الموجودة في المكتبة هي في تناغم مع جدران وديكور السيّد مورغان المستوحى من عصر النهضة. وأنا أحب أن أرى بيروجينو أو بوتيتشيلي على تلك الجدران الحمراء، لكي تتطابق اللوحات مع جودة مجموعة الكتب التي جمعتها. فأنت تستحقين أن تكوني محاطة بفنّ مساوٍ لموهبتك»، ثم توقّف للحظة وأضاف: «ومساوٍ أيضاً لجمالك.»

لقد حيّرني خطاب السيّد بيرنسون الصريح؛ فمعظم خبراء عالم الفنّ يتحدّثون عن السيّد مورغان بلهجة إجلال وتقدير. ولمّا كان عمل السيّد بيرنسون يرتكز، في جزء كبير منه، على تقديم المشورة بشأن مقتنيات الأثرياء من جامعي التحف، أتخيّل أنّه سيكون لزاماً عليه إقامة علاقة مع السيّد مورغان، لكنّ تعليقاته بشأن المكتبة كانت عبارة عن مدح موجّه إلي وحدي؛ أَتراه كان يتودّد إلى مورغان من خلال مدحه لخبرتي، أم أنّه كان يفترض أنّه لن يعمل لمصلحة مورغان بسبب علاقته مع السيّدة غاردنر، ومن ثم هو يحاول مغازلتي فحسب؟ بغض النظر عن دوافع السيّد بيرنسون، لقد كان محقّاً بشأن لوحات المكتبة، رغم أنّني لن أعترف له بذلك، ولن أصرّح له به بصوت عالٍ، فطالما وجدت نفسي أحمل أفكاراً مشابهة لتلك التي يتبناها. وبطريقة ما شعرت بالحياة في حضوره كما لو أنّ كل الأشياء كانت ممكنة.

تابع حديثه قائلاً: «كيف يمكن لي أن أرحّب بفرصة القيام بجولة معك في ريف إيطاليا لأظهر لك روائع عصر النهضة الحقيقية على عين المكان-.»

ثم ظهرت السيّدة بيرنسون في اللحظة التي بدأتُ فيها أتخيّل نفسي أتجوّل في الريف الإيطالي ويدي في يد زوجها. وبرز وجهها ذو الذقن الطويل مكشوفاً، وفيه علامات الحماسة. يبدو أنّها كانت مسرورة برؤيتي، وهو ما جعلني أشعر بالاستياء تجاه المشهد الذي تصوّرته للتو. لقد كانت ترتدي فستاناً أحمر مثل لون الكرز بتصميم أنيق فيه ياقات عالية وأكمام طويلة، فكان متواضعاً ومن شأنه أن يحظى بموافقة ماما.

وقالت: «يا لها من سعادة أن أتعرّف إليك مرّتين في غضون أسبوع واحد يا آنسة غرين.» لقد كانت بخصرها البدين وصوتها الأجشّ النقيض التام لزوجها النحيف ذي العظام الناتئة.

ابتسمت وقلت لها بلطف: «نعم. إنّها فرصة سعيدة بالتأكيد. لقد سمعت من الآنسة مورغان أنّ محاضرتك في نادي كولوني حول اللوحات الفلورنسية كانت بارعة؛ إنّها معجبة جدّاً بك.»

بالفعل كنت قد سمعت شيئاً من هذا القبيل من آن مباشرة. لقد حدث ذلك في المكتبة أمس؛ حيث تصرّفت آن كما لو أنّني كنت غير مرئية إلى جانبها؛ ثم وقفت بجواري مباشرة، لكنّها لم تتحدّث إلا مع السيّد مورغان. ورغم ذلك، سمعتها وعلمت أنّها معجبة جدّاً بالسيّدة بيرنسون، إلى درجة أنّها تكهّنت أنّ السيّدة بيرنسون هي من كتبت كلّ الكتب الفنّية الشهيرة لزوجها، وليس هو من قام بذلك.

ردّت بخجل: «أشكرك على هذا الإطراء. لقد وحّد معظم الناس في نيويورك كلّ جهودهم للترحيب بنا، ونحن سنقدّر ذلك ما حيينا. أنا وبرنارد ننحدر في الأصل من مدينة بوسطن، على الرغم من أنّنا نعيش الآن في إيطاليا، ورغم ذلك لم نتوقّع مثل هذا الاستقبال الحار، ومثل هذه المأدبة. وكما يبدو، إنّنا بصدد مسايرة الموضة في الوقت الراهن، ونحتفل مثل باقي الضيوف.»

رفعت كأس خمر بورجوندي كنت قد تناولته من نادل عابر، وقلت: «نخب هذه اللحظة»، وقرعنا كؤوسنا، وعمتنا الابتسامات وشعور الحماسة. بعد احتساء رشفة من الخمر، قالت السيّدة بيرنسون: «لقد تشرّفنا بأن قدّم لنا السيّد مورغان نسخاً من كتالوجات مجموعته.»

لقد كنت مندهشة عند سماع ذلك، فكتالوجاته، التي تحتوي على تفاصيل مخطوطاته وأعماله الفنّية، ومصدرها ومصادر العديد من النسخ منها، مطلوبة للغاية ونادراً ما يتم توزيعها على العموم، كما هو الحال مع جميع جامعي التحف المشهورين الذين يفضّلون الحفاظ على خصوصية تفاصيل مجموعاتهم، فقلت من دون أن أصرّح بوقع مفاجأتي: «من الواضح أنّه يقدّر رأيكما وكفاءتكما العلمية.»

ردّ السيّد بيرنسون: «وهو يقدّر كفاءتك أيضاً، وأنا أستوعب السبب.»

كان يتعيّن عليّ إبقاء عيني على السيّدة بيرنسون؛ لأنَّ كلمات زوجها ونظراته كانت تحرجني. لكنّني قلت: «لقد عملت بجدّ لإثبات قيمتي له.»

فقال السيّد بيرنسون: «حسناً، نأمل أن نكون في خدمتكم بأيّ طريقة ممكنة، وأن نثبت قيمتنا للسيّد مورغان ولك.»

أومأت برأسي له ولزوجته، وقلت: «سأوصي السيّد مورغان بالاعتماد عليكما.» لقد جعلتني الاختلافات في تصريحاتهما بشأن السيّد مورغان أتساءل عمّا إذا كان لهما منحى التفكير نفسه والتصوّر عنه نفسه.

فقالت السيّدة بيرنسون: «سيكون ذلك عملاً جميلاً منك.» ثم ابتسمت لي، وغيّرت الموضوع: «هل سنراك في مأدبة العشاء التي ستقيمها السيّدة دي أكوستا ليديج في الأسبوع القادم؟»

فأجبتها: «يؤسفني أن أعلمك أنّني لن أحظر تلك المأدبة، وذلك يعود إلى نداءات واجب العمل.» لكن في الحقيقة لم يكن للعمل أيّ علاقة بغيابي المبرمج عن تلك الوليمة.

وريتا دي أكوستا ليديج هي امرأة متزوّجة من مصرفي ومضارب في بورصة وول ستريت، وهي جزء ثابت من مجتمع مدينة نيويورك، رغم حقيقة أنّ والديها من إسبانيا. ربما جعلتها تلك الحقيقة، حين تقرن بـ«جمالها الغريب»، منبوذة اجتماعياً، باستثناء أنّ نسبها الإسباني له روابط أرستقراطية. لقد كنت أتجنّب السيّدة دي أكوستا ليديج كلّما أمكن لي ذلك، ولا أحضر أبداً أياً من حفلاتها أو مآدبها، على الرغم من أنّني كنت مدعوّة دائماً. ببساطة لا يمكن لي أن أقف إلى جانبها بالنظر إلى أوجه الشبه بيننا، فكلتانا تحمل اللقب العائلي نفسه، وسمرة البشرة نفسها، وهو تشابه عميق يمكن أن يكشفني؛ لأنّه سيضعف من روابطي العائلية النبيلة، وأنا لا يمكنني إعطاء أولئك الذين يتساءلون عن أصلي المزيد من المواد.

قامت السيّدة بيرنسون بإيماءة من التفهّم المتعاطف معي، وقالت: «لقد تأكد لي أنّ السيّد مورغان ليس رئيساً سهلاً، ولا بد من أنّك تعانين من ضغط كبير في وقت عملك، وتعانين أيضاً من كثرة الطلبات.»

لقد انزعجت من إدانتها الضمنية مثلما انزعجت في السابق من تعليق السيّد بيرنسون بشأن السيّد مورغان، فقلت: «إنّه لشرف لي أن أعمل لدى السيّد مورغان، والمطالب التي يحتاج إليها هي تلك التي يسعدني الوفاء بها.»

أحسّت السيّدة بيرنسون بزلّتها، وحاولت تعديل تعليقها، فقالت: «أوه. أنا لم أقصد ذلك-.» بدأت تفسير ما تعنيه، لكن قبل أن تتمكّن من الانتهاء من تصريحها، قاطعتها امرأة كانت ترتدي فستاناً أحمر مثل لون الدماء.

ثم أخذت تلك المرأة تتطلّع إلى وجوه ثلاثتنا، ثم استقرّت عيناها على برنارد، وقالت: «عفواً. هل تمانع لو أخذت لحظة من وقت زوجتك؟ هناك شخص ما يجب أن أقدّمه لماري.»

ثم سحبت تلك المرأة معها السيّدة بيرنسون بعيداً، وتُركتُ وحدي مع السيّد بيرنسون. وقبل أن أتمكّن من تحديد ما سأقوله، وما إذا كنت سأعود إلى موضوع المحادثة المهمّة، التي أجريناها قبل وصول زوجته، ابتسم لي ومدّ إلي يده وقال: «هلّا قمنا بجولة في أرجاء القاعة مثل ما قام به موسى أثناء طوافه حول البحر الأحمر؟»

لقد جعلني عرضه أضحك، فوضعت كأسي فوق الطاولة، وأمسكت ذراعه، وبمجرّد أن لامست يدي ذراعه شعرت بشحنة عصفت بكلّ كياني.

فقال: «أَلا ترين كيف ينظر الجميع إليك؟ أنت امرأة استثنائية مثل التحف الفنّية التي اقتنيتها.» لا أدري إن كان قد فعل ذلك عن قصد أو عن غير قصد، إلا أنّ شفتيه كانتا قريبتين جدّاً من أذني، إلى درجة أنّني شعرت بدفء أنفاسه. وعندما التفتّ إليه شعرت بأنّ ما قام به كان حميمياً للغاية، وربما ذلك يعود إلى طول قامته، أو ربما بسبب اقتراب وجهينا.

لقد سبق لي أن تعلّمت مغازلة الرجال بسهولة ويسر، لكن ردّ فعلي الغريزي والفكري تجاه ذلك الرجل سلب منّي روح دعابتي المعتادة. فهل ذلك يعود إلى أنّني لأوّل مرّة في حياتي أشعر بأنّ شخصاً ما يفهمني؟ لقد بدا الأمر كما لو أنّني كنت عارية أمامه، من دون درع الذكاء والفكاهة، الذي كان يقيني عادةً في مثل تلك المناسبات، وهو ما جعلني لا أسمح لنفسي بالتراجع، لكنّني حاولت فرض السيطرة على محادثتنا الحميمة، وتوجيهها مجدّداً إلى مسارها العادي، فقلت: «لقد تأكد لي أنّ عيونهم مسلّطة عليك لا عليّ؛ فأنت قادم من إيطاليا، وتُعدّ عنصراً جديداً دخيلاً على هذه المجموعة المعزولة؛ فهل لديكم مثل هذه الحفلات في بوسطن، أو إيطاليا؟»

ضحك، ولم أدرِ إن كان ضحكه رداً على تغييري للموضوع أو هو جواب عن سؤالي الفعلي، ثم قال: «أوه، لا. إنّ المحافل الاجتماعية في بوسطن هي شؤون تمتاز بالحكمة، حتى في المنزل الرائع لربّة عملي، السيّدة إيزابيلا

ستيوارت غاردنر، وحتى في إيطاليا، إنّ تقاليدها وطقوسها غنّية جداً بالتاريخ لاحتضان حدث مثل هذه الحفلات.»

شعرت بالهدوء أكثر الآن، بعد أن نجحت في تحويل وجهة محادثتنا إلى فضاء أكثر أماناً، فسألته: «وما رأيك في هذا الحفل؟» لقد كنت أفترض أنّه بالنظر إلى ذوقه الحصيف وعينه الثاقبة، سيجد ذلك العرض الحي نوعاً من الغباء.

جالت عيناه للحظة في المكان، فاعترضته الموجة الجريئة للون الأحمر من حولنا، فقال: «أنا أحبّ ذلك اللون جدّاً؛ إذ توجد نزعة تحرّرية في هذا اللباس الأحمر الموحّد. ألا تعتقدين ذلك؟ ألا ترين كمّ الحرّية الذي سيغمرنا لو كان بإمكاننا أن نكون جميعاً باللون نفسه.»

تمالكت أنفاسي وكتمتها في صدري، وقلت في داخلي: لماذا ربط كلّ ذلك بلون البشرة؟ هل يعرفُ ما أخفيه؟ ثمّ توقّفنا عن التحرّك، فعاد لينظر إليّ من جديد، وحاول أن يوضّح قائلاً: «أعني، ليس كلّ واحد منا يشترك في الظروف الاقتصادية نفسها، أو العرق الشريف المتجانس نفسه. ورغم ذلك، نحن هنا سواسية غارقون في اللون الأحمر، ومتشابهون جميعاً؛ لذلك أنا أرى أنّ هذه الحفلة عادلة وعظيمة.» سكت لبرهة. لقد كانت نبرة صوته حزينة تقريباً، ثم أضاف: «بسبب ذلك يمكنني أن أقول إنّ هذه الحفلة أعجبتني جدّاً.»

ثم بدأنا المشي مرّة أخرى، وأيدينا لا تزال مرتبطة بعضها ببعض، بينما أنا كنت أتساءل عمّا يمكن أن توحي به كلمات السيّد بيرنسون عنه، حين قال عبارة «عادلة.» لقد أخبرني عن أيام طفولته في مكتبة بوسطن العمومية، في إشارة واضحة إلى المرتبة الاقتصادية المتدنية لعائلته، وربما كان يلمح أيضاً إلى الوضع المالي الذي وُلد فيه، والذي كان ضحيّته في وسط اجتماعي يغلب عليه الثراء والإسراف. لقد كان بإمكاني بالتأكيد الوصول إلى إحساسه بكونه أجنبياً غريباً.

على الرغم من أنّه لم تكن مؤكّدة لي تماماً كيفية الردّ، شعرت بحاجة إلى السير بخفّة، وإلى عدم الكشف عن الكثير من الأشياء أثناء ردّي. وبمجرّد أن جهّزت إجابة مقبولة قلت: «ربما يُسحَق المرء دائماً أثناء وجود ثروة عظيمة.»

فقال: «نعم.» ثم نظر مباشرة إلى وجهي، وأضاف: «لكنّنا متساوون هنا، حتى لو دام ذلك للحظة.»

على الرغم من أنّنا كنا محاطين بالثرثرة والموسيقا، بقينا صامتين. لم أدرك ما يفكّر فيه، لكنّ فكرتي الوحيدة كانت تعلن الآتي: يجب أن أتعرّف إلى ذلك الرجل.

الفصل الثامن عشر

24 آذار/مارس 1909

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

«يا بيل!»

نهضت من مكتبي، فرأيت السيّد مورغان وهو يقف أمام العتبة.

«هل لديك أيّ برامج لهذا المساء؟»

ابتسمت للسيّد مورغان بالطريقة نفسها التي اعتدت أن أنتهجها حين يسألني ذلك السؤال المتكرّر مرّة على الأقل في الأسبوع الذي يزور فيه مدينة نيويورك. في الواقع، لم يكن سؤاله سوى مجرّد أمرٍ منه لمساعدته في تذكّر حدثٍ قد يكون نسيه، أو يتداخل مع خططه الخاصة للقاء إحدى عشيقاته. ووظيفتي هنا تقوم على التدخّل الفوري لنجدته.

«إلى أين تريدني أن أذهب يا سيّد مورغان؟»

«إلى الأوبرا.»

«أيّ تاجر فنّ أو جامع تحف تريدني أن أسامره؟»

تلك الأحداث هي عادةً أسئلة للحصول على معلومات حول العروض القادمة للتاجر، أو الخطط المستقبلية لجامعي التحف.

«راشيل كوستيلو»

لقد كنت أعرف صاحبة ذلك الاسم، وبمجرّد أن تلاشت ملامح ابتسامتي، صرخ السيّد مورغان فيّ وقال: «ما خطبك؟»

«لا أنا فقط متفاجئة. لقد افترضت أنّك تريدني أن ألتقي شخصاً له علاقة بالمكتبة.»

«وهو بالفعل ما أنا بصدد القيام به. فهل تعرفين من تكون؟»

تساءلت كيف سأجيبه عن هذا السؤال من دون الكشف عن الكثير ممّا أعرفه عنها؛ لذلك قلت ببساطة: «لم يسبق لي مقابلتها أبداً.»

«كان من المفترض أن تحضر آن الأوبرا معها الليلة؛ ففي نهاية المطاف الآنسة كوستيلو هي من معارفها، إلا أنّ آن أبلغتني للتو أنّ لديها التزاماً مهماً مع نادي كولوني»، ثم لوّح بيده في الهواء للإشارة إلى غضبه، كما لو أنّ خطط ابنته لم تكن تعنيه على الإطلاق.

«لذلك تريد مني أن أتدخل؟»

«نعم، فالآنسة كوستيلو هي ربيبة برنارد بيرنسون، وأنا بحاجة إلى بعض المعلومات عنها.»

كنت أعرف هويّة تلك الشابة، لكن لم أستطع الاعتراف بذلك. لقد كنت قلقة من أن تكشف معرفتي بها عن افتتاني ببرنارد.

ثم أضاف: «أريدك أن تعرفي ما إذا كانت تعلم أيّ شيء بخصوص المقتنيات القادمة لإيزابيلا ستيوارت غاردنر ربّة عمل زوج أمّها.»

هنا استوعبت الأمر، فكلّ شيء كان متعلّقاً بمنافسة بين غريمين؛ فالسيّد مورغان يريد أن يكون مؤكّداً له أنّ مجموعته الفنّية الخاصة لن يكون لها أيّ مثيل.

إنَّهُ لأمرٌ عجيب، فالسيّد مورغان هو من يمنحني الفرصة لمعرفة المزيد عن الرجل الذي كنت ألتقيه، وأدور في فلكه خلال الأشهر الثلاثة الماضية. أذكر

أنّني التقيته في عشاء خاص في مطعم ديلمونيكو، خلال استراحة قصيرة إثر عرض مسرح برودواي لمسرحيّة (الملك لير)، بمناسبة معرض هدسون فولتون للفنّ الهولندي في متحف المتروبوليتان. تبادلت حينها أطراف الحديث مع برنارد بيرنسون، كما تبادلنا النظرات الغرامية الخاطفة، والابتسامات الخفيّة. لم تكن مثل تلك اللقاءات، من وجهة نظر أيّ طرف خارجي، أكثر من مواعيد للمغازلة الانتهازية التي سبق أن مررت بها مع رجال عالم الفنّ خلال السنوات القليلة الماضية؛ فالمغازلة هي مجرّد وسيلة، ولا تمثّل لأيّ شخص أيّ شيء يُذكر، أو تثمر أي نتيجة باستثنائي في هذه المرّة.

وفي كلّ مرّة التقيت فيها بالسيّد بيرنسون، لم أتمكّن من فهم ماهية رغبتي. لقد كان بيرنسون يكبرني بما يناهز عقدين من الزمن، بالإضافة إلى كونه رجلاً متزوّجاً، وهو ما جعل جميع مغازلاتي ضرباً من العبث. ورغم ذلك كنت أتشوّق إلى قضاء المزيد من الوقت معه.

أَيمكن أن أكون منجذبة إلى سلوكه الغامض، أم أنّني منجذبة إلى المعنى الذي يوحي بأنّ كلينا لديه أسرار تجبره على العمل بشكل خفي، ولكن بسلاسة، في عالم ليس عالمنا؟ عالم مليء بالتعصّب والعنصرية. لكن لم تتح لي الفرصة لاكتشاف الإجابات؛ لأنّ طبيعة عمله كانت تأخذه بعيداً عن مدينة نيويورك لأسابيع؛ إلى مدن مثل بوسطن وبروفيدنس وفيلادلفيا، للتشاور بشأن مجموعات فنّية محترمة مثل مجموعة بيتر ويدنر. كنت أنتظر عودته على أحرّ من الجمر لكي يحقّق وعده لي بقضاء «أمسية خاصة.»

في غضون دقائق من لقاء الآنسة كوستيلو، أو راشيل مثلما كانت تودّ مني مناداتها، في بهو دار أوبرا المتروبوليتان، أثناء حضور المسرحية الغنائية (حلاق إشبيلية) أدركت أنّها لا تعرف شيئاً عن المسائل التجارية لزوج والدتها، إلا أنّ الشابة راشيل البالغة من العمر واحداً وعشرين عاماً كانت مسرورة بالثرثرة عن التزامها بحراك تمكين النساء من حقّ الاقتراع. خلال

الاستراحة، حدّثتني عن إنجازات الناشطات السياسيات حتى أثناء مواصلتهنّ النضال من أجل اكتساب الحق في التصويت. يبدو أنّها كانت مدافعة شرسة عن تلك الحركة السياسية، وهو ما جعلني أشعر بالتسلية حين قالت لي: «سيكون من الرائع جدّاً إذا حضرت أحد الاجتماعات معي، فأنت ستكونين ملهمة جدّاً لنا.»

«ليس مؤكَداً لي أنّني سأجرؤ على القيام بذلك، فأنا أشعر بالخجل من القول إنّني لا أعرف سوى القليل عن هذه الحركة السياسية.»

«لا بأس، فالحركة تعرف كلّ شيء عنك.»

لقد أدهشتني كلماتها، فقلت: «حقّاً!؟ هل تعلم الحركة كلّ شيء عني فعلاً!؟»

«أنا لا أعرف السبب الذي يجعلك مندهشة إلى هذه الدرجة. إنّ الأمر يعني أكثر بكثير من مجرّد الكفاح من أجل حقّنا في التصويت. كيف لا يسعنا ألا نعرفك؟ فوجودك جلي في جميع أنحاء المدينة، فأنت حاضرة في جميع حفلات الرقص والسهرات، بل تقومين أيضاً بأعمال مهمّة في عالم الفنّ. أنت تعيشين حياة مفعمة بالمساواة مع الرجل، وهذا ما نحن بصدد النضال من أجله، سواء أكان ذلك في عملك؛ مثل الأعمال التي تقومين بها، أم في حياتك الخاصة؛ مثل ما قامت به والدتي التي اختارت عدم الامتثال للقيود التقليدية لمؤسسة الزواج.»

سألتها، قبل أن أتمكّن من كبحِ نفسي، وعدم طلب المزيد من الشرح بخصوص موقف والدتها: «ماذا تعنين بذلك؟»

أخذت راشيل تشرح، فقالت: « إنّ أمي امرأة سابقة لعصرها، فهي تقدّمية في مواقفها تجاه العمل؛ لأنّها تتولى إدارة المشاريع إلى جانب برنارد، وهي تحمل فكراً تقدّمياً في ما يتعلّق بمواقفها من العلاقات العاطفية؛ فهي وبرنارد يحبّان أحدهما الآخر، لكنّهما أحرار في القيام بعلاقات رومانسية أخرى؛

إنّها لا تعتقد أنّه يجب إعاقة الناس من خلال المفاهيم والأحكام المسبقة. ألا ترين أنّ زواجهما متحضّر للغاية؟» لقد طرحت ذلك السؤال، ولوّحت لي بابتسامة.

حين أومضت مصابيح فضاء دار الأوبرا من جديد للإعلان عن انقضاء فترة الراحة، واقتراب البدء في الفصول الأخرى من المسرحية الغنائية، ومن ثَمَّ ضرورة عودتنا إلى مقاعدنا، شعرت بالارتياح. لقد كنت أحتاج إلى أن أكون وحدي مع أفكاري. وبحلول الوقت، الذي وصلت فيه الأوبرا الغنائية إلى نهايتها، بدأت أدرك ما كان يعنيه تلميح راشيل لي.

الزواج لم يكن شيئاً أضعه في اعتباراتي، فطالما كنت أدرك أنّ العلاقة التقليدية لن تكون ممكنة بالنسبة إلي بسبب أصولي. العائق الوحيد لا يكمن فحسب في اعتماد عائلتي عليّ مالياً، بل لأنّ الزواج يعني إنجاب الأطفال، وهذا شيء لا يمكنني المخاطرة به. ولمّا لم أكن صاحبة بشرة فاتحة، مقارنةً بإخوتي، لم يكن أبداً من الممكن لي أن أخاطر بإنجاب طفل قد يكشف لون بشرته مدى خداعي.

ربما سيسمح لي زواج برنارد الفريد بتجربة الرجل الذي أرغب بشدّة في معرفته بشكل أفضل، من دون الخطر الذي يتوقّعه مني أكثر مما يمكنني تقديمه. أفلا أستحق تجربة المشاعر نفسها والعاطفة الكبرى نفسها مثل النساء الأخريات؟ ربما قد أكون قادرة مع برنارد على تذوق نوع العلاقة الرومانسية، التي تعدّها معظم النساء أمراً مفروغاً منه.

****

اهتزّت العربة فوق حصا الطريق، ومعها اهتزّت أعصابي. لقد كنت أنتظر منذ أسابيع تلك اللحظة التي ستجمعني ببرنارد، لكن حال وصولي شعرت بالقلق. لقد استحضرت محادثتي مع راشيل، وما أثارته من الاحتمالات التي

كنت أعتقد سابقاً أنّها مستحيلة بالنسبة إلي، لكن كلّ ذلك التكهّن كان يمكن أن يصبح حقيقةً الليلة، فهل أنا مستعدة لذلك؟

بعد الخروج من العربة، قمت بتصفيف شعري الذي عصفت به الرياح، وتعديل تنورة ثوبي الصوفي الزمردي، قبل أن أدخل إلى القاعة الكبرى لمتحف المتروبوليتان. لم ألاحظ اليومَ جمال المدخل المزيّن بالفنون الجميلة الكلاسيكية الرائعة. عادةً، كانت القبّة والأقواس الحجرية الجيرية المرتفعة تبهرني، بالإضافة إلى ذهولي أثناء عبوري تلك المساحة الشاسعة أيضاً؛ فكيف يمكن لمساحة تقدّر بمليوني قدم مربع أن تبدو ودّية جدّاً ومرحّبة بي؟ لكنّني وجدت نفسي اليوم مشتتة الذهن، وأنا أبحث عن برنارد.

لقد كان هناك عدد قليل من الزوّار، وهم يجوبون المكان بلا هدف، ثم يقومون بتعديل قبّعاتهم على استعداد للمغادرة، لكنّني لم أرَ برنارد بينهم؛ فهل أخطأت في وقت اللقاء؟ لقد كان من المقرّر أنّ تبدأ جولتنا بعد ساعات لنحظى برؤية خاصة لتمثال منحوت تم الحصول عليه مؤخراً.

«آنسة غرين، يا آنسة غرين!»

التفتُّ، فلاحَ أمامي وجهُ رجل مألوف مستدير الشكل له شارب مجعّد على نحو حاد وقال: «ها أنت ذا يا آنسة غرين! جميل أن أراك مرّة أخرى!»، ثم مدّ يده للمصافحة من دون أن يقدّم نفسه.

لقد كنت أعلم أنّنا التقينا في السابق، لكنّني لم أستطع تذكّره، فقلت: «من الرائع رؤيتك أيضاً»، ثمّ مددت يدي لمصافحته، وفي تلك اللحظة، استحضرتُ اسمه في الأخير؛ إنّه السيّد جونسون.

قال: «من فضلك اتبعيني يا آنسة غرين، إنّ السيّد بيرنسون وتمثالنا اليوناني ينتظرانك»، ثم أخذ يخترق حشد الزوّار الذي كان يتضاءل أمامنا.

في البدء سرّع السيّد جونسون خطاه أثناء اختراقه الحشد، وقام ببعض المراوغات بسرعة إلى درجة أنّه أصبح من الصعب عليّ تعقّبه، إلا أنّني تداركت الأمر ولحقت به، ثم تجاوزنا الزوّار الذين أصبحوا عالقين في أعقابنا، وعبرنا القاعة المظلمة التي كانت مخصّصة للفن اليوناني والروماني القديم. واصل السيّد جونسون قيادتي عبر الردهة الشبيهة بالجحر إلى أن لمحت تابوتاً رومانياً كنت أعرفه جيّداً. يعود تاريخ ذلك التابوت إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، في الحقبة التي تمتد من القرن الأوّل قبل الميلاد إلى القرن الأوّل الميلادي. لقد جعله سطح التابوت الخشبي الملوّن يبرز بشكل واضح بين الرخام والمرمر، الذي صنعت منه معظم الأشياء في تلك القاعة. ولم يلفت انتباهي هناك لمعانُ التابوت فحسب، بل كذلك شدّت انتباهي تلك الصورة الواقعية الموجودة على غطائه؛ إنّها بورتريه لشاب فيومي، وهو ما درجت تسميته على مثل هذا النوع النادر من الفنّ القديم الذي كان يُنسب إلى مدينة الفيوم المصرية القديمة، فيصوّر الناس كما بدوا في الواقع في مكانهم وزمانهم، وما لهم من بشرة داكنة، وشعر أسود مجعّد، وعيون بنية غامقة أكثر من لون الشوكولاتة؛ ليتحدى التصوّر الشائع بأنّ اليونانيين والرومانيين القدماء كانوا شقراً ولهم عيون زرقاء. لقد كانت صورة ذلك الشاب الفيومي مفضّلة بشكل خاص بالنسبة إلي وإلى أبي خلال كلّ زياراتنا لمتحف المتروبوليتان، فهناك فحسب رأينا أشخاصاً يشبهوننا.

«آنسة غرين!»

ناداني السيّد جونسون، فأيقظني من شرود خيالي، فأسرعت للحاق بركبه، ثم انحرفنا فجأة، فدخلنا قاعة صغيرة أخرى كانت تتفرّع من القاعة الرئيسية من جهة اليمين، ومررنا أمام عدّة خزائن زجاجية تحمل قطعاً من المجوهرات القديمة والفخار، إلى أن اقتربنا من باب كانت تخفيه قطعة من القماش متدلّية على الحائط، فالتفتَ إليّ السيّد جونسون، وقال وهو يبتسم:

«لقد كدنا نصل يا آنسة غرين.»

في الأخير، قادني إلى غرفة؛ حيث دخلنا إلى عالم آخر؛ فنحن لم نعد نسير في القاعات ذات المعارض المنسّقة بعناية والرفوف المرتّبة لكلّ التحف والأعمال الفنّية الثمينة، لكنّنا صرنا نقف، بدلاً من ذلك، في غرفة تخزين شبه منتهية مترامية الأطراف تعجّ بصفوف من الصناديق الخشبية. بدا الأمر كما لو أنّنا قد اخترقنا ستار مسرح برودواي، فوصلنا إلى الفوضى العارمة، التي كانت تكمن خلف الكواليس، فزالت أوهامنا أثناء كلّ تلك العملية، لكنّنا اكتسبنا فهم كيفية صناعة سحر الفنّ.

هنا، في وسط هذه الغرفة، كان برنارد يقف محدّقاً في تمثال مذهل لجذع رجل نُحِت من المرمر الأبيض. لقد بدا لي برنارد بروعة تلك القطعة الفنّية الاستثنائية نفسها، فالتفت إليّ عندما سمع وقع خطاي فكافأني بإلقاء ابتسامة سرور، وقال:

«أهلاً يا آنسة غرين، سعيد جدّاً لأنّك تمكّنت من الانضمام إلينا.»

أجبته: «وأنا سعيدة للغاية بدعوتك لي يا سيّد بيرنسون.» وابتسمت له. لقد خسرت معركة كبح جماح إبداء ابتسامتي العريضة المحرجة الخاصة بي؛ فالسعادة كانت تغمرني لمجرّد رؤيته.

لقد كان الدخول إلى الحرم الداخلي لمتحف المتروبوليتان ممنوعاً بشكل صارم على أيّ عنصر دخيل، وعادةً يقتصر على موظفي المتحف المطّلعين بشؤونه الخفيّة، أو متاحاً لبعض الأكاديميين فحسب. لقد طلب برنارد من السيّد جونسون أن يسدي له معروفاً بالسماح لي بالدخول عندما علم باهتمامي الشديد برؤية التمثال الجديد. كان برنارد يدرك أنّ القيام بنظرة خاطفة خلف كواليس متحفي المفضّل سيكون أكثر رومانسية لي بكثير من أيّ هدية فخمة، أو أي موعد عشاء.

ثم قال السيّد جونسون، وهو يقف أمام التمثال: «هلا انضممتما إلي هنا. أودّ أن أقدّم لكما أحدث إضافة إلى مجموعتنا الفنّية من المنحوتات اليونانية»؛ لقد كان تمثالاً لجذع شاب فحسب، وقد غاب باقي جسمه، لكنّ صدر ذلك الفتى كان مندفعاً بقوّة؛ كما لو أنّه كان يأمرنا بالانتباه إليه.

ثم بدأ السيّد جونسون بإلقاء محاضرته بخصوص ذلك التمثال: «انظروا إلى ملامح جذعه؛ يمكنكما أن تلاحظا بقايا أحد السهام المخترقة لجسمه هنا» —وأشار إلى الكتف الأيمن لتمثال الشاب، ثم استأنف محاضرته- «وهذا يدلّ على أنّه كان ملاحقاً وهو يجري هرباً من الخطر. إنّنا نعتقد أنّ هذا التمثال هو لأحد أبناء الملكة نيوبي. وإذا كنتما تتذكّران فإنّ أساطيركما تقول إنّ الملكة نيوبي كانت تتفاخر بأنّها كانت أفضل أم؛ لأنّها أنجبت أطفالاً أكثر من الملكة ليتو، وهو ما جعل ليتو الغاضبة جدّاً تقوم بالانتقام من نيوبي عبر إرسال ابنيها، أبولو وأرتميس، لقتل أبناء نيوبي. مؤكّدٌ لدي أنكّما تعرفان أنّ هذه المنحوتات، التي كانت تظهر أبناء نيوبي وهم يحاولون الهرب من سهام أبولو وأرتميس القاتلة، غالباً تمّ نحتها عبر العصور القديمة. لقد أراد القدماء أن يعرّفوا الناس أنّ الغطرسة يمكن أن تكون جريمة مميتة»، ثم أضاف إبداء ابتسامة صغيرة.

عقّبت على كلامه بإبداء ردّ سريع، وقلت: «إنّه درس لا يزال بإمكان بعض الناس في العصر الحديث الاستفادة منه»، ثم سألته بينما كان يضحك هو وبرنارد: «إلى أيّ تاريخ يعود هذا التمثال بحسب تقديركم؟»

«نحن نقدّر أنّه تم إنشاؤه في اليونان في فترة ما بين 425 و400 قبل الميلاد.»

أخذت أنا وبرنارد نطوف بذلك التمثال، ونحن نسترق النظر أحدنا إلى الآخر من حين إلى آخر، ثمّ قلت: «إنّه حقاً تمثال جميل جدّاً، فالحرفية واضحة في نحت حركة الجذع على وجه الخصوص»، لكنّ برنارد، عالم

الفنّ الشهير والناقد المعروف بتقييماته اللاذعة في بعض الأحيان، ظلّ صامتاً بشكل غريب.

ثم قال في الأخير: «أعتقد -يا سيّد جونسون- أنّك أصبت تماماً في تحديد هويّة صاحب التمثال، فمن المحتمل أن يكون هذا أحد أبناء الملكة نيوبي.» توقّف مؤقتاً عن الكلام ليضع أحد أصابعه على شفتيه، ثم أضاف: «ولكن هل من المؤكّد لك أنّه من أصل يوناني، وليس نسخة رومانية؟»

صدر من فم السيّد جونسون ما يشبه الغرغرة الغريبة التي كانت خليطاً بين الضحك والبكاء، ثم قال: «أعتقد أنّنا هنا في هذا المتحف نعرف التفريق بين التمثال اليوناني والتمثال الروماني يا سيّد بيرنسون.»

قمت بخطوة إلى الوراء لمشاهدة برنارد، فسؤاله لم يكن بالسؤال غير المنطقي بالنظر إلى أنّ عدداً قليلاً جدّاً من التماثيل اليونانية قد نجا، مقارنةً بالنسخ التي صنعها الرومان القدماء، والتي صمدت بشكل أفضل بكثير.

اقترب برنارد من التمثال، وانحنى إلى أن بلغ مستوى عينيه، فلاحظ وجود ثلاثة تصدّعات غريبة كنت قد لاحظتها بدوري، ثم قال: «ألا ترى هذه التقطّعات الخفيفة على طول الجذع السفلي، وعلامات نقر الإزميل البادية هنا وهناك؟»

عبّر السيّد جونسون عن رفضه في البداية، وواجهه بأيدٍ مكتوفة، رافضاً الاقتراب أكثر، ثم مرّت برهة طويلة قبل أن يرضخ في الأخير. ثمّ قال: «هذه هي علامات أداة للنحت لم تكن قيد الاستخدام في روما حتى بلوغ القرن الأوّل للميلاد.» لم تكن نبرة صوته تحمل أيّ تلميح للانتصار. لقد بدا أنّ تصحيح أمر إسناد أصل ذلك التمثال يؤلمه، لكنّه كان يعلم أنّه يجب عليه فعل ذلك.

توردت خدود السيد جونسون من وقع الغضب، وقال: «أعتقد أنَّ تخصّصك هو فنّ عصر النهضة يا سيد بيرنسون»، ثم صرخ وأضاف: «وهذا يكاد يجعلك خبيراً في تأريخ الآثار.»

لم تكن لدي أيّ رغبة في اتهام أمين متحف الميتروبوليتان بالتزوير، لكنّني لم أستطع البقاء صامتة والسماح له بإهانة برنارد، فقلت: «مما لا شكّ فيه أنّك تعلم -يا سيّد جونسون- أنّ الأعمال الفنّية في عصر النهضة هي بمنزلة إعادة اكتشاف لتصميم وفنّ العصر الكلاسيكي، ولاسيما التصميم والفنّ اليوناني والروماني القديم. ولكي يصبح خبيراً في مجاله، كان على السيد بيرنسون أن يصبح خبيراً في كلٍّ من الآثار اليونانية والرومانية. وبالنظر إلى أنّه يتّخذ من إيطاليا موطناً له، أعتقد أنّه قد درس الفنّ اليوناني والروماني القديم مباشرة على عين المكان.»

أضاف برنارد: «لقد كنت أقضي قدراً كبيراً من الوقت داخل الكنائس الإيطالية؛ حيث أتيحت لي الفرصة عن كثب لتفحّص التماثيل التي تمّ اعتمادها من قبل الكنيسة.»

لقد كانت كلمات برنارد الأخيرة هي التي جعلت خدود السيد جونسون تفقد حمرتها، فانهارت مناكبه، وانتابه الشحوب. لقد أدرك أنّ المتحف قد ارتكب خطأً في اقتنائه ذلك التمثال، وأنّه، بالنظر إلى ملاحظات برنارد، وما يمتلكه من خبرة وكفاءة، سيقرّر أنّ أحدث كنز للمتحف لن يُرى قريباً من قبل الجمهور.

غادرنا المتحف مع غروب الشمس، فحوّلت أشعة الغروب واجهة الحجر الجيري للمبنى، فأصبحت بلون وردي ذهبي. لقد أنعشنا هواء شهر آذار/ مارس في الخارج، وخاصة بعد الحشر المؤقت الذي عانينا منه داخل قاعة التخزين. وتنفسنا الصعداء حين خرجنا أنا وبرنارد، وقمنا بأولى خطوات لنا على الرصيف المتاخم للشارع الخامس. لقد كان الشارع يعجّ بعربات

السادة العائدين إلى منازلهم من أعمالهم اليومية، بينما كان الأزواج من المارة ينشدون الترفيه في المساء.

لقد جعلنا وقع حوافر خيول العربات وثرثرة المارة نحبّذ الصمت في البداية. وبعد أن خيّم الصمت، شددت إزار معطفي، وحافظت على هدوئي، إلى أن كسر برنارد الصمت وقال: «أنت مدافعة جيّدة يا آنسة غرين، لكن بالرغم من أنّني أقدّر كلّ جهودك، أعتقد أنه كان بوسعي صون شرفي من دونك.» ابتسم في وجهي، فبان ألق أسنانه على ضوء مصابيح الشوارع الخافتة.

ابتسمت مرّة أخرى له، وقلت: «لم أكن أبداً شخصاً يختصر الكلمات، أو يعاني من الحمق يا سيّد بيرنسون.»

«لقد لاحظت ذلك، كما لاحظت أيضاً أنّك تستمرين في مناداتي بالسيّد بيرنسون، في حين ظننتُ أنّني سبق أن طلبت منك مناداتي ببرنارد فحسب.»

عارضت كلامه بسلاسة: «كما لاحظت بدوري أنّك لا تزال تدعوني الآنسة غرين، في حين وعدتني مراراً وتكراراً أنّك ستناديني بيل فحسب.»

انتابه ضحك غامر جعلني أشعر بالدفء في داخلي، ثمّ قال: «معك حقّ يا بيل! ما رأيك في أن نبرم اتفاقاً بيننا؟ فحين نكون برفقة أشخاص آخرين يجب أن نستخدم الألقاب التي تكون أكثر مقبولية اجتماعياً مثل «آنسة» و»سيّد.» ولكن عندما نكون وحدنا من الأفضل أن ينادي أحدنا الآخر بأسمائنا فحسب.» صمت للحظة كما لو أنّه كان يرغب في أن يتأكد له سماع كلماته التالية، ثمّ أضاف: «آمل أن تتاح لنا العديد من المناسبات التي سنكون فيها وحدنا يا بيل.»

أشرت برأسي أنّني قبلت بذلك الاتفاق بكلّ سرور. لقد خلت أنّ مشاعره من قبل تأكّدت لي، لكن الآن لم يعد لديّ أدنى شكّ فيها، غير أنّ موجة من الحزن انتابتني بعد ذلك؛ لأنّني كنت أعلم بيقين مطلق أنّ برنارد لن يتكرّم بالتحدّث معي إذا عرف حقيقة اسمي الفعلي، فبرنارد بيرنسون، عالم الفنّ

الشهير والناقد المعروف، لن يرافق فتاة صاحبة بشرة ملوّنة، ويضحك معها، ويتحدّث إليها عن الفنّ في شوارع نيويورك.

لكن بمجرّد تحديقه فيّ تلاشى حزني إلى أن قال: «سأرحل.»

الرحيل؟ مجدّداً؟ ماذا يعني بذلك؟ هل يعني العودة إلى إيطاليا؟ انهالت عليّ الأسئلة من كل حدب وصوب، لكنّني كنت خائفة جدّاً من طرحها. ورغم ذلك بقيت صامتة أستمع إلى أصوات المدينة، محاولةً استخلاص فكرة واحدة من العديد من الدوامات التي كانت تحوم في ذهني.

فقال قبل أن أتحلّى بالشجاعة والقدرة على سؤاله: «أنا عائد إلى إيطاليا في غضون ثلاثة أيام.»

شعرت بالخيبة والحزن مجدّداً، لكنّني قلت: دفع الله ما كان أعظم، فهو ليس متزوجاً فحسب، بل هناك ترتيب غير مفهوم يتقاسمه مع زوجته، فما الذي يجعلني أعتقد أن بعض المغازلة هي بمنزلة عاطفة حقيقية؟ ولاسيما أنّ زواجه غير التقليدي يسمح له بإقامة علاقات مع من يشاء؟

بقينا ننتظر عربتنا ونحن نقف جنباً إلى جنب حدّ الالتصاق إلى درجة أنّني كنت أشعر بكلّ أنفاسه، لكنّني لم أستطع مواجهة عينيه. لقد كان هناك جزء مني يريد إطالة تلك اللحظة، بينما كان جزء آخر يريد مني المغادرة وحمل مشاعري معي. لقد تحدّى برنارد الحاجز الذي أدركت مؤخراً أنّني كنت أقيمه أمام المشاعر الرومانسية وسيلةً لحمايتي وحماية عائلتي من أيّ اتصال لا ينبغي لي في الواقع إقامته، ولا أستطع حتى إقامته.

ثم قال: «أعلم أنّه لم يبقَ لي الكثير من الوقت هنا، لكنّني أريد أن أراك يا بيل قبل أن أغادر.» في الأخير التقيت بنظراته، فأضاف: «هل يحقّ لي أن آمل التحاقك بي لتناول عشاء يجمعنا معاً؟»

قبل أن أجيبه، فكّرت في العواقب لو طرح مثل ذلك السؤال على بيل ماريون غرينر، ثمّ شعرت بالارتياح والحماسة؛ لأنّه سأل بيل دا كوستا غرين. ورغم أنّني أعلم أنّ العديد من الشابات سيبرّرنَ فكرة تناول الطعام بمفردهنَّ مع رجل متزوّج، لست مثلهنَّ.

فقلت: «نعم سألتقيك يا برنارد.»

الفصل التاسع عشر

26 آذار/مارس 1909

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

لوّحت بيدي في الفضاء أمام باب ذلك الجناح من فندق ويبستر، الذي كان عبارة عن إقامة تقع على بعد بنايات قليلة من المكتبة. ورغمَ أنّ رجال ونساء المجتمع من حولي كانوا ينخرطون بانتظام في مثل هذا النوع من السلوك الفاضح، كان يتعارض مع كلّ قواعد القبول الاجتماعي التي تعلّمتها منذ نعومة أظفاري. فأنا لم يكن لديّ المال مثلهم، ولا أملك اسم عائلة شريفاً مثل تلك الأسماء التي تحميهم من السمعة الملطّخة، وأنا لدي مسؤوليات تجاه أفراد عائلتي؛ فعملي هو الذي يؤمن وجودهم الأبيض. كما لا يمكنني أن أصبح مثل ليلي بارت في رواية بيت الفرح، وأسمح لنفسي بأن يدمّرني حكم المجتمع. ورغم ذلك وافقت على مقابلة برنارد.

لقد انتابتني الشكوك هذا الصباح بمجرّد أن جلست في مكتبي في مكتبة بيربونت مورغان، وانهالت عليّ اللقاءات المتكرّرة مع السيّد مورغان في كل ساعة، حين طلب رأيي بشأن مخطوطة معروضة للبيع، كما طلب، في لقاء آخر، مشورتي بشأن مسألة معقّدة متعلّقة بأحد الأسهم، وكلّ تلك اللقاءات زادت من مخاوفي؛ فكيف يمكن لي أن أحلم بتحقيق هذه المكانة في الحياة لو لم يكن معي السيّد مورغان؟ وماذا لو اكتشف علاقتي مع رجل يكاد يتسامح معه؛ علاقة مؤكّدٌ لدي أنّ السيّد مورغان سيراها على أنّها خيانة للاهتمام والمودّة الكاملة، التي يعتقد أنّ أمينة مكتبته الشخصية مدينة له بها،

ومؤكَدٌ لدي أنّني سأطرد حين يعلم بذلك، وسيبحث عن شخص آخر لهذا المنصب. لقد كنت على وشك إلغاء لقائي ببرنارد عندما وصلتني رسالة منه إلى المكتبة. احتوى الظرف على صفحة واحدة كُتبت عليها عبارة «إلى بيل» في الأعلى، متبوعة بمقتطفات من قصيدة. لقد أثنتني كلماته عما عزمت عليه، فالتزمت بحضور الموعد مجدّداً.

في الأخير، طرقت الباب المؤدي إلى جناح غرف برنارد، وعندما فتحه، لم أقدر على رؤية عينيه، ودخلت من دون أن أنبس بكلمة. لقد كان الصالون الصغير بديعاً بخلفية دمشقية مطلية بلون أخضر فاتح؛ وكرسيين كبيرين متطابقين موضوعين قبالة موقد فيه نار تلفح، كما كانت هناك طاولة تتسع لشخصين مغطاة بمفرش للموائد من الكتان الأبيض، وفوقها مزهرية يزيّنها الأقحوان البريّ وشقائق النعمان المحلّية الفوّاحة، وشمعدان فضّي، وإناءان من الفخّار بغطاءين فضّيين يغطّيان وجبة العشاء، وزجاجة من النبيذ الفاخر مفتوحة مسبقاً. يبدو أنّ برنارد قد أعدّ ذلك الفضاء الحميمي ليضمن بعناية، وعلى نحو ترحيبي حار، أنّنا سنبقى وحدنا، فلا يعكّر صفونا أيّ أحد.

قابلت نار الموقد، فأحسست كم كنت يافعة جدّاً وعديمة الخبرة. ومثلما توقّعت، شعرت بوضع برنارد يديه على كتفيّ، فارتجفت من وقع أنامله، ثم قام بنزع معطفي بحركة واحدة من يديه، وعلّقه بمعلاق برونزي كان يقع على بعد خطوات منا.

ثم صدرت عنه أولى كلمات ردّدناها معاً: «هلا جلسنا؟»، وأشار إلى الطاولة.

انتابتني موجة من الارتياح؛ لأنّه قد وجّهني للقيام بنشاط ما، فأنا لا أملك أدنى فكرة عن كيفية التصرّف في مواقف شبيهة بهذه المواقف؛ فهل يوجد سيناريو محدّد يمكن للمرء اتّباعه في حال ارتكب أيّ هفوة؟ وبسرعة

تجاهلت الأمر، فأنا من الأساس لم أشأ التفكير في لقائنا؛ لأنّ مشاعري تجاهه في الحقيقة كانت في تزايد.

ثم سحب المقعد المخصّص لي، وطلب مني الجلوس، فجلست ورجلاي كانتا ترتعشان إلى درجة أنّني كنت آمل أن تخفيهما تنورة فستاني الحريري الأزرق السماوي الداكن الذي اخترت ارتداءه لتلك الأمسية. وعندما رأيته يرفع زجاجة البورجوندي، أخذت نفساً عميقاً لأحافظ على ثبات كأسي.

قمت باحتساء النبيذ، فأخذت رشفة طويلة جعلتني أشعر بالدفء من الداخل، وهدّأت أعصابي التي كانت متوتّرة، ثم أزال غطاءَي الفضّة عن صحوننا، وبدأنا أكل أطباق السمّان، وأطباق المحار والبطاطا، وبراعم الهليون الشهيّة، التي سبق أن طلبها لنا في وقت مبكر قبل قدومي.

ثم شعرت فجأةً بالخجل، فالعلاقة الحميمة بنوعيها الجسدي والعاطفي هي عالم لم يسبق لي أن اكتشفته مع أيّ رجل.

وحين شعر برنارد بانزعاجي، بادر بالحديث، فقال: «هل تعتقدين أنّ السيّد جونسون سيبلغ زملاءه من أمناء المتحف بالخطأ التاريخي الذي يشوب ذلك التمثال؟»

تنفّست الصعداء. لقد شعرت بالهدوء؛ لأنّه بادر بطرح موضوع مريح، وخطرت في بالي صورة السيّد جونسون ذي الوجه المزهر، وهو يشرح سبب ذلك الخطأ، فيتّهم موظّفي تنظيم المعارض المغرورين، الذين استدعوا - لا شك- العديد من الخبراء للتثبّت من أمر ذلك التمثال؛ فضحكت كما ضحك برنارد معي، وسرعان ما جعلنا الضحك والسرور نتجاوز التوتّر الذي انتابنا في بداية اللقاء.

تواصل منسوب ذلك الحديث الشيّق، وأنا أنصت إليه بعناية، وهو يتحدّث عما جعله يصبح مفتوناً بلوحات ورسومات عصر النهضة الإيطالية. كشف لي أنّ حبّه لذلك الفنّ لم يولد على نحو فوري مباشر، بل تطوّر على

مراحل بمرور الزمن، فقال: «لقد كان اكتشافي جمالَ كل تمثال يأسرني ويقودني إلى تأمّل اللوحة الفنّية التالية المقدّمة بشكل رائع إلى أن كدت أفقد صوابي. لقد نقلتني أعمال عصر النهضة الفنّية الثريّة، بأبعادها الثلاثية المنحوتة حديثاً، وكل ما تحمله من معانٍ مجازية عميقة، بعيداً عن نفسي وواقعي إلى زمان ومكان حيث كانت العبقرية الحقيقية ممكنة، زمان على نقيض زماننا. وأدركت بدوري أنّه يتعيّن عليّ المساعدة في نقل الآخرين إلى ذلك العصر؛ لهذا السبب بدأت الكتابة لأوّل مرّة. لم أعتقد أنّ الأثرياء فحسب هم من يستحقّون أن يحظوا بهذا الفهم»، ثم أضاف بلهجة تشبه الاعتراف: «لقد أردت أن يكون الناس مثلي-.» توقّف قبل أن ينهي كلامه، لكنّه قال في الأخير: «لقد أردت أن يسهل على الناس مثلي، الذين لم يولدوا بهذه الصلة السلسة بالفنّ وخبرائه، الوصول كذلك إلى عوالمه»، ثم كشف لي مجدّداً عن موقفه من هامشية عالمنا.

أدركت أنّ ما يفتنني فيه فعلاً هو حديثه عن الفنّ الذي كان يغويني، ثم سمحت لنفسي بالانجذاب إلى تلك الرقصة البطيئة، فملت أوّلاً إليه عبر الطاولة، ثم ارتخيت إلى أن بلغت حافة مقعدي، وبعد فترة ليست بالطويلة وجدت نفسي أجلس في حضنه على أحد الكراسي التي كانت معدّة قبالة الموقد. تسلّلت إلي روائح عطره حتى قبل أن أشعر بشفتيه وهي تلثم شفتي. عطره كان برائحة المسك متميّزاً عن الطيب الذي يستخدمه لإخفاء عطره الطبيعي، فأثار فيّ رعشة عبرت كلّ جسدي، وعندما مال لتقبيلي استسلمت. كنت حينها في التاسعة والعشرين من عمري، وتلك كانت أوّل قبلة حقيقية لي. لقد استمتعت بتلك اللحظة وبذلك الدفء الذي كان يزداد في داخلي.

فجأة لامست يداه ظهري، ثم مرّر أنامله في خصلات شعري، وعندما وجدت أصابعه طريقها إلى صدري، أصبحت أكاد أتنفّس، لكنّه حين بدأ بفكّ أزرار الجزء الخلفي من فستاني ابتعدت عنه.

سألني: «ما خطبك يا حبيبتي؟» لقد كان صوته غليظاً بحجم الرغبة التي كانت تعتريني نفسه.

تعلّق قلبي بمداعبته وغزله، فأدركت مدى سهولة الاستسلام له، لكنّني حاولت الصمود فقلت: «أودّ أن أسلّمك نفسي- »، ثم نظرت إلى الأسفل، وأضفت: « لكنّني لا أجرؤ على القيام بذلك.»

هناك سبب ما جعله يشعر أنّ كلماتي كانت عبارة عن دعوة للسماح له بأن يستأنف ما بدأه، فامتدّت يداه مرّة أخرى لفكّ أزرار فستاني، وقال: «إذا كنت منشغلة بأمر ماري، فلا داعي للقلق، فأنا وماري أجرينا تفاهماً بيننا.»

قلت: «ليس هذا ما يشغل بالي يا برنارد، لقد سبق أن أُخبرتُ بذلك»، ثم وضعت يديّ على صدره، فتوقّف عن فك الأزرار.

لقد تعجّب من معرفتي بذلك، فأجبته عن سؤاله المبطّن وقلت: «لقد أخبرتني راشيل.»

قال بعد أن استوعب المسألة: «وما العيب في ذلك؟ أَلست حرّاً حالياً في الزواج من جديد؟»

تساءلت في داخلي: كيف يمكنني أن أقول له إنّ امرأة بحياة تقوم على الخداع مثلي لا يمكنها أن تتزوّج أبداً؟ علاقتي مع برنارد، الملتزمة أحياناً، والحرّة في أحيان أخرى، قد تكون بطريقةٍ ما مخادعة. ورغم ذلك، كنت خائفة، فإذا قبلت بهذا الخطر الهائل، فلا بد لي من تحمّل المخاطر والعواقب التي ستنجرّ عنه.

أجبته في النهاية وقلت: «ليس الأمر كما تتصوّر يا برنارد، فالزواج لم يكن أبداً ضمن برامجي.» تردّدت قبل أن أضيف: «إنّ وجودي معك يمكن أن يجعلني أتوه إلى الأبد.»

فقال: «وما العيب في ذلك؟»

قلت: «يمكن القول إنّه لا عيب فيه، كما يمكن القول أيضاً إنّه محفوف بكلّ العيوب.»

فتأوّه، لا بسبب الإحباط، بل من فرط الرغبة، وقال: «لا يمكنك معرفة تأثيرك عليّ يا بيل. أريدك أن تكوني لي.»

قلت له الحقيقة: «وأنا كذلك أريدك، لكنّني بحاجة إلى معرفة أنّ مشاعرك ليست مجرّد نزوة عابرة، وأنّه إذا منحتك نفسي فلن تكون علاقتنا مجرّد مضيعة للوقت.»

أمسك يدي وقبّل راحتها، ثم رسم بسبابته دوائر في المكان نفسه الذي وضع عليه شفتيه. أثارت تلك الحركات البسيطة موجة من العاطفة كسرت إرادتي تقريباً، وجعلتني أميل إلى الأمام، وأقبّله بعنف.

فقال: «حسناً. يجدر بنا أن ننتظر إلى أن أثبت لك إخلاصي يا حبيبتي، وسترين أنّ عشقي لك لا يتزعزع. بعد ذلك سنقوم بترتيب موعد يستحقّ كلّ تلك العاطفة»، ثم جذبني إليه، وقبّل جبهتي، ثم جفني، وخدي، ثم لثم في الأخير شفتي، فانغمست في تلك الأحاسيس الناشئة في داخلي، وكادت تجرفني موجات تلك العاطفة إلى أن همس في أذني وقال: «أنت حسنائي يا بيل.»

أيقظتني كلماته، وفي الوقت نفسه أدركت أنّني تهت إلى الأبد.

الفصل العشرون

مكتبة
t.me/soramnqraa

26 آذار/مارس 1909

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

رغمَ قصر الوقت الذي قضيته مع برنارد في ذلك المساء، أثار شيئاً ما في داخلي؛ حيث لم أعد راضية عن كلّ ذلك التظاهر اللامتناهي، وتلك التمثيلية التي كنت أتصنّعها في حياتي. لقد قمت بإجراء تواصل حقيقي، ورغبتُ في المزيد منه. حتى وإن ذهب برنارد فإنَّ ما يربطنا لا يزال حيّاً؛ لأنّه أصبح مصدر إلهام لي يشجّعني على أن أكون على حقيقتي. لقد صرت أكثر جرأة في ملابسي، فأرتدي ما يحلو لي من الألوان؛ كما صرت أتكلّم بجرأة، فأعبّر عن كلّ ما يجول في ذهني في مآدب العشاء، وفي قاعات الأوبرا، وفي مختلف الحفلات. وما أدهشني فعلاً هو أنّ الناس من أرقى طبقات المجتمع وأشدّها بأساً، وكذلك نجوم عالم الفنّ، وجدوا تصرّفي مبهجاً؛ يبدو أنّني كنت أقول بصوت عالٍ ما كان يرفّهم فحسب ضمن خصوصية أفكارهم.

وقد حدث ذلك في العديد من المناسبات، التي أذكر من بينها إحدى الأمسيات التي قضيتها في حفلة أقيمت في منزل عائلة أستور؛ حيث أعرب العديد من الضيوف عن أسفهم لما خسروه في سوق الأسهم أثناء مناقشة الكارثة الاقتصادية الأخيرة، التي كان من الممكن أن تكون أسوأ لو لم يتدخّل السيّد مورغان.

بعد الاستماع إلى كلامهم اللاذع، احتسيت كأسين من شراب البورجوندي، وأعلنت لهم، وقد انتابتني نوبة من الضحك: «يا لها من أنباء سيئة للغاية، لقد خسرتم الكثير، إلا أنّ الشيء الوحيد الذي يعجبني فيكم -معشر الأغنياء- هو أموالكم.»

كما أذكر أنّني قمت في استراحة أوّل موسم لعروض الباليه بالردّ على وصف أحد عمداء المجتمع لمجموعة أناجيل غوتنبيرغ على أنّها أعظم ممتلكات مكتبة بيربونت مورغان، فقلت له: «إنّ أعظم كنز في مكتبة بيربونت مورغان هو أنا»، فعمّت القهقهات الكثيرة المكان.

لقد جعلني ذلك المزاح وتلك النكت من بين نخب مدينة نيويورك، كما استفدت من أبرز الدعوات لي. ورغم ذلك، كنت أعلم أنّهم كانوا يتحدّثون عني خلف ظهري، لكنّني كنت لا أهتم بالثرثرة والإشاعات، التي تثار على تعليقاتي القبيحة، أو مغازلتي للرجال وأنا في حالة سكر، أو ما أسرفه بشكل متزايد على شراء الأوشحة ذات الألوان الزاهية غالية الثمن؛ كلّها أمور كانت تشتت ذهنهم عن الانتباه إلى الشائعات التي كانت تدور حول الشيء الوحيد الذي كان يهمّني ألا وهو: لون بشرتي.

لكنّ التحدّث بلا خوف لم يسفر عن وقوع علاقات حميمية كنت أسعى إليها. في الحقيقة، بدأت أشعر كأنّني بهلوان في السيرك مطالبٌ بتسلية الجمهور فحسب، ومن المتوقّع مني أن أقدّم فصولاً متزايدة في كل مرّة. لقد كان المجتمع يرغب في ضمي إلى صفوف أفراد طبقاته الراقية، لا على قدم المساواة معهم، بل تقريباً بوصفي حيواناً أليفاً، أو مثل الفنّانين الذين كانوا يدعمونهم، وأحياناً يستدعونهم في شتى المناسبات.

حتى وإن كان ذلك الإحساس مقلقاً، واصلت أداء الدور نفسه. كنت أخفي انزعاجي عن طريق شرب الكثير من النبيذ. لقد لاحظت ماما ذلك،

وتعوّدت على انتظاري. وفي بعض الأحيان، تظلّ تنتظرني حتى بعد ساعات من منتصف الليل إثر فترة طويلة من خلود أخواتي وراسل للنوم.

كانت تسألني في كلّ مرّة أتعثّر فيها في عتبة الشقّة من فرط السكر: «ما خطبك يا بيل؟ لقد قلقت عليك.»

فأومئ لها بيدي كي تبتعد عن طريقي. لقد كنت أترنّح وأتحرّك بشكل غير مستقر على قدميّ إلى أن أسقط على الأريكة، وأقول: «لا شيء. أنت تعلمين أنّني بحاجة إلى القيام بالاندماج الاجتماعي من أجل العمل، أليس كذلك؟ وكلّ ذلك يستوجب مني حضور الحفلات والذهاب إلى دور الأوبرا والمسرح، وحتى مآدب العشاء والتجمّعات الحميمية مع عائلة مورغان. أليس هذا ما تريدينه يا ماما؟ ألا تريدينني أن أحتكّ مع عائلات مثل عائلة فاندربيلت، وعائلة كارنيجي، وحتى عائلة مورغان؟ حسناً، هذا هو كلّ ما يلزمني لأكون بيل دا كوستا غرين.»

فتظلّ تحدّق فيّ بقسوة قبل أن تبتعد، فيبدو رفضها الصامت أعلى من الصراخ. أما استفساراتها واتهاماتها فتستمر على قدم وساق إلى أن أصبح لا أحتملها.

لكنّني حملت لها في آخر أسبوع من شهر أيار/ماي هدية، وقلت لها ولإخوتي، بينما كنّا نجتمع حول طاولة المطبخ لتناول العشاء في وقت متأخر: «لدي مفاجأة لكم! أعلم كم يكون فصل الصيف في مدينة نيويورك مريعاً، لذلك استأجرت لكم مقصورة بغرفتي نوم على ضفاف البحيرة في جبال أديرونداك السياحيّة لمدّة ثمانية أسابيع. أنا آسفة يا راسل لأنّ وظيفتك الجديدة في ولاية فلوريدا ستمنعك من الاستمتاع بهذه العطلة.»

صاحت أختاي من الفرحة، حتى ماما بدت مسرورة، وقالت: «هذا رائع! ولكن هل يمكنك الابتعاد عن عملك طوال تلك المدّة الطويلة؟»

فقلت: «أوه، من المؤكد لا، بل رتّبت هذه الهدية لكم جميعاً. أما أنا فلديّ الكثير من الأعمال التي يتعيّن عليّ القيام بها في المكتبة.»

أصبح وجهها غائماً، فأدركت أنّها كانت قلقة بشأن المظاهر، فكيف يمكن لشابة عزباء مثلي أن تعيش بمفردها في مدينة نيويورك، لكنّها تغلّبت على ذلك الشعور بإظهار فرحتها بذلك المتنفّس الصيفي. وبدت الأسابيع القليلة التالية مثيرة للتفاؤل؛ حيث كان أفراد عائلتي يستعدّون لقضاء عطلتهم هرباً من الأيام التي سترتفع فيها درجات الحرارة بلا هوادة، وستزداد فيها الرائحة الكريهة للمدينة. لكن لا أحد كان أكثر سعادة مني؛ لأنّ مسافة مئتي ميل ومدّة شهرين سيفصلانني عن عين ماما الساهرة.

وكان يوم الأحد الذي أرسلتهم فيه لقضاء عطلتهم هو اليوم نفسه الذي غادر فيه أخي راسل إلى فلوريدا للالتحاق بمنصبه الهندسي الأوّل؛ لقد حزنّا لرؤيته يسافر، لكنّه بدا مرتاحاً؛ لأنّه ضَمِنَ منصب عمل لائقاً. وعندما عدت إلى الشقّة من محطة القطار، احتفلت بالصمت العارم الذي عمّ المنزل؛ لقد صرت وحيدة.

بدأت على الفور في التخطيط لكلّ ما أريد القيام به خلال الأسابيع الثمانية القادمة. لقد كنت أريد عيش حياة تتجاوز العمل والتزاماته الاجتماعية، فأنا أريد عيش تلك الحياة التي أثارها برنارد في داخلي، وأريد عيش شيء حقيقي.

لقد توقّفت دوامة أحداث المجتمع المعتادة بمجرّد حلول فصل الصيف، وانتبذت النخبة أماكنها في قصورها الصيفية ويخوتها الفارهة. أمّا أنا فقمت برحلة إلى برينستون لرؤية أصدقائي القدامى، ومن بينهم جيرترود وشارلوت، وقضيت أمسية ممتعة معهما مليئة بالذكريات التي لن أنساها ما حييت. ثمّ خطرت في بالي نزوة، فقرّرت الاتصال بزميلتين كنت أعتزّ بهما في أيام دراستي في كلية المعلمين هما كاترينا وإيفلين.

لقد كانتا من أعزّ أصدقائي خلال تلك السنوات، لكنّنا فقدنا الاتصال بعضنا ببعض بمجرّد مغادرتي برينستون. وفي غضون أسبوع، تلقيت رسالة من كاترينا فيها ردّ جريء ليس بغريب عن صديقتي. لقد أعربت رسالتها إلي عن سعادتها بنجاحي، ودعتني للقائها مع إيفلين في حانة في قرية غرينتش في نهاية الأسبوع التالي. وأنا لم يسبق لي أن قضيت الكثير من الوقت في تلك الناحية من المدينة، التي أصبحت بسرعة معروفةً باسم بوهيميا أمريكا. لقد كانت مليئة بسكّان نيويورك، الذين يرفضون الاندماج الاجتماعي التقليدي، مفضّلين الطابع غير الرسمي للتعارف بدلاً من ذلك. وبينما كنت أخطّط للقاء صديقتَي تخيّلت كما لو أنّني كنت أسمع صوت ماما وهي تقول: إنّ ادخالك يا بيل لهاتين الشابتين في حياتك هو بمنزلة دعوة لصّ إلى منزلك ليأخذ أثمن مجوهراتك؛ أنت تعلمين أنّه يتعيّن عليك إبقاء بابك مغلقاً. إلا أنّ اعتراضات ماما، التي تخيّلتها، جعلتني أكثر تصميماً وإصراراً على الذهاب. ألا يكفيني ما قدّمتُ من تضحيات لمقاصل هيكل البياض؟

دخلت حانة الشارع السابع، فوجدت أنّ كاترينا وإيفلين كانتا في انتظاري. ابتسمت بمجرّد رؤيتي لكاترينا الصغيرة ذات الشعر الأحمر والعيون الخضراء بجوار إيفلين، التي كانت تمثّل نقيضها الجسدي في الطول واللون بشعر أسود وعيون زرقاء. وبعد أن طلبنا مشروب البيرة القويّ، انتابني شعور يكاد يشبه الشعور نفسه الذي خيّم عليّ أثناء حفلة عائلة فاندربيلت الأولى. أخذت سيجارة من إيفلين عندما عرضت عليّ علبة السجائر، وتساءلت: هل في وسعي أن أتقلم مع أيّ مكان.

لقد كان جوّ الحانة يصم الآذان، وتطغى عليه المحادثات النشطة لمجموعات من النساء جنباً إلى جنب مع حشود من الرجال، وهو ما اضطرّنا إلى الاقتراب بعضنا من بعض إلى درجة أنّ جباهنا لامست بعضها تقريباً. فقلت لهما: «أخبراني عن مسيرتكما المهنية في مجال التدريس.»

حدّقتا فيّ، ثم ضحكتا، وقالتا معاً: «أي مسيرة مهنية في التدريس؟»

ثم بدأت كاترينا الحديث وقالت: «لقد تخلّيت عن تلك المهنة منذ انقضاء الأشهر الثلاثة الأولى في مهمتي في تدريس الصف الثاني في المدرسة العمومية المحلّية؛ فأنا لم أستطع تحمّل صخب الأطفال، لذلك أردت القيام بمهنة أخرى من شأنها أن تحدث فارقاً أكبر في حياتي وحتى في العالم»، ثم قامت بإلقاء ابتسامة عريضة بدت مشرقة على وجهها الصغير، وأضافت: «أنا الآن موظّفة في حزب حقّ المرأة في التصويت في مدينة نيويورك.»

فقلت: «هذا رائع!» وتساءلت في داخلي عمّا إذا كانت تعرف راشيل كوستيلو.

أما إيفلين فقالت: «لقد تخلّيت بدوري عن تعليم تلاميذ المدارس من أجل الالتحاق بالرسم»، وهي الآن ترسم طوال اليوم، ومعظم رسومها بورتريهات تبيعها في معارض مختلفة في نهاية كلّ أسبوع في قرية غرينتش.

لقد تعجّبت من جرأة صديقتي وابتعادهما عن المسارات المهنية التي تمّ وضعها لهما من قبل عائلتيهما، فسألتهما: «وما هو موقف والديكما من تخلّيكما عن مهنة التدريس؟»

فردّت كاترينا: «لقد تفهّم والدي خياري، لكنّ والدتي كانت غاضبة. لقد كانت تريد منّي أنّ أكون دائماً في منصب مناسب ولائق»، ثم عبّرت كاترينا عن لا مبالاتها، فأضافت: «لكنّني كنت بحاجة إلى القيام بما يمليه حقاً ضميري هنا»، وضغطت بيدها على صدرها.

فقالت إيفلين: «وأنا أيضاً حصل معي الأمر نفسه. بالتأكيد أنا لا أكسب المدخول المالي نفسه الذي كنت أحصل عليه بوصفي معلّمة لكنّني سعيدة.»

ثم سألتهما: «وهل يزوركما والداكما؟»

فقالت إيفلين: «حسناً. لقد تحسّنت الأمور منذ أن غادرت المنزل.»

فردّدت كاترينا: «وأنا مثلك أيضاً.»

«إذاً. أنتما لا تعيشان في منزل عائلتيكما؟» لقد كنت مصدومة فعلاً مما قالته إيفلين وكاترينا، إلا أنّني لم أكن أعلم أيهما كان أكثر صدمة؛ فكرة كاترينا بوصفها زعيمة حزب الاقتراع، أم فكرة إيفلين الرسّامة، أو فكرة عيشهما بمفردهما.

فقالت كاترينا: «لا. أنا أعيش في فندق مارثا واشنطن المخصّص للنساء، وهو فندق قريب من هنا.»

«فندق ماذا؟»

«كيف لا يمكنك السماع بذلك الفندق يا بيل؟ لقد افتتح قبل خمس سنوات، وهو فندق سكني يمكن أن يستوعب ما يصل إلى خمسمئة سيّدة أعمال. ونحن نحظى هناك لا بغرفنا الخاصة والمناطق الجميلة المخصّصة للأكل فحسب، بل يحتوي الفندق أيضاً على صيدلية خاصة به، ودكّان خيّاط، ومتجر للقبعات النسائية، ودكّان تجميل، وكشك لبيع الصحف، وكلّها محلّات تديرها النساء، فجميع الموظفين هناك هم من الإناث»، ثم تنهّدت وأضافت: «إنّ ذلك الفندق يُعدّ بمنزلة الجنّة.»

فقلت: «لم تكن لديّ أيّ فكرة عن وجود مثل هذا المكان.»

«ذلك الفندق لا يحتاج إلى إشهار، فهو معروف في أوساط النساء العاملات. وفي الواقع لقد أسس مجلس حقّ المرأة في الاقتراع الموجود بين المدن حزب الاقتراع في نيويورك ومقرّه في ذلك المبنى حيث نقيم. وأعتقد أنّك ستحبّين حقاً ذلك الحزب الموجود في فندق مارثا يا بيل؛ لأنّه يضمّ العديد من النساء المتشابهات في التفكير.»

بمجرّد بدأت كاترينا تشرح لي عملها في تلك الحركة النسوية، تذكّرت راشيل، وبطبيعة الحال، استحضرت برنارد، فطلبت كأس بيرة أخرى. لقد

كانت حماسة كاترينا للحركة كبيرةً مثل حماسة راشيل، وأنا كنت منبهرة بهؤلاء النساء الرائعات. لكن على الرغم من أنّني قرأت عن حركة الاقتراع السياسية تلك، لم يكن لديّ الوقت أو الفرصة للتعرّف إليها عن كثب، ومن ثَمَّ لم تُتح لي فرصة تبنّي موقفٍ منها.

استمرّت كاترينا في حديثها: «وآمل ألا يحرجك قول هذا، فالعديد من النساء اللواتي أعيش معهنّ وأعمل ينظرن إليك بوصفك مثالاً وقدوة.»

«لقد سمعت ذلك من قبل، لكن ليس مؤكّداً لدي سبب تفكير النساء فيّ على هذا النحو.»

«أنت إحدى أنجح النساء المهنيات في عصرنا، تتحكّمين في الآلاف من الدولارات المستثمرة في عالم الفنّ، ويدعمك أحد أقوى الرجال في العالم. وبحسب اعتقادي، أنت لا تشعرين بأيّ ضغط يجبرك على الزواج وإنجاب الأطفال.»

لقد انتقلت إلي عدوى حماستها، فوجدت نفسي أبتسم. حتى لو لم تكن كاترينا متحمّسة للغاية، كنت سأبتسم لفكرة عيش ظروف حياتها الطوباوية. فأنا بمجرّد عودتي إلى نيويورك، لم يخطر في بالي قط العيش في أيّ مكان آخر إلا مع عائلتي. آه. كم تبدو حياة كاترينا مفعمة بالحرّية!

ثم سألت صديقتي إيفلين: «هل أنت تعيشين هناك أيضاً يا إيفلين؟»

«لا. والمؤكّد لدي أنّك لم تسمعي أبداً عن المكان الذي أعيش فيه. فأنا لدي غرفة في نزل ترومارت الموجود على ضفاف نهر هدسون؛ إنّه نزل جديد، لكنّه ليس فاخراً مثل فندق مارثا واشنطن....» توقّفت عن الكلام، وألقت نظرة عابرة إلى كاترينا، ثم أضافت: «إنّه ما أحتاجه فحسب، وما يمكنني تحمل مصاريفه.»

فقلت وأنا أعني ما كنت أقول: «كلا الفندقين يبدو فاتناً.»

فقالت إيفلين: «أرغب في زيارتك إلى أحد عروضي.»

وأضافت كاترينا: «كما أريدك أن تحضري أحد تجمّعاتي الحزبية.»

حتى وإن كانت كلّ منهما تريد أن تسمع كلّ شيء عن عالمي، ولاسيما ما قالته كاترينا: «أخبرينا عن ذلك الوغد مورغان، وكيف كنت تتصرّفين مع حيل مبادراته الغزلية المعروفة»؛ لم أستطع التوقّف عن طرح أسئلة عن عالمهما، فبالإضافة إلى ما أخبراني به عن نمط عيشهما، وطبيعة عملهما، وتواصلهما الاجتماعي المحدود بالعيش بمفردهما، بدا لي أنّهما كانتا تفكّران بحرّية، وتواعدان الرجال غالباً، وهو ما أعطاني انطباعاً بأنّهما كانتا متقدّمتين بكثير عني اجتماعياً وجنسياً. آه. كم كانت حياتهما ثريّة ومليئة بالأهداف، ناهيك عن امتلائها بالرجال من اختيارهما! وكم كان الوصف الذي نعتّ به نفسي سابقاً وقحاً!

بعدها انغمست أفكّر في الاختلافات التي كانت قائمة في عوالمنا، بينما كنا نسير جنباً إلى جنب عبر ميدان حديقة واشنطن وعبر القوس نحو حانة أخرى. لقد كنت أقوم بدور الخبيرة الفنّية المتطوّرة بين أغنى الناس في البلاد، في حين كانت كاترينا تخاطر بكل غالٍ ونفيس لتحقيق الحق الدستوري في التصويت لجميع النساء. أما إيفلين، فكانت تنحت نموذج وجود حرّ طلق لها بوصفها فنانة. شعرت بالحيرة والتيه، وفي الآن نفسه بالإلهام من قبل صديقتي.

قطعت على نفسي عهداً بأنّنا سنرى بعضنا بعضاً على نحو أكثر تواتراً. لقد أظهرتا لي بالفعل أنّ الحياة في مدينة نيويورك يمكن أن تكون أكثر تحرّراً من تلك التي كنت أعيشها. وربما يجدر بي الاقتداء بجرأتهما، التي كانت تضاهي جرأة برنارد!؟ أو ربما يجب عليّ أن أستخدم تلك الجرأة لبذل المزيد من أجل تحقيق المساواة في الحقوق بصفة عامة، لا حصرها في حقّ المرأة في التصويت فحسب، بدلاً من مجرّد العمل أنموذجاً سرّياً لما يمكن

أن تكون عليه الفتاة صاحبة البشرة الملوّنة؟ وفي كلتا الحالتين، كان التغيير حتمياً بالنسبة إلي وقادماً على مهل.

لقد كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل، عندما عدت إلى شقّتي في تلك الليلة، لكنّني كنت لا أزال أشعر بالحيوية والإلهام من أصدقائي الذين زرتهم، وكانوا بصدد تغيير العالم بطرقهم الخاصة. لكن بمجرّد استلقائي في غرفة نومي، بدأت أتلذّذ لحظات الصمت، ثم مددت يدي لإحضار رسالتين من برنارد كان يتعيّن عليّ قراءتهما. لقد كانت تلك الدقائق، التي استمتعت فيها بوحدتي مع كلماته، التي كان يوجد منها الكثير في ثنايا رسائله مثلما وعدني بمراسلتي بنسق يومي، وأصبحت تلك الدقائق أفضل جزء من يومي في الأشهر الخمسة التي قضيتها منذ رحيله، وبدأت أقرأ:

حسنائي وعزيزتي بيل...

ثم توقّفت وابتسمت، فبرنارد اعتاد أن يبدأ كلّ تواصل له معي بهذه الطريقة، واستأنفت القراءة:

ماذا فعلت بي؟ فأنا لم أعد أستطيع النوم، ولا الأكل، ولا أستطيع حتى العثور على المتعة في لوحات الفنّ التي تزيّن جدران بيتي بفيلا آي تاتي؛ فجمال لوحات جيوتو وفينيزيانو لا تقارن بجمالك. ولا توجد امرأة في هذا العالم، وفي هذا العصر، أثّرت فيّ مثلك يا حسنائي...

استمرت رسالته تخبرني عن مدى هيامه بي ووقوعه في عشقي، على الرغم من المناسبات القليلة التي جمعتنا معاً. لم تبدُ لي تلك الاعترافات متصنّعة أو مبتذلة؛ لأنّني كنت أبادله الأحاسيس نفسها، وشعرت مع قراءة كلّ رسالة له أنّني أقع أكثر في فتنة سحره وغوايته.

كنت بدوري أكتب رسائل إلى برنارد أيضاً، لكنّ واجباتي كانت تمنعني من القيام بذلك على نحو يومي، لذلك صرت أحتفظ بما أدوّنه في دفتر مذكّراتي اليومية، وأرسل إليه نفحات منه بانتظام. وبعد التلكّؤ في قراءة

رسالته، زحفت من تحت أغطية سريري، وأمسكت القلم والورق وبدأت الكتابة: هل أعجبتك البورتريه المصغَّرة لي التي أرسلتها إليك؟

أعلم أنّها لا تضاهي جمال لوحات جيوتو، ولكن آمل أن تساعدك على تخيّلي في قرية غرينتش مساء أمس، وأنا في حانة مع زميلتي دراسة من قدماء معارفي، ونحن نحتسي البيرة، ونثرثر عن الطريقة التي كانتا تعملان بها لتغيير مجتمعنا. إنّهما تتحدّيان قدرتي على التطوّر، وتحفزّاني على أن أصبح أفضل امرأة ممكنة، وأن استخدم منصبي الفريد لغرض أكبر وأعظم. أريد أن أكون تلك المرأة من أجل نفسي، وأريد أن أكون تلك المرأة من أجلك...

هنا توقّفت عن الكتابة لأتذكّر شيئاً كتبه لي برنارد في رسالته الأخيرة، ثم استأنفت الكتابة:

إنّ علاقتنا العاطفية لا مثيل لها في ما عرفته أو توقّعته من العلاقات قبلك. ربما قد يفاجئك أن يكون التفاهم الذي أجريتَه مع ماري يناسبني ويناسب وضعي بشكل جيّد. أنا امرأة عصرية ولي مهنة أديرها باستقلالية، ولست بحاجة إلى أن تشرح لي أيّ شيء يا حبيبي. فأنا حسناؤك...

الفصل الحادي والعشرون

02 حزيران/يونيو 1910

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

كانت نافذة مكتب السيّد مورغان الزجاجية المزيّنة بألوان زاهية نابضة بالحياة مفتوحةً، فتسلّلت منها نسائم دافئة ومنعشة شقّت طريقها إلى داخل القاعة. وللحظة شعرت بأنّ في وسعي التنّفس بيسر بينما كنت أجلس قبالة السيّد مورغان نلعب لعبة ورق البيزيك التي كانت منتشرة فوق طاولة مكتبه.

لقد ساعدني تيّار الهواء المتسرّب إلى القاعة على تخفيف الاختناق الذي كان يكتم أنفاسي سواء جرّاء وجود الطبقات القماشية الكثيرة التي كانت تغطي القاعة، أم بسبب دخان السيجار الذي كان ينفثه في جميع أنحاء المكتب، أو الاختناق الذي شعرت به من تزايد طلبات السيّد مورغان.

لم أعد أهتم -بل أتوقّع- الوقت والاهتمام اللذين يتطلّبهما السيّد مورغان عادةً، وخاصة عندما يكون لذلك انعكاس على مسؤولياتي المتزايدة في المكتبة وفي المجتمع. ولكن ابتداء من الخريف، وخاصة بعد عودة برنارد إلى أوروبا، أصبح السيّد مورغان يطلب مني أن أكون إلى جانبه في جميع جوانب حياته.

وبدأ الأمر بـ«دعوة» وجّهها إلي لحضور مأدبة عشاء عيد ميلاد عائلي لابنه جاك. لقد كانت مفاجأة؛ لأنّه لم يسبق له أبداً أن طلب مني حضور المناسبات العائلية. في البداية، اعتقدت أنّه كان لطيفاً عندما دعاني، لمّا

كنت قد ساعدته في التخطيط لتلك المناسبة، لذلك عبّرت له بكلّ أدب عن رفضي الحضور.

«إنّها بمنزلة عائلتك يا بيل، وهذه ليست دعوة عطف أو إحسان، بل أنا أطلب منك أنّ تكوني هناك، وعُدّيه أمراً.»

قبلت بالحضور؛ لأنّني فهمت ما يعنيه طلب السيّد مورغان: لقد أصبح حضوري لوظائفه العائلية، فجأةً لأسباب لا يعلمها إلا هو، جزءاً من وظيفتي. وعندما وصلت إلى منزله رحّب بي أفراد عائلته بالقدر الكافي، على الرغم من أنّ عبوسهم أخبرني أنّ حضوري كان مفاجئاً لهم تماماً مثلما فاجأتني تلك الدعوة عندما وجّهت إلي. لقد كانت تلك هي المناسبة الأولى من بين العديد من مناسبات السيّد مورغان الخاصة التي لا أنتمي إلى طبقة ضيوفها، لكن حضوري فيها كان إلزامياً. لقد أصبحت عنصراً ثابتاً وأساسياً دائم الحضور في المزيد من مآدب عشاء أعياد ميلاد الأسرة، بما في ذلك أعياد ميلاد الأحفاد، والتجمّع الصغير الذي كنا نحييه للذكرى السنوية للويزا، وحتى حضور الرحلة البحرية التي كنا نحييها على نخب إنجازات آن مع نادي كولوني، كما كنت مطالبة بالحضور أثناء العطل أيضاً.

لقد حيّرني ذلك التغيّر الذي لحق بالسيّد مورغان، ما جعلني أتساءل عمّا إذا كان بصدد إعادة التفكير في علاقتنا؛ لأنّنا لم ننتقل في ما يربطنا من المهني إلى الشخصي إلى ما بعد ذلك لنصل مرحلة الاندماج. كنت أقدَّم في كلّ حدث على أنّني أمينة مكتبته الشخصية، وتلك هي الطريقة التي عوملت بها. لكن ما بات واضحاً تماماً أنّ حاجة السيّد مورغان إلي أصبحت تزداد بقوّة.

أومض برق أزرق من خلال نوافذ الزجاج الملون في مكتبه، فتحوّلت معه تلك النسائم، التي تسلّلت سابقاً، إلى عاصفة غير متوقّعة هبّت على أوراقنا فوق الطاولة، فتناثرت، فأسرعت في ذلك الفضاء الرحب إلى جمعها، وأعدتها بشقّ الأنفس إلى مواقعها الأصلية، ثم بقيت أنتظر اقتناص اللحظة المثالية.

وقلت حين لعبت أول ورقة لي: «لقد سمعت أنّ مخطوطة هانز ميملينج المستنيرة قد تجلب إلى السوق في الأشهر القليلة المقبلة.» بدت لهجتي غير رسمية، كما لو أنّني لم أخطّط للقيام بذلك التعليق لعدّة أيام.

فأجابني السيّد مورغان من دون النظر إليّ: «أنت لم تخبريني بذلك.» ظلّ يتأملّ أوراق لعبه قبل أن يقوم برمي ورقته التالية. لقد كانت أفكاره مهتمة باللعبة وليست مهتمّة بكلماتي.

فعلّقت على كلامه وقلت: «نعم أنا متحمّسة لما قد تعنيه تلك المخطوطة بالنسبة إلى سمعة المكتبة لو أضفناها إلى مجموعتنا.» عادة كانت الإشارة إلى مكانة المكتبة تجعله ينتبه، لكنّه لم يكترث، بل واصل التطلّع إلى ما في يده من أوراق لعب.

لكنّني لم أستسلم فقلت: «أعتقد أنّ الحصول عليها قد يقرّبنا مسافة خطوة واحدة للتساوي أو حتى التفوّق على المتحف البريطاني والمكتبة الوطنية.»

وفي تفاعل مع تلك الكلمات نظر إلي من بين أوراقه. يبدو أنّني قد شددت انتباهه. «هل هذا مؤكد لديك؟»

فقلت بعد القيام بإيماءة غير رسمية: «بلى، ستجعل مجموعة المخطوطات المستنيرة الخاصة بك أكثر اكتمالاً من تلك الموجودة في المتحف البريطاني أو المكتبة الوطنية، فتلك هي المجموعات الوحيدة التي يمكن أن تتنافس مع مجموعتك. ناهيك عن أنّني لا أعتقد أنّ هناك أيّ مخطوطات مستنيرة أخرى كتبها هانز ميملينج، ومن ثم سيكون لديك الحظ في امتلاك هذه المخطوطة الفريدة.»

لقد كنت أعلم أنّ فكرة امتلاك المخطوطة الوحيدة لميملينج ستروق للسيّد مورغان. لقد اشتُهر هانز ميملينج، سيّد الرسم الهولندي في أوائل القرن الخامس عشر، برسمه لوحات هيكل المذبح، التي هي من بين المشاهد الدينية

في الكنيسة، كما اشتهر أيضاً برسم بورتريهات لأرباب عمله. والسيّد مورغان كان يعتزّ بامتلاك لوحتين لميملينج ويعدهما بالفعل أحد كنوزه الثمينة. وما كنت أقوله له كان حقيقة لا غبار عليها؛ فاقتناؤه لتلك المخطوطة سيعدّ انقلاباً هائلاً؛ لأنّها تعدُّ مخطوطة ميملينج المستنيرة الوحيدة. أما الكذب الوحيد فيما قلت فيكمن في أنّني أعتقد أنّ ما سيباع هو مخطوطة ليست في الواقع لميملينج، بل هي، في أغلب الظن، لسيمون بينينغ، لكنّ ذلك الإسناد لن يخدم أغراضي الحالية.

ثم قام السيّد مورغان بالتقاط سيجاره، وأخذ نفساً عميقاً منه، ونفث الدخان، وأخذ يتمتم، ثم سألني: «أممم، هل هذه المخطوطة لها اسم؟»

انتابني الخجل، فأنا كنت آمل ألا أضطرّ إلى الكشف عن ذلك الآن، فقلت: «يطلق عليها باللغة العامية اسم (ساعات دا كوستا)؛ لأنّها في الواقع مخطوطة كتاب يتحدّث فيه صاحبه عن الساعات التي كانت تمتلكها عائلة ساء من البيت الملكي في البرتغال، ويتضمّن شعارهم أسلحة دا كوستا.»

فصاح وأطلق ما يشبه زئير الأسد عند سماع اسم المخطوطة، وقال: «ستجعلنا تلك المخطوطة أثرياء يا بيل. هل مؤكّد لك أنّ إغواء هذه المخطوطة ليس له رابط باسم عائلتك؟»

آهِ من طبقات الأفكار والأسرار المبطّنة خلف تلك النكتة الصغيرة! لقد أُجبرت على إعادة الحديث إلى موضوعه الأصلي فقلت: «ألا تذكر ما أضافته مجموعة كاكستون للورد أمهيرست إلى مجموعة نسخك منها، وما ساهمت به من أجل بروز المكتبة؟»

أومأ برأسه في اشارة موافقة، فأضفت: «يمكننا أن نكرّر ذلك النجاح مرّة أخرى، لكن في هذه المرّة فقط ستزيد تلك المخطوطة من تفوّق المكتبة.»

فقال وهو يقهقه: «يا إلهي. كم أنا معجب بشجاعتك! لو كان للرجال الذين عملوا معي نصف جسارتك فحسب لأمكننا ذلك من إدارة السوق

المالية بأكملها بوحشية. آه، ليت ابني كان له نصف شجاعتك! أحياناً أظنّ أنّ زوجته، جيسي، لديها أكثر...» لقد ودّ أن يضيف المزيد من الكلام لإنهاء جملته، لكنّه لم يكن في حاجة إلى إنهائها، لذلك سمح لي بملء الفراغات بما يحلو لي؛ لقد سبق لي أن سمعت وجهات نظره بشأن ابنه جاك وزوجته من قبل، وكنت شاهدة عيان أيضاً على الكثير من المحادثات التي كان السيّد مورغان يحثّ فيها جاك على اتخاذ مسارات جريئة أثناء العمل مع الشركة، لكنّ جاك أصابه بخيبة أمل عندما اختار الطريق الذي كان أكثر أماناً.

سألني: «إذاً. ما خطّتك؟»

حافظت على الأسلوب غير الرسمي نفسه وقلت: «لقد سمعت شائعات بأنّ المخطوطة ستُعرض في مزاد علني في مدينة لندن»، ثم أضفت فكرة لاحقة فقلت: «سيتم ذلك في غضون بضعة أشهر.»

«وأنت تفكّرين في القيام برحلة إلى لندن لتقديم عطاءات بشأن تلك المخطوطة الموضوعة في المزاد العلني حال ترتيبه؟»

«كلامك صحيح جزئياً يا سيّدي، فأنا أودّ أن أكون في لندن في وقت المزاد، ولكن أودّ أن أحاول القيام بالمناورة نفسها، فأقتني مخطوطة (ساعات دا كوستا) مثلما فعلت مع نسخ كاكستون، التي كانت ملك اللورد أمهيرست؛ أي شرائها قبل بدء المزاد. وأودّ أيضاً زيارة إيطاليا، لا لإجراء بعض الاتصالات هناك فحسب، بل للقيام بجرد العديد من التحف الفنّية المحتملة والمعروضة للبيع في السوق بطرق غير رسمية.»

أومأ برأسه، فابتسمت له، إلى أن قال: «أعتقد أنّك قد تجدين نسخ كاكستون من رواية (موت آرثر) هناك أيضاً.»

تلاشت ابتسامتي بينما واصل حديثه: «لقد قُمْتِ خلال السنوات الأربع التي عملتِ بها بعمل رائع في بناء مجموعتي، لكن لدي شكوى واحدة فقط.» تنفّست الصعداء لأنّني كنت أعلم ما سيقوله، فأضاف: «أين هي

نسخة الكاكستون اللعينة من تلك الرواية يا بيل؟ هذا هو ما أريده حقاً، وأنت تعلمين ذلك منذ البداية.»

«كلّي تفهّم يا سيّد مورغان، وأعلم أنّ أعظم رغبة لي هي تأمين اقتناء تلك النسخة لك. ورغم ذلك، لا أعتقد أنّني يجب أن أتوقّف عن بناء مجموعتك في هذه الأثناء»، ثم توقّفت للحظة وأضفت: «أعدك بأنّني سأحصل عليها، ولكن، في الوقت نفسه، سيكون ذلك الكتاب إضافة مهمّة لمجموعتك، وأفضل طريقة لي للحصول عليه هي الذهاب إلى لندن.»

فقال في الأخير: «لقد نجحت تلك الخدعة بالفعل مع نسخ الكاكستون التي كانت ملك اللورد أمهيرست»، وأضاف بعد لحظة من التفكير: «سأوافق على طلبك للقيام برحلة إلى لندن وإيطاليا، لكن إذا استوفيت شرطاً واحداً.»

فقلت: «هل تقصد شرط مواصلتي البحث عن نسخة الكاكستون من رواية (موت آرثر)؟»مكتبة سُر مَن قرأ

فأجاب: «نعم. قومي بذلك، لكنّه ليس الشرط الذي أودّ أن أعلمك به.»

لم يكن ما يريده السيّد مورغان مني مهمّاً، فأنا مستعدّة للقيام بأيّ شيء كي أتمكّن في الأخير من رؤية برنارد مجدّداً. لقد أدركت أنّه إذا كنت سأراه، فسيتعين عليّ السفر إلى أوروبا؛ فبعد مرور ما يقارب عاماً ونصف العام، لم تكن هناك فرصة عمل لبرنارد للسفر إلى الولايات المتّحدة الأمريكية مرّة أخرى. لقد حان الوقت لي لإيجاد وسيلة لتأمين رحلتي إلى الخارج.

فقلت وكنت أعني ما أقوله: «أنا مستعدّة للقيام بأيّ شيء تريده.»

بقيت جاثمة على أطراف مقعدي، أنتظر سماع شرط السيّد مورغان للسماح بسفري، وأشاهده وهو ينفث دخان سيجاره السميك، إلى أن التفت إلي وقال: «يجب أن تعديني بأنّ الأسباب الوحيدة التي ستجعلك تقومين بهذه الرحلة هي الحصول على مخطوطة ميملينج، وإمكانية الحصول على

بعض كنوز عصر النهضة الإيطالي المجهولة، وأنّ هذه الرحلة ليست حيلة لمواعدة ذلك اليهودي بيرنسون.»

لم تتسنَّ لي رؤية ملامح ابتسامة بادية من تحت شاربه إلا حين تلاشى دخان السيجار. وفي الأخير تنفّست الصعداء، وتساءلت: هل كان يودّ إزعاجي فحسب؟ بقيت في شكّ من أمري، أما دقّات قلبي العنيفة فأبقتني جالسة على حافة مقعدي، وتمكنّت بصعوبة من الكلام بصوت هادئ وغير متقطّع، فقلت: «من المؤكد أنني سأقوم بهذه الرحلة بقصد تأمين مخطوطة ميملينج وغيرها من اللوحات التي من شأنها تلميع سمعة مجموعتك.»

وضع السيّد مورغان سيجاره، ومال إلى الأمام على مكتبه، وكان صوته ناعماً ولهجته حزينة إلى حدّ ما، عندما قال: «يا بيل إنّ ذلك اليهودي برنارد بيرنسون -لا شك- ليس جديراً بك لو كان بالفعل في مخيّلتك.»

لقد بدا السيّد مورغان للحظة كما لو أنّه كان يقوم بدور أبي، محاولاً حمايتي من شيء ما عن طريق تنبيهي، أو ربما كان أسلوبه أكثر تملّكاً لي من كونه حماية. فهل هذا هو السبب الذي جعله يذكر باستمرار عبارة «اليهودي» عندما يتحدّث عن برنارد؟ وهل يعتقد أنّه يستطيع التلاعب بي وردعي عن لقائه بسبب ما يشتبه في أنّه عرق برنارد؟

لكن لم تكن هناك أيّ وسيلة للسيّد مورغان لمعرفة أنّ تحذيره لا يعني شيئاً بالنسبة إلي. إنّه يتحدّث إلى بيل دا كوستا غرين، لكنّ بيل ماريون غرينر هي المرأة التي تعشق برنارد. لقد نجح برنارد، من خلال محادثاتنا ورسائلنا، في التأثير عليّ الى أن بلغ درجة امتلاك روحي.

بدأت أشرح للسيّد مورغان: «أؤكد لك أنّني حينما أكون في أوروبا، سأقوم بكل ما يفيد مكتبة بيربونت مورغان، وسأكون تماماً رهن أمرك وطوع بنانك مثلما كنت دائماً.»

نظر إليّ كما لو أنّه كان يدرك أنّني ما زلت لم أجبه عن سؤاله، ثم أومأ برأسه وقال: «بطبيعة الحال، ليس ذلك ما يشغلني؛ لأنّه بغضّ النظر عمن سترين أو ما ستفعلينه، أنت أمينة مكتبتي الشخصية، ويجب أن تتذكّري دائماً أنّك ملكي.»

الفصل الثاني والعشرون

14-8 آب/أغسطس 1910

مدينة لندن، إنجلترا

لقد أوجعتني وجنتاي من كثرة الضحك والفرح حين رست سفينتنا في ميناء لندن، ورأيت المعالم المألوفة للمدينة وهي تتجسّد أمام ناظري، ومعها بدأت أتخيّل المتحف والمجموعات الخاصة والأحاديث الفكرية النشطة المفعمة بالحيوية، بالإضافة إلى الأعمال الفنّية التي كانت تنتظرني، فصرت متحمّسة مثل حماسة طفل أثناء صباح عيد الميلاد.

بدا لقائي مع برنارد حتمياً ووشيكاً لا لأنّه مضى ما يقارب العام ونصف العام منذ أن رأيته في آخر موعد لنا فحسب؛ لقد مرّت الأسابيع العشرة، التي استغرقتها بين إذن السيّد مورغان لرحلتي ومغادرتي الفعلية للولايات المتّحدة الأمريكية، ببطء مؤلم.

كان السيّد مورغان قد أبحر للقيام برحلته المعتادة على متن سفينته التي كان يسميها القرصان الثالث، ومن دونه استعدت كلّ ما كان يشغل وقتي، وملأت جدول أوقاتي بحضور مآدب الغداء والعشاء مع محترفي الفنّ، وهم الوحيدون الذين بقوا في المدينة بعد أن غادرها الباقي من نخب المجتمع. لم تكن حتى ماما وأخواتي موجودين معي لإلهائي؛ لأنّهم كانوا في المقصورة التي قمت بتأمينها لهم في قرية توكاهو. وفي الأثناء حاولت ملء وقت فراغي بمخالطة مزيج من الأصدقاء والمعارف، الذين قابلتهم من خلال

كاترينا وإيفلين، من كتّاب، وفنّانين، وشخصيات سياسية، وراقصين، بمن في ذلك إيزادورا دنكان، وهي صديقة جديدة أُعجبت بها لتحديها الأعراف الاجتماعية وإصرارها على عيش الحياة بشروطها الخاصة، لكنّني ما زلت أشعر بأن شخصاً ما مفقود في حياتي، فلا أحد يمكن أن يملأ ذلك الفراغ سوى برنارد، وبقيت أحصي الأيام إلى أن غادرت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

والآن أنا هنا.

«آنسة غرين!»

لقد نادتني ماريا، الخادم الفرنسية التي استأجرتها، والتي وافقت على مرافقتي في الرحلة بوصفها وصيفةً مرافقة لي بدلاً من ماما.

التفتّ إلى تلك الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود الداكن، التي كانت تساعدني لا في ارتداء ملابسي في تلك الرحلة وفي المنزل وما يقتضيه ذلك الأمر من ارتداء للملابس الداخلية، وارتداء للقميص، ووضع المشدّات، والجوارب، والأربطة المطلوبة كل يوم فحسب، بل أيضاً كانت تعينني في تحسين امتلاكي اللغة الفرنسية؛ حيث كنّا نتخاطب بها في محاولة مني امتلاك طلاقة اللسان بتلك اللغة من خلال المزيد من التطبيق.

فأجبتها: «نعم يا ماري ما خطبك؟» كما هو الحال دائماً، كنت أحاول التواصل حصرياً بوساطة اللغة التي كنت بحاجة إلى الحصول على طلاقة حذقها، ففي نهاية المطاف كيف يمكن لي تقييم المخطوطات الفرنسية، إذا كان يجب عليّ الاعتماد على شخص آخر لترجمتها لي؟

خاطبتني باللغة الفرنسية، وقالت: «هل ترغبين في تفقّد أمتعتك؟»

أجبتها باللغة نفسها: «شكراً يا ماريا، فأنا أعوّل عليك للقيام بذلك.» لم تكن هناك حاجة لي إلى تفقّد حقائبي؛ لأنّني كنت أثق بماريا، فكيف يمكن لي ألا أثق بها، وهي التي وافقت على حيلة مرافقتي طوال رحلتي التي استمرت

ثلاثة أسابيع، في حين كان يتعيّن عليها في الحقيقة قضاء معظم الوقت في سويسرا في زيارة إلى عائلتها. وعلى الرغم من أنّني لم أخبرها صراحةً أن لي خططاً تتطلّب التحرّر من المرافقين، كانت تتفهّم إمكانية وقوع ذلك.

ثم دخّنت آخر سجائري خلسة، وهي أصبحت عادة بالنسبة إلي، والتحقت بباقي المسافرين من الدرجة الأولى قبل أن أتأهّب للنزول في المرفأ. كانت ماريا إلى جانبي ومعها مضيف الباخرة، وهما يحملان حقائبي. سرت على سقالة السفينة إلى أن نزلت في الميناء المزدحم. اختلط بخار السفينة بالضباب لإخفاء الأشخاص الذين كانوا ينتظرون خلف الحبل الأحمر، الذي كان يمثّل حاجزاً عند قاعدة الممر. امتزج صياح سائقي عربات الأجرة التي تجرّها الخيول بأصوات هتافات الأسر والأصدقاء الذين كانوا ينتظرون مسافريهم.

صرت أتأمّل الوجوه، وأدقّق في طابور الناس وراء الحاجز الأحمر. هناك رأيت مشاجرة بين طبقات العمّال والطبقة الراقية من المجتمع، ومثل ما وقع لي في آخر مرّة زرت فيها لندن، كانت هناك مجموعة مذهلة من أصحاب البشرات المختلفة تنافس في تنوّعها اختلاف الأعراق التي كنت أراها في شوارع مدينة نيويورك. لكنّني لم أرَ في ذلك المكان خيال شخص يشبه برنارد. انتابتني فكرة مؤرّقة؛ هل من الممكن أنّني نسيت وجهه بعد مرور عام ونصف العام؟

بمجرّد توقّف ذلك الحوار في داخلي، رأيته بلحيته البنّية المشذّبة بأناقة، ونظّاراته الدائرية الصغيرة التي كانت تخفي عينيه الفريدتين الرائعتين الرماديتين المائلتين إلى الخضرة، وقابلني وهو مبتهج ومسرور.

التفتّ إلى ماريا وقلت لها: «آه. انظري هناك، إنّه زميلي السيّد بيرنسون الذي اتفقت معه على اصطحابنا إلى فندقنا.»

فردّت ماريا، وهي مندهشة لسماعي وقد انصرفت عن استعمال اللّغة الفرنسية، وبدلاً من ذلك عدت للتحدّث باللغة الإنجليزية: «لا يمكنك أن تفعلي ذلك يا آنسة؟»

لقد أنساني فرط الحماسة والشوق لرؤية برنارد ضرورة تحسين مهاراتي في استعمال اللّغة الفرنسية، فالآن لم يعد ذلك يشغلني، كل ما يمكنني التفكير فيه هو كلمات برنارد في رسالته الأخيرة: إنّ حبي لك هو رحلةٌ آملُ ألا تنتهي.

تركتُ ماري ومضيف الباخرة خلفي، وسارعت للوصول إلى الجانب المقابل؛ حيث كان برنارد ينتظرني. وعلى الرغم من أنّني كنت أعلم أنّ ما أقوم به يكسر كلّ قواعد الآداب واللياقة، ويتعارض مع ما منعني السيّد مورغان من القيام به على نحو صريح في تلك الرحلة، وجدت نفسي أجري لأحتضن ذراعيه اللتين كانتا تنتظراني، فقام هو بدوره بالإحاطة بي وعناقي، ثم أدركت أنّه لا يمكنني أن أتمادى في ذلك السلوك إلا للحظة وجيزة فقط، وحتى في ذلك الحين لا يمكنني أن أفلت من نظرات أيّ من أبناء بلادي القادمين من مدينة نيويورك، الذين كانوا موجودين بالقرب مني؛ لذلك تملّصت بسرعة من قبضة برنارد، وتراجعت إلى الوراء.

ثم قلت بعد أن ألقيت ابتسامة صغيرة: «شكراً لك على استقبالي يا سيّد بيرنسون.»

فأجاب من دون أن يترك يدي: «إنّه لمن دواعي سروري أن أستقبلك يا آنسة غرين»، ثم خفّض من نبرة صوته ما اضطرّني إلى الاقتراب منه أكثر لسماعه، فقال: «لقد انتظرت هذه اللحظة لفترة طويلة، وخلتها لن تأتي أبداً يا بيل.»

فأجبته بالنبرة المنخفضة نفسها أيضاً: «لقد انتابني الشعور نفسه يا برنارد.»

«أنا متعطّش لأريك جميع أنحاء لندن، ثم آمل بعدها أن تسمحي لي بأن أقدم لك جميع الأماكن السرّية في إيطاليا لنزورها معاً ولا ثالث معنا.»

فأجبته، وقد رافقت صوتي نبرة أمل: «تماماً مثلما ذكرنا ذلك في رسائلنا التي كتبناها أحدنا إلى الآخر، أليس كذلك؟»

«بالضبط. ذلك هو ما سيحدث.»

فهمست في أذنه: «ومثلما أعلمتك في رسائلي إنّني أودّ أن أريك أماكني السرّية أيضاً عندما سنصل إلى إيطاليا وتغادرنا ماريا.»

شاهدت ردّ فعل برنارد الذي توقّعته منه، لقد تغيّرت ملامح برنارد الثابت والواثق من نفسه دائماً إلى اللون الأحمر النابض بالحياة، فجذبني إليه أكثر.

وقفنا نحدّق أحدنا في الآخر، ونتبادل الابتسامات العريضة مثل الأطفال السذّج. لم نتوقّف عن ذلك إلا عندما تنحنحت ماري خلفنا بينما كان مضيف الباخرة ينتظرنا إلى جانب حقائبنا الأربع الثقيلة التي كان يجب عليها أن تصل إلى وجهتها.

وفي غضون دقائق، وجدنا أنفسنا في الجزء الخلفي من عربة كانت تنتظرنا لتنقلنا إلى جناحي في فندق كلاريدج.

****

بدأت في الأيام التالية رحلتي وفق خط السير الذي صمّمه برنارد. لقد كنت مسرورة برفقته وتوجيهاته، فعاد الكتاب الذي طالعته في طفولتي عن رسامي مدينة البندقية إلى الحياة في ذهني. وظلّ يرشدني بوضوح جديد لم أعهده فيه من قبل عن طريقة اشتغال جمع العالم الدولي للأعمال الفنّية الراقية، ولخّصها في شبكة التجّار وجامعي التحف وأمناء المكتبات والمتاحف الذين كانوا يتحكمون في السوق، وفي تقرير شعبية القطع الفنيّة وتوافرها، وتأثيرهم على الأسعار. لقد أهدى إلي برنارد عدسة جديدة يمكنني من خلالها رؤية عالم الفنّ ومكانتي فيه، فانتابني الشعور بالانتماء والهدف في عملي مع

برنارد، وهو مشابه لما كانت كاترينا وإيفلين تشعران به في عملهما. تمنيت أثناء استمتاعنا بمشاهدة الفنّ، وفرحتنا بوجودنا معاً، لو كان من الممكن أن يكون برنارد إلى جانبي دائماً.

صرت أتوق إلى رؤيته أكثر، سواء تجلى ذلك من خلال الطريقة التي كانت فيها أناملنا تلامس بعضها البعض حين كنّا نمدّها في محاولة للوصول إلى قطع السكر في مأدبة الغداء، أم من خلال الطريقة التي كان يقودني بها بلطف أثناء عبور الباب من خلال إسناده لي بيده حين يضعها على أسفل ظهري.

لكنّنا لم نقضِ معظم أوقاتنا حصرياً برفقة أمناء المكتبات والتجّار والخبراء وجامعي التحف الفنّية. لقد قال لي برنارد في صباح اليوم الثالث، حين كنا على مائدة الإفطار في مطعم الفندق: «أعلم أن لديك موعداً قبل المزاد بعد ظهر هذا اليوم، لكنّني وضعت برنامجاً خاصاً لنا لتناول الغداء اليوم.»

فأجبته: «أنا أتطلّع إلى زيارة أيّ مؤسسة رائعة ستختارها. وأنت تعلم أنّه باستثناء موعدي اليوم سيكون كلّ وقتي ملكك»، ثم توقّفت للحظة وأضفت: «وعندما سنصل إلى إيطاليا، سيكون كلّ شيء آخر ملكك أيضاً.»

لم يعد برنارد مندهشاً من جسارتي، فبادلني الغزل نفسه حين مال نحوي إلى درجة أنّني خلت أنّه كان يقترب مني للهمس ببعض الكلمات الملهمة، لكنّه قال: «إنّ البرنامج الخاص الذي ذكرته لكِ للتو لا أعني به تناول الغداء في مطعم خاص، بل الرفقة التي سنحظى بها، فماري ستلتحق بنا.»

لقد صدمتني كلماته فقلت: «ماري؟ زوجتك؟»، كما لو كانت هناك ماري أخرى في حياته.

فشرح لي الأمر كما لو أنّ مثل ذلك الاجتماع بها طبيعي تماماً: «إنّها في طريقها إلى أكسفورد للقيام بمهمّة عمل وأرادت رؤيتك.»

وانهالت عليّ الأسئلة؛ لماذا تودّ رؤيتي؟ ولأيّ غرض؟ ربما كانت ستكون رفقة ماري لي منطقية لو ظلّت رغبتي في زوجها مجرّد فكرة معشّشة في رأسي وقلبي، ولكن الآن بعد أن تمّ الاعتراف بمشاعرنا والتصريح بها للعلن، شعوري مختلف تماماً. ولكن كيف يمكن لي أن أقول لا، وأنا على وشك الشروع في إقامة علاقة غرامية مع زوجها؟

تنفّست الصعداء حين تذكّرت ما رأيته من زيجات غريبة وعلاقات رومانسية غير عادية في قرية غرينتش، حين كنت برفقة كاترينا وإيفلين. لقد حضرت حفلات يرتدي فيها الرجال ملابس النساء؛ كما قابلت مجموعة من ثلاثة أشخاص؛ رجل وامرأتين، يعدّون أنفسهم أزواجاً؛ حتى خارج تلك القرية علمت بزيجات المثليات.

تركت برنارد في المطعم، وعدت إلى غرفتي، وحاولت أن أصرف انتباهي، وأسلي نفسي بكتابة رسالة إلى ماما، لكنّ أفكاري كانت تشرد بعد كلّ كلمة أكتبها لتعود إلى الغداء الذي كان في انتظاري. وفي الأخير وضعت قلمي، وتوقّفت عن الكتابة، بعد أن كتبت جملتين فقط. لم يكن في وسع أيّ شيء صرف انتباهي عن ذلك الغداء المبرمج، ولا حتى محادثة وصيفتي ماريا باللّغة الفرنسية استطاعت أن تلهيني.

ثم شعرت بالارتياح عندما حان وقت الاهتمام بمظهري وبما سألبس؛ لقد كان لذلك الانشغال على الأقلّ القدرة على إعطائي شيئاً أركّز فيه. لقد شدّت ماريا أربطة فستاني البنفسجي هذا الصباح، لكنّني قرّرت أن أغيّره، وأرتدي فستاناً أكثر احتشاماً، فأنا لا أعتقد أنّه يجدر بي أن أكون أمام زوجته جريئة في ملابسي وسلوكي. لقد اخترت ارتداء فستان رمادي جديد؛ كان الأكثر تحفظاً من بين كل الثياب التي جلبتها معي، وساعدتني ماريا في شدّ ثنايا ذلك الفستان الداكن.

أخذ قلبي يخفق بعنف بينما كنت أمشي على الدرج الواسع، ثم أعبر إلى مطعم الفندق. لمحت، وأنا أسير فوق الدرج السفلي، برنارد وماري جالسين حول طاولة تقع في أحد أطراف المطعم، وتساءلت في داخلي: منذ متى يا ترى هما جالسان هناك يتحدّثان؟ انتابني شعور بضرورة الإسراع بالعودة، وهممت بأن أعود أدراجي، ولكن قبل أن أتمكّن من القيام بذلك، رآني برنارد ولوّح لي بيده.

لقد كان وجها الزوجين بيرنسون دافئين ومرحبين حين اقتربت منهما وصافحتهما، ثم وقفت ماري ومدّت يدها لمصافحتي، ثم قبّلتني قبلتين على خدي. كم كان ذلك السلوك غريباً! ثم قالت: «سعيدة برؤيتك مرّة أخرى يا بيل.»

فأجبتها، وكنت آمل أنّها لن تلاحظ أيّ رعشة في صوتي: «وأنا مسرورة برؤيتك أيضاً.»

استمر برنارد وماري في الدردشة أثناء تطلّعنا إلى قائمة الأكل، وأمرنا بجلب الأطباق التي اختارها كلّ واحد منا، أما أنا فبقيت جالسة بصمت في تلك الأثناء. لقد كان من الصعب عليّ التعبير بأيّ جملة ذات مغزى.

في الأخير التفتت ماري إلي وسألتني بمنتهى البساطة والبرود، كما لو أنّنا كنا نتحدّث عن موضوع روتيني تافه مثل التكهّن بحالة الطقس: «إذاً، ستغادرين لندن في غضون أيام قليلة، وستتوجّهين إلى إيطاليا؟»

أومأت برأسي؛ لأنّني لم أعد أثق بقدرتي على الكلام.

فسألتني: «وهل سبق لك أن زرت إيطاليا من قبل؟»

في هذه المرّة قمت بهز رأسي.

فنظرت إلى زوجها، وابتسمت، وقالت: «مؤكّدٌ لدي أنّك ستقضين وقتاً رائعاً مع برنارد.»

احمرّت وجنتاي من الخجل، ولم أجد أي ردّ مناسب. لقد سبق لي أن جلست مع أفراد عائلة فاندربيلت، وحضرت حفلات مع عائلات مثل روكفيلر وكارنيجي، وعملت مع جي بي مورغان الشهير، لكن لم يسبق لي في حياتي أن شعرت بأنّني في المَكان والزَّمان الخطأ.

وعلى الرغم من أن ماري وبرنارد واصلا محادثتهما اللطيفة عن مطاعم لندن والمزادات القادمة، كانت مناقشتهما تحدث من دوني، باستثناء اهتزازي العرضي أو إيماءات رأسي. لقد شعرت كأنّني عاهرة، وأنّ كل ما يمكنني فعله هو البقاء معهما على الطاولة نفسها؛ فكيف يمكنني أن أكون مرتاحة مع زوجة الرجل الذي أحبه؟ الرجل الذي خطّطت لأن أقضّي معه رحلة رومانسية في إيطاليا لا تتسع إلا لكلينا فقط.

اقتنصت رنين الساعة الحائطية للمطعم مرّتين لأعتذر منهما وأغادر، وقد ساعدني عذر موعدي لأبرّر سبب المغادرة، فقالت ماري، وهي تلقي نظرة خاطفة على طبقي: «لكنّك بالكاد أكلت.»

فأجبتها: «لقد كان الأكل لذيذاً إلا أنّني لا بد لي من تلبية نداء الواجب. شكرا جزيلاً لمنحي وقتكما الثمين.»

نهضت ماري حال نهضتُ واحتضنتني، وقالت: «مؤكّدٌ أنّنا سنلتقي مجدّداً. ربما سنلتقي في المرّة القادمة في إيطاليا؟»

شعرت بالارتياح؛ لأنّ مأدبة الغداء قد انتهت بسلام، لكنّني قبل أن أصل إلى عتبة أبواب المطعم سمعت صوت برنارد وهو يقول: «آنسة غرين، انتظريني من فضلك.»

وقفت والتفتّ وقلت: «نعم، يا سيّد بيرنسون ما خطبك؟»

فقال: «أودّ مرافقتك إلى اجتماع ما قبل المزاد.»

انتظرت اقترابه مني، ثم سألته بهدوء: «هل مؤكّدٌ لديك أنّ زوجتك ستقبل؟»

فقال بشكل مباشر: «بل هي من شجّعتني على الانضمام إليك يا بيل؛ إنّها تراك شابة رائعة وجميلة، وتتمنى لي أعظم السعادة معك.» لا بد من أنّ نظرة اندهاشي هي التي جعلته يستمر في الحديث، فأضاف: «أعلم أنّ مظهرنا، بوصفنا زوجين أنا وماري، يبدو رائعاً للغاية، لكنّ علاقتنا، على الرغم من أنّها مبنية على الاحترام وعلى عشقنا المشترك لعملنا، لم تعد علاقة حب رومانسية.»

أشعرتني كلماته بالارتياح فقلت: «قد يبدو ذلك استثنائياً بالنسبة إليك يا برنارد، لكنّني سعيدة لسماع ما قلت. إنّ الترتيب الذي وضعته مع زوجتك ونوع العلاقة التي تبحث عنها معي يناسبني تماماً مثلما عبّرت لك عن ذلك في كلّ رسائلي، لكن أن أكون معك أثناء حضورها ذلك يثير فيّ شعوراً غريباً.»

دخلنا معاً إلى الردهة المزيّنة على نحو فاخر في دار بونهامز للمزادات، كان ينتظرنا هناك خبير القرون الوسطى، وهو زميل جاد في عمله ذو وجه مربّع يعرف باسم السيّد تايلور. كنت سعيدة لأنّ برنارد كان يقف إلى جانبي. لقد قضيت عدّة أيام وأنا أشاهد براعته الفنّية، وكيف كان زملاؤنا في لندن راضين عن أدائه؛ فقلت في نفسي هذه هي فرصتي لأبيّن له براعتي المهنية وحرفيّتي.

عبرنا الردهة، وانتقلنا إلى مدخل ضيّق في اتجاه الحجرة التي كانت تحتوي على مخطوطة كتاب الساعات. كلّ الموظّفين كانوا يتزلّفون إلي، ويعاملونني بودّ زائف. حين دخلت تلك الحجرة بمساحتها الصغيرة، صرت محاطة ببرنارد والسيّد تايلور ومساعديه، فقمت بارتداء قفازات بيضاء كان يحملها لي أحد المساعدين، وبدأت فحص المخطوطة. لقد كان الكتاب منظوماً مثل أيّ كتاب مثالي عن الساعات بصفحات مرتّبة بالتناوب بين المروج المزيّنة بشكل رائع، ونصّ قوطي مستدير، ولوحات مصغّرة رائعة

تصوّر مشاهد فصول السنة المختلفة، ثمّ تمثيلات فكرية للعمّال الريفيين الضروريين لكلّ شهر، لكنّ الألوان كانت نابضة بالحياة مثل اليوم الذي رسمت فيه منذ ما يقارب خمسمئة عام، ولقد كادت عبقرية ما فعلته الفرشاة أن تأخذ أنفاسي. ومن غير المستغرب هنا تسلّل ذكريات والدي إلى أفكاري، وكم كان بابا سيعشق تلك التحفة الفنّية، وسيتعجّب من اقترابي إليها.

آه، كم أريد أن تكون هذه المخطوطة ملك مكتبة بيربونت مورغان!

فقلت: «إنّ المكان ضيّق جدّاً»، وأخذت أحرّك يدي بحثاً عن التهوية. لقد كنت في حاجة إلى أن أترك وحدي مع برنارد والسيّد تايلور في تلك الغرفة. وتمثيل دور السيّدة التي تعاني من الخوف الدائم من الإغماء كان إحدى الطرائق لتحقيق هدفي.

أخرج السيّد تايلور مساعديه من تلك الحجرة الصغيرة، بينما عدت أنا إلى مهمتي، ثم سألته من دون أن أرفع عيني عن المخطوطة: «هل مؤكّدٌ لك أنّها لميملينج؟»

ضحك السيّد تايلور كما لو أنّني قلت مزحة، وقال: «إذا كان إسناد هذه المخطوطة جيّداً بما فيه الكفاية، ويعود إلى السيّد المحترم برنارد كواريتش، فأنا أعتقد أنّ ذلك كافٍ بالنسبة إلينا.»

لقد كان السيّد تايلور بإشارته إلى كواريتش، الذي يمثّل أحد أبرز بائعي الكتب في القرن الماضي، يأمل إسكاتي، فقلت: «بإمكاني رؤية شعار عائلة دا كوستا هنا.» عدت بحذر شديد إلى تأمّل إحدى الصفحات الأولى للكتاب، ثم أضفت «ولكن مثلما أنه مؤكّد لدي أنّك تعرف، تحتوي تلك الصفحة على عدّة طبقات من الطلاء، لذلك لا يمكننا أن نجزم على وجه اليقين متى تمّت إضافة شعار النبالة، ومن ثم لا يمكننا أن ننسب السلالة الملكية البرتغالية إلى ذلك الشعار وحده؛ فهل لديك مصدر يشتمل على مستندات إثبات إضافية؟»

أصبح السيّد تايلور يتأفّف ويجاهد نفسه من أجل الحصول على الكلمات. يبدو أنّه كان غير معتاد على تحديه والطعن في آرائه، فقال: «مؤكد هذا يا آنسة غرين، اعذريني سأغيب للحظة لكي أحضر لك تلك الوثائق؟»

أومأت له برأسي، ثم عدت لأشغل نفسي بتأمّل صورة مصغّرة فاتنة لرجل يجزّ الأغنام، وكانت المشاهد الرعوية التي تزين المروج ساحرة. وبمجرّد أن سمعت السيّد تايلور وهو يخرج ويغلق الباب خلفه، التفتّ إلى برنارد وقلت له: «هلا تكرّمت، وحرست الباب لمدّة دقيقة؟»

فأجابني بفزع: «ويحك ماذا ستفعلين؟-.»

«على رسلك التزم الهدوء!» قمت بنزع القفاز الأبيض من يدي اليمنى، ولعقت إصبع سبابتي، ثم قمت بتمريره على طول حافة أحد المشاهد المجيدة المرسومة في المخطوطة.

فقال برنارد وقد بدا مرعوباً: «ويحك يا بيل.»

فقلت: «إذا كانت المخطوطة مزوّرة فإنّ الطلاء سيمحى على الفور.»

فاحتجّ وقال: «لكنّك بذلك يمكنك أن-»

أبقيت نظري مثبّتاً على حركة يدي، وأسكتّ برنارد مرّة أخرى، ثم رفعت سبابتي صوب الضوء، وفركتها بإبهامي. وعند فحص أصابعي لاحظت أنّها ظلّت نظيفة؛ فالطلاء لم يمح، وظلّ في مكانه، فقلت بيني وبين نفسي: «جيّد جدّاً!»

ثم فتح الباب من جديد، ودخل السيّد تايلور، ومعه بين يديه حزمة من الأوراق جمعها على عجل، وقال: «ها أنا ذا يا آنسة غرين»، فتظاهرت بإلقاء نظرة على تلك الوثائق بينما واصل هو تقديم اعتذاراته، وقال: «اسمحي لي أن أعرض عليك مصدر تلك الوثائق، وأعتذر لأنّه لم يتم تجميعها بشكل منظّم-.»

تركته يشرح وأنا مركّزة ومسرورة في الآن نفسه. في نهاية المطاف، أومأت له برأسي وقلت: «هل تقبل بعشرين في المئة على سعر الطلب الأولي؟ الآن، قبل أن يبدأ المزاد؟»

فاندهش السيّد تايلور، ومعه سمعت لهاث برنارد. لقد تلعثم خبير بونهامز للعصور الوسطى، وقال: «آ-آنسة غرين لم يحدث لنا ذلك هنا من قبل. أنت لا تدركين معنى ذلك لكونك أمريكية.»

حدّقت في الرجل وقلت: «ماذا تعني يا سيّد تايلور؟ هل تعني أنّ هذا النوع من الصفقات لا يمكن القيام به في إنجلترا؟ إذاً، لماذا تسنى لي قبل عام ونصف العام من الآن القيام بتفاوض استباقي مع اللورد أمهيرست بشأن نسخ الكاكستون، التي كانت ملكه بعيداً عن مزاد لندن؟»

بهت مما قلت وأجاب: «إذاً. أنت هي من قام بذلك؟»

فأجبته: «نعم.»

فقال: «لقد سمعت الشائعات؛ في الحقيقة لقد سمعناها جميعاً، لكنّني لم أكن أعرف أنّها صحيحة، ورغم ذلك، ما آسف له -يا آنسة غرين- أنني ببساطة لا أستطيع خرق البروتوكول وبيع المخطوطة لك قبل المزاد.»

أخذت أجوب تلك الحجرة الضيّقة جيئة وذهاباً، وأحوم حول السيّد تايلور كما لو أنّه كان فريستي، وهو بطريقة ما كان كذلك، ثم قلت في الأخير له: «أتساءل كم ستدر عليكم تلك المخطوطة من أموال في مزاد علني عندما يسمع مقدمو العروض الشائعات بأنّها ليست لميملينج.»

«ماذا تقصدين؟ هل تعنين أنّك مستعدّة لنشر تلك الشائعات البذيئة مقابل حصولك على هذه المخطوطة؟»

بدا سخطه مبالغاً فيه، وأنا في الواقع توقّعت ردّ الفعل هذا، وحان دوري للتعبير عن الصدمة والفزع، فاخترت تعبيراً مناسباً بدا على ملامح وجهي،

وقلت: «كيف تجرؤ على التشكيك في نزاهتي! أنا لن أنشر أيّ شائعات بذيئة، بل أودّ أن أتقاسم الحقيقة مع زملائي مقدمي العروض بذكر أنّ كتاب الساعات ليس لميملينج.»

فقال: «ما خطبك؟» رأيت انزعاجه في ملامح عينيه. لقد بدا محاصراً، لكنّه رغب في أن يتمادى في ردّ فعله، فقلت له: «إنّ مخطوطة دا كوستا، التي لها، بالمناسبة، مصدر لا أود أنّ أعترض عليه، لم يرسمها هانز ميملينج أو مدرسته في القرن الخامس عشر، ولم يرسمها حتى جيرارد ديفيد في أوائل القرن السادس عشر، بل تم رسمها من قبل الرسّام الفلمنكي سيمون بينينغ في منتصف القرن السادس عشر، ولدي وثائق لإثبات هذا الادعاء»، وأخرجت الوثائق التي ترجع المخطوطة إلى بينينغ من حقيبتي.

فأجابني السيّد تايلور بشرر متطاير من غضب غير مفهوم، فقلت له: «إنّ القول إنّ بينينغ هو من رسم كتاب الساعات لا يزعجني البتّة. وفي الواقع، بحسب وجهة نظري وحتى بحسب وجهة نظر السيّد مورغان، ستحقّق تلك المخطوطة فائدة كبرى، فنحن معجبون جدّاً ببينينغ؛ لأنّه، في نهاية المطاف، ذلك المستنير الفلمنكي العظيم، وكان يحظى بتقدير كبير في زمانه. لكن لا يمكنني القول إنّ مقدمي العروض الآخرين سيكونون سعداء بتلك الحقيقة، إلا أنّ معظمهم سيكونون هناك لتأمين إضافة مخطوطة ميملينج إلى مجموعاتهم الفنّية، أو الحصول على مخطوطة ديفيد على أقل تقدير»، ثم توقّفت لبرهة وأضفت: «وأتخيّل أنّ تلك الحقيقة ستخفّض من قيمة المخطوطة المادية بشكل كبير عندما يعلمون أنّ كتاب دا كوستا للساعات هو في حقيقة الأمر لبينينغ.»

استعاد السيّد تايلور صوابه، ومعه عاد صوته الجليدي، وقال بشكل إيجابي، بعد أن استبدل بكلّ ردود أفعاله السابقة سخطاً بارداً: «ماذا تريدين مني يا آنسة غرين؟»

حافظت على مخاطبته بصوت واضح، كما لو أنّنا كنا نتحدّث عن حالة طقس جيّدة، وقلت: «لقد خلت نفسي أنّني كنت واضحة تماماً معك يا سيّد تايلور، فهل يوجد داعٍ لتكرار ما قلت؟ أودّ شراء كتاب (ساعات دا كوستا) اليوم لمصلحة مكتبة بيربونت مورغان، وأنا على استعداد لأن أدفع لك عشرين في المئة على سعر المزاد الابتدائي.»

شعرت بفرط قوّتي، فكم يوجد من النساء اللاتي تتاح لهنّ الفرصة لإبداء براعتهنّ الفكرية وهيمنتهنّ المالية، حتى لو كانت مستمدّة من قوّة أخرى، ليتفوّقن على الرجل؟ والسؤال الأكبر، ذلك الذي كان يتجاوز حدود تفكيري، هو كم من امرأة صاحبة بشرة ملونة حظيت بتلك الفرصة؟ لقد كان ذلك الإحساس مبهجاً وذا مفعول إدماني لأسباب كثيرة.

اتفقنا على إبرام تلك الصفقة وفق بنود حدّدناها معاً، واستأذن السيّد تايلور وخرج من الغرفة لإعداد الوثائق اللازمة لتلك الصفقة. وبمجرّد أن أصبحت أنا وبرنارد وحدنا حدّق فيّ، وهزّ رأسه، وقال، بعد أن صفّر بصوت منخفض: «يا الله كم كان عملك بارعاً! أنا لم أر قط تفاوضاً يدار بتلك المهارة القاتلة والجرأة الدموية.»

فأجبته بكلّ فخر: «إذا لم أتخذ تلك الإجراءات الجريئة، فلن أحصل على نتائج واضحة، وربما سأخدع بشراء مخطوطة مزوّرة، أو ربما سأفوّت شراء تحفة قيّمة أمام منافس شرس ربما أكون قد قلّلت من شأنه. وجرأتي هي السبب في جعل مجموعة مكتبة بيربونت مورغان في طريقها إلى أن تصبح استثنائية.»

سحبني برنارد نحو الباب المغلق، ومنع الوسيلة الوحيدة التي تمكّن أيّ شخص من الدخول أو الخروج من تلك الحجرة الصغيرة، وانحنى عليّ وقبّلني بعنف لمدّة طويلة، وبحلول الوقت الذي أفلتّ فيه منه أصبحنا نلهث معاً فقال: «ليتنا كنا بالفعل في إيطاليا.»

وظلّ قلبي يخفق بعنف، فرغبتي كانت تتطابق مع رغبة برنارد، ولما كان الشوق مازال يسري فيّ قلت له: «وأنا أتمنى ذلك أيضاً.»

حدّق فيّ وهمس: «أنت إنسانة استثنائية!»

الفصل الثالث والعشرون

18 آب/أغسطس 1910

مدينة فيرونا، إيطاليا

لقد حظينا بفرصة أن تتشبَّثَ أيادينا بعضها ببعض ونحن نتنزّه في شوارع مدينة فيرونا المرصوفة بالحصا الصغيرة. كانت لمسة إصبعه لكفّي تثير رعشات تسري في جسدي وأنا أرتعشُ، لا بسبب المخاطر التي كنّا نواجهها فحسب، بل بسبب الذُّعر الذي غمرنا في ذلك المساء.

لم نجرؤ أنا وبرنارد على إظهار مشاعرنا للعلن حتى الآن، فذلك يُعدّ أمراً خطيراً للغاية؛ إذ كان من المستحيل على أي رجل وامرأة السفر معاً بمفردهما من دون حتى رفع الحاجبين. لقد أدى قرب خادمي ماريا مني، ووجود زملائي، إلى تأخير علاقتنا الحميمة أثناء قيامنا بجولة في العاصمة الإنجليزية، ولم نتمكّن من التخلي عن حذرنا حتى على متن قطار الشرق السريع الذي حملنا إلى إيطاليا.

لكن الآن، ونحن في مدينة فيرونا، التي تبعد مئتي ميل عن شمال فلورنسا، يمكننا الاسترخاء، وتجاهل حذرنا المفرط. لقد قمنا بتحديد خطّ سير الرحلة الخاص بنا حصرياً ليمرّ بتلك المدن الإيطالية الصغيرة المتباعدة، كي نتمكّن من أداء دور العاشقين المجهولين.

كنت أنظر إلى برنارد وأبتسم. لقد بدا وجهه مشرقاً ونوره مستمدّاً من الداخل، فزاده النور الذهبي العظيم للشمس في أواخر الصيف جمالاً على

جماله. استمتعنا بالنزهة في شوارع مدينة فيرونا تحت أشعّة الشمس المنتشرة، التي ارتفعت درجة حرارتها، لكنّها لم تكن تلفح وجوهنا؛ لأنّنا كنا في وقت متأخّر من ساعة ما بعد الظهر، فأنعشتنا أشعّتها وبثّت فينا الدفء.

عندما وصلنا في البدء إلى محطّة القطار في وقت سابق من ذلك اليوم، اقترح برنارد امتطاء عربة نقل قائلاً إنّ المسافة التي تفصلنا عن موعدنا كانت بعيدة جدّاً، وإنّ كعب حذائي الرقيق لا يقدر على تحمّل مشيها. لكنّني أصررت على المشي، وسرّني أنّني فعلت ذلك، وإلا فكيف يمكن لي أن أستمتع برؤية مباشرة لحياة تلك المدينة الحافلة الصاخبة الرائعة؟ وكيف يمكنني استنشاق الرائحة الفوّاحة لأجبانها التي كان يعبق بها السوق الذي كان يقع خارج وسط المدينة القديم على شكل قطعة من الألماس، أو ما يسمى باللّغة الإيطالية ساحة ديلي إربي، بالإضافة إلى رائحة البخور التي كانت تنبعث من عديد الكنائس الكاثوليكية المبنيّة من الحجارة التي مررنا بها؟ ومن دون المشي بين سكّان المدينة، كيف يمكن لي أن أعرف أن لون بشرة السكّان المحلّيين كانت تتطابق مع لون بشرتي، وتدعم مزاعمي بأصولي التي تعود إلى جنوب أوروبا؟

وإلا فكيف يمكنني تجربة الإحساس بالعودة إلى الوطن إلى مكان لم أزره من قبل، ومع رجل أشعر بأنّني عرفته طوال حياتي كلّها؟

فقال برنارد: «انظري يا بيل!»، وأشار إلى وجود فراغ بين مبنيين، ثمّ أضاف: «ألقي نظرة على التلال فوق نهر أديجي.»

فصحت وقلت: «يا الله!»، ونظرت عبر المدينة التي كانت تعانق ضفاف النهر المتعرّج عبر التلال القريبة، وأضفت: «إنّها الخلفية نفسها التي استخدمها فيرونيز وأنتونيلو دا ميسينا في لوحاتهما.»

لقد كان الفنّ ينبض بالحياة في تلك البلدة الإيطالية وتلالها، فتريّثت لأمعن النظر في تلك المشاهد الطبيعية المتماوجة باللونين الأخضر والذهبي وسط تلك المباني القديمة، متعجّبة من المشاهد التي لا تحصى، تلك التي التقطها فنانو عصر النهضة، وسعوا إلى رسمها، وسمحت لنفسي بأن تجتاحها تلك الألوان المتلألئة. تخيّلوا معي أنّ الأمر بلغ بي تذكّر الفترة حين كنت فتاة صغيرة، مفتونة بفنون العصور الوسطى وعصر النهضة إلى جانب بابا. ليتني كنت أعلم أنّني سأقف في يوم من الأيام أمام التلال التي ألهمت روائعي الحبيبة برفقة الرجل الذي كتب أطروحته النهائية عن الفن الذي كان عزيزاً جدّا عليّ وعلى والدي.

لامس إصبع برنارد ذراعي، فارتعشت، وقال لي بحنان: «أكره أن أبعدك عن هذا المشهد الجميل يا حبيبتي، لكنّني مضطرّ إلى القيام بذلك، فأمامنا موعد مهم في الكنيسة.»

تشابكت أصابعنا بشكل طبيعي، كما لو أنّنا كنا زوجين منذ زمن بعيد، وتجوّلنا بين كتل المباني الأربعة المتبقّية، ثم مررنا بهياكل من القرون الوسطى بنيت من الطوب الأحمر تتخلّلها مباني عصر النهضة الرخامية على خلفية جدران قلعة ذات شرفات. وسرنا وقد صاحبنا الصمت نحو الكنيسة الرومانية التي كانت وجهتنا، واسمها كنيسة سان زينو ماجوري.

عبرنا الأبواب البرونزية لندخل إلى الصحن، فغمرنا الضوء متعدّد الألوان الذي كان يتسلّل عبر نافذة الكنيسة الوردية التي تعود إلى القرن الثالث عشر. لقد أحدث كعب أحذيتنا قعقعة في ذلك الفضاء الشاغر. وعندما وصلنا إلى هيكل المذبح، أشار برنارد إلى تحفة أندريا مانتينيا ثلاثية الأبعاد المعلّقة فوقه.

لقد كانت المرّة الأولى التي رأيت فيها لوحة أندريا مانتينيا ثلاثية الأبعاد في صفحات كتاب برنارد. وعلى الرغم من أنّني استمتعت برؤية تلك النسخة حينها، تبقى مجرّد صورة لا تنصف المشاهدة الحقيقية لهيكل مذبح سان

زينو الفعلي، برسم واقعي للسيّدة مريم العذراء الملائكية الحزينة، وهي تحمل وليدها المسيح في حضنها، محاطة بالقديسين وبملائكة مجنّحة غنّاء.

قال برنارد: «عندما ننظر إلى هذه اللوحة يا بيل، فإنّنا سنرى عبر الزمن، ونشاهد حرفياً تطوّر فهم فنّاني عصر النهضة للفضاء التصويري. لقد خلق أندريا مانتينيا الرسم المنظوري، الذي ألهم ليوناردو دافينشي»، ثم أشار إلى عدد قليل من الأجهزة المعمارية والشخصيات التي كانت صغيرة في الحجم على خلفية اللوحة، ثم أضاف: «في أحد المستويات، لا يزال لديك صورة مسطّحة ثنائية الأبعاد رسمت في العصور الوسطى لإحدى الشخصيات الرئيسية. ورغم ذلك، خلق الوهم من الفضاء ثلاثي الأبعاد. لقد ألهمني جمال هذه الكنائس الإيطالية باعتناق الديانة الكاثوليكية الرومانية.»

لاحظت ذلك الفرح الذي رافق صوته عندما نظر إليَّ وقال: «هل أنت بصدد البكاء يا حبيبتي بيل؟ إنّك أكثر المخلوقات سحراً»، ثم أخرج منديلاً قماشياً مطرّزاً من جيبه ومسح عيني وقال: «لقد حدث لي الشيء نفسه عندما وقفت لأوّل مرّة أمام تلك التحفة الفنّية الرائعة. وفي تلك اللحظة، التي وقعت منذ سنين خلت عندما كنت لا أزال شاباً أعيش على الكفاف في مدينة فلورنسا، أحببت تلك اللوحة وأعمال عصر النهضة بطريقة فريدة لم ينتهجها أيّ أحد قبلي منذ فترة طويلة. لقد تم نسيان الكثير من الفنانين وأعمالهم، وأدركت أيضاً أنّه من خلال إعادة تقديم ذلك الفنّان المغمور في عصر النهضة جنباً إلى جنب مع الرسامين والنحّاتين الموهوبين الآخرين إلى العالم الحديث، سيتسنى لي إيجاد مكانة نبيلة بين رعاة الفنّ الأثرياء، وتأمين مرتبة اجتماعية لائقة بي ضمن الطبقة التي لم أكن قد وُلدت فيها مثلما فعل حرفيو عصر النهضة، ومثلما فعلت أنت في حدّ ذاتك. أنت وأنا مخلوقان نمثّل عصر النهضة.»

ثم أمسك بكلتا يدي فتشابكت أيدينا بعضها ببعض، وقال: «أعتقد أنّ تلك هي أحد الأسباب التي تجعلنا نشعر أحدنا بالآخر بالطريقة التي نتصرّف وفقها؛ فنحن متشابهان في نواحٍ كثيرة، وبعضها تفاصيل لا تكاد تذكر»، ثم سحبني أقرب إليه وهمس: «أشعر بأنّنا بصدد إجراء محادثة مقدّسة الآن، تماماً مثل القديسين في هيكل مذبح كنيسة سان زينو؛ فما يمكن أن تعنيه هذه اللحظة سوى أنها لحظة تؤرّخ لمحادثة مقدّسة؟»

ثم قاطعنا صوت شخص يتنحنح: لقد كان أحد كهنة الكنيسة. صافح الكاهن برنارد، وتبادل معه التحايا الودّية باللّغة الإيطالية، ثم أومأ لنا للحاق به وصعود الدرج المؤدي إلى هيكل المذبح، وهناك أصبحت لمسات فرشاة مانتينيا مرئية، واستحضرت معها ذلك الفنان وهو يقف مرّة أخرى للاستمتاع بعمله في ذلك الفضاء الفوضوي، فيعدّه على نار هادئة يقوده الإلهام الذي كان ضرورياً لخلق تلك التحفة الفنّية.

وغادرنا الكنيسة، وركبنا عربة أعادتنا إلى فندقنا. لقد كان اليوم حافلاً لكنّه طويل وشاق، فخطّطنا لتناول عشاء خاص معاً. كان فضاء العربة مريحاً وناعماً، فألقيت رأسي على كتف برنارد، وبقيت أستمتع برؤية مشاهد مدينة فيرونا الخلابة التي كنّا نمر بها. لقد كانت بمنزلة لحظات مقتطفة من عصر النهضة.

توقّفت العربة أمام فندقنا في موقف جاف كان مخصّصاً لعربات النقل؛ حيث تم في وقت سابق إرسال حقائبنا من محطّة القطار. ونزل برنارد من العربة قبلي كي تتسنى له مساعدتي على النزول، لكنّني حين حاولت النهوض من مقعد العربة شعرت بشيء جعلني أثبت في مكاني، فنظرت إلى الأسفل، ولاحظت أنّ أحد حواشي فستان سفري الأزرق قد علقت بأحد مسامير أريكة العربة. وحين أنزلت يدي لأفكّ تلك الحاشية سمعت أحد الأصوات في الخارج:

«برنارد! برنارد بيرنسون، هل هذا أنت؟» لقد كان ذلك الصوت قويّاً نادى صاحبه برنارد باللّغة الإنجليزية، ثم ناداه باللّغة الفرنسية: «مسيو بيرنسون؟»

ظلّ رأسي في الأسفل حين سمعت برنارد يردّ، فبدا صوته يشبه أحد المارة الأبرياء، لكنّه أبدى انزعاجه فقال: «آه، لم يخطر في بالي احتمال مقابلتك هنا في فيرونا يا سيّد سيليغمان!»، ونبّهني برنارد، فصدح بذلك الاسم بقوّة.

فقلت في نفسي: لا. لا. لا يمكن أن يكون جاك سيليغمان. أيّ حظّ سيئ هذا الذي يجمعنا بتاجر للتحف الفنّية يعرفنا جيّداً؟

حاول برنارد إلهاء السيّد سيليغمان، بينما قمت بتوجيه السائق لينقلني بعيداً عن الفندق. ظلّت العربة تطوف بي حول مدينة فيرونا، وفي الأثناء كنت أحاول أن أقرّر ما يجب القيام به؛ إذ لا يمكنني أنا وبرنارد أن نُرَى معاً بتلك الطريقة؛ فالأضرار التي ستلحق بسمعتي، وبدرجة أقل سمعته، لن تكون قابلة للعد والحصر.

بعد مرور ساعة من التجوّل في شوارع فيرونا، طلبت من السائق العودة إلى الفندق، وبمجرّد وصولي إلى هناك أصبحت خائفة من الدخول، وشعرت بالارتياح حين رأيت برنارد وهو يهرول صوبي، فقلت له: «كيف تخلّصت منه، وكيف جعلته يغادر الفندق؟» لقد كان مؤكّداً لدي أنّ السيّد سيليغمان كان سيدعو برنارد وأيّ وفد مرافق له للانضمام إليه لتناول العشاء.

فأجابني برنارد: «لقد وعدته بزيارته في معرضه في باريس في رحلتي القادمة إلى فرنسا، والتشاور معه بشأن بعض التحف الفنّية.»

فقلت: «لا أستطيع أن أصدق أن يلتقينا جاك سيليغمان هنا من بين جميع باقي الناس.»

فأومأ برأسه وقال: «أنا أعلم يا حسنائي الجميلة، لكنّنا نحن الآن وحدنا مجدّداً، وكل الليل أمامنا. سنتناول العشاء هنا في الفندق كي لا نواجه المزيد من المصادفات السيّئة.»

أومأت له بإشارة اتفاق؛ فكلّ ما يهمنا هو أنّنا، في نهاية المطاف، صرنا وحدنا. وبمجرّد أن قمنا بخطواتنا الأولى في طريقنا إلى الطابق العلوي، لم يعد لدينا مجال كبير للصبر. لقد كانت رغبتنا في تزايد لفترة طويلة جدّاً؛ حيث مرّت مئات الأيام التي شعرنا بأنّها كانت بمنزلة آلاف الليالي، وازدادت رغبتنا شدّة أثناء إقامتنا في لندن؛ حيث شعرنا بأن كلّ يوم من الأيام التي يغلِّفها الصَّبرُ بدا شبيهاً بيومٍ أبديٍّ لا ينتهي.

التصقت شفتا برنارد بشفتيّ قبل أن يغلق الباب خلفنا، والمفاجئ في الأمر أنّني شعرت بأنّ قبلته كانت لطيفة، وحتى ليّنة، كما لو أنّنا كنّا الآن نستعيد آلاف الليالي تلك لاكتشاف أحدنا الآخر من جديد، ثمّ اجتاحني بيديه كما لو أنّه قد بذل كلّ لطفه على تلك القبلة، وتحوّل ليحضنني بين ذراعيه، وحملني عبر غرفة الجلوس إلى غرفة النوم شبه المظلمة، التي كانت مضاءة بمصباح الغاز فحسب الذي تركه موظفو الفندق مضيئاً، وألقاني على السرير وضغط بجسده على جسدي. لقد بدت رغبته واضحة.

بعد القيام بقبلة أعمق وأطول مما تخيّلت، بدأ لسانه القيام برحلة جديدة، فانزلق إلى الفضاء الرطب خلف أذني قبل أن يتتبّع خطّاً طويلاً يصل إلى أسفل رقبتي. لقد كنت أكاد أستطيع التنفّس بينما كانت أصابعه تعمل بمهارة لفكّ الأزرار العديدة الموجودة في ثوبي، ثم فكّ مشدّ صدري، وظلّ يحرّك شفتيه ولسانه طوال الوقت على طول بشرتي. وفجأة، نزع قميصي، وأصبحت عارية أمامه، فنزع نظّارته، وأخذ يحدّق في وجهي. ثم قال بصوت تكتنفه شدّة العاطفة: «أنت جميلة جدّاً يا بيل.»

أجبته عن طريق لثم شفتيه وإلصاقهما بشفتيّ، ووضع يديه على جسدي، فمرّر أنامله فوقي، وداعب ثديي، ثمّ سرّتي، وما بعدها، وصرت أرتجف من لمساته، وبدأت استكشافي الخاص حين ساعدته على نزع ملابسه. وعندما أصبح عارياً أمامي أدركت أنّ أيّ منحوتة رخامية لجسد رجل عاري، من المنحوتات التي رأيت منها الكثير، لا يمكنها التقاط الجاذبية الملموسة لرجل حقيقي. وبقينا نلامس أحدنا الآخر إلى أن كدنا نفقد أنفاسنا. لقد كان بريق عينيه يفيض بالشوق وهو يتأرجح فوقي متردّداً حين قال: «هل أنت واثقة يا بيل؟»

فهمست في أذنه: «نعم من فضلك، لقد انتظرت طويلاً.»

لقد حلمت في العديد من الليالي، خلال العام الماضي، باختلاط أجسادنا، فيستسلم كلّ واحد منا للحركة والعاطفة إلى أن ترتفع أصواتنا، ونكتم كلّ الأصوات والأفكار الأخرى، ثم نطق بشيء باللغَة الروسية (МОЯ ЛЮБОВЬ) [حبيبتي]، قبل أن ينهار فوقي. وبعد لحظات استلقى جانباً، وحضنني معه، ولفّني بذراعيه. بقينا نتنفّس بصعوبة لعدّة دقائق قبل أن يقبّلني برنارد ويهمس: «بيل؟» لم يكن بحاجة إلى إنهاء سؤاله لأفهم ما كان بصدد طلب معرفته، فقلت له: «نعم يا برنارد أنت أوّل رجل في حياتي.»

بهذه الكلمات حملني بطريقة أكثر إحكاماً، وأصبحت ذراعاه بمنزلة شرنقة تحميني من العالم، فوددت لو أستريح هناك إلى الأبد.

فقال: «لم أكن أعرف»، فشعرت بمسحة من الشعور بالذنب في لهجته، فأضاف: «لم أكن أشكّ حتى في ذلك.»

لقد جعلت كلماته قلبي يخفق مثل المطرقة، بل حتى أقوى، بينما خطر في بالي العديد من الأسماء؛ أسماء النساء الجميلات التي يشاع أنّه ضاجعهنّ خلال زيارة عائلة بيرنسون إلى نيويورك في الماضي، من خلال ما سمعته من شائعات المجتمع. فكيف يمكنني قياس نفسي بامرأة مثل ألين روتشيلد، التي

كانت تعرف أيضاً باسم السيّدة ساسون؟ وكيف يمكنني قياس نفسي بأيّ امرأة من تلك الطبقة؟

وحين هدأ سألته: «هل خيّبت ظنّك؟»

فردّ بسرعة: «لا يا حبيبتي»، ثم قبّل جبهتي وأضاف: «مستحيل أنّ تخيّبي ظنّي. أنا لم أكن أعرف أنّك عذراء فحسب»، ثم جذبني إليه إلى أن التصق رأسي بصدره، وقال: «لقد بدا لي أنّك أكثر - »، لكنّه سكت. لم يكن برنارد بحاجة إلى إنهاء كلامه؛ لأنّني فهمت ما يعنيه، فأنا كنت أبعد الناس عن سؤالي عن عرقي من خلال التخفّي وراء مغازلة الرجال، ولم أكن أعير ما قد يرسله ذلك السلوك المستهتر من رسائل، فأنا كنت أعبّر عن دنيوية كانت عكس تجربتي الفعلية.

تشابكت أرجلنا، وتشوّشت أفكاري، فسألته: «برنارد؟ أودّ أن أسألك.»

جذبني أقرب إليه وقال: «آه، ما أجمل ما عشناه يا حبيبتي.» لقدّ ظنّ أنّ ما كنت أبحث عنه هو مزيد من الطمأنينة.

غطى ظلّ لهيب مصباح الغاز نصف وجهه حين سألته: «لقد كان حبّنا رائعاً جدّاً. لكن- .» تردّدت قبل أن أنهي جملتي فقال: «ما خطبك؟»، وأخذ يسرّح خصلات شعري.

فأجبته: «لقد قلت عندما كنا نمارس الحب شيئاً لم يكن باللّغة الإنجليزية، فأخبرني ماذا قلت؟»، ولم يكن ما أطلبه منه حقاً معنى كلماته، لكنّني أردت أن أعرف السبب الذي جعله يستخدم لغة أخرى في تلك اللحظة الحسّاسة بالذات.

ضغط بإصبعه على شفتيّ، وقال: «هذا ما قلته»، ثم أخذ يقبّلني مجدّداً بشغف أكثر من ذي قبل، فتركني ألهث، وأضاف: «هذا هو كل ما تحتاجين إلى معرفته.»

احتضنته، وسرعان ما ملأت آهاتنا الناعمة الفضاء، وترنّحت ظلال مصباح الغاز على الحائط، وبقيت أفكّر في كلمات برنارد: «هذا هو كل ما تحتاجين إلى معرفته.» لقد كنت مستلقية وأنا يقظة، مشبعة بالحبّ، لكن غير مستقرّة في الوقت نفسه. أيّ لغة تحدّث بها برنارد في خضم تلك اللحظة؟ ولماذا لم يجب عن سؤالي؟

استمرت الأسئلة تنهال عليّ من كلّ حدب وصوب إلى أن انطفأت شعلة المصباح، وعمّ الظلام الدامس غرفة النوم. من يكون برنارد هذا حقاً؟ فالكلمات التي قالها الليلة بدت تشبه كلمات من اللغّة الروسية. ربما ما كان السيّد مورغان ينعته به حين كان يشتمه هو الحقيقة، وربما يكون برنارد مهاجراً يهودياً روسياً، ويكون اسم برنارد بيرنسون ليس حتى الاسم الذي ولد به، لكنّه اسم اختلقه؛ لأنّه أراد أن يصنع لنفسه مكانة في عالم لا ينتمي إليه مثل اسم بيل دا كوستا غرين.

يا لها من فكرة! ثم ابتسمت، وانغمست بسرور في النوم في أحضان برنارد بيرنسون، أو أياً كان اسمه.

الفصل الرابع والعشرون

23 أيلول/سبتمبر1910

مدينة أرفيتو، إيطاليا

تسلّل نور الصباح الباكر عبر أبواب الشرفة المفتوحة على المكتب؛ حيث كنت أكتب رسالة منذ ساعة، ثم تحوّل النور من لون الفجر الرمادي المائل إلى الزرقة إلى أشعة الشمس الذهبية الرائعة في منتصف الصباح.

قال برنارد: «ألا يجدر بك العودة إلى الفراش؟»

لقد كان مستلقياً وسط فراش مبطّن مزوّد بوسادة تشابكت فوقه ملاءات الكتان بلحاف أبيض، وبدت عيناه من دون نظارته مثقلتين بالنوم والرغبة.

فمازحته وقلت: «أتمنى لو أستطيع فعل ذلك يا حبيبي، لكن لا بد لي من إرسال هذه الرسالة إلى السيّد مورغان في هذا الصباح. لقد أبقيتني مشغولة للغاية خلال الأسابيع القليلة الماضية، منهمكة في النهار مع الفنّ، وفي الليل عواطفك هي شغلي الشاغل، وتكاد تكون لدي دقيقة فراغ لأكتب إلى السيّد مورغان رسالة.»

فتأوّه برنارد وقال: «بالتأكيد، يمكنه الانتظار يوماً آخر»، وعندما رفع ذراعيه لي شعرت بالشوق والحنين، وقد أثارتني ذكريات الليلة الماضية والليالي العديدة التي سبقت ذلك، لكنّ أياً من تلك الأمسيات التي كانت لا تنسى كانت تشبه ليلتنا الأولى معاً؛ المرّة الأولى على الإطلاق التي سلّمت له فيها نفسي في مدينة فيرونا قبل شهر.

فناداني برنارد بلطف مرّة أخرى: «بيل!»

شعرت بإغرائه أكثر من افتتاني بالمدن الإيطالية الجذّابة، والمناظر الطبيعية المجيدة، والأعمال الفنّية المنسية؛ لأنّني استمتعت بليالٍ جميلةٍ برفقة برنارد، ناهيك عن المتعة التي كنّا ننتشي بها في بعض الصباحات المتفرّقة.

لكن إذا لم أتمم تلك الرسالة الطويلة، وأرسلها قبل ظهر ذلك اليوم، الذي كان يصادف يوم جمعة، فستضاف ثلاثة أيام أخرى إلى وقت التسليم بسبب عطلة نهاية الأسبوع، والسيّد مورغان لم يتلقّ مني أيّ تقرير لأكثر من أسبوع. وفي القريب العاجل سيبدأ التساؤل، وربما ينتابه القلق، ويمكن له أن يرسل أحد ممثليه على جناح السرعة لتعقّبي.

فقال برنارد: «كما تعلمين، أنا لا أذكر أنّك كتبت إلي في السابق رسالة بنصف طول ذلك المجلّد الذي أنت بصدد كتابته للسيّد مورغان، خلافاً لأنّك كنت ترينه باستمرار تقريباً.»

لقد كان ذلك الأمر سؤالاً متكرّراً في كلّ رحلاتنا: لماذا لم أكتب إلى برنارد بالانتظام نفسه الذي كان يكتب به الرسائل إلي على نحو يومي تقريباً؟

فقلت: «لأنّه صاحب العمل، وهو يطلب مني كتابة تقارير منتظمة عن الوقت الذي أقضيه عندما أكون في رحلة لأجله.»

فصمت برنارد لمدّة طويلة ثم قال: «أشعر بأنّك تخفين عليّ أسراراً يا بيل؛ إذ يوجد عندك تحفّظ يشبه اللغز الذي لم أستطع حلّه، على الرغم من أنّ السرّية هي اللغة التي أتكلّمها، وبطريقة ما هي اللغة التي أتقنها بطلاقة أكثر من أيّ لغة أخرى، وأظنّ أن الشيء نفسه ينطبق عليك. حتى الآن لم أتمكّن من فكّ رموز أحجيتك.»

كيف يمكن لرسالة سأرسلها إلى السيّد مورغان جعل برنارد يصل إلى هذا الاستنتاج بأنّني أخفي شيئاً عنه؟ أم تراه يستخدم هذا الأمر ذريعةً ليسأل عن الشائعات التي سمعها؟

أجبته بعد أن ارتأيت أنّ هذا الجواب هو الأفضل والوحيد على الإطلاق: «كيف يمكنك أن تقول ذلك يا برنارد؟»، وبغض النظر عن مدى قربي من برنارد، ومدى ارتباطي به فكرياً وعاطفياً، لن أفصح له البتَّة عن سرّي، ثم أضفت: «أنا أشعر دائماً حين أكون مع الآخرين بأنّني بصدد إعادة صياغة الأجزاء المتنوعة من ذاتي لتقديم أكثر الأشياء إرضاء لهم، ولكن معك أنت أنا ببساطة أكون على سجيّتي كاملة وأصيلة. لذلك يمكنك أن تتخيّل ما يثير فيَّ اتهامك من مشاعر.»

«إنّ الأمر فقط—.» تلعثم، وهو أمر نادراً ما وقع معه، ثم أضاف: «أنت قريبة جدّاً من السيّد مورغان على نحو غريب!»

لقد بدا غيوراً، ولكن ربما كان يمزح، أو تراه تراجع ببساطة عن تأكيده المسيء إلى حدّ ما. وفي كلتا الحالتين، قرّرت اتخاذ مقاربة جديدة معه، فوقفت أمامه، وسمحت بإنزال فستاني الحريري الأرجواني إلى مستوى قدمي، وبقينا نحدّق أحدنا في الآخر.

ثم ملت نحوه وخاطبته بدلال: «هل أنت تغار من بيربونت؟»، ثم ضغطت بشفتي على شفتيه، لكنّه لم يبادلني التقبيل، وحينما ابتعدت عنه، سألني: «هل هذا هو الاسم الذي تنادينه به حين تكونان وحدكما؟»

لم يكن هناك أيّ ملامح للفكاهة في ما أبداه من تملّك؛ إنّه على عكس ما كنت أعرفه عن برنارد الخاضع للرقابة حين يكون في الأماكن العامة، وعلى عكس حتى برنارد الذي يبدو للعلن أكثر انفتاحاً؛ إنّه في الحقيقة لا يزال مقيّداً، بل نقيض برنارد الذي شاركني خصوصية حجرة النوم. آه. كم كنّا متشابهين!

فقلت: «من المؤكد أنني أناديه بيربونت عندما نكون بمفردنا، وهو يناديني بيل.» ضحكت في محاولة لنزع فتيل غيرته بقليل من قول الحقيقة؛ لأنّ السيّد مورغان كان يناديني بالفعل بيل، لكنّني لم أكن أجرؤ على مناداته بأيّ اسم.

لقد كانت غيرة برنارد في بعض النواحي مصدر ارتياح لي؛ لأنّ في وسعي التعامل مع برنارد الغيور. أما برنارد الشكّاك فلا أستطيع تدبّر أمري معه، فهو قد أعطاني مؤخراً سبباً لأكون حذرة معه. لقد أدلى بملاحظات مقلقة خلال لحظتين حميمتين منفصلتين، من قبيل: يبدو شعرك مختلفاً جدّاً في هذا الصباح، وبشرتك سمراء جدّاً حين تكون قبالة الشمس الإيطالية، وهي تعليقات بدت أشبه بمطالبات بالكشف عن الأفكار البريئة.

اضطررت في كلّ مرّة إلى التغاضي عن تعليقه بالقليل من الضحك أو بتقبيله، ولكن أظن أنّ شكّه لم ينته. وبناء على ذلك، كنت أشعر بالارتياح حين أواجه غيرته بدلاً من شكوكه.

أعادني برنارد إلى الحاضر، وقال: «لا تعبثي معي يا بيل!»، فأدركت أنّه جدّي للغاية، وأنّه لا يجدر بي أن أمزح معه حين يكون في ذلك المزاج، فمشاعره تكون متضايقة للغاية، وهو لن يحتمل حتى بشاشتي.

ثم قال: «أنا أشعر تجاهك كما لم أشعر تجاه أيّ شخص آخر، وأنا بحاجة إلى معرفة ما يعنيه السيّد مورغان لك.»

جلست على السرير ومرّرت إصبعي على طول خده، وقلت: «إنّ السيّد مورغان هو رب عملي فحسب يا برنارد، رجل أنا مدينة له لأنّه عهد إليّ بثروة وقوّة كبيرتين مقابل وفائي له»، ثم قبّلته لفترة طويلة وبشدّة أعادته إلى صوابه، ثم ابتعدت عنه لأقول له فحسب: «إنّه لا يملك قلبي. ويجب أن تعلم أنّ قلبي هو ملكك فحسب.»

فتحوّلت حواف شفتيه من العبوس إلى الابتسامة، وعندما قبّلني مرّة أخرى، أدركت أنّه لن تكون هناك رسالة للسيّد مورغان اليوم. لقد تهت بين إيطاليا وبرنارد.

الفصل الخامس والعشرون

29 أيلول/سبتمبر1- تشرين الأول/أكتوبر 1910

مدينة البندقية، إيطاليا

في البدء كنت أشعر بمجرّد آلام بسيطة على مستوى ثديي خاصة أثناء مداعبة برنارد، ثم تطوّر الألم بعد يومين، فطال بطني إلى جانب موجة ساحقة من التعب كانت لا تظهر إلا بعد ساعات فقط من نهوضي في الصباح. لقد تصوّرت أنّني أُصِبت بمرض معدٍ أو أكلت طعاماً فاسداً، ولكن بعد ذلك حاولت تذكّر آخر مرّة حصلت فيها على الدورة الشهرية، التي عادةً كانت منتظمة جدّاً. وكان ذلك قبل أكثر من شهرين من وصولي إلى أوروبا. وبدأت في طرد الاحتماليّة المرعبة من ذهني إلى أن اعترضتني رائحة البيض المسلوق في وجبة الإفطار، فاستأذنت من برنارد، واندفعت صوب الحمام.

أنا حامل.

حافظت على ذلك الاكتشاف لنفسي لمدّة يوم. فماذا يتعيّن عليّ أن أفعل؟ بحلول صباح اليوم التالي أدركت أنّني لا أستطيع الإجابة عن ذلك السؤال إلا قبل أن أجيب عن جميع الأسئلة المهمّة الأخرى أوّلاً، والأهمّ من ذلك كلّه ما إذا كان هناك أيّ احتمال لحياة ملائمة يمكن أن ننجب فيها أنا وبرنارد ذلك الطفل.

وذلك كان يعني أنّني سأتخلى عن مسيرتي المهنية؛ لأنّ السيّد مورغان لن يبقيني أعمل معه أبداً بمجرّد أن يكتشف أنّني حامل. ربما سيتعيّن عليّ أيضاً أن أترك أمي وأشقائي ومدينة نيويورك بأكملها. وربما يكون القانون الأخلاقي الأكثر مرونة في أوروبا وجيوب المجتمعات البوهيمية لطيفاً ومرحباً بنا. لكن يجب عليّ أن أتوقّع ردّ فعل المجتمع وبرنارد معه إذا لم يشاركني الطفل في لون بشرتي الفاتحة.

وإذا اخترت الحفاظ على هذا الطفل، يجب عليّ أن أعترف بكلّ شيء لبرنارد، فهو بالضرورة يجب أن يعرف أنّني امرأة صاحبة بشرة ملوّنة، وأن اسمي الحقيقي هو بيل ماريون غرينر. وأنا سأحتاج إليه في حياتي؛ لأنّ المجتمع قاسٍ مع الأمّهات غير المتزوّجات، سواء كن بيضاً أم سوداً أو من أصحاب البشرات الملوّنة. ورغم أنّني كنت أعلم أنّه يحبّني تساءلت: هل يحبني بما فيه الكفاية لسماع هذا الخبر؟ وهل يمكنه أن يستمر في حبّه لي حتى بعد سماعه؟

كنت حين أشعر بأنّني بمفردي في جناح الفندق، أقف أمام المرآة وأمرّر أصابعي حول بطني الصغير المنتفخ، وأتخيّل تطوّر الحمل وانكشافه بالكامل، بينما تربت يدا برنارد على كتفي. بعد ذلك أتخيّل صورتنا في وقت لاحق، ومعي رضيع بين أحضاني؛ صبي بلون بشرة برنارد نفسه وله مثابرتي نفسها، صبي ساحر مثل والده، طموح مثل والدته، ولديه حبّ للفنون مثلنا على حد سواء.

وكلّما زادت دراستي للوضعية أكثر، ازدادت وضوحاً بضرورة إقحام برنارد وتحميله مسؤولية الحفاظ على الطفل. صرت آمل فحسب أنّ كلّ ما قاله برنارد عن حبّه لي هو حقيقة.

****

وفي صباح اليوم التالي، همست في أذن برنارد حين كنا نستلقي متشابكين تحت فراشنا فقلت: «برنارد، يوجد شيء يجب أن أطلعك عليه.»

جذبني إليه ثمَّ قال: «يمكنك أن تقولي لي أيّ شيء يا بيل»، ثم همس مرّة أخرى مع إضافة تأكيد: «في الحقيقة أتمنى أن تخبريني بكلّ شيء.»

ألقيت وجهي على كتفه وقلت: «أعتقد أنّني حامل.»

تصلّب جسده، وابتعد عني إلى الجانب الآخر من السرير، وقال: «هذا لا يمكن أن يحدث يا بيل»، ثم وجّه عينيه إلى السقف، وقال: «لا يمكن أن يكون لدينا طفل.»

نهضت وواجهته وقلت: «حسناً، تلك هي الحقيقة، نحن سنحظى بطفل، وهذا أمر مؤكد لدي.»

«لقد ظننتُ أنَّكِ ستفعلينَ شيئاً ما كي لا يحدث هذا.»

للحظة تعجّبت مما كان يتحدّث عنه، ثم أدركت أنّه كان يعني أنّني كنت أستعمل نوعاً من وسائل منع الحمل. لقد صدمتني تلك الملاحظة؛ فكيف لي أن أعرف عن تلك الأشياء؟ لقد نشأت في عائلة محافظة صارمة لم يُطرح أمامها التفكير في علاقات ما قبل الزواج، ولم يكن لدي صديقات مقرّبات مني يمكنني الوثوق بهنّ لأناقش معهنّ مثل تلك الأمور، فقلت له: «لا. بل أنا افترضت أنّك كنت المسؤول عن تجنّب ذلك، ففي نهاية المطاف أنت صاحب خبرة حينما يتعلّق الأمر بعلاقتنا.»

فقال بصوت في منتهى البرود: «لقد أخبرتك أنّني لا أريد أيّ أطفال.»

أجبته: «بل أخبرتني أنّك لم ترغب أبداً في إنجاب أطفال مع ماري، لكنّك لم تقل أبداً إنّك تعارض فكرة إنجاب الأطفال كلياً.»

آه. كيف يمكن له أن يسلبني هذا الحلم بسرعة وبلا رحمة من دون أيّ اهتمام بمشاعري؟ تشبثت بالإصرار على غضبي وخيبة أملي، لكنّني أظهرت

له بروداً يضاهي بروده. لقد كنت أعلم أنّه إذا لم أظهر له ذلك البرود فسأنهار بالبكاء، وأنا كنت في موقف لا يسمح بذلك الانهيار.

لكنّه ظلّ صامتاً، فواصلت الحديث: «لكنّ ذلك الأمر بلا أهمية الآن؛ لأنّني لم أخطّط لوقوعه يا برنارد، ويجب أن تعرف ذلك، فأنا لدي مهنتي التي يتعيّن عليّ التفكير فيها بالإضافة إلى أمور أخرى.»

جلس على نحو مفاجئ، وقال: «بالتأكيد، يجب أن تفهمي أنّ وضعيتنا لا تسمح بإنجاب أي طفل. بالله عليك، من بين الأمور الأخرى التي يجدريك التفكير فيها هي أنّني متزوّج، وعلى رأس ذلك أنّ ماري هي شريكي التجاري. عليك أن تفعلي شيئاً حيال حالتك هذه.»

أنا!؟ يتعيّن عليّ أن أفعل شيئاً حيال حالتي!؟ لكنّه هو المسؤول مثلي عن هذه الحالة.

أسرعت بالدخول إلى الحمام، وأقفلت الباب خلفي، وبقيت أبكي وأنتحب. لقد سبق أن نبّهت نفسي مراراً وتكراراً إلى أنّني لا أريد، ولا يمكن أن أحصل على فرصة للأمومة. الآن بعد أن أصبحت حاملاً أشعر بالحنين إلى إنجاب طفل.

حاولت مجدّداً حساب جميع المتغيّرات في تلك المعادلة الهائلة، لكن كيف يمكنني تحقيق ذلك بمفردي؟ فالعيش في مدينة نيويورك والاستمرار في العمل لدى السيّد مورغان لم يعد خياراً مطروحاً. حتى لو كان طفلي ببشرة فاتحة، وتمكّنت من الحفاظ على هويّتي بوصفي امرأة بيضاء، إنّ وصمة العار لكوني أمّاً غير متزوجة ستخرجني من عالم الفنّ والمكتبة، وتجلب العار لعائلتي. دوامة الانهيار الاجتماعي والمالي الناجمة عن حملي، وما يترتّب عليه من تغيير في ظروفنا، يمكن أن تحرم أمي وأشقائي من وجودهم الأبيض.

هل يمكنني العودة إلى العاصمة واشنطن، وأن أعيش بين أقاربي من عائلة فليت في مجتمع لا يُهتمُّ فيه ببشرة طفلي؟ لكنّ العار من كوني أمّاً غير

متزوّجة موجود وسيلاحقني هناك أيضاً. ولكن، حتى لو لم يحدث ذلك، استمعت عن كثب إلى والدتي، فبالنظر إلى القبضة الخانقة التي يتمتّع بها الميز العنصري والمتفوقون البيض على الجنوب، لن أستطيع إخضاع نفسي وطفلي لحياة الضغط تلك التي ستزداد سوءاً بشكل تدريجي.

الحقيقة هي أنّه لا يوجد مكان لأذهب إليه، فبصفتي امرأة صاحبة بشرة ملوّنة غير متزوّجة، لن يتم تعييني أبداً أمينة مكتبة أو خبيرة فنّية في أيّ مكان في أمريكا، ومن دون توصية من السيّد مورغان لن يقدمها أبداً إذا اكتشف أنّني حامل من برنارد، أو أيّ شخص آخر، لن يوظفني أحدٌ في أوروبا. ومع وجود طفل، لن يكون هناك مكان يؤويني، ولن يكون لدي أيّ شخص ليسندني باستثناء قبول برنارد ودعمه الذي يمكن أن يغيّر المعادلة، إلا أنّ برنارد لم يكلّف نفسه عناء القدوم إلى باب الحمام للاطمئنان عليّ.

انهرت على أرضية الحمّام أمام تراجع برنارد، ومددت يدي إلى منشفة وضعتها على وجهي، وبقيت أبكي، وأنا منهارة على البلاط الصلب البارد لأرضية الحمام، مستندة على يد واحدة حرّة. ما العيب الكامن في دمي إلى درجة أنّني أصبحت غير جديرة بإنجاب طفل إلى هذا العالم غير العادل؟

كلٌّ ما أصبح يمكنني التفكير فيه هو الكلمات التي سمعتها منذ أكثر من عامين؛ تلك الكلمات التي كان يجب عليّ أن أنتبه إليها: ليس لديك ترف ارتكاب الأخطاء يا آنسة غرين.

الفصل السادس والعشرون

12 تشرين الأول/أكتوبر 1910

مدينة لندن، إنجلترا

لقد مزّقني الألم، وقادني العذاب الممزّق والطعنات العاجلة إلى الجنون إلى درجة أنّني لم أعد أقوى على التفكير والشعور باستثناء الإحساس بالألم، ثم انحسرت موجة العذاب، وتلاشت، وشعرت بالارتياح لمعرفة أنّها لم تقصم ظهري بالكامل. تذكّرت في الفراغ المتبقي في أعقاب تلك الأزمة شظايا من الذكريات، أو الأحلام ربما، تسرّبت إلى وعيي، وتذكّرت حين كنت أتأمّل لوحة مريم العذراء والقديسين، والأسقف المكسوّة بالبلاط الأحمر، والشمس العظيمة. كنت أضحك حين كنّا نخادع أصدقاء السيّد مورغان في مدينة رافينا عن طريق التسلّل من الباب الخلفي لمطعم إيطالي صغير. كنا نشاهد زخّات المطر المتتالية في شوارع مدينة البندقية الضيّقة إلى أن غمر التيّار المتصاعد للمياه ساحة المدينة العظيمة، التي كانت تقع أمام كنيسة القديس بطرس. تذكّرت الاستماع إلى إيقاع شعر بودلير وهو يقرأ بصوت عالٍ، حين أخذني النوم تحت الملاءات البيضاء الشفافة فوق السرير الإيطالي المزخرف. كما تذكّرت المشي برفقة برنارد تحت ضوء الشمس متعدّد الألوان لجزيرة مورانو بالقرب من مدينة البندقية؛ حيث كان الحرفيون يصنعون الزجاج بالألوان الحيّة الزرقاء والحمراء والذهبية، ويحوّلونه إلى مجموعة مذهلة من الأشكال كما لو أنّهم كانوا يأتون السحر.

أَأنا في حلم أم في واقع؟

سمعت أصواتاً حين كنت أجهد نفسي لفتح عيني. لقد كانت أمامي امرأة شقراء ترتدي ثوباً أبيض وقبعة بيضاء مثل برقع الراهبة، وإلى جانبها رجل يرتدي معطفاً قطنياً أبيض رقيقاً فوق بدلة صوفية رمادية ذات مظهر رسمي، فحدّقت فيهما، لكنّني لم أستطع رؤية التفاصيل، وكلّ حركة قمت بها كانت تجلب لي مزيداً من الألم. لكنّني تساءلت: من يكون هذان الشخصان؟ وأين أوجد أنا؟

سألني الرجل وخاطبني بلكنة بريطانية: «آنسة غرين، هل تسمعينني؟»

لم يكن في ذلك الرجل الرقيق الشاحب ما يوحي بأنّه إيطالي، ثم مد يده ووضع جهازاً بين أذنيه، وتركه يتدلى حول عنقه. لقد كنت أعرف اسم ذلك الجهاز الطبي، لكنّ الكلمة بقيت عالقة في ذهني، رافضة الوصول إلى شفتي. آه. نعم، إنها سماعة الطبيب. لا بد من أن يكون ذلك الرجل طبيباً. أنا في المستشفى إذاً؟ لكن لماذا أنا موجودة هنا؟

حاولت تحريك شفتي، في محاولة للكلام، ولكن كلّ ما سمعته هو نخير حيواني. هل صدرت كلّ تلك الأصوات منّي؟ وددتُ لو أجد في الغرفة مزيداً من علامات التوجيه، لكن لم يكن باستطاعتي حتى رفع رأسي عن الوسادة. والأدهى والأمرّ هو أنّني كنت أعلم أنّه يجدر بي أن أحاول أن أجعل نفسي مسموعة مرّة أخرى، ويجب أن أجعل ذلك الطبيب وتلك الممرضة يفهمان أنّ الألم لم يجعلني أغيب عن وعيي. حاولت مجدّداً بكلّ إرادتي إجهاد حبالي الصوتية لإصدار صوت واضح، لكنّ كلّ ما سمعته هو تلك الضوضاء الحلقية؛ فهل صدرت كلّ تلك الضوضاء عني؟

ثم حاولت بإجهاد تحريك رأسي وإبعاده عن الوسادة، لكنّ العالم تلاشى بعد ذلك، وأصبح معتماً، وغبت عن الوعي.

وعندما استيقظت، لم يستغرق الأمر مني سوى لحظات هذه المرّة لتحديد مكاني، لكنّني حين حاولت التحرّك شعرت بأنّ كلّ جزء من جسدي ثقيل، ويستحيل تحريكه. حاولت رفع ساقي اليمنى، ثمّ اليسرى لكن دون جدوى، كما شعرت بأنّ يدي وذراعي مثل الرصاص باستثناء أصابعي التي كانت تكاد تلامس سطح السرير، لكنّني ممتنة لهم بشيء واحد: لقد خفّت حدّة الألم.

«من الجيّد أن نرى -يا آنسة غرين- أنّ عينيك أصبحتا واضحتين وصافيتين هذا الصباح.»

لقد صدر الصوت عن يميني، لكنّني عندما أدرت رأسي أدركت أنّها هي الممرّضة نفسها التي رأيتها من قبل، فحاولت التحدّث إليها قبل أن يجتاحني الظلام مجدّداً، لكنّ حلقي وفمي كانا جافين. في الأخير أصبحت قادرة على الصراخ بصوت لا يبدو مثل صوتي فقلت: «أريد بعض الماء من فضلك.»

أجابتني الممرضة: «بالتأكيد»، ومدّت تلك المرأة، التي كانت نموذجاً للكفاءة، يدها إلى كوب الماء الذي كان فوق الطاولة إلى جواري وقرّبته إلى شفتي.

وأخذت أوّل رشفة ماء من ذلك الكأس، وبدأت أجول بنظري حول غرفة المستشفى المعقّمة، وأراقب الممرّضة التي كانت تقف إلى جانبي، وهي ترنّ الجرس، ثم تخاطبني، وتضيف: «لقد جعلتنا قلقين عليك، فأنت كنت تعانين من ارتفاع في درجة الحرارة بشكل غير عادي لمدّة يومين من الآن.»

يومين؟ لقد كنت مرمية على هذا السرير، فاقدة للوعي إلى حدّ كبير، لمدّة يومين؟ لكن ماذا أفعل هنا في إنجلترا؟ فآخر ذكرى واضحة لي هي ركوب القطار من مدينة البندقية مع صديقة برنارد، السيّدة إثيل هاريسون، متّجهة إلى لندن.

إثيل هاريسون. برنارد. البندقية. لندن.

ثمّ بدأت الذكريات تنهال عليّ من كلّ حدب وصب، وتملأ كل الفراغات التي أحدثتها الأسئلة السابقة. لقد أصبحت أعرف السبب الذي أتى بي إلى هنا. تسبّبت الذكريات في تنهد أنبثق من حلقي، ونوع مختلف من العذاب نزل على عاتقي. وجدت نفسي أنتحب على نحو مفاجئ. انهمرت دموعي الحارّة على خدي، وبقيت أبكي إلى درجة أنّني لم أستطع التقاط أنفاسي.

فقالت الممرّضة: «على رسلك يا آنسة غرين»، ثم وضعت يدها على يدي لمواساتي، وأضافت: «لا داعي لأن تشعري بالقلق. لقد مررت بأسوأ أنواع العدوى وتعافيتِ. لقد انخفضت حرارتك قبل ساعتين، وستستعيدين عافيتك قريباً، وبمجرّد استعادتك لقوتّك مرّة أخرى ستعودين إلى سالف عهدك ونشاطك مثلما تعود المياه إلى مجاريها.»

كيف يمكنها قول ذلك؟ هل سأكون «كسالف عهدي بحقّ مثلما تعود المياه إلى مجاريها» مرّة أخرى؟ بعد كلّ ما فعلت؟ وبعد ما شجّعني برنارد على القيام به وما وافقته على القيام به؟

لكنّ الممرّضة عندما لاحظت أنيني لم تتوقّف فقالت: «هل ترغبين في أن أجلب لك صديقتك؟ إنّها في الرواق في الخارج تتحدّث مع طبيبك.»

توقّفت للحظة لأتذكّر الشخص الذي كانت الممرّضة تتحدّث عنه، ثم أومأت برأسي مدركة أنّها كانت تعني إيثيل، التي كانت في الأصل صديقة برنارد قبلي، ولكن بعد كلّ ما فعلته من أجلي في الأيام القليلة الماضية، هنا في المستشفى والسفر من إيطاليا إلى إنجلترا قبل ذلك، أفترض أنّها أثبتت أنّها صديقتي المخلصة أيضاً. شعرت بتورّم والتهاب في عيني فسمحت لنفسي بالخلود للراحة، لكن بمجرّد أن أغمضت عيني سمعت صرير الباب وقعقعة كعب حذاء، ومن المؤكد أنّ تلك الجلبة لم تكن تصدر عن حذاء الممرّضة الناعم، فرفعت جفني واستفقت، فرأيت أمامي قزحية إيثيل البنية الحزينة وهي تحدّق فيّ.

«آه يا بيل»، ثم تنفست الصعداء، وشعرت بالارتياح، وأضافت: «من الجيّد جدّاً أن نرى أنّ عينيك مفتوحتان، وأنّ خديك استعادا لونهما النضر. نحن كنا قلقين جدّاً عليك.»

من تقصد إيثيل بـ«نحن»؟ فأنا لا أذكر أنّ أيّ شخص رافقنا من مدينة البندقية إلى لندن، لكنّ هذا لا يعني أنّه لم يكن لدينا رفيق آخر، وبدأت ذاكرتي تعمل على شكل نوبات.

خفّضت من نبرة صوتها، وقالت: «أنا وبرنارد نُعدّ الوحيدين اللذين يعرفان-.» أجهدت نفسها كي تجد التعبير الملطّف الملائم، وأضافت: «أقصد أنّنا نعلم الإجراءات التي وقعت لك بطبيعة الحال.»

تجاهلت تلك الكلمات، وقلت: «وهل برنارد هنا؟» لقد كنت أريد أن أهب كلّ شيء في العالم مقابل أن يحمل يدي ويخبرني بأنّ كل شيء سيكون على ما يرام.

لكن هل سيكون كلّ شيء على ما يرام؟ فوصمة عار أفعالي وأفعالنا تثقل كاهلي، وأنا صرت أفكّر في شعوري عندما سألتقي بعينيه، ومعرفة ما فعلناه، وأتساءل عمّا إذا كنت سأوافق لو تركت هويتي الحقيقية لي خياراً آخر، لكن بغضّ النظر، يجب أن يكون برنارد هنا، وخاصة بعد المرض الذي أصابني في أعقاب تلك «الإجراءات.»

لكنّ إيثيل تردّدت، ونظرت إلى الأرض بانتكاس، وقالت: «برنارد لا يزال في باريس، فهو لم يتمكّن من الوصول إلى لندن»، ثم نظرت إلى الأعلى، فبدت في لهجتها بعض الفرحة عندما أضافت: «لكنّني كنت أبقيه على اطلاع دائم عن طريق البرقيات، وهو يرسل إليك تعابير حبّه.»

لقد شعرت بأنّ إيثيل، وهي امرأة لطيفة لها تاريخ طويل من الصداقة والولاء لبرنارد وماري، قد ذكرت عاطفة برنارد بوصفه تصريحاً لاحقاً أخيراً.

فتساءلت بيني وبين نفسي: برنارد لم يتمكّن من الوصول إلى لندن أم لم يرغب في المجيء؟ وإذا كان برنارد يشعر حقاً بعمق العاطفة تجاهي، وهي مشاعر كان يعلنها صراحة لي في جميع رسائله وفي إيطاليا أيضاً، فلا شيء ولا أحد يمكن أن يمنعه من الصعود إلى أوّل سفينة متجهة إلى لندن لرؤيتي، ولاسيما أنّه هو سبب حالتي هذه، والدافع للقيام بتلك الإجراءات. إنّ غيابه يخبرني بالكثير عنه. يبدو أنّ العلاقة التي شعرت بتشابكها بشكل لا ينفصل قد انهارت، أو ربما لم تكن أبداً العلاقة التي اعتقدت أنّها كذلك.

وجدت نفسي مضطرّةً إلى الاستمرار في كلامي، فقلت: «هل كلّ شيء - »، وحاولت البحث عن الكلمات المناسبة: «هل اعتنوا بكلّ شيء؟»

فسألتني إيثيل: «هل تقصدين حالتك؟»

أومأت برأسي، فلا أحد، على ما يبدو، كان يستطيع أن يجرؤ على قول كلمة «إجهاض» بمن فيهم أنا.

فأومأت برأسها وقالت: «نعم، لقد تمّ التعامل مع حالتك من خلال ذلك الإجراء؛ إنّهم يعتقدون أنّ الإصابة التي تلت ذلك سببها «أقراص الكبد» التي تناولتها في مدينة البندقية»، ثم هزّت رأسها وأضافت: «لكنّها لم تنجح في إيقاف ذلك التعفّن.»

لقد جعلتني عبارة «أقراص الكبد» أستحضر سيلاً كبيراً من الذكريات الجديدة. لقد تذكّرت الآن سيل الأحداث الرهيب الذي بدأ عندما وصلت أنا وبرنارد لأوّل مرّة إلى مدينة البندقية قبل أسبوعين تقريباً. فبمجرّد أن أخبرت برنارد عن الحمل، بدت الخيارات محدودة أمامه، فاستدعى صديقته إيثيل الوفيّة، وجلست بينهما مثل عيّنة التجارب البيولوجية، وقد نوقش وضعي بهدوء بخبرة مثيرة للقلق من جانب برنارد وإيثيل. وافقت على الخطوة الأولى، وبطريقة ما اشترت إيثيل «أقراص الكبد» المجهضة من طبيب إيطالي متعاطف. وعقب ذلك عانيت من تقيّؤ مستمر لكنّ «حالتي» ظلّت كما هي.

في صباح اليوم، الذي تلا تناولي دواء «أقراص الكبد» غير الناجحة، ذكر برنارد لي «الخطوة التالية»، وهو تعبير ملطّف أثار فيّ قشعريرة مقزّزة. في البداية رفضت مناقشة تفاصيل ما ستترتّب عليه تلك «الخطوة»؛ فانطلاقاً من المحادثات الثرثارة التي سمعتها على مرّ السنين، بدا الأمر أكثر بربرية بكثير من ابتلاع قرص دواء بسيط. لم أتراجع إلا عندما أسفر صمتي عن تنبيهات قويّة من برنارد بشأن ما اتفقنا عليه؛ تلك التنبيهات التي أظهرت لي التزامه بإنهاء الحمل. بادلني الحديث فقال إنّه لا بد لي من السفر إلى عيادة خاصة في لندن؛ حيث يمكن معالجة «حالتي»؛ أي أنّ لا أحصل أبداً على طفلي إلى الأبد، وإنّ إثيل، وليس هو، من سترافقني في تلك الرحلة. لقد أخبرني برنارد لأوّل مرّة أنّه بحاجة إلى أن يكون في باريس من أجل العمل، فنعتّه بالجبان إلا أنّني لم أقل ذلك بصوت عالٍ.

قاطعت إيثيل ذكرياتي الرهيبة وقالت: «هل سمعت يا بيل ما قلته لك عن الإصابة بالعدوى؟»

سارعت بإجابتها، على الرغم من أنّني لم أكن أسمعها: «نعم. لقد كان التعفّن ناتجاً عن «أقراص الكبد».» توقّفت عن الكلام ثم طرحت عليها السؤال الذي استطعت الإجابة عنه: «هل سيأتي برنارد من باريس إلى لندن؟»

تردّدت إيثيل قبل أن تجيبني، وقرّبت كرسيها من سريري، وشكّلت يداها على شكل مثلث في ما يشبه الدعاء: «أنا آسفة جدّاً يا بيل، لكنّني تلقيت للتو برقية. لقد أرسل فيها برنارد تحياته لك، لكنّه، في نهاية المطاف، لن يتمكّن من المجيء إلى لندن.»

الفصل السابع والعشرون

26 تشرين الأول/أكتوبر 1910

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

صرخت إلين تيري، وأومأت لي بيدها: «لا تتركينا يا بيل!» لقد كانت تودّ مني أن أنضمّ إلى مجموعة قدماء أصدقاء نيويورك مثل إيثيل وبي. جي. غرانت والمعارف الجدد مثل إلين، تلك الممثلة الإنجليزية الأسطورية، التي كنت قد تقاسمت معها بضعة أكواب من الشمبانيا، لكنّني لوّحت لها بيدي من بعيد، وقلت لها وأنا أضحك: «أحتاج إلى أخذ نفس من الهواء النقي.»

لقد كانت الحانة مزدحمة الليلة، وخصوصاً في صالة الدرجة الأولى، وهي إحدى القاعات المركزية في باخرة الأوسيانيك، التي تم إطلاقها من قبل الشركة البريطانية وايت ستار لاين أوشن للنقل البحري العابر للمحيطات في عام 1899، وهي سفينة فاخرة من حيث كل التفاصيل، انطلاقاً من القبّة المذهبة التي كانت تغطي قاعة الأكل إلى الألواح الخشبية المتقنة واللوحات النحاسية التذكارية، التي تزّين الغرف الفاخرة، وصالة الدرجة الأولى لم تكن استثناءً. السيّد مورغان يقرّ، من خلال شركته القابضة، المسماة الشركة البحرية التجارية الدولية، أنّه أحد مالكي خط وايت ستار.

ردّت إلين: «لكنّك أنت هي الهواء النقي يا حبيبتي.» لقد كانت إلين تقف إلى جانبي عندما ركبنا على متن الباخرة. وسرعان ما أخذت تعرّفني إلى أصدقائها، وترتّب لنا جميعاً لقاء في الحانة. وبعد احتساء كأسين من

الشمبانيا، أعلنت أنّنا كنا نمثّل إلى حدّ ما طليعة المسافرين، الذين كانوا على متن الباخرة، وأنّنا يجب ألا ننفصل طوال تلك الرحلة. والممثلات بالتأكيد بارعات في تكون الصداقات بسهولة.

رفعت كأس الشمبانيا التي كنت أحملها بإحكام، وشربت نخب المجموعة من بعيد، وقلت: «سأراكم في العشاء!»

شققت طريقي بين الركّاب الآخرين، وصعدت إلى سطح السفينة. لمحت مكاناً شاغراً في الزاوية، فقصدته، وأخذت أشاهد شواطئ لندن وهي تتضاءل تدريجياً على مسافة بعيدة، وتصبح بقعة غير واضحة أمام عتمة السماء والبحر. آه، كم أتمنى أن تمحى أيامي الأخيرة مع برنارد والأسابيع الماضية في لندن بسلاسة من ذاكرتي! فكل ما أريده هو العودة إلى ذاتي القديمة.

برنارد! حتى التفكير في اسمه كان يجرحني من جديد. لقد كنا نتبادل الرسائل الحلوة المرّة في الأسابيع التي كنت أتماثل فيها للشفاء في لندن. كانت من بينها رسائل حزينة ذكرنا فيها أخطاءنا وما كان يجب أن يكون، كما كانت هناك بعض الرسائل المليئة بالأمل في مستقبل مشرق، رافقتها هدايا فساتين المساء التي صمّمها مريانو فورتوني والعطور الباريسية الفخمة. تلك الرسائل كانت بطريقة ما الأكثر إيلاماً. احتوت كل رسالة على وعود بأنّه سيعبر القناة الإنجليزية قريباً لرؤيتي.

لكنه لم يأتِ ولم يفِ بوعده. كنت بحلول الوقت، الذي ركبت فيه على متن باخرة الأوسيانيك، غاضبة، فكتبت إليه رسالة وداع، وأخبرته الكثير من ذلك الغضب:

كيف يمكنك أن تبقى بعيداً في حين لا تفصلك عني سوى مسافة ساعات فقط، فلا تجد سوى تقديم الأعذار؟ كيف يمكن للرجل الذي أحببته، ووهبته نفسي، أن يتصرّف بهذه الطريقة، بالنظر إلى الخسارة والمعاناة التي تحمّلتها للتو خاصةً؟ فكيف يمكنك أن تفعل هذا لي؟

ربما يكون السؤال الذي لم أكتبه، ولكن بالتأكيد فكّرت فيه: كيف يمكن لي أن أتركه؟

ثم ابتعدت عن سياج الباخرة، وبقي عدد قليل من الناس فقط يحومون حول المكان. أعتقد أن معظمهم عادوا إلى مقصوراتهم طلباً للراحة وتغيير ملابسهم لتناول العشاء. سمعت قعقعة كعبي وأنا أعبر الأرضيات الخشبية للسفينة، وحين كنت على وشك الدخول إلى ردهة قاعة المناسبات الخاصة بي، اصطدمت بشخصية مألوفة، لكنّها غير متوقّعة: إنّها آن مورغان.

تعجّبت وقلت: «آن!؟»

أجابتني بالتعجّب نفسه: «بيل!؟»

تدخّلت بيسي ماربوري، التي كانت تقف إلى جانب آن، وقالت: «لا تتفاجئي يا آن برؤية بيل هنا، فأنت كنت تعلمين أنّها ستكون على متن الباخرة.» لقد كانت بيسي تستخدم صوتها الأجشّ الضخم المتطابق مع ضخامة وجودها الفيزيولوجي. كنت أعرف بيسي لأنّها وكيلة أدبية ومسرحية شهيرة. إنّها قوّة لا يستهان بها في حقولها المختارة، وكانت ممثلة أعمال أوسكار وايلد الأدبية قبل وفاته، ما يعني أنّها لا تخاف ولا تهتم كثيراً بازدراء المجتمع لها، كما كانت تمثّل المسرحيات الرائعة لجورج برنارد شو، وهي علامة مضيئة أخرى تصبّ في مصلحتها. في الأخير يبدو أنّها كانت تميل إلى الإعجاب بي حتى لو كان لآن وإلسي دي وولف مشاعر سلبية عني. تبادلنا الابتسامات العريضة الصادقة، لكنّني لاحظت غياب إلسي، التي كان يشاع أنّها شريكتهما الثالثة في زواجهنّ المثلي، فتساءلت عن مكان وجودها، فأنا نادراً ما أراهن بشكل منفصل في البيئات الاجتماعية المختلفة.

فاحتضنتني بيسي بدفء وقالت: «إنّه لمن الرائع أن أراك يا بيل!»

أجبتها: «جميل أن أراك أيضاً يا بيسي»، ولوّحت لها بإيماءة ودّية، وأضفت: «وجميل أن أراك كذلك يا آن. هل كنتما في باريس؟ السيّد مورغان قد ذكر لي أنّكما كنتما في فيلا تريانون في الأشهر الماضية.»

لم أكن أعرف أنّ آن كانت على متن السفينة نفسها، وأنّها كانت عائدة إلى مدينة نيويورك. لحسن الحظّ كانت آن أقلّ حضوراً منتظماً في المكتبة بسبب الهوّة التي كانت تفصل بينها وبين وجهات نظر والدها السياسية، ولا سيما دعم آن العام للنساء العاملات في مجال الملابس، وهو ما كان يغضب والدها.

أجابتني بيسي بينما لم تبد آن سوى إيماءة دافئة: «هذا صحيح لقد قضينا وقتاً رائعاً هناك، لكنّنا أنهينا، بطبيعة الحال، إقامتنا في باريس.»

سألتها: «وكيف كانت باريس؟»، ثم قدتهما من الرواق الضيّق إلى سطح السفينة الذي كان أكثر رحابة.

أجابت بيسي بالنيابة عن آن؛ لأنّها كانت من بين الأشخاص القلائل الذين يفرضون شخصيتهم القويّة على آن لتصبح هذه الأخيرة أمامها بلا حول أو قوّة: «إنّ باريس ساحرة مثل عادتها دائماً بطعامها الربّاني ومسرحها الذي يبدو أكثر سحراً.»

«آه، كم كنتما محظوظتين بالوجود هناك!»

سألتني بيسي بتعجّب: « لكنّ باريس لم تكن تمثّل جزءاً من خط سير رحلتك أَليس كذلك؟»

«لقد مررت عليها مرور الكرام، وأقمت هناك لفترة وجيزة فقط، لكنّني قضيت معظم وقتي في لندن؛ حيث التقيت بالعديد من أمناء المكتبات والتجّار، ثم قضيت شهراً في إيطاليا لتقييم الأعمال الفنّية لمجموعة المكتبة.

ولسوء الحظّ لم أظفر سوى بيومين في باريس حين كنت في طريقي إلى إيطاليا.»

حرّكت بيسي إصبعها تجاه وجهي، وكرّرت معها آن الفعل نفسه، وقالت: «سيتعيّن عليك إقناع مديرك السيّد جي بي مورغان بما جعلك تكيّفين جدولك الزمني الخاص، فتحصلين على المزيد من الوقت لقضائه في باريس.»

ألقيت نظرة عابرة على آن، وقلت لبيسي: «بصراحة، ليس لدي أيّ اعتراضات على القيام بذلك. لقد قضيت وقتاً رائعاً في التنزّه في الكثير من البلدات الإيطالية الصغيرة.»

أخيراً تكلّمت آن بحدّة تشبه حدّة رنين الأجراس، وسألتني: «أي مدن إيطالية تلك التي زرتها يا بيل؟»

لقد كان هذا السؤال سيبدو طبيعياً لو طرح في محادثة مثالية، لكنّني أنا وآن ليس لدينا تاريخ كبير في الانخراط في محادثات نموذجية قط، فهذه هي المرّة الأولى منذ الفترة التي لم تعترف فيها بوجودي. أجبتها بحذر: «بطبيعة الحال، زرت في البدء المدن المعروفة، مثل فلورنسا والبندقية، لكنّني وجدت أنّ الأماكن الأصغر حجماً مثل فيرونا، ورافينا، وسيينا، وأورفيتو، تُعدُّ تحفاً حقيقية.»

سألتني آن: «وكيف تسنى لك اكتشاف تلك المدن؟»

لقد كان فضول آن حين يتعلّق الأمر بي غير معهود؛ لذلك اخترت كلماتي بعناية، فقلت: «لقد كان لدي مرشد سياحي استثنائي.»

نظرت آن إلى بيسي، وبادرت بإبداء ابتسامة انتصار صغيرة، وقالت: «أراهن أنّك حظيت بمرشد سياحي استثنائي، وأعتقد أنّني أعرفه.»

شعرت بتشنّج في معدتي. يبدو أنّ ما قامت به آن هو فخّ كانت تحاول وضعه من خلال أسئلتها التافهة. لقد توقّعت، من بين كلّ الناس، الذين يمكن

أن يعرفوا شيئاً عن الوقت الذي قضيته مع برنارد، وربما حتى علاقتي معه، إلا آن، فهي ستكون أسوأهم؛ لأنّها هي من تكهنت بالفعل بما تسميه جذوري الاستوائية، فماذا ستفعل لو أصبحت تعتقد أنّها تحمل سرّين عني؟

قالت بيسي، وقد رافقتها نظرة خيبة أمل من آن: «إنّ ما تلمح إليه آن يا بيل هو حقيقة أنّه كان لدينا عشاء مع برنارد بيرنسون في باريس ليلتين قبل أن نركب على متن باخرة الأوسيانيك.»

قرّرت ألا أقدّم لهما أيّ شيء، بما في ذلك أي تفاصيل أو أي عاطفة عشتها، في حال لم يقدمها لهما برنارد بالفعل. سأثور على برنارد لأنّه ربما يكون قد شاركهما أيّ شيء عن الوقت الذي قضيناه معاً، وخاصة لو ذكر ذلك لآن مورغان؛ لأنّه يعلم طبيعة علاقتي المتحجّرة معها.

فقالت بيسي: «لقد أخبرنا أنّه قدّم لك بعض النصائح بشأن المدن التي يجب زيارتها في إيطاليا.»

اعترفت بهذه الحقيقة الصغيرة في انتظار أن أرى ماذا ستضيف فقلت: «نعم لقد فعل ذلك.»

واستمرّت بيسي في حديثها: «كما أخبرنا أنّه قام بنزهة معك حين سمح له جدوله الزمني بالتجوال في مدينتين ليسلّط الضوء على الجوانب الفنّية فيهما.»

تصنّعت ابتسامة وقلت: «إنّه الخبير الأوّل في العالم في فنّ عصر النهضة الإيطالي. لقد كانت توجيهاته مفيدة للغاية.»

صرخت آن وقالت: «لا بد أنّه كان لك أكثر من مرشد سياحي؛ إذ يبدو أنّك أسرت قلبه.»

على الرغم من أنّ نيتي كانت تقوم على التزام الهدوء والتحفّظ، تكلّمت من دون تفكير: «أسرت قلبه؟ لا أصدق أنّه قال ذلك.»

حدجت بيسي آن بنظرة توبيخ وقالت: «نعم هو لم يقل ذلك يا بيل، بل لمّح إلى أنّه وجدك فاتنة بشكل لا يقاوم خلال الوقت القصير الذي قضيتماه معاً، وأنّ العالم بدا معك شبه...» توقَفت عن الكلام لتبحث في قاموسها عن الكلمة المناسبة، ثم قالت: «مظلم منذ أن تركتِه.»

فقالت آن بصوت عالٍ: «لا يمكنني أن أصدّق أنّ مجرّد القيام بجولة حول بعض الكنائس والمتاحف لبضع دقائق ستجعله يائساً للغاية إلى تلك الدرجة.»

أَلتلك الدرجة كان برنارد يائساً!؟ لم أسمع إلى تلك اللحظة أيّ تلميح في تصريحات آن، لكنّ تداعياتها بعد ذلك أصبحت واضحة.

قرّرت استخدام الحيل التي كانت تخدمني بشكل جيّد في المجال الاجتماعي بدلاً من الردّ بشكل دفاعي، فقلت: «ماذا عساي أن أفعل إذا كنت فاتنة إلى درجة أنّني جعلته لا يقاوم جمالي الساحر»، ثم أضفت بعد أن ألقيت بطرف وشاحي على كتفي: «لم يكن غنجي مقصوداً، لكنّ الرجال يرغبون دائماً في رؤية ما يريدون.»

قهقت بيسي وتحدّثت بصوت لا يليق بالسيّدات، ففي نهاية المطاف كلّ شيء في بيسي لا يشبه السيّدات: «إنّ ما قلته يا بيل صائب للغاية، فمعظم الرجال لا يدركون حماقة وجهات نظرهم. أَلم يقل شكسبير: «أحمق من يخال نفسه حكيماً. أما الحكيم فيعرف أنّه أحمق»؟» هزّت برأسها وأضافت: «لقد حاولت أنا وآن أن نقنع برنارد بالانضمام إلينا والصعود على متن باخرة الأوسيانيك، وأخبرناه أنّ نسائم المحيط العليلة والسفينة الفخمة ستغريه، لكن بطريقة ما كان يعلم أنّك ستكونين على متنها، وقال إنّك لا تودين رؤيته.»

انتابني الشكّ في أن تكون دعوة آن لبرنارد للصعود على متن سفينة الأوسيانيك بريئة. ربما تكون خطّطت لأخذ دليل ملموس إلى والدها يثبت العلاقة الرومانسية التي تربطني ببرنارد، لتبرهن أنّني أخليت باتفاقنا غير المعلن للحفاظ على ما نعتقد أنّه أسرار بيننا أنا وهو.

لكنّ ما واساني في تلك اللحظة هو معرفة أنّ برنارد قد أدرك أنّه خيّب ظنّي بشكل رهيب، وأنّه يعاني، فمن غير العدل أن أعاني وأتعذّب وحدي.

أجبتها: «لا أستطيع أن أتخيّل ما كان يتحدّث عنه.»

فقالت بيسي: «للناس في ما يعشقون مذاهب! أعتقد أنّ الوقت قد حان للعودة إلى حجرتنا الخاصة، ألا تعقدين ذلك يا آن؟»

كيف يمكن لامرأتين تقاسم الحجرة نفسها؟ يبدو أنّ بيسي قد قدّمت لي عن غير قصد أدلّة مؤكّدة على أنّ آن وبيسي وإلسي مثليات جنسياً، ومثل تلك المعلومة يمكنها أن تحوّل الشائعات إلى حقيقة.

فقالت آن: «يمكنك الذهاب يا بيسي وسألحق بك مباشرة.» لقد كانت عيناها مثبّتتين عليّ، وظلّت تنتظر إلى أن ذهبت بيسي لتتكلّم مرّة أخرى وتقول: «لقد كانت بيسي دبلوماسية معك، فمن الواضح مما قاله برنارد أنّكما متورّطان في علاقة غرامية. وقد كان يفترض بك أن تكوني في أوروبا من أجل العمل، لا من أجل الحب. أنا أتساءل كيف سيشعر والدي حين يكتشف ذلك.»

كنت أعرف بالضبط ما سيشعر به السيّد مورغان، ربما سيكره أنّني خدعته، وخصوصاً حين وعدته بأنّ الرحلة لا علاقة لها ببرنارد، وسيكره أنّني سمحت لبرنارد، من بين جميع الرجال، بشدّ انتباهي، كما سيكره أن يحوّل أي شخص انتباهي بعيداً عنه.

لم يكن لدي خيار حول ما سأقوله بعد ذلك، فقلت: «وأنا أتساءل كيف سيكون شعوره حيال مشاركتك الحجرة مع بيسي ماربوري. أعلم أنّ المساحة في تلك الحجرة كبيرة وفخمة، ولكن أعتقد أنّه لا يوجد سوى سرير واحد.»

تشدّقت آن وقالت: «أَتعتقدين أنّك ذكيّة للغاية بتهديداتك الضئيلة تلك؟ يجدر بك ألا تنسي أنّ الحصيلة ستصبّ في مصلحتي، فأنا أعرف الآن سرّين عنك، في حين أنت لا تعرفين سوى سرّ واحد فقط.»

قمت بهز رأسي وضحكت وقلت: «أنا لا أعرف حقاً ما تتحدّثين عنه يا آن، فأنا ليس لدي ما أخفيه.»

«سأظلّ أراقبك يا بيل. قد يكون والدي متغافلاً عن حيلك وخدعك، لكنّني لست كذلك.»

كان من المفترض أن يخيفني ذلك التهديد، لكنّ الغريب في الأمر أنّه شجعني أكثر. لقد بيّن لي ما يشبه تفاهة شقيقة كبرى غنّية ومدلّلة بصدد انتقاد شقيقتها الصغرى الغالية، في منافسة على من يكسب ودّ الأب أكثر، فآن لم تكن تراني موظّفة عند والدها، بل عُنصراً من العائلة. وقد تأكّد لي للتو أنّه حتى وإن عانيت بشدّة من مسك يد برنارد خلال تلك الرحلات، ولم أستطع التمسّك به في النهاية، فإنّني والسيّد مورغان نتشارك رابطاً لا يمكن كسره، وأنا لن أدع أيّ شخص أو أيّ شيء يفتكّ ذلك مني.

الفصل الثامن والعشرون

14 كانون الأول/ديسمبر1910

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

كنت أضغط بأطراف أصابعي على صدغي لتسكين آلام رأسي في محاولة للاسترخاء وإيقاف الدوار الذي أصابني في القاعة، حين سمعت صوتاً ينادي باسمي، فحاولت التركيز والبحث عن مصدره من خلال دوامة من أضواء الثريا والألوان الزاهية لفساتين السيّدات، ثم وضعت يدي لأستند على الجدار الذي كان ورائي في البهو الرئيسي لمسرح القرن، الذي كان مصمّماً ليشبه مسرح الكوميديا الفرنسية في باريس؛ حيث كان هناك تدافع اليوم في كلّ مكان من حولي للاحتفال بافتتاحه، وأنا كنت من بين الذين التحقوا بالمحتفلين.

«هل أنت على ما يرام يا آنسة غرين؟» كرّر الرجل ذو العينين الزرقاوين الجميلتين سؤاله مرّات عديدة.

من هو هذا الرجل مجدّداً؟ لقد كان اسمه يجول بضبابية في هوامش ذاكرتي، لكنّني لم أستطع استحضاره. ورغم ذلك استطعت أن أتعرّف إلى الرجل الذي كان يلوح بيده لي من الجانب الآخر من القاعة؛ إنّه جوليو غاتي كازازا، مدير أوبرا المتروبوليتان، فقمت بدوري بالتلويح له بيدي.

استمر الرجل في التحديق في وجهي، فأدركت أنّه يجدر بي قول شيء ما، فقلت: «أنا بخير، أزعجني الضجيج هنا فحسب.» سمعت نفسي أتكلّم،

لكنّ كلماتي لم تحدث أيّ صوت، فقلت: هل كنت أهذي إلى درجة أنّ نطقي أصبح غير واضح؟

فقال: «آه، نعم..» نظر حول بهو المسرح، وأضاف: «إنّ الأصوات والضوضاء لا يفترض أن تصل إلى هذا الحدّ في فضاء هذا المسرح. ألا تعتقدين ذلك؟ يبدو أنّ قائد الأوركسترا قد أصابه بعض الهوس. أليس كذلك؟» استمر في حديثه لكنّني لم أستطع التركيز مع كلماته.

لا يزال فضاء المسرح مكتظاً بالناس، رغمَ أنَّ الحشود قد تضاءلت قليلاً جدّاً منذ وصولي قبل بضع ساعات. أغلب الحاضرين هم من الأثرياء والأقوياء في مدينة نيويورك، والعديد منهم هم من المتبرّعين لهذا المشروع المسرحي الكبير. لكن أين اختفت آداب الأغنياء ولياقتهم الليلة؟ فهم عادة كانوا يتحدّثون بالهمس أو بلهجة مهذّبة، ويبذلون قصارى جهودهم لإخفاء أيّ تعليقات أو سلوك غير مرغوب فيه حتى في أشدّ شؤونهم الدقيقة. لكنّ ذلك السلوك غاب في هذه الليلة، فالكل انغمس في التحدّث بصوت عالٍ أجشّ مختلط بشرب الكحول في تنافس مع صدى موسيقا الأوركسترا، التي كان يقودها مايسترو ربما يكون قد احتسى شراب البورجوندي أكثر من اللازم.

ضحكت من ملاحظتي تلك إلى أن سمعت الرجل يذكر اسمي مرّة أخرى، ويقول: «آنسة غرين. أعتقد أنّه حان وقت مغادرتك في هذا المساء، يبدو أنّ آخر كأس من الشمبانيا قد نال منك»، وأشار إلى كأس الشمبانيا الذي كنت أمسكه.

ضحكت وقلت: «لا. لن أغادر، لقد بدأت ليلتي للتو»، واحتسيت آخر رشفة من الشمبانيا، وقمت بتسليم الكأس إلى نادل عابر كان صاحب بشرة ملوّنة.

أخذ النادل كأسي الفارغ، وسلّمني كأساً آخر، ثم قمت بشيء لم أفعله أبداً في حياتي بوصفي امرأة بيضاء؛ لقد نظرت إلى ذلك الرجل صاحب البشرة الملوّنة مباشرة في عينيه، فتفطّن إلى نظرتي، وتيقّنت من أنّه كان يراني فعلاً، لكنّني لم أبعد عيني عنه، بالطريقة التي كنت أقوم بها دائماً كما علمتني ماما. راقبت نظرته وابتسامته كما لو أنّني كنت أجرّه للكلام، ليتجرّأ ويخبر كلّ من كان في تلك القاعة المليئة بأفضل ما في المجتمع الأبيض في مدينة نيويورك بما يعرفه.

ولأوّل مرّة لم أشعر بالخوف في الدور الذي كنت أؤديه كامرأة بيضاء؛ لأنّ لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من الطريقة التي كنت أشعر بها بالفعل. فما الذي يمكن أن يكون أكثر فظاعة من الشعور بالذنب والألم والخسارة التي عشتها سابقاً خلال الشهر الماضي؟

لكنّ النادل لم يتكلّم، بل قام بإيماءة بسيطة ومحترمة، ثم استمر في جولته حول المسرح يقدّم الشمبانيا للمحتفلين.

سألني مرافقي: «آنسة غرين. هل من المؤكّد أنّك بحاجة إلى كأس آخر من الشمبانيا؟ أعتقد أنّك شربت بالفعل أكثر من المعتاد.»

تجاهلت كلامه وقلت: «عادةً يكون الإكثار من أيّ شيء أمراً سيئاً باستثناء شرب الشمبانيا؛ لأنّ شرب الكثير منها هو الفعل الصائب.» ضحكت وأنا آخذ بعض الرشفات الأخرى، وعندما بادلني ذلك الرجل الضحك بدا لي مغرياً.

«لقد تأخّر الوقت يا آنسة غرين، وأظنّها ساعة ملائمة لمغادرتنا، أليس كذلك؟»

رفعت حاجبي، وحاولت تذكّر اسمه مرّة أخرى. لقد كنت أعرف ذلك الرجل؛ إذ سبق لي أن رأيته في أحد ممرّات المزادات العلنية، وفي قاعات الرقص على حدّ سواء، لكن ربما يكون اسمه قد تاه في مكان ما داخل ذلك

الكأس من الشمبانيا. فقلت له: «حسناً.» ثمّ خفضت من حدّة صوتي، وقمت بخطوة أقرب إليه، وأضفت: «سأذهب إلى أيّ مكان معك.»

أخذ كأسي مني ومدّ يده إليّ. لقد كنت ممتنّة له؛ لأنّني كنت أشعر بالدوار. وبمجرّد أن سرنا نحو المدخل سارع خادم إلى جلب معاطفنا، وساعدني ذلك الرجل في وضع وشاحي المبطّن بالفراء. التفتّ لأودّع الضيوف الآخرين عندما هممنا للخروج من المسرح، لكنّني تعثّرت بالعتبة.

فصحت: «يا للعجب!»، وأمسكت ذراعه.

سألني: «هل أنت بخير؟»، ثمّ أخذ يتثبّت وينظر أكثر إلي، وأضاف: «أعتقد أنّك ستكونين بخير.»

فأجبته: «نعم سأكون بخير؛ لأنّني معك.»

لقد كان هواء شهر كانون الأول/ديسمبر بارداً، لكنّني كنت أشعر بالدفء وأنا ممسكة به، ثمّ حاولت إرخاء رأسي على كتفه بينما كنا نتمشى ونتجه نحو حديقة سنترال بارك الغربية، لكنّ ذلك الأمر كان يتطلّب مني الكثير من الجهد للحفاظ على توازني.

فقلت في نفسي: إذا كان لا يمكنني تناول المزيد من الشمبانيا، فعلى الأقل يمكنني العودة إلى المنزل مع هذا الرجل الذي كنت لا أتذكّر اسمه، لكنّ هذا الأمر لا يعنيني، فهو قليل الأهمّية؛ لأنّ كلّ ما أريد القيام به هو أن أشعر بشيء ما مع شخص آخر الليلة؛ حيث ربما أشعر بحلول الصباح بأنّه لن يبقى لي أيّ شيء مما يربطني ببرنارد.

ثمّ رفع الرجل يده، وأومأ لعربة نقل، ربما كانت ملكه، ولم تكن عربة أجرة. وبوساطة دعمه صعدتُ بجهد إلى الداخل الفاخر للعربة، وارتميت فوق المقعد المنجّد لمنحه مساحة كافية للصعود، لكنّه لم يصعد، بل أومأ لي فقط ونقر على جانب العربة للإشارة إلى أنّه مستعد لرحيلها، وقال: «سررتُ

برؤيتك مرّة أخرى يا آنسة غرين. أرجو أن تبلغي تحيّاتي إلى السيّد بيربونت مورغان.»

فقلت له: «أَلن نذهب إلى المنزل معاً؟»

رفع حاجبيه وقال: «لا أعتقد ذلك، فأنت سيدةٌ شربت الكثير من الشمبانيا، وأنا رجل نبيل. ستشعرين بتحسّن في الصباح من خلال التوجّه مباشرة إلى منزلك.»

فقلت: «لكنّني أريد أن أشعر بالتحسّن الليلة.»

ضحك رغماً عنه، وقال: «ليلة سعيدة يا آنسة غرين.»

لعب آخر كأس من الشمبانيا بي، فمددت يدي إلى يده، وأمسكت به، وقلت: «ما خطبك؟ هل أخافك ظهور دمي الداكن؟»

استهجن ما قلت كما لو أنّ كلماتي كانت بلا معنى، ثم أومأ إلى السائق بالانطلاق. اهتزّت عربة النقل، وتحرّكت، فملت إلى الوراء، وتنهّدت، وأعطيت السائق عنواني، ثمّ أغمضت عيني في محاولة لوقف معدتي من التماوج. لم تكن تلك بالطريقة التي أردت بها إنهاء تلك الليلة. لقد أردت أن أكون مع رجل في وسعه أن يجعلني أنسى الرجل الذي لم أستطع طرده من ذهني.

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى وصلت إلى شقّتنا. وبمجرّد نزولي من العربة شعرتُ بدرجة الحرارة المجمّدة للشارع، ولم أستطع السير بثبات. وحين دخلت الشقّة حاولت التسلّل بالمشي على أطراف الأصابع، لكنّني تعثّرت بطاولة المدخل، فأسقطت على الأرضية العديد من الرسائل التي كانت جاهزة لترسل، فقلت: «اللعنة»، وتمتمت بكلام غير واضح. لقد كان التقاط تلك الرسائل من الأرض مهمّة ليست بالهيّنة، وخاصة أمام مشدّ صدري الضيّق الذي كانت ضرورية إضافته إلى فستاني البورجوندي المسائي.

ورغم أنّنا انتقلنا للسكن في شقّة أكثر فخامة كان باب غرفة نوم ماما لا يزال يصدر صريراً، فهمست ماما: «هل هذه أنت يا بيل؟»، وأزالت خصلة شعرها الرمادي من أمام عينيها، وأضافت: «هل أنت بخير؟»

فأجبتها: «أنا بخير يا ماما.»

فقالت: «يبدو أنّك احتسيت الكثير من الكحول»، ثم نظرت إلى ساعة رف الموقد وأضافت: «إنّ الساعة تشير إلى ما بعد الثانية صباحاً، ويُعدُّ هذا وقتاً متأخّراً لخروج امرأة غير متزوّجة.» ثم خاطرت بإضافة: «ومن دون مرافق مناسب.»

لقد حاولت ماما منذ اللحظة التي عدت فيها إلى شقّة عائلتي من باخرة الأوسيانيك لفّ حبال العادات والتقاليد حول رقبتي من جديد.

فقلت لها: «يا ماما. أنت تعلمين أنّ الاختلاط الاجتماعي هو جزء من عملي و—.»

«ماذا حدث لك في أوروبا يا بيل؟»

لم أندهش من سؤالها؛ لأنّها سبق أن سألتني هذا السؤال عدّة مرّات خلال الأسابيع القليلة الماضية، لذلك أجبتها: «لا شيء يا أمي. لقد ذهبت إلى هناك لمجرّد شراء تحف فنّية للسيد مورغان»، وحاولت نطق كلمات واضحة والوقوف بثبات أمامها على الرغم من أنّ كأس الشمبانيا الأخير الذي احتسيته لا يزال مفعوله قائماً.

ثم خاطبتني ماما بلهجة أكثر حدّة وقالت: «لا تتشاطري عليّ يا بيل، لقد صرت مختلفة منذ عودتك إلى الوطن. يبدو أنّك أصبحت....» توقّفت لتبحث في قاموسها عن الكلمات الملائمة، ثم قالت: «مشتّتة الذهن، وضيّقة الصدر، وحتى متهوّرة.»

متهوّرة؟! نعم ذلك هو ما أشعر به؛ لأنّني لا أستطيع أنّ أسمح للحظة هادئة واحدة بهزمي، وإذا سمحت بذلك فستهزمنِي الأفكار التي تجول في ذهني عن برنارد، أو الأسوأ من ذلك الأفكار التي تذكِرني بجنيني المجهض.

لكنّ أمر طرد برنارد من مخيّلتي بدا مستحيلاً، فنحن عدنا للتراسل بعد أسابيع فقط من عودتي. بدأ ذلك حين أرسل إلي برسالة من صفحة واحدة افتتحها بـالكلمات الآتية: عزيزتي بيل، أنا أعشقك. فتسارعت نبضات قلبي في الخفقان، لكنّ ردّي كان عقلانياً ضمّنته داخل رسالة لم تحمل أي تحيّة: برنارد، يبدو أنّك تتقن قول تلك الكلمات أكثر من عيشها. وواصلت سرد معاناتي ومسؤوليّتهُ في ذلكَ.

استمر في كتابة الرسائل إلي، وواصل إعلان عشقه. ولمّا كان ذهني يحثّني على أن أتذكّر الحقيقة، فضّل قلبي أن يتذكّر السنة التي قضيناها للإعداد لتلك الأيام التي قضيناها في إيطاليا؛ حيث اكتشفت قوّة حبّه وسحرِه.

في الأخير، تفاعلت مع ملاحظة والدتي وقلت: «في الواقع، لقد قال روّاد الحفلة الليلة إنّني أبدو مختلفة أيضاً، لكنّهم قالوا إنّني لم أبدُ أفضل من قبل.» لقد كنت أخاطبها في محاولة يائسة للحفاظ على وضوح كلماتي وثبات صوتي؛ لكنّني فشلت؛ إذ كانت تدرك حالة السكر التي أودت بوعيي.

«كيف تجرؤين على العودة مباشرة إلي بعد حفلتك الماجنة تلك لتستهزئي بي. إنّ هؤلاء الناس الذين يعدّون أنفسهم أعيان المجتمع لا يؤثرون إلا في الحمقى، لكنّني فطنة، وأعرف محاولة جرّ أيّ إنسان إلى الانحراف.» بان بريق عينيها الجميلتين من شدّة التحديق والغضب، ثم أضافت: «هل حدث لك شيء ما على متن الباخرة؟»

هل تقصد ما وقع لي على متن باخرة الأوسيانيك؟ لقد كدت أضحك بصوت عالٍ عندما فكرت في أن شيئاً ما غير سار ربما يكون قد حدث لي على متن تلك السفينة التي أعدّها بمنزلة معقل المرح والنسيان، فأكثر لقاء

سيّئ كان مع آن، لذلك قرّرت بعد اليوم الأوّل من ذلك اللقاء أن يتأكد لي أنّني لن أراها إلا من بعيد. وخلافاً لذلك، استمتعت بالفرح الدائم على متن تلك الباخرة.

«من المؤكد لا يا ماما. لقد سبق أن كنتِ معي في الرحلة السابقة، فلا شيء فيها سوى الطعام والمرح.» هزت رأسها وقالت: «لقد حدث شيء ما يا بيل إما على متن باخرة الأوسيانيك وإما في أوروبا. وأنا أودّ أن أعرفه.»

لقد جعلني إصرارها أتوقّف عن الكلام، بل ربما جعلني حتى أرغب في إخبارها؛ لأنّني شعرت بأنّني سأنفجر. لقد كانت أمي حافظة لأسراري إلى أن قمت برحلتي تلك. وكنت أعتقد أنّ برنارد سيصبح ذلك الشخص الذي سيعوّض ماما، وأنّه يمكن له أن يعرف حقيقتي، لكنّه جرحني وغيّرني. لن يكون صديقي الحميمي أبداً؛ بل لا أعتقد حتى أنّه يمكن أن يكون صديقي.

فقلت: «أن أعود في بضع ليال متأخّرة لا يعني شيئاً، فلا تكوني سخيفة يا ماما.» قمت بنزع معطفي وألقيته على الأريكة؛ حيث جلست، فالجلوس كان أفضل من الوقوف إذا كان يتعيّن عليّ مواصلة تلك المحادثة؛ لقد ساعدني الجلوس على تخفيف الدوّار الذي كنت أعاني منه، فكل الغرفة كانت تدور مثل الرحى.

«لست بصدد الحديث عن الحفلات يا بيل.» لقد أصبح صوتها أكثر ليونة الآن. «أنا أتحدّث عن معاقرتك الخمر في تلك الحفلات، وعن عودتك في وقت متأخر من الليل في كل أمسية. وأنا أتحدّث عن استيقاظك المرضي والتعب وغياب التركيز عند مغادرة الشقّة، بل أحدّثك عن كل المخاطر التي تعرّضين نفسك لها.»

للحظة خطرت في بالي صورة النادل صاحب البشرة الملوّنة، واختلطت صورته بكلامي، فقلت «الدم الداكن.» لكن فيمَ كنت أفكر؟ فأنا لا أستطيع الاعتراف بذلك، ولا حتى تنبيه ماما لما حدث، فقلت: «إنّ البقاء إلى وقت

متأخّر في حفلة يجب أن أحضرها لأسباب تتعلّق بعملي لا يمثّل مخاطرة»، وأغمضت عيني وقمت بتدليك صدغي، وعند هذا الحدّ كان كل ما أريد القيام به هو الذهاب الى النوم.

فقالت ماما: «أن تشربي الخمر حدّ الثمالة في إحدى تلك الحفلات مع من تسمّيهم أصدقاءك، وتسمحي لنفسك بتدنيس عرضك وتقاليدك الحقيقية يُعدّ خطراً لا أحد منا يستطيع القبول به. وعدم قدرتك على أداء وظيفتك كما ينبغي في مكتبة بيربونت مورغان بسبب حياتك الليلية الماجنة يؤثر في عائلتك بأكملها. ألا يمكنك رؤية ذلك؟»

لقد جعلني السبب الحقيقي لقلق ماما أنفعل وأثور؛ فأنا كنت بعمر الحادية والثلاثين، وقد تحمّلت عبء المسؤولية المالية، وعبء أصولي العرقية الحقيقية طوال حياتي كامرأة بالغة، فقلت: «متى كنت غير قادرة على أداء وظيفتي، أو أخللت بواجبي تجاه عائلتي؟»

رفعت حاجبيها، وامتصّت غضبي، وسألتني بصوت أكثر هدوءاً: «هل سبق لي أن أخبرتك عن السنوات التي قضيناها أنا ووالدك في مدينة كولومبيا، في ولاية كارولينا الجنوبية، عندما كان أستاذاً؟»

ذهلت لا من التغيير السريع الذي لحق بتركيزها فحسب، بل أيضاً من ذكرها لوالدي، فقمت بهز رأسي؛ فأنا، بطبيعة الحال، كنت أعلم أنّه كان أستاذاً، لكنّني لم أكن أعرف أي شيء عن سنواتهم الأولى معاً.

انحنت صوبي واقتربت مني وقالت: «لقد كان والدك محطّماً لا يعرف سوى تقديم الوعود. وكنت سعيدة، عندما تزوّجنا في عام 1874، بمغادرة منزل والدي المريح إلى ولاية كارولينا الجنوبية، وشعرت كما لو أنّها كانت مغامرة رومانسية من خلال السفر بالقطار والتنقّل معه وهو إلى جانبي، فأنا لم أسافر في حياتي إلى أقصى الجنوب، ولم أتجاوز خط ماسون ديكسون. ونحن لم نكن لنحلم بتخطي ذلك الخط قبل الحرب، عندما كان الأحرار

من أصحاب البشرات الملوّنة يختطفون بانتظام، ويباعون للمزارع. ولكن بعد انتهاء الحرب، تم تمرير قوانين تحمينا. لقد كنت أنا ووالدك سذّجاً بما يكفي للاعتقاد بأنّ البلاد قد تغيّرت حقاً.

ثم تم تعيين ريتشارد قبل عام من زواجنا بوصفه أوّل أستاذ صاحب بشرة ملوّنة في جامعة كارولينا الجنوبية المدمجة لجميع الأعراق حديثاً، في عاصمة ولاية كولومبيا.» رفعت حاجبيّ من وقع الذهول، فأضافت ماما: «والآن قبل أن تنتابك أيّ أفكار بخصوص العظمة في ذلك الحدث، يجب أن تعلمي أنّ عاصمة تلك الولاية لم تكن سوى مدينة ليس فيها طرقات معبّدة، وأنّ مبانيها كانت خشبية، وأنّه كان فيها كلية واحدة، ولها تطلّعات أعلى بكثير من مكانتها، أو تتجاوز الإرادة السياسية للدولة، كما اتضح في ما بعد. كان الحرم الجامعي في حدّ ذاته فيه مسحة تثير الإعجاب، لكنّها لم تكن سوى مسحة بسيطة.

كان يتكوّن الحرم الجامعي حينها من اثني عشر مبنى من الطوب؛ وكان كلّ منها مقابلاً للآخر فوق مساحات خضراء جميلة يحيط بها جدار من الطوب بطول سبعة أقدام. يجب أن أعترف لك بأنّ ذلك الجدار جعلني أشعر بالأمان. كنا كلّما ركبنا في عربة نقل من المحطّة إلى الحرم الجامعي تواجهنا نظرات الجنوبيين البيض الجليدية، في حين كان أصحاب البشرة الملوّنة ينظرون إلينا بالقدر نفسه من السوء بأفواه مشدوهة غريبة.»

ثم لان وجهها فقالت: «لقد كانت تلك الأوقات صاخبة في البداية يا بيل، ويمكنني أن أعترف لك بذلك الآن، لكنّنا تجرّأنا على التقليل من حذرنا. وكان والدك أستاذاً كامل الدوام متخصّصاً في الفلسفة العقلية والأخلاقية، كما كان أمين مكتبة. واشتركنا في الإقامة المزدوجة الجذّابة مع أستاذ الكيمياء صاحب البشرة البيضاء وليام مين وعائلته.» لقد كنت أرغب في إيقاف ماما عند هذا الحدّ؛ لأنّني كنت أرغب في طرح الكثير من الأسئلة

عليها، لكنّني سكت ولم أنبس ببنت شفة، وقد أيقظتني ماما وأدهشتني بما تقاسمته معي من تلك الحقائق، وأمي عادةً تُعدّ امرأة لا تريد أبداً إعادة النظر في تاريخها.

وتابعت حديثها فقالت: «لقد كان العيش مع تلك العائلة ودّياً بشكل ملحوظ. وكان لوالدك قدر معين من المكانة العلمية نظراً إلى خلفيته الأكاديمية فهو خريج جامعة هارفارد. لكن مع مرور الوقت تغيّر كلّ ذلك. لقد كان المحافظون المحلّيون غاضبين من أنّ أولادهم البيض كانوا....» توقّفت ماما هنا لثانية واحدة فقط، فلاحظت أنّها كانت تحاول السيطرة على غضبها، ثم أضافت: «يجلسون بجانب أقرانهم من أصحاب البشرة الملوّنة في فصل دراسي يدرّسه أستاذ صاحب بشرة ملوّنة. بدأ إحساسهم يثير حفيظة نوّاب الولاية. لم يستطع والدك تجاهل ما كان يحدث، فأقحم نفسه في تلك المعركة، وذهب إلى اجتماعات بين أعضاء هيئة التدريس ونوّاب الولاية، كما نظّم اجتماعات في الكنائس، وقام ببعض المسيرات.

أصبح في خضم تلك المعركة معروفاً بخطبه عن الحقوق المدنية، ولا سيما الدعوة إلى تبني قانون الحقوق المدنية الذي قدّمه صديقه تشارلز سمنر قبل وفاته بقليل.»

لقد كانت كلمات ماما صاعقة لي، فقلت: «هل كان بابا صديقاً لتشارلز سمنر؟» كيف يمكن أن يكون بابا صديقاً لسيناتور ولاية ماساتشوستس الشهير الذي ناضل من أجل الحقوق المدنية وحقوق التصويت للعبيد المحررين بعد الحرب؟

فأجابتني ماما: «من المؤكد أنهما كانا صديقين، فوالدك كان صديقاً لمعظم الرجال المشاركين في حركة الحقوق المدنية في ذلك الوقت من أمثال فريدريك دوغلاس، وبوكر تي واشنطن، ووليام إدوارد بورغاردت دو بويز.

بطبيعة الحال، أعني أنّه صديقهم حين لم يكن لديه أي خلافات معهم حول أفضل السبل لتأمين المساواة.»

لقد قرأت قبل بضعة أسابيع مقالاً عن منظّمة الحقوق المدنية الجديدة، والرابطة الوطنية للنهوض بالأشخاص أصحاب البشرة الملوّنة، وأُدرج دبليو إي بي دو بويز بوصفه أحد المؤسسين لها.

لم تعد عينا ماما مركّزة عليّ، بل مركّزة على الماضي، فأضافت: «وعلى الرغم من أن مشروع قانون الحقوق المدنية، الذي وقّعه الرئيس غرانت ليصبح قانوناً، كان أضعف مما كنا نريد، وعلى الرغم من أنّنا كنا نعلم أنّ الغضب من اندماج الأعراق في الجامعة آخذ في الازدياد، بقينا متفائلين بأنّ روح القانون لحماية جميع المواطنين في حقوقهم المدنية والقانونية ستنتصر، ولا نزال متفائلين وسعداء بذلك القانون.»

لقد كانت ماما تتحدّث بضمير الجمع «نحن» كما لو أنّها كانت معنية بتلك القضية، وكما لو أنّها كانت هي ووالدي من نوع الشركاء الذين لم أشاهدهم أبداً طوال زواجهما. ومرّة أخرى كنت مذهولة. بطبيعة الحال، كنت أعرف طبيعة عمل والدي، واستوعبت أنّه كان السبب في نهاية زواجهما، لكنّني اعتقدت دائماً أنّ ماما كانت على الجانب الآخر المناقض لبابا. لا يعني ذلك أنّها لم تكن تريد حقوقاً للأشخاص أصحاب البشرة الملوّنة في أمريكا؛ بل أظنّ فحسب أنّها شعرت دائماً بأنّ من غير المجدي القتال؛ لأنّ المساواة لن تحدث أبداً على خلفية تفوّق البيض.

لقد شعرت كما لو أنّني أنظر إلى ماما بعيون جديدة متفهّمة.

«هناك حقّق والدك أحد أحلام حياته، والتحق بكلية الحقوق في الجامعة. وبينما كانت حياته المهنية تتوّسع، أصبحت حاملاً وأنجبت طفلنا الأوّل.» تساءلت عندما توقّفت للحظة عمّا إذا كانت ستذكر لي اسمه: «هوراس» الصغير، واغرورقت عينا ماما بالدموع.

لقد كنا نسمع همسات ماما عندما كنّا صغاراً عن طفل ولد قبل لويز، لكنّ تلك المحادثات الخافتة كانت تنتهي كلما دخلنا أيّ غرفة، ولم تكن تخبرنا ماما عن ذلك الطفل بصوتٍ عالٍ.

وحين سمعتها تذكر قصّة ابنها المتوفى تحرّكت يدي إلى بطني بتعاطف مع الطفل المفقود. على أي حال، لم أمنعها من مواصلة حديثها، وبمجرّد أن أدركت ما كنت بصدد فعله أنزلت يدي، واستمرت ماما تقول:

«لقد كان الأمر كما لو أنّ الظلام حلّ بنا جميعاً دفعة واحدة. وتوفي هوراس عندما كان عمره تسعة أشهر فقط. لقد كان ذلك المولود صغيراً جداً، ومريضاً منذ البداية، وكان علينا دفنه هناك في مقبرة الحرم الجامعي. ولو لم أكن حاملاً بالفعل بلويز، لكنت مت من الكمد، خاصة مع الأخبار التي كان يحضرها والدك إلى المنزل في كلّ مساء.» ثم تحوّل صوتها إلى مجرّد همس الآن «لقد كان الديمقراطيون المحافظون يزدادون قوّة في ولاية كارولينا الجنوبية، وفي جميع أنحاء الجنوب بالفعل. وكذلك صعود منظّمة كو كلوكس كلان؛ حيث تم قتل كلّ الملوّنين في أغلب التجمّعات والمسيرات. وتعرّضت حياة والدك للتهديد بالقتل في عدّة مرّات، لكنّه تجاهل الخطر، وواصل خطاباته، في زمن الانتخابات خاصةً. ولم يستطع البيض تحمّل رؤية رجل ملون خطيباً قوياً ومعتداً بنفسه بين جماهيرهم البيضاء الجاهلة، ومن المؤكد أنهم لم يتمكّنوا من القبول بمنح حقوق متساوية للأشخاص الذين عدّوهم أسوأ من مجموعة من البغال.»

ثم قالت بكل فخر: «لقد ناضل والدك بشدّة من أجل بقاء الجمهوريين في السلطة وفي مجلس النوّاب وفي مكتب الحاكم، لكنّهم خسروا أمام الديمقراطيين، الذين قاموا بعمل قصير لتفكيك إعادة البناء. وأغلقت أبواب الاندماج بين الأعراق في حرم جامعة كارولينا الجنوبية في غضون أسابيع، وكانت ستتحوّل إلى كلية صغيرة خاصة بالبيض فقط من الرجال.

وعندما خرجنا من بوابة تلك الجامعة، متّجهين إلى مدينة كولومبيا في ذلك اليوم الأخير، لاحظت كم كان كلّ شخص أبيض مررنا به يكرهنا. وشعرت بكرههم أيضاً....» توقّفت عن الكلام كما لو أنّها كانت تحتاج إلى أخذ نفس آخر قبل أن تتمكّن من الاستمرار، ثم قالت: «حين كانوا يبصقون على وجوهنا، ويلقون القمامة على ظهورنا. لقد كنا محظوظين لأنّنا لم نعدم.

لقد عشنا أنا ووالدك فترة قصيرة عابرة في التاريخ عندما كانت المساواة ممكنة، لكنّ العنصرية والخوف انتفضا داخل البيض، واستأصلا ذلك الاحتمال في زمن كانوا مطالبين فيه بالوقوف جنباً إلى جنب مع أبناء وطنهم من أصحاب البشرة الملوّنة. وفي تلك اللحظة بالذات تمكّنت من رؤية المستقبل بوضوح. لقد كان مجتمعنا الصغير المكوّن من أصحاب البشرة الملوّنة على وشك الاندثار. ومعه كانت ستختفي المثل العليا السامية للتكامل والاندماج بين كل الأعراق في فترة ما بعد الحرب. لن يكون هناك سوى السود والبيض عنصران منفصلان، ولكنهما بالتأكيد ليسا على قدم المساواة.

لقد أدركت ذلك قبل وقت طويل من فهم والدك أو قبوله له يا بيل، وكنت أعرف أن عمله سيكون بلا جدوى. وعندما انتقلنا إلى مدينة نيويورك، كان هناك خيار واحد فقط، وقرار واحد فقط يمكن اتخاذه.» هنا تحوّلت رؤى ماما من النظر إلى المسافة التي يعيش فيها الماضي إلى وجهي، وإلى الحاضر، وقالت: «إنّ أملنا الوحيد هو أن نعيش بوصفنا بيضاً.»

حدّقت في وجهي بعيون قاسية، وأضافت: «إذا كنت لا تريدين أن تقولي لي ما حدث أثناء وجودك في أوروبا يا بيل، فذلك هو حقّك، لكن أنا أريدك أن تستوعبي المخاطر التي تعرضين نفسك لها، والخطر الذي تضعين فيه عائلتك؛ لأنّه إذا تم الكشف عن حقيقة هويّتك، ومعها هويّة عائلتك، فإنّنا سنعود إلى أصولنا الملوّنة مرّة أخرى. وأنت لا تريدين العودة لتكوني بيل ماريون غرينر أبشّرك بذلك.»

اندهشت في صمت من قصّة والدتي، وشعرت بالامتنان لها؛ لأنّها تقاسمت معي ذلك الجزء الحاسم من ماضيها، لكنّني أدركت أنّ ذلك لم يكن يتعلّق بمشاركة حياتها الداخلية مع ابنتها البالغة؛ بل كانت قصّة تحذيرية من أمّها، وأنّ تلك القصّة لم تكن تتعلّق بما مضى من تاريخ؛ بل تتعلّق بالمستقبل وما سيكون عليه عالمي إذا تجرّأت على الطيران بالقرب من الشمس. ومن بين جميع «الاقتراحات» التي قدّمتها لي، وجميع المحاذير التي نبّهتني إليها وقاومتها مؤخراً، كانت تلك القصّة تصبّ في خانة السجلّات التي يجب أن تحفظ.

ثم نهضت وأدارت لي ظهرها وأغلقت باب غرفة نومها. بقيتُ جالسة، وسمحتُ لنفسي بالغرق في مداد بحر كلماتها. لقد كانت هناك رسالة مبطّنة بين ثنايا تلك الكلمات تقول: إنّ خيارها في العيش بوصفها بيضاء لم يكن ما تريد القيام به، ولكنه ما شعرت بأنّها يجب أن تتّخذه. لقد تظاهرت بأن تكون جزءاً من الأشخاص الذين هدّدوا والدي، والذين تقريباً طردوا والديّ خارج المدينة، ورفعوا شبح القتل أمامهما، لأنّها فحسب اضطرت إلى القيام بذلك. أصبحت واحدة منهم على الرغم من أنّها كانت تفتخر بكونها فرداً منتمياً إلى إحدى العائلات الملوّنة البارزة في العاصمة واشنطن، بل كانت تعشق انتسابها إلى عائلة فليت، وتخلّت عن الهويّة التي أحبّت أن تعيش بها بين الناس الذين تكرههم، لتحسين مستوى عيش أبنائها فحسب.

دفعت نفسي للنهوض من الأريكة، وسرت بأكثر ثبات الآن؛ لأنّ قصّة ماما وما باحت به أيقظني. إنّني أدرك تضحياتها، وأقبل بحتمية ذلك الاختيار لنا جميعاً، وفي المستقبل سأنتبه وأكون حذرة أكثر.

الفصل التاسع والعشرون

20 نيسان/أبريل 1911

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

لقد سمحت لتوصيات والدتي، ظاهرياً على الأقل، بتوجيه حياتي منذ آخر محادثة جمعتني بها قبل أربعة أشهر. أمّا في المناسبات الاجتماعية المتعلّقة بعملي، فكنت أراقب كميّة معاقرتي للخمر، لكنّني التزمت حين أكون مع السيّد مورغان بجوهر قواعد الآداب. وعندما أسمح لنفسي بالقيام بتمرّدات صغيرة، كنت أقوم بتعديل سلوكي، فأتجنّب التأخّر الليلي؛ لذلك كنت حين أنضمّ إلى كاترينا في عدد قليل من مسيرات حقوق المرأة، أو أحضر مع إيفلين في أمسيات العكاظيات الشعرية في قرية غرينتش، ألتزم بالعودة باكراً إلى المنزل، أما بشأن أفعالي فكنت ألتزم بدور المتفرّج فحسب. حتى مع دوائر صديقاتي الجدد، أعني هنا الممثّلات من قبيل ماري جاردن، وإلين تيري، وسارة برنهاردت، اللاتي كنت أشعر بالسعادة لاستقلاليتهنّ، وأغبط مناقشاتهنّ بشكل غير مباشر حول حياتهن الجنسية، لكنّني لم أكشف لهنّ أبداً عن الأعمال الطّائشة التي كنت أقوم بها، ولم أخبرهنَّ حتى بالأحداث الأخيرة التي عانيت منها.

وأحياناً أتساءل: لماذا اغتنمت كل الفرص التي أتيحت لي، أَلم يكن تركيز جهودي على المكتبة والارتباطات الاجتماعية اللازمة لذلك العمل فحسب أكثر أماناً لي؟ لكنّني وجدت أنّني حين أسمح لنفسي بعيش أيّ لحظة من الهدوء في حياتي، فإنّ الأفكار التي تذكّرني ببرنارد ستملأ ذلك

الفراغ. على الرغم من أنّني قرأت رسائل الحبّ التي واصل إرسالها إلي واحتفظت بالهدايا، من قبيل الأعمال الفنّية والفساتين الفاخرة التي كان يرسلها على نحو متواصل، كان يتعيّن عليّ القيام بكلّ ما هو مطلوب لجعل قلبي يخشوشن ويقسو عليه. لقد ساهمت الأمسيات العرضية، التي استمتعت فيها بالمداعبات في شقة أليستير بارون، أو مواعيد القبل التي كنت أتبادلها مع صموئيل ياردلي في أجنحة الأوبرا الفارغة، في ملء أي شقوق في درعي التي قد تكون مفتوحة لبرنارد؛ إذ لا يمكنني أن أسمح لنفسي أن آمل أن تظهر نسخة جديدة من برنارد بدلاً من الرجل الحقيقي الذي أعرفه.

لقد اتخذت مسعى جديداً في الأسابيع القليلة الماضية استنزف كلّ جهودي، وهو مسعى كنت آمل من خلاله أن أختم مصيري مع السيّد مورغان، وأبدد مخاوف ماما إلى الأبد. من حسن حظّي أنّه طوال عملي في تلك المؤسسة الحسّاسة لم يكن هناك مجال أو وقت للتفكير في برنارد.

«بيل!»

لقد أيقظني هذا الصوت المنادي باسمي من تأملاتي. ومن المفروض أن أكون أمام باب مكتب السيّد مورغان حتى قبل أن يبدأ في مناداتي مجدّداً بصوت عالٍ، لكنّني لم أكن مضطرّة إلى القيام بذلك؛ لأنّني بالفعل كنت إلى جانبه سبع عشرة مرّة اليوم.

لقد واجهت في هذا الصباح تحدّيات استثنائية؛ حيث أتت ثلاث نساء من عشيقات السيّد مورغان الأربعة إلى المدينة لهذا الموسم، وقد كلفني بمهمّة مرهقة تتمثّل في إبقائهنّ منفصلات أثناء تداخل زياراتهنّ له. وهو ما حدث في ثلاث مناسبات متميّزة اليوم، والوقت الآن يقترب من الظهر. كلّ ذلك حدث في الصباح، الذي كان مبرمجاً للإعداد لأحد المزادات البارزة التي سأحضرها على الإطلاق، وهو مزاد آمل أن أحظى فيه بشراء تحفة فنّية طال انتظارها.

صاح السيّد مورغان مرّة أخرى: «بيل! أنا أعلم أنّك موجودة! أنت لست بصدد إهانتي فحسب، بل تسيئين أيضاً لضيفتي العزيزة السيدة جونستون.»

تذكّرت الاسم، فالسيّدة جونستون هي الوحيدة من بين عشيقات السيّد مورغان الأربع التي أحترمها بالفعل؛ إنّها امرأة ذكيّة، لكنّها سليطة اللسان. لقد جمعتني بها عدّة مآدب غداء في نادي كولوني، ومعرفة السيّدة جونستون بكوامن الفنّ والثقافة كانت تثير اهتمامي مثلما كانت معرفتي الخصوصية بالسيّد مورغان تثير اهتمامها.

ليتأكّد لي أنّني سأبدو بمظهر لائق أمام السيّدة جونستون، التي كانت دائماً تتأنّق بشكل لا تشوبه شائبة، وترتدي أحدث الفساتين الباريسية، قمت بتصفيف شعري، ثم نهضت من مكتبي. لقد بدأت للتو تنظيم ملاحظاتي المتعلّقة بمزاد روبرت هو الليلة؛ فكلّ شخص مهم في مجال المخطوطات من عالم الفنّ سيكون موجوداً في مدينة نيويورك لشراء مجموعة كتب روبرت هو، ويجب أن أكون مستعدّة لهذا الحدث. إلا أنّه لا يمكنني الإساءة إلى السيّد مورغان أو السيّدة جونستون، على الرغم من أنّ الكثير من سمعة مكتبتنا على المحك هذا المساء.

هذه الليلة تمثّل أكثر من مجرّد مزاد حاسم آخر بالنسبة إلي، فأثناءها سأكون أخيراً قادرة على تلبية ما طلبه مني السيّد مورغان في يوم مقابلتي. وأنا مصمّمة هذه الليلة على الفوز بجائزة المزاد؛ تلك التي حدّدت مكانها أخيراً بعد مرور شهور وشهور من أعمال التحرّي؛ تلك التحفة التي حاولت تأمينها قبل بدء المزاد الليلة لكن دون جدوى؛ أي نسخة ويليام كاكستون النادرة من رواية (موت آرثر) لتوماس مالوري، التي جعلني السيّد مورغان أبحث عنها كما لو أنّها كانت تحفته المقدّسة.

بمجرّد دخولي إلى مكتب السيّد مورغان، سارعت إلى إلقاء التحيّة فقلت: «صباح الخير يا سيدة جونستون! لو كنت أعلم أنّك في المكتب لكنت سارعت إلى الحضور على الفور، بدلاً من الاختباء في مكتبي، والتظاهر بأنّني لم أستطع سماع السيّد مورغان.»

ضحكنا كلّنا من الاستحالة المطلقة لأيّ شخص تجاهل نداء السيّد مورغان.

فقال: «هل بإمكانك تسلية السيّدة جونستون للحظة، ريثما ألتقي بسكرتيري كينغ لفترة وجيزة؟»

قلت: «سيكون من دواعي سروري القيام بذلك يا سيّدي.»

نهض السيّد مورغان من خلف مكتبه وقال: «ألَم أخبرك -يا سيّدة جونستون- أنّ بيل ستجلب إليّ الليلة كنزي؟»

ابتسمت السيّدة جونستون وقالت: «بلى. لقد أخبرتني بذلك الليلة الماضية، وكرّرت إخباري به مرّة أخرى هذا الصباح.»

فقال: «هل فعلت ذلك فعلاً؟ لا بد من أنّني نسيت من شدّة حماستي للموضوع.»

طمأنته مجدّداً وقلت: «سأبذل قصارى جهدي للفوز بها لأجلك يا سيّدي.»

فقال: «أن تبذلي قصارى جهدك هو أمر رائع يا بيل، لكنّ تأمين نسخة الكاكستون لي يُعدُّ أمراً ضرورياً.»

بمجرّد أن غادر السيّد مورغان القاعة، ابتسمت للسيدة جونستون وقلت: «إنّه متحمّس للغاية بشأن نسخة الكاكستون تلك، لقد انتظرها لوقت طويل جدّاً.»

أومأت برأسها وقالت: «أَلا تعلمين أنّه لا يريد حضور حفلة ساهرة معي في منزل أستور الليلة؟ ظلّ يدلي بتلك التعليقات حول المزاد وسيلةً لإعفائه من حضور الحفلة معي، والذهاب معك بدلاً من ذلك، على الرغم من حرصي وإصراري على حضوره معي.»

فأجبتها: «لا يفترض بي أن أعرف أيّ شيء مما يريد السيّد مورغان القيام به يا سيّدة جونستون.»

ضحكت مرّة أخرى، وقالت بصوت شجي: «لو كان هناك شخص يعلم علم اليقين بشأن رغبات وشهوات بيربونت، فسيكون أنت يا آنسة غرين.» على الرغم من ضحكها شعرت بنبرة حزينة في كلامها حين أضافت: «إنّه يفضّل أن يكون معك في المزاد أكثر من قضاء تلك الحفلة معي.»

فقلت: «لم يكن لي علم بذلك، لكن لو كان ذلك صحيحاً فإنّه يعود فحسب إلى أنّه كان يتوق إلى امتلاك نسخة الكاكستون بالذات لسنوات.»

أخذت السيّدة جونستون تجوب أرجاء القاعة جيئة وذهاباً، وهي تمرّر إصبعها على امتدادات المجلّدات التي لا تقدّر بثمن، فحرّكتها من أماكنها التي بذلت جهداً كبيراً في ترتيبها بعناية، ثمّ قالت بعد أن غيّرت لهجتها، ولم تعد تنظر إليّ عندما تطرح السؤال: «هل تعلمين ما قاله بيربونت عنك في الليلة الماضية يا آنسة غرين؟»

لم يكن مؤكّداً لي أنّني كنت أرغب في أن أعلم، لكنّني ابتسمت لها وقلت: «لا. لا يمكنني حتى تخيّل ما قد أخبرك به عني، لكنّني لا أشك في أنّني أعطيه العديد من الأسباب ليشكو مني.»

توقّفت عن الكلام في تلك اللحظة، وغابت عن تقاسيم وجهها ملامح الضحك، وقالت: «لقد أخبرني أنّك أهمّ شخص في حياته.»

لقد فاجأتني كلماتها على الرغم من أنّها كانت تمدحني، فلوّحت لها بيدي في الفضاء للتعبير عن الاستخفاف، وقلت: «لا بدّ من أنّه كان يمزح معك بلا شك. ربما يعود ذلك إلى أنّنا على وشك الحصول على مجلّد مهم، ما يبرّر بقائي عالقة في ذهنه.»

فقالت: «لم تكن هناك روح الدعابة في صوته يا آنسة غرين، بل ما كان يكنّ لك سوى الاحترام والإعجاب.»

هل كانت السيّدة جونستون، بعد كل هذه الأشهر من معرفتي، تعدّني منافسة لها بلا مبرّر؟ لقد مرّت سنوات منذ أن تشاركنا أنا والسيّد مورغان إحدى تلك اللحظات الحميمة. وقرّرنا منذ زمن بعيد، وبلا نقاش، أنّه يستحيل إقامة علاقة غرامية بيننا. فلماذا يصدر هذا التلميح عن السيّدة جونستون الآن؟ هل هي تشعر بشيء يصعب عليّ اكتشافه؟ وقبل أن أتمكّن من الحصول على إجابة، فتح باب المكتب، فقفزت لأمسك بحافة كتاب القرون الوسطى عن الساعات الذي حيّدته السيّدة جونستون خارج مكانه في الرف. وصدح صوت السيّد مورغان في القاعة فقال: «حسناً يا بيل. لقد حان وقت رحيلي أنا والسيّدة جونستون»، ثمّ خفّض من صوته، فأصبح ليّناً أكثر حين أضاف: «لكنّني أعلم أنّك ستقومين بعمل جيّد في مواجهة ثعالب المزادات بمفردك. سأراك في الصباح، وأتوقّع أن أرى نسخة الكاكستون في يدك.»

عادت ابتسامة السيّدة جونستون، فإلى تلك اللحظة، على الأقل، مازالت أهم شخص في حياة جون بيربونت مورغان.

****

قمت بالعودة إلى منزلنا قبل بدء المزاد لأغيّر ملابسي، فارتديت أكثر ثوب جذّاب لي يتمثّل في فستان أزرق مثل الياقوت من تصميم مريانو فورتوني أرسله برنارد هدية لي مثل العديد من الهدايا الأخرى، فطرد برنارد من حياتي لا يعني أنّني لا أستطيع استغلال هداياه.

لقد قمت في هذا العام بشراء شقّتين مجاورتين لمبنى البواب في الزاوية التي تقع بين شارع الأربعين وشارع بارك أفنيو. كانتا تقعان على بعد مسافة قصيرة من مكتبة بيربونت مورغان، ولكل منهما مدخل منفصل، لكنّهما متصلتان في المنتصف بباب واحد لا يمكن لأيّ أحد فتحه سواي. لقد كانت محاولة مني لعيش حياة مستقلّة من النوع الذي تتمتع به كاترينا وإيفلين. كنت مسرورة بتزيين تلك الشقّتين بألوان فاتحة، وأثاث جديد بسيط جنباً إلى جنب مع الأعمال الفنّية التي كان برنارد يرسلها إلي من قبيل لوحات جي بييرو ديلا فرانشيسكا. كنت في الأمسيات الخالية من الارتباطات الاجتماعية أعشق المطالعة، وأنا مستلقية على أريكتي المميّزة وسط كتبي الغالية وأعمالي الفنّية في هدوء مساحتي الخاصة.

عندما أكون داخل الصالون، أسمع ماما وإخوتي يتشاجرون في شقّتهم التي كانت أكبر من شقّتي، لكنّني كنت أتجاهل مشاجراتهم، فوقت المزاد قد اقترب، وأنا لا يمكنني المخاطرة بالتورّط في محادثة مطوّلة معهم، أو السماح بأي نقاش آخر. لقد كنت أسكن بقربهم من باب القيم والآداب فحسب، لكن هذا لا يعني أنّني يجب أن أتصرّف كما لو أنّنا كنا نتقاسم الفضاء نفسه. هذه الليلة تُعدّ مهمّة جدّاً لمستقبل عائلتي؛ حيث لا يمكن إثقالها بتفاهة الحاضر.

****

بمجرد وصولي إلى مبنى المزاد، تم اقتيادي إلى مقعد يقع في الممر في الصف الثالث مثلما كنت أفضّل، إلى جانب ألفريد بولارد، رئيس المتحف البريطاني للطباعة والكتب النادرة. لقد بات ألفريد زميلاً وصديقاً لي منذ زيارتي الأولى إلى لندن، فأجرينا محادثة قصيرة عن روّاد المزاد من خلال الاطلاع على الكتالوج الذي كان يحتوي على قائمة بمئة مشارك أو نحو ذلك من مقدّمي العروض. وبمجرّد أن خفتت الأضواء وخيّم الصمت على الحشد، بدأ قلبي يخفق تحسباً لانطلاق المزاد.

قام الدلاّل بافتتاح المزاد، كالعادة، بتسليط الضوء على التحفة التي كانت معروضة للبيع في صندوق، وتتمثّل في نسخة نادرة من أناجيل غوتنبرغ؛ فسألت السيّد مورغان عن مدى اهتمامه بهذه التحفة، لكنّه اعترض قائلاً: «لدي الكثير من أناجيل غوتنبرغ اللعينة!»، وهذا أعطاني رخصة للتركيز على العطاءات الأخرى التي ستبدأ أثناء المزاد.

لقد افترضت أنّ المزاد سيُحصر بين اثنين أو ثلاثة من اللاعبين المعتادين المهتمّين بنسخ غوتنبرغ، وأنّ متحف المتروبوليتان هو من سيرسو عليه العطاء، لكنّ تكهّني لم يكن صائباً. لقد دخل منافس جديد إلى المزاد يزاحم في مجال اشتهر به لاعبون مشهورون.

همست في أذن ألفريد وقلت: «من تراه يكون هذا المنافس؟» ازدادت مبالغ العطاءات في الارتفاع لتصل إلى ما يناهز الخمسين ألف دولار، وهو مبلغ لم يسمع به أحد من قبل، ولم تصل إليه نسخ غوتنبرغ في السابق.

فقال ألفريد: «أعتقد أنّه هنري هنتنغتون.»

عرفت صاحب الاسم وقلت: «هل تقصد عملاق السكك الحديد في ولاية كاليفورنيا.»

«هو بعينه.»

«ابن أخت أرابيلا؟» لقد أصبحت العلاقات الأسرية، التي تربط ذلك المنافس الجديد بجامعة التحف أرابيلا هنتنغتون، التي تُعدّ أحد معارفي ودوائري الاجتماعية، أكثر وضوحاً.

انخفض صوت ألفريد إلى مستوى لم يكن من الممكن تمييزه تقريباً فقال: «يقول بعضهم إنّ هنري وقع في حب أرابيلا، وإنّه يلاحقها الآن بعد وفاة عمّه زوج أرابيلا، كما يقال إنّه يعتقد أنّ الطريق إلى قلبها يمرّ بملء جدرانها ورفوفها بروائع الفنّ.»

سألته، فعلى الرغم من أنّني رأيت عدداً قليلاً من الأزواج غير التقليديين في عصري، بما في ذلك علاقتي أنا وبرنارد، شعرت بالذعر، فقلت: «كيف يمكن لابن الأخت أن يقع في حب خالته؟»

أجاب ألفريد: «إنّها مجرّد شائعات.»

نظرت إلى هنتنغتون، وقلت: «إذا استمر في هذا الأمر، فسوف يرفع في سعر السلع الأخرى المعروضة في المزاد إلى مستويات زائدة على اللزوم.»

قال ألفريد: «يا إلهي آمل أن يتوقّف عند شراء إنجيل غوتنبرغ؛ لأنّه إذا أقدم على القيام بما تشكين فيه، فسيضطرنا إلى الخروج من السوق بخفي حنين.»

بقينا أنا وألفريد ننتظر ونشاهد. لقد أثبتت توقّعاتي صحّتها، ففي كل مزاد دخله هنري هنتنغتون فاز به، وتغلّب على منافسيه. يبدو أن كل شيء كان تقريباً يهمّه، سواء أكان كتاباً أم قطعة أثرية، وسواء أكان يعود إلى العصور الوسطى أم إلى عصر النهضة.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه نسخة الكاكستون إلى منّصة المزاد أصبحت مستعدّة. جلست باستقامة برقبة ممدودة مثل البجعة أواجه الدلال بنظرات ثابتة لا تتزعزع، فقام الدلال بإيماءة من رأسه للإشارة إلى أنّه تعرّف إليّ قبل أن يبدأ افتتاح المزاد ويقول: «أمامنا الآن مثال مهم للغاية لنسخة نادرة طُبعت في مطلع اختراع آلة الطباعة. لقد طبع هذا المجلّد، الذي يحمل عنوان (موت آرثر)، للكاتب توماس مالوري، في عام 1485، من قبل صاحب المطبعة المعروفة والناشر الشهير ويليام كاكستون. ويروي الكتاب أسطورة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة، وسعيهم للحصول على الكأس المقدّسة الأسطورية، ولا توجد نسخ أخرى منه، باستثناء بضع صفحات منفردة مجتزأة من أحد المجلّدات المفقودة.» تنفّس الصعداء لينطلق من جديد في ترديد إعلان افتتاح المزاد بصوت مميّز: «من يريد أن يفتتح المزاد؟»

قبل أن أتمكّن من رفع يدي، أعلن الدلال: «خمسة عشر ألف دولار، من يزيد؟ ستة عشر ألفاً من يزيد؟»

لقد اندهشت، فلا أحد يفتتح العطاءات بهذا المستوى الباهظ. لا بدّ من أنّه السيّد هنتنغتون من جديد، فرفعت وشاحي الأحمر المميز الذي استعملته في مزاد بوسطن، فقال الدلّال: «عشرون ألف دولار»، فعمّت الدهشة جميع الحاضرين.

واصلت أنا وهنتنغتون في تلك المزايدات عالية المخاطر إلى أن انسحب جميع مقدمي العروض الآخرين، وبلغ العرض مستوى خمسة وأربعين ألف دولار. استأنف الدلّال المزايدة بإضافة خمسمئة دولار، فوافقنا، واستمرت المنافسة، وبلغت أشدّها. أعترف بأنّني كنت عصبية. لقد أخبرني السيّد مورغان أنّه يمكنني إنفاق أيّ مبلغ للحصول على تلك الجائزة، لكنّني لم أتخيّل البتّة أنّني سأقترب من مبلغ خمسين ألف دولار.

رفعت وشاحي من جديد فقال الدلّال: «ستة وأربعون ألفاً، من يزيد؟»

فردّ السيّد هنتنغتون: «سبعة وأربعون ألفاً.»

رفعت وشاحي مرّة أخرى فقال الدلال: «سبعة وأربعون ألفاً وخمسمئة من يزيد.»

عمّ الصمت القاعة، وظلّ السيّد هنتنغتون صامتاً لمدّة دقيقة طويلة، لكنّه أجاب أخيراً: «ثمانية وأربعون ألفاً.»

أشرت بيدي للدلال فقال: «خمسون ألف دولار.» لقد كنت أشير إلى الدلال بأنّ تلك التحفة ستكون لي مهما كلّفني الأمر. لقد وصلت مبلغاً لم يسبق لي قوله في حياتي، لكنّني مصمّمة على تأمين ذلك الكنز الذي يرغب فيه السيّد مورغان.

بقيت انتظر على افتراض أنّ السيّد هنتنغتون سيزيد ليصل إلى مبلغ واحد وخمسين ألف دولار، وتوقّعت أن يصلها في أيّ ثانية، لكنّ انتظاري طال، إلى أن سمعت طرقة صغيرة أعلنتها مطرقة الدلال في جميع أنحاء القاعة. لاحظ الناس صمت السيّد هنتنغتون.

وصرخ الدلال بأعلى صوته: «بيعت بخمسين ألف دولار.»

لم يتوقّف قلبي عن الخفقان المتسارع، وأنا ممتنة لأنّ الدلال ترك عرض نسخة الكاكستون تلك إلى نهاية المزاد؛ لأنّني لم أعرف كم من الوقت كان بإمكاني البقاء صامتة أثناء بيع التحف الأخرى. ربما كانت وضعية نسخة الكاكستون هي السبب في انسحاب هنتنغتون، أو ربما يكون قد وصل إلى آخر مبلغ من نقوده المخصّصة للمزاد. عندما نهضت واجهتني أمواج من التهاني لتأميني أحد كنوز المساء، وعمّتني فرحة عارمة إلى أن خرجت من دار المزاد.

تجمّع المراسلون والصحفيون عند عتبة دار المزاد، وافترضت أنّهم كانوا ينتظرون السيّد هنتنغتون المنتصر، الذي سيطر على كلّ المزاد باستثناء نسخة الكاكستون التي فزت بها، لكن لم يكن هناك صحفي واحد يبحث عن عملاق شركات السكك الحديد، فكلّ الصحفيين كانوا ينادونني باستثناء صحفي تابع لصحيفة نيويورك تايمز اختفى بسرعة البرق، بينما كنت أحاول تحاشيهم لتجنّب الدعاية.

ظلّ الصحفيون يهتفون باسمي: «آنسة غرين، يا آنسة غرين!» لقد اتصلت بي الصحف من قبل، لكن لم تصل إلى ذلك الحدّ.

ناضلت لأردّ على استفساراتهم، ثم رفعت لهم يدي، وقلت: «على رسلكم أيّها السادة، سأردّ على أسئلتكم دفعة واحدة من فضلكم.»

فقال المراسل الأوّل: «مساء الخير -يا آنسة غرين- أنا السيّد جورج ثو من صحيفة نيويورك تايمز، وأريد أن أبدأ بشكرك يا آنسة. يسعدنا أنّ أحد سكان مدينة نيويورك، ولاسيما شابّة جميلة مثلك، انتصر في هذا المزاد، فنحن لم نكن نرغب في أن يسرق جامع التحف الذي أتانا من ولاية كاليفورنيا جميع الجوائز، ويحملها بعيداً عن مدينتنا.»

اندلع هتاف جاب كلَّ الحشد، بينما كان الرجال أصحاب الشوارب الشامخة من الذين كانوا يجلسون إلى جانبي في المزاد، ينزلون الدرج بالقرب مني، ويحدّقون فيّ. لم تكن الدعاية على ما يبدو مهمّة في عالم الفنّ الهزيل.

لقد أقنعتني ردود أفعالهم أنّني يجب أن أغتنم تلك الفرصة بغضّ النظر عن المخاطر، فلم اختبئ كما هو الحال دائماً، بل وقفت بحزم على مرأى من الجميع، وخاطبتهم بجرأة فقلت: «شكراً لك -يا سيّد ثو- على كلماتك الرقيقة. أنا أيضاً مسرورة بالفوز؛ لأنّ السيّد هنتنغتون هيمن في الحصول على جميع الكنوز المتاحة لمجموعاته الشخصية التي ستظلّ خارج نطاق الدراسة العلمية، لكنّنا لن نقوم بذلك في مكتبتنا، ولن يبقى الكتاب النادر، الذي اشتريته نيابةً عن السيّد مورغان اليوم، في مدينة نيويورك فحسب، بل سيكون متاحاً أيضاً للأكاديميين في مكتبة بيربونت مورغان.»

تعالت الهتافات من حشد الصحفيين، فشعرت بنخب الانتصار وأنا أقف أمامهم؛ امرأة صاحبة بشرة ملوّنة في عالمهم الأبيض.

الفصل الثلاثون

20 نيسان/أبريل 1911

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

رغمَ أنّ الساعة كانت تشير إلى ما يقارب العاشرة مساء، عدتُ إلى المكتبة لاستكمال بعض الأعمال التي كنت تخلّيت عن القيام بها من أجل حضور المزاد. كنت أودّ أن أضع نسخة الكاكستون من رواية (موت آرثر) التي طال انتظارها فوق مكتب السيّد مورغان؛ حيث تكون أوّل شيء سيراه عندما يجلس على عرش عرين الأسد صباح الغد. فهذا يُعدّ انتصاراً لنا نحن الاثنين على حد سواء، رغمَ أنّه كان انتصاراً من نوعين مختلفين للغاية.

لكنّني عندما مررت أمام حارسة الأمن، ودخلت إلى مكتبي، وجدت السيّد مورغان جالساً هناك على كرسيي الصغير الذي كان لا يلائم جثّته الضخمة.

ابتسمت له عند الباب، وقلت: «أنا مندهشة لرؤيتك هنا يا سيّدي.»

فقال: «كيف لا يتعيّن عليّ المرور هنا لأهنّئك يا بيل؟ يجب أن أهنئك لا بسبب تأمينك الحصول على نسخة الكاكستون الثمينة لي فحسب، بل لأنّني سمعت أنّك أصبحت من نخب المدينة.»

تساءلت كيف سمع بالفعل بتلك الأخبار؟ وقلت: «لقد تمكّنت من شراء نسخة الكاكستون.»

فقال: «إنَّ ما قلتِه استهانة بما قمت به بكلّ المقاييس. يتعيّن عليك القول إنّك تمكّنت من انتزاع نسخة الكاكستون تلك من وغد كان يعتقد أنّه يمكن أن يدخل إلى مدينتي، ويختطف مني جميع الكنوز، ويحملها بعيداً عني.»

فقلت: «أنا سعيدة لأنّك مسرور بما أنجزت.»

«مسرور؟ هذا توصيف بسيط لا يفي بالغرض، ويقلل من شأن ما أنجزتِ، فكم من سنة مرّت يا بيل وأنا أنتظر الحصول على تلك النسخة؟»

«خمسة أعوام يا سيّد مورغان.»

فسألني: «هل الكتاب بين يديك الآن؟»

أجبته وأنا أشعر بالغبطة: «نعم»، ثم اقتربت منه وقدّمته له. بقيت أشاهد وأنتظر بينما كان هو يتصفّح الأوراق التي كانت مكتوبة بأناقة، ويدرس الزخارف والرسوم التوضيحية.

ثم صاح: «لقد فعلتها يا بيل، ونجاحك يحتاج منا شرب نخبه.»

نهض ليحضر لنا بعض الخمر من مجموعة المشروبات الكحولية التي كنت أحفظها في خزانتي الجانبية الصغيرة، وقال: «أستوعب أنّ هذا الموضوع سيسيل الكثير من الحبر في معظم الصحف الكبرى غداً.»

فقلت في نفسي: يا إلهي، كيف علم بهذا الأمر؟ أفترض أنّ لديه شبكة من المخبرين في كل مكان.

تجرّأت قليلاً، وقلت بحذر، ونحن نلامس كأسي الكريستال أحدهما بالآخر: «هل سيحدث ذلك حقّاً؟»

فقال: «نعم. هم سيكتبون عن انتصارك، لكنّهم أيضاً سيكتبون عنك؛ الشابة الجميلة، أمينة مكتبة السيّد جي بي مورغان الرائعة، التي هيمنت على المزاد، وانتزعت نسخة الكاكستون؛ إنّها قصّة نجاح أمريكية، ولن يقف الأمر

عند هذا الحدّ-.» توقفَ قليلاً ليتابع من جديد ويضيف: «يبدو أنّ شهرتك ستصل إلى ما بعد مدينة نيويورك؛ حيث ستظهر المقالات عنك في لندن وشيكاغو.»

قمت بأخذ نفس عميق، لقد كان والدي يعيش في شيكاغو، وهو ما أخبرني به الخال موزارت في إحدى رسائله، التي كان يرسلها إلي كل ستة أشهر أو نحو ذلك، على الرغم من عدم ذكر اسم بابا عادة؛ حيث قال:

أريد أن أخبرك أيضاً عن والدك. لقد انقطعت عني أخباره منذ سنتين، لكنّه راسلني الأسبوع الماضي. إنّه يكتب ويحاضر بشكل دوري، لكنّه يكافح من أجل العثور على عمل ذي مغزى محامياً أو باحثاً. لقد تم نبذه من قبل أصدقائه في المجال السياسي لأسباب لا أفهمها. الحياة في مدينة شيكاغو ليست بالسهلة بالنسبة إليه، لكنّ أبناء عمومته واصلوا بذل كل ما في وسعهم لدعمه مالياً وعاطفياً. أعلم أنّ من الصعب عليك سماع أخبار عن أفراد عائلته اليابانية، لكنّهم لم يلتحقوا به هنا...

لقد خطرت في بالي فكرة بابا وهو يقرأ مقالاً صحفياً عني، فأرعبتني، بل اعتقدت أنّها ستتسبّب لي في انهيار عصبي.

قاطع السيّد مورغان حبل أفكاري تلك، وقال قبل أن يرفع كأسه إلى شفتيه مرّة أخرى: «ليتني كنت أصغر سناً يا بيل.»

قمت بإمالة رأسي له، وقلت: «لماذا تقول ذلك؟ فأنت في أوج صحتك وذروة طاقتك.»

قال بلهجة عاطفية رافقتها ملامح حزن في عينيه: «بل ستزداد أنفاسي لوقت أطول لو قضيته معك.»

لقد فوجئت بما قال، فحاولت بسرعة مراوغته في محاولة لتخفيف وقع تلك اللحظة، فقلت: «توقّف عن إغاظتي.»

فقال بنظرة حادّة من عينيه يصعب فهمها، قبل أن ينظر إلى أسفل كأسه: «أنا لست بصدد إغاظتك.»

ساد الصمت المكتب حين أنهى السيّد مورغان شرب كأس الويسكي، ثم أعاد الكأس إلى الخزانة الجانبية. عندما التقت عيناه بعيني مرّة أخرى قطع الشوق الذي رأيته فيهما أنفاسي. لم أبتعد عنه حينما اقترب، ولم أتراجع حتى عندما أصبح قريباً جدّاً مني. لقد أصبح في وسعي شم رائحة الويسكي التي تعبق بها أنفاسه، ثم رفع يده، ولامس بأطراف أصابعه جانب وجهي، وقال بصوت بدا شجيّاً: «أريد قضاء المزيد من الوقت إلى جانبك يا بيل، لأعيش وأكتشف معنى العالم حينما أكون معك.»

ثم انحنى برأسه نحو رأسي، وتلامست شفاهنا فرسمت أغرب قبلة محتدمة تفيض بالأحاسيس. وعندما ابتعدت شفاهنا بقينا نحدّق أحدنا في الآخر، ونبحث عن إجابات من خلال تعبير آخر، ثم تتالت قبله، وتخلصنا من التوتّر الذي ساد بيننا.

ثم تنفّس الصعداء وقال: «آه، يا بيل لا أعرف ما أقول.»

لم تكن مؤكّدةً لي كيفية الردّ، فاضطررت إلى العودة إلى التصرّف بمرح، وقلت: «وهل يتعيّن علينا قول أيّ شيء؟»

أجابني بصدق وجدّية: «ألا يمكننا قول كلّ شيء؟»

تساءلت بيني وبين نفسي: هل كان السيّد مورغان يسألني عمّا إذا كان من الممكن أن نكون عاشقين؟ إنّ السماح بهذا الانجذاب من شأنه أن يجعلنا نخاطر بكلّ شيء آخر يمثّله أحدنا للآخر؛ لأنّنا أكثر من مجرّد زملاء عمل: فنحن شركاء، بل نمثّل قوّة مشتركة في عالم الفنّ. لقد صرنا أقرب بفضل شغفنا المشترك لجعل مكتبة بيربونت مورغان تكون الأفضل، وأصبحنا أقرب في بعض النواحي من مجرّد أصدقاء أو أفراد عائلة واحدة. إنّنا بمنزلة الوالد

والابنة، فلا يمكننا التضحية بالكلّ لمصلحة الجزء الوحيد الذي سينتهي بشكل سيّئ.

ضحكت وقلت بعصبية: «لا. لا ينبغي لنا القيام بذلك، ولا يجب علينا فعله.»

لقد سبق لي لمدّة خمس سنوات أن شاهدت النساء وهنّ يدخلنَ ويخرجنَ من أماكنهنّ في عالمه، وأنا صرت أهتم بالسيّد مورغان أكثر من اللازم، إلى درجة أنّني أصبحت متورّطة في حريمه، ويجب أن يظلّ موقفي ثابتاً.

تطاير شرر الغضب من عينيه، فخشيت أنّني ربما أكون قد أسأت إليه. لكن سرعان ما تلاشى غضبه، وأطلق ابتسامة ساخرة بانت من تحت شاربه، وقال: «ذلك هو بالضبط ما كنت سأقوله.» لكنّه عندما مال نحوي مرّة أخرى استهدف بشفتيه خدي؛ حيث منحني قبلة عفيفة.

تنفّست الصعداء حين غادر مكتبي، لكنّني لاحظت أن كتفيه كانا متراخيين، فبدا لي لأوّل مرّة في حياتي صغيراً. عندما سمعت صرير الأبواب البرونزية الثقيلة وهي تغلق تساءلت عمّا قمت به، فلا أحد في وسعه رفض السيّد مورغان. ورغمَ أنّنا اتفقنا على أنّ ذلك هو الخيار الصحيح، ألَا يجب أن يكون هو صاحب القرار النهائي؟ هل سأندم على ما قلت من كلمات؟

الفصل الحادي والثلاثون

14 كانون الثاني/يناير 1913

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

لقد تغيّرت العلاقة التي كانت تربط بيني وبين السيّد مورغان، لكنّني لا أعلم بالضبط متى ولماذا حدث ذلك؟ هل حدث ذلك بسبب القبلة؟ هل يمكن أن يكون لذلك الفعل دور في النشوء البطيء لذلك التحوّل؟ منذ متى تحوّلت ساعات المزاح اليومي، التي كانت تتقلّب بين اللطف أحياناً والتحدّي أحياناً أخرى، لتصبح ساعات من الاستجوابات والتحرّيات العلنية، التي تنمّ عن غيرة مفرطة وشكوك غير مقبولة؟ منذ متى توقّفنا عن مناقشة المخطوطات وأعمال العصور الوسطى الفنّية، وإرث مكتبته، وبدأنا الحديث عني؟ منذ متى توقّف عن طلب القراءة له أو لعب الورق؟

ربما لم تكن لتلك القبلة دور في ذلك، وربما يكون الأمر قد بدأ بعد بضعة أشهر حين أصبح يراني أكثر إثر استحواذنا على نسخة الكاكستون، فزادت الشائعات حول علاقاتي الرومانسية المفترضة معه؛ أو كان لما وقع في شهر نيسان/أبريل الماضي، عندما سمعنا الأخبار الرهيبة عن غرق سفينة التيتانيك، دور في ذلك التحوّل؟ فهو كان شريكاً في ملكية تلك السفينة، وكان من المفترض أن يكون على متنها في تلك الرحلة المصيرية الأولى من إنجلترا إلى نيويورك. كلانا يعرف الناس الذين لقوا حتفهم من بين خمسمئة نفس بشرية مفقودة. هل كل ما يقوم به من تشبّث وغيرة ينبع من خوفه من أنّ الموت كان يسير نحوه مثلما هو الحال بالنسبة إلى جميع البشر الفانين؟

لقد كانت آثار علاقتنا السابقة تضايقني من حين إلى آخر، وأذكر أنّنا قضينا بضعة أسابيع زاهية في كانون الأول/ديسمبر من العام الماضي جمعنا فيها اكتشاف مخبأ نادر يعجّ بالكنوز التي لا تُقدّر بثمن في مزرعة في مدينة الحامول في مصر. وحين تلقينا رسالة تسألنا عمّا إذا كنا نريد الحصول على خمسين مخطوطة قبطية مسيحية قديمة، علمت أنّه يتعيّن علينا امتلاكها. لقد سبقت تلك المخطوطات غيرها من المخطوطات القبطية للعهدين القديم والجديد بما يناهز مئتي سنة. وبعد أيام طويلة من المحادثات، وافق السيّد مورغان. لقد استوعب، مثلما استوعبت، أنّ ذلك التجميع للمخطوطات يمكن أن يحوّل مكتبة بيربونت مورغان إلى مركز دولي للدراسات الاستشراقية والإنجيلية.

وضع على عاتقي مسؤولية التفاوض واتخاذ القرار النهائي، وحصلت على تلك المخطوطات بسعر أربعين ألف جنيه، المبلغ الذي كان أقلّ بكثير من الستين ألف جنيه التي طالبوا بها. فرحنا معاً بذلك الإنجاز، لكن بمجرد وصول المخطوطات في وقت لاحق من ذلك الشهر أصبح يشعر بالغيرة والشك مرّة أخرى.

سمعت حفيف الأوراق حين كان يتصفّحها في مكتبه فتوتّرت. لقد كنت منغمسة في أفكاري الخاصة إلى درجة أنّني لم أسمعه حين عاد من مأدبة غداء طويلة مع السيّدة جونستون، وهي المرأة الوحيدة التي بقيت برفقته من بين العشيقات الأربع الأخريات، حتى مكانتها عنده أصبحت هشّة.

لقد كانت في السابق صديقتي المفضلة، ثم تحوّلت من صديقة إلى إنسانة حذرة في تعاملها معي لتصبح في الأخير معادية لي بطريقة علنية، وأنا لا ألومها بناءً على ما لاحظته من تغيّر في سلوك السيّد مورغان. عزائي الوحيد أنّه سيغادر قريباً في رحلة إلى مصر من شأنها أن تغيّبه عن مكتبة بيربونت مورغان لبضعة أشهر سأكون فيها في منتهى السعادة.

«بيل!»

سمعته ينادي، فسرت بشكل رسمي نحو مكتبه، وانتظرت لحظات فقط قبل أن أسمع خواره مرّة أخرى. حين دخلت وجدت أنّ السيّدة جونستون كانت تقف إلى جانبه، بينما كانت يدها تربت على كتفه. لقد كانت ترتدي ثوباً وردياً باهتاً، ويحيط برقبتها الطويلة الفاتنة عقدٌ من الألماس المتلألئ؛ وحين رأيتهما معاً بدوا لي كما لو أنّهما كانا يرتديان الملابس لالتقاط صورة لهما فحسب.

بمجرّد دخولي مالت السيّدة جونستون، فقبّلت خده، ثم قالت: «اسمح لي بأن أغادر وأتركك مع هذا الشيء»، ثم عدّلت كلامها، ونظرت إليّ، وقالت بسخرية: «سأتركك معها.»

بمجرّد صرنا وحدنا، أشار عليّ السيّد مورغان بالجلوس على الكرسي الذي كان أمام مكتبه وسيجاره، ولكن بعد ذلك ظلّ صامتاً لفترة طويلة، فوضعت قلمي الفضي فوق دفتر ملاحظاتي وسألته: «هل اتصلت بي لألتحق بك في مكتبك لمناقشة فهرسة العناصر المراد إعادتها إلى متحف فيكتوريا وألبرت؟» لقد تم تعديل قوانين الضرائب البريطانية مؤخراً، ومن المنطقي جلب مجموعة السيّد مورغان في لندن إلى تراب الوطن، وأنا كنت أشرف على تلك العملية الضخمة.

صاح فجأة: «مع من تناولت الغداء اليوم؟»

السيّد مورغان لم يتعوّد على طرح مثل هذه الأنواع من الأسئلة عليّ، فأنا كنت موجودة له وحده، لذلك لم يكن يشغل نفسه بأنشطتي التي كنت أقوم بها خارج أسوار مكتبة بيربونت مورغان وأعمالها إلا منذ تلك الليلة، ومنذ تلك القبلة.

فهل كانت الأمور ستكون أفضل لو لم نقم بتلك القبلة؟

أجبته بقول الحقيقة: «لم يكن معي أيّ أحد، لقد تناولت الغداء وحدي.»

فقال: «يصعب عليّ تصديق ذلك.» أخذ نفساً عميقاً من سيجاره، ونفث حلقة دخان كبيرة في اتجاهي، وطوّقني بيديه، فشعرت كما لو أنّه كان هناك حبل حول رقبتي.

فقلت: «أنت تعلم أنّني إذا لم أتناول الطعام مع أيّ زميل لي في مجال الفنّ، فإنّني سأتناوله في مكتبي، وذلك هو سلوكي المعتاد.»

فردّ والشكّ لا يزال يساوره: «هل تتوقعين مني أن أصدّق أنّك لم تتناولي الغداء مع أحد معجبيك؟ مثل وليام جيبس ماكادو، رئيس شركة هدسون ومانهاتن للسكك الحديد؟»

تنهّدت وقلت: «لا يا سيّد مورغان.»

لقد سبق أن سألني عدّة مرّات عن السيّد ماكادو، وأخبرته أنّه مجرّد رجل نبيل عابر كانت له نزوة غير متبادلة معي.

فقلت: «حتى حين تناولت العشاء مع السيّد ماكادو لم أكن بمفردي معه. في الحقيقة لم أرَ ذلك الرجل لأكثر من ستة أشهر.»

أصبحت تحقيقات السيّد مورغان تبدو مثل استفسارات برنارد، الذي تحولت لهجته في رسائله من مدى إعجابه بي إلى اتهامي دائماً بالتورّط في العلاقات الغرامية. وأنا وبرنارد لم ير أحدنا الآخر منذ سنوات، وإذا كانت الشائعات صادقة، فهو الشخص الذي يتجوّل حالياً في جميع أنحاء أوروبا مع عشيقته الجديدة. ومن المثير للسخرية والمؤلم في الآن نفسه أنّ برنارد هو الشخص الوحيد الذي تصرّفت معه بفجور كامل، وهو الذي يتّهمني الآن بالسلوك الفاضح مع الآخرين.

فسألني السيّد مورغان: «وماذا عن ذلك الشاب المغرور صاحب البنك؟ ذلك الزميل الكوبي، هارولد ميستري؟»

هارولد هذا هو شاب آخر أبدى اهتمامه بي، على الرغم من أنّني لم أعترف بذلك على الملأ، إلا أنّني وجدت اهتمام السيّد ميستري ممتعاً، بل سمحت لنفسي بالانغماس معه في المداعبات السطحية والحميمية الجسدية الخفيفة. لقد كان بشبابه وحيويته جذاباً، وكنت حتى أتظاهر بقبول واحد من بين العديد من مقترحاته. لفترة وجيزة، تصوّرت أنّ الزواج، وحتى إنجاب الأطفال، قد يكون ممكناً مع ذلك الشاب، سمسار الأوراق المالية ذي البشرة السمراء التي تعكس لون بشرتي. لكنّ ذلك الرابط المربك، الذي شعرت به مع برنارد، كان غائباً مع هارولد. على أي حال، لقد فكّرت في مصير أفراد عائلتي إذا توقّفت عن العمل أمينةَ مكتبة مورغان الشخصية؛ فماذا سيحلّ بأنماط حياتهم، ونفقاتهم وارتباطاتهم بحياتهم بوصفهم بيضاً؟

فقلت: «لا يا سيّد مورغان، لم أتناول الغداء مع السيّد ميستري.»

أخذ نفساً آخرَ من سيجاره، لكنّه لم ينفث المزيد من حلقات الدخان نحوي، وقال: «أعتقد أنّني يجب أن أشعر بالارتياح من حقيقة أنّ العديد من عشّاقك هم في أوروبا.»

لكن لماذا يخبرني الآن أنّ لديّ العديد من العشّاق في أوروبا، في حين أنّه لم يأذن لي بالقيام برحلة إلى أوروبا منذ سنوات؟ فقلت: «ما الذي تتحدّث عنه؟» يبدو أنّ إشارته إلى الرجال الأوروبيين تكتيك جديد.

فقال: «لقد سمعت أنّ تشارلز ريد، الذي يعمل في المتحف البريطاني، معجب بك، وأنّه كان يناديك، على ما يبدو، بـ»الصغيرة بيل».»

كيف يمكن له أن يعتقد أنّني سأهتم بالسيّد ريد، الذي كان داعماً لقرار السيّد مورغان بإزالة مجموعته الفنية والكتب من إنجلترا، بالرغم من الغضب العام على مغادرة تلك الكنوز لبلادهم؟ ربّما قد أُولَع بذلك الإنجليزي الجميل، لكنّ فكرة زواجي به مثيرة للضحك.

فقلت: «لست مهتمّة بالسيّد ريد عاطفياً، ولن أهتم به كلياً.»

أخذ نفساً آخر من سيجاره، وقال: «إذاً، لا تقولي لي أيضاً إنّه لا صحّة للشائعات التي تقول إنّه تربطك بالسيّد برنارد بيرنسون علاقة حب؟»، وأضاف نصف ابتسامة من نوع الابتسامات التي كان يوجّهها إلى منافسيه حين يسحقهم.

تلك كانت المرّة الأولى، التي يذكر فيها السيّد مورغان اسم برنارد منذ وقت طويل جدّاً. وفي لمح البصر أجبته، وكنت آمل أن يبدو صوتي ثابتاً: «كما تعلم، لقد اختلطت بالسيّد بيرنسون أثناء الزيارة التي قام بها هو وزوجته إلى هنا، لكنّني لم أره منذ سنوات.»

فقال: «لماذا تعود إذاً تلك الشائعات إلى الظهور مراراً وتكراراً؟»

أدركتُ أنّ الوقت قد حان لدرء هجومه، فأضفيتُ لمسة من الفكاهة في حديثي، وقلت: «لقد سمعت أيضاً إشاعة تقول بأنّني ابنتك غير الشرعية عدّة مرّات، لكن هذا لا يعني أنّها ستحظى بالمصداقية، حتى وإن سمعتها مرّة واحدة فقط.»

لكنّ السيّد مورغان بدا غير متأثر، فتمركز خلف المكتب، وأخذ يحدّق فيّ للحظة قبل أن يقول: «إذا كنت تخطّطين للتخلي عني، للزواج أو لأي سبب آخر، فعليك أن تعلمي أنّه سيكون آخر يوم ستراك فيه عيناي، وسيكون بالتأكيد اليوم الذي سأصرف فيه آخر قرش عليك.»

لقد كان يناديني دائماً، منذ أيامي الأولى معه، بوصفي أمينة مكتبة مورغان، بـ«حسنائه»، لكنّ ذلك الوصف ليس فيه أي نوع من التملّك العاطفي؛ بل هو عبارة عن تهديد له تأثير مالي وعاطفي. أنا أدرك تمام الإدراك ما قام به السيّد مورغان من أجلي، فبعد ست سنوات، زاد في راتبي المرتفع من البداية ليبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف، وصرت أكسب ما يكسبه بعض الأطباء، الأمر الذي أتاح لي ولعائلتي حياة جيّدة. ولست بحاجة إلى طمأنته بأنّني سأبقى إلى جانبه مهما طالت حياة هذا الملياردير البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً إلى

أن يلفظ أنفاسه، ويغادر الحياة. لكنّ الوقت قد حان للقيام بأكثر من مجرّد طمأنته؛ نحن بحاجة إلى التحدّث صراحةً.

فقلت: «ماذا دهاك يا سيّد مورغان؟»، ثمّ حافظت على ثبات صوتي، فأضفت: «أنت تتحدّث عما ستفعله لو تركتك، ولكنّني أشعر في معظم الوقت كما لو أنّك لم تعد تريدني أنّ أظلّ هنا. هل لأنّني -.» توقّفت قبل أن أسأله عما حدث في ليلة مزاد نسخة الكاكستون.

حدّق في وجهي، فكان تعبيره خشناً أكثر من قسوة قلبه تجاهي، وقال: «ماذا كنت ستقولين يا بيل؟» لقد كان سؤاله بمنزلة التحدي، كما لو أنّه كان يتحداني أن أسأله عن تلك القبلة. فهل فهم كلماتي في تلك الليلة على أنّها تعابير رفض؟ أَلا يستوعب أنّني قلت ذلك لأنّني أهتم به حقّاً، ولأنّني أريد أن أحافظ على ما لدينا؟ عندما بقيت صامتة قال السيّد مورغان: « بل أنت هي من يفكّر في تركي»، ثم أصبح صوته مثيراً للشفقة حين أضاف: «أَلم ألمح لك بما وهبته لك، وبما تعنينه لي؟»

فقلت: «كيف لا يمكنك أن تستوعب مدى ما تعنيه لي؟ والمدى-.» هنا قمت بلفّة في جميع أنحاء القاعة وأضفت: «الذي تعنيه هذه المؤسسة التي بنيناها معاً لي؟ فأنت الوحيد، من بين جميع الناس، الذي كنت تراني في المكتبة وفي مكتبك من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثامنة في كلّ ليلة، وأحياناً أبقى بعد ذلك بوقت طويل. فكيف يمكنك أن تعتقد أنّني هنا لأيّ سبب آخر غير ما نبدعه معاً؟ وكيف يمكنك أن تعتقد أنّني سأفكر في المغادرة؟»

اعتقدت أنّني أقنعته، لكنّه قال بعد ذلك: «إذا تركتني فسأشطب اسمك من وصيّتي.»

أن يهددني السيّد مورغان بشبح نزع اسمي من وصيّته؛ وهو إدراج كان يلوح في الأفق لسنوات عديدة من خلال تلميحاته وإشاراته المنتظمة، على

الرغم من أنّني لم أطلب منه أي شيء، ذلك يُعدُّ فعلاً استبدادياً، فهل هذا هو كل ما يفكر فيه عني، بعد كلّ ما قلته له للتو؟ وهل هذا هو كل ما يفكر فيه بشأن التزامي بعملنا وإرثه؟

فقال: «ربما بدأتِ تصدّقين تلك المقالات الشخصية التي كتبت عنك في صحف مثل الواشنطن بوست وشيكاغو ديلي تريبيون، والتي تقدّمك للعالم على أنّك فتاة المجتمع المثالية والباحثة الأكاديمية الجادة. لكنّك-.» ضرب بقبضته على مكتبه، وبدت عليه علامات غضب منّي لم أره يصدر عنه من قبل، وأضاف: «أمينة مكتبتي الشخصية. أنا هو من أوصلك إلى ما أنت عليه اليوم. أنت لا شيء من دون رصيدي البنكي، فلا تنسى ذلك.»

زاد منسوب الغضب في داخلي وتساءلت: كيف يجرؤ على قول ذلك؟ لقد اعترفت دائماً للسيّد مورغان بإعطائه لي فرصة توظيفي، والثقة التي وضعها فيّ، وشكرته على ما فعله لي، لكنّني قمت بدوري أيضاً. لقد عملت طويلاً ودرست بجدّ، ونفّذت أوامره يوماً بعد يوم لبناء هذه المؤسسة. لكنّ تأكيده أنّ مجمل نجاحي ونجاح مكتبة بيربونت مورغان يُعزى إلى أمواله وحدها يُعدُّ أمراً مروعاً، وأنا غاضبة ومتألمة بشدّة من هذا الموقف، بل ربما أشعر بأكثر من ذلك بكثير. يبدو أنّ ما هو متضمّن بين ثنايا كلمات السيّد مورغان هو شعور غير معقول لم يعد بإمكاني تجاهله. فقلت له: «لا يمكنك أن تعاملني مثل شيء اشتريته ودفعت ثمنه.» ارتجف صوتي حين أضفت: «مثل إحدى مخطوطاتك أو- .» كانت بقية الكلمات على طرف لساني أتوسّل نطقها، وكنت أفكّر فيها مراراً وتكراراً «أو: كعبد من عبيدك»، لكنّني لم أجرؤ على قولها.

نعم، لقد عشت حياتي البالغة كامرأة بيضاء، لكنّني عندما أضع رأسي في الليل لأخلد للنوم، أكون باللون نفسه لبشرة أوّل الرجال والنساء الأفارقة المستعبدين، الذين حلّوا في هذا البلد قبل ثلاثمئة عام. وبعد كلّ ما فعله

والدي للنضال من أجل المساواة، وبعد كل ما تخلت عنه والدتي لضمان حصولي على أفضل الفرص، لن أسمح لنفسي بأن أخاطب كما لو أنّني كنت عبداً مملوكاً للسيّد مورغان، ولا لأي شخص آخر.

اقترب مني بعينيه المحدّقتين فيّ، وقال: «ولمَ لا؟ لمَ لا ترين العالم وفق الطريقة التي أراه بها، فأنا أملكك بالفعل.»

على الرغم من أنّني كنت أرتجف، وأريد أن أصرخ، وعلى الرغم من أن قلبي كان يناشدني أن أصرخ، نهضت ببطء، ووقفت أمامه بهدوء، وقلت: «يمكنك شراء عدد كبير من المواد والأشياء بذهبك يا سيّد مورغان، لكن لا يمكنك شرائي.»

ثم خرجت لأوّل مرّة من مكتبه من دون أن يأذن لي بالخروج، وبقيت أرتجف أثناء عودتي إلى مكتبي، أحارب الدموع التي لن أذرفها. لقد تحدث معي كما لو أنّه كان السيّد وأنا كنت—. توقّفت أفكاري عند هذا الحدّ، فأنا لا يمكنني أن أسمح لنفسي بالتفكير في ما لا يمكن تصوّره.

الفصل الثاني والثلاثون

يومي 1 و10 نيسان/أبريل 1913

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

استلمت برقية من الساعي، وللحظة أغوتني فكرة تركها فوق كومة من المراسلات الأخرى، التي برمجت أن أرجئ النظر فيها إلى حين عودتي من مفاوضات عاجلة، لكنّني تذكّرت بعد ذلك البرقية التي تلقيتها قبل خمسة أيام فقط، والتي أبلغتني أنّ السيّد مورغان قد أصيب بمرض أثناء سفره إلى القاهرة، وتم نقله إلى مستشفى في روما لتلقي علاج إضافي. وعلى الرغم من أنّه قيل لي إنّه كان من المتوقّع أن يتعافى كلّياً، شعرت بميل إلى فتح البرقية. فماذا لو كانت تحتوي على أخبار عن حالته الصحّية؟

مددت يدي لجلب سكين فتح ظروف الرسائل، وقمت بفتح المغلّف، وحدّقت في ما كتب في البرقية باليد بخط غير واضح تصعب قراءته، وقرأت:

توفي السيّد جي. بي. مورغان في روما في 31 آذار/مارس 1913، وسيتم اتخاذ الترتيبات اللازمة لإعادته إلى الوطن.

سقطت البرقية من يدي على الأرضية، وانهمرت دموعي على الفور. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ بقيت أتطلّع إلى الكلمات التي يصعب تصوّرها المرمية أمامي فوق السجادة الحمراء القرمزية من خلال عينيّ الدامعتين.

وهمست: «لا يمكن أن يكون قد رحل!»

لقد كنا نمثّل كل شيء أحدنا للآخر. كنت أعرف ذلك، لكنّني الآن بعد أن رحل، شعرت بحقيقة الأمر كما لم أشعر به من قبل. لقد كنت بالنسبة إليه بمنزلة الابنة والابن اللذين لم يحظَ بهما أبداً، وكنت حافظة أسراره ومحل ثقته دائماً والمقرّبة منه التي كان يسعى إليها دائماً، وكنت الشريك التجاري والفني الذي دافع بجرأة عن أهدافه، والحبيبة التي كان يحلم بها لكنّ حبّه بقي معلّقاً. أما هو فكان بمنزلة الأب الذي فقدته، والرفيق الذي يمكنني مناقشة تفاصيل اليوم معه، والمرشد الذي يدعمني لتحقيق أحلامي الجامحة، والحبيب الذي كنت أتوق إليه، ولكن لم يكن في إمكاني الحصول عليه.

ثم مسحت دموعي، لقد كان يتعيّن عليّ أن أتوقّف عن البكاء. ستكون هناك حاجة ماسة إلي في الأيام المقبلة للقيام بالكثير من المهمات، ويجب ألا يعتقد أفراد عائلة مورغان أنّني غير مناسبة لأدائها. لا بدّ لي من أن أكرّم السيّد مورغان بجنازة تليق بمقامه، وأن ألتزم بتنفيذ ما أراد، وسأميل إلى الاستعانة بعزيزي جونيوس، الذي سيحزن عليه بقدر ما حزنت عليه. لكن قريباً سيحين الوقت لمواجهتي ما لا أستطيع التفكير فيه وحدي؛ أي العيش في هذا العالم من دونه.

*****

بعد بضعة أيام، كنت أقف إلى جانب أفراد عائلة السيّد مورغان وأصدقائه وزملائه. لقد كانت الشمس مشرقة على الميناء، منعكسة على أطراف الأمواج في رقصة مرحة. لكنّ الهواء كان بارداً جدّاً وهبت معه نسائم رياح منعشة لم نعتدها في شهر نيسان/أبريل. كان الحديث عن ذلك الطقس موضوع ثرثرة ردّدتها شفاه الجميع، فكان بمنزلة الإلهاء الذي وحّد كلّ واحد منا ممن اجتمعوا لاستقبال جثّة الفقيد، واستمعت إلى صفير الباخرة، فلم أنسجم معه؛ لأنّ حزني كان قد حطمني.

وعمّ صوت صفير باخرة فرنسا، وهي تقترب من الميناء أخيراً، بعد تأخير دام لمدّة ساعة، محقّقةً مهمّتها النهائية لمالكها الذي كان قويّاً في يوم من الأيام؛ إنّها تعيده إلى تراب الوطن، وإلى المدينة التي حكمها مثل الملوك، وإلى مكتبة بيربونت مورغان؛ حيث وُجد منزله الفكري والروحي.

ومع اقتراب باخرة فرنسا، تهت وسط أفكاري الخاصة، وصرت غير قادرة على فهم الحياة من دون السيّد مورغان، وخطرت في بالي على نحو خاطف الذكريات السعيدة التي جمعتنا، وتذكّرته حين كان يجلس في مكتبه وأنا أقرأ له قصصه المفضلة من الإنجيل. كما تذكّرته حين كان يتفحّص الضيوف في إحدى الحفلات، فيحدّد أي «عدوّ» سيسحقه في قادم الأيام، كما تذكّرت فخره وكبرياءه البادي على ملامح وجهه عندما استقبلني في المكتبة ونسخة الكاكستون من رواية (موت آرثر) في يدي. مكتبة سُر مَن قرأ

وتذكّر تلك الليلة قادني إلى التساؤل مرّة أخرى، كيف يمكنه الرحيل ويتركني مع تلك المعركة الرهيبة بيننا التي بقيت دون حل؟ لقد مرّت أشهر على سفره من دون أيّ إشارة إليها في رسائلنا، والآن لا يمكننا التحدّث عنها مرّة أخرى، ولن أتمكّن أبداً من تقديم اعتذاري له، ولن أسمعه أبداً.

لقد كان ذلك الحمل الثقيل يسحقني، وأنا كنت أعمل بجهد على مواساة نفسي؛ فالموت يُعدُّ دائماً بمنزلة السيّد المتعسّف القاسي، لكنّ الاستسلام لليأس لم يكن في مصلحتي. لقد قرّرت في تلك اللحظة دفن ذكرى محادثتنا الأخيرة إلى الأبد. والسيّد مورغان أعطاني الكثير إلى درجة أنّني كنت أحتفظ به مثل الكنز، كما كنت أعلم دائماً أنّني كنت كنزه العزيز أيضاً. تذكّر الأشهر الأخيرة من حياته حين كان الغضب واليأس يهيمنان عليه لن ينفع إلا في التقليل من شأنه.

اتخاذ ذلك القرار كان مصدر ارتياح كبير لي. لقد كان سيسمح لي بالبقاء قويّة عند رؤية النعش المزخرف الذي تمّ حمله فيه من قبل مجموعة من الرجال، الذين قاموا بتحميله في ما بعد في عربة الانتظار التي كانت تجرّها الخيول. لقد كان من المقرّر أن يتم نقل جثة السيّد مورغان إلى مكتبة بيربونت؛ حيث كان سيرتاح، وتنطلق مراسم العزاء.

بمجرّد أن أصبح بعيداً عن أنظارنا، تنهّد الجميع في ما يشبه إطلاق تنهيدة وداعٍ جماعية، والتفت ابنه جاك إلي وقال: «أودّ منك أن تركبي معنا في عربة العائلة التي ستحملنا إلى منزلنا يا بيل.»

جحظت عينا شقيقته آن، واعترضت على كلامه، وقالت: «إنّها مناسبة للعائلة فحسب يا جاك.»

قلت في داخلي لو كنت تعتقدين يا بيل أن ازدراء آن لك سيزول بوفاة والدها، فأنت مخطئة، فآن، على ما يبدو، ستستمر في معركتها معي للحصول على مكانة في عائلتها، وربما حتى في مؤسسات والدها.

فقال جاك: «لكنّ بيل فرد من العائلة يا آن. أليس كذلك؟ لقد أمضت الكثير من الوقت مع والدنا في هذه السنوات الماضية أكثر من أيّ شخص آخر، وأبي كان يصرّ دائماً على أن تكون حاضرة في كلّ المناسبات العائلية حتى الصغيرة منها.»

ردّت آن وقد شاهدتُ نفورها مني: «أودّ أن ألفت انتباهك إلى أنّ والدنا لم يعد بيننا بعد الآن يا جاك في حال لم تلاحظ ذلك.»

فقلت لجاك: «لا توجد أي مشكلة يا جاك، فأنا لدي عربة خاصة بي هنا، وكنت قد برمجت أن تأخذني مباشرة إلى المكتبة على أيّ حال. وأنا ليس لدي الكثير من الوقت للاستعداد قبل أن نفتح أبواب المكتبة للجمهور غداً، وأريد أن أكون في المكتبة عندما تصل جثّة والدك اليوم.» لا بد من أن

تكون مراسم العزاء الأخير لجون بيربونت مورغان متلائمة مع مكانته بوصفه شخصيةً أمريكية مهمّة.

فقال جاك: «لمَ لا أركب معك يا بيل؟»

فأجبته وأنا أنظر إلى آن: «أنا لا أريد أن أبعدك عن عائلتك في هذا اليوم بالذات.»

فقال: «كفّي عن قول هذا، هذا هراء، فأنت فرد من العائلة أيضاً، والعربة نفسها يمكنها أن تأخذني إلى منزلي مباشرة بعد أن تنزلك أمام المكتبة.»

فقلت: «حسناً، سيكون ذلك جميلاً، فأنا تسرّني رفقتك.» رأيت حجم الكراهية في عيني آن، بينما صعد جاك إلى العربة بجانبي. استطعت أن أسمع تقريباً وعيدها بأنّها لن تسمح لرجل آخر من آل مورغان بالتورّط في شباكي.

وهي لم تكن بحاجة إلى القلق من أنّني سآخذ جاك بعيداً عنها؛ لأنّ جاك يتمتّع بالعديد من الصفات الرائعة؛ فزواجه محصَن، وحياته الأسرية متينة، وهو كذلك يتمتّع بالصبر من بين خصال أخرى يصعب حصرها، وتلك الخصال ستمنعه من نوع العلاقة الحميمة الفريدة التي مررنا بها أنا والسيّد مورغان. لكنّ هناك ميزة أخرى لا أحد يشك فيها، فوالده الرأسمالي الشهير كان يدير مجموعته انطلاقاً من حبّه النقي للفن والجمال، في حين سيخطّط جاك لإدارتها على أساس القيمة، وأنا قلقة من أنّ جاك يخطّط لتفكيك إرث والده.

لكنّ جاك وأنا لن نناقش مثل تلك القضايا الآن. لقد كانت الخسارة تجلس بيننا في العربة مثل شخص ثالث كئيب، ثقيل الظلّ، منيع، لا يمكن اختراقه. ترنّحت عربة النقل ونحن نمرّ أمام مبنى براونستونيز، ومباني المكاتب، والأرصفة الصاخبة، والشوارع المزدحمة كما لو أنّه كان يوماً عادياً في مدينة نيويورك. قلت من دون تفكير وبصوت عالٍ: «يبدو أنّ من المستحيل أن يحدث كل هذا؛ فكيف يمكن لمدينة نيويورك أن تستمر في الحياة كالمعتاد من دونه؟ لقد كان يمثّل هذه المدينة.»

فقال جاك بصوت أجشّ: «سنحرص أنا وأنت على أن نجعله يستمرّ في العيش في هذا العالم!»، والتفتّ نحوه، فلاحظت أنّ عينيه كانتا تتلألآن بالدموع.

وحال وصولي إلى المكتبة، نزلت وبقيت أنتظر عند الدرج إلى أن وصل النعش، وبمجرّد إدخال نعش السيّد مورغان إلى الداخل حرصت على تزيين القاعة بأكاليل من الورود الحمراء والبيضاء، وبقيت مستيقظة حتى الفجر تقريباً ليتأكّد لي أنّ كل التفاصيل مثالية داخل تلك المؤسسة اللامعة والرائعة التي أنشأناها معاً.

عدت إلى المنزل فقط للاستحمام وتغيير ملابسي، فارتديت فستان حداد جديداً لأكون مستعدّة عندما يصطف المشيّعون لتقديم عزائهم. في الساعة العاشرة صباحاً دخل المعزّون، واستمرّت أفواجهم في التدفّق لساعات. لقد توافد المئات من الأشخاص إلى المكتبة، وظلّوا يطوفون ببطء حول القاعة المستديرة والنعش لتوديع الملياردير الأسطوري. لقد كانت ماما وأخواتي وأخي من بينهم؛ حيث استفاد الجميع بشكل كبير من سخاء السيّد مورغان. كان هناك آلاف آخرون ممن سيفقدونه في جميع أنحاء البلاد، وسيحتفون به بتنكيس الأعلام، وغلق بورصة وول ستريت طوال ذلك اليوم. لقد عشت يومين وأنا أشاهد ردود أفعال عامة الناس التي خففت من حزني، لكنّني كنت أعلم أنّه حين سأغلق أبواب المكتبة في الساعة السابعة مساء سيعود حزني في اليوم الثاني.

وعندما أغلقت أخيراً الأبواب البرونزية للمكتبة الشبيهة بالقلعة، واجهت النعش، وبقيت أنا وجثّة السيّد مورغان فقط. لقد رفضت حتى بقاء حارسة الأمن معي، فأمرتها بالانصراف لأبقى وحدي معه. وقفت عند التابوت، وأغمضت عينيّ، ووضعت يديّ على الخشب المصقول، فتسلّلت الكلمات من حديثنا الأخير إلى ذهني، وأردت أن أقول له أنا آسفة، لكنّني رفعت رأسي، وطردت تلك الأفكار بعيداً.

وبدلاً من ذلك، هرولت نحو مكتب السيّد مورغان، وأخذت إنجيل بونهام نورتن، الذي كان ملكه، وتصفّحت الأوراق إلى أن وصلت الآية الأخيرة التي قرأتها له قبل أشهر في لحظة هادئة نادرة جمعتنا. ولم تكن الآيات تروي إحدى قصصه الإنجيلية المفضّلة، لكنّها تضمّنت المقطع الذي كان يعجبه بشكل خاص. وبينما كنت أراجع الكلمات وجدتها متلائمة بشكل غريب مع تلك اللحظة.

وأخذت نفساً عميقاً كما لو أنّ السيّد مورغان كان جالساً أمامي على عرش عرين أسده، وبدأت أتلو: «لا تضطرب قلوبكم أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي»، وواصلت تلاوة الآيات الثمانية والعشرين من الكتاب المقدّس، وعندما وصلت إلى نهاية الآيات أغلقت الإنجيل بحذر وخشوع شديدين، ثم انحنيت برأسي، وسمحت لحزني بأن يعم أرجاء القاعة المستديرة، وبدأت الصلاة والدعاء بصمت، وأنا أبكي وأنحب بحرقة؛ آمل أن ترزقه تلك الكلمات السلوان أينما كان.

غداً، سيتم تشييع السيّد مورغان في موكب من خمسين عربة ستشمل لا عائلته فحسب، بل أيضاً المسؤولين الحكوميين والمواطنين المتميّزين، ومن المرجّح أن يكون هناك الآلاف من المواطنين، الذين سيصطفون على الأرصفة لمشاهدة مرور ذلك الموكب الحزين، لكنّ الليلة مخصّصة لنا أنا وهو فقط، كما كنا دائماً، ومثلما أودّ دائماً أن نكون.

الفصل الثالث والثلاثون

يومي 14 آب/أوت، و8 أيلول/سبتمبر 1913

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

لقد كان هذا الصيف بمنزلة فصل الحداد بالنسبة إلي، ومرّت أيامي في المكتبة وأنا أتظاهر بالعمل كما لو أنّ مكتب السيّد مورغان لم يكن خالياً. وعندما بدأ جاك بالظهور في المكتبة، كنت أسترق النظر إليه حين يكون في مكتب والده لأرى بعض ملامح التشابه بينهما، فأشعر بالارتياح. ويظلّ تشابههما الجسدي يخدعني للحظات إلى درجة أنّني أتخيّل أنّ السيّد مورغان قد عاد، ولكن بعد ذلك أتذكّر وأدرك الحقيقة؛ إذ لا يمكن لأي شخص آخر أن يملأ عرشه حقاً.

ولتبديد حزني، حاولت إقامة علاقة مع جاك تتجاوز العلاقة العائلية، التي شاركتها معهم لسنوات. والتأقلم في العمل مع جاك كان أمراً صعباً؛ لذلك حاولت أن أخفي يأسي، وتناولت قائمة مهام الجرد والتقييم التي كلفني بها؛ لقد كنت بحاجة إلى أن أعلمه أنّه يمكنه الاعتماد عليّ. وعلى الرغم من أنّه كان يعدّ اللوحات أو المخطوطات المتفرّقة فاتنة، ولاسيما أناجيل غوتنبرغ، كنت أعلم أنّه غير مرتبط بالفنّ بالدرجة نفسها التي كان عليها السيّد مورغان. ولما كان قد تربى في عائلة ثرية رأسمالية، فإنّه كان يعتقد أنّ مجموعة التحف هي مجرّد ممتلكات مادية فحسب. لم تكن مهمّة والده، التي تُعدّ مهمتي أيضاً، بخصوص المكتبة، مبنية على الجانب الاقتصادي؛ بل كانت مبنية على حب الفن والرغبة في إنشاء مجموعة لا تنازعها أيّ مجموعة

من حيث الاتساع والأهمية بين المؤسسات الأوروبية والأمريكية؛ فكيف يمكنني الحفاظ على مقتنيات مكتبة بيربونت مورغان سليمة في مواجهة ميل جاك إلى التخلّص من تلك العناصر الفنّية عن طريق إرسالها هدايا على شكل طرود، أو بيعها على أجزاء لأعلى المزايدين؟ فهل هذا هو مصير إرث السيّد مورغان، ومصيري أنا معه؟

بحلول آب/أغسطس، أصبحت نفسيّتي كئيبة، وأعصابي منهارة، فسمحت لنفسي بفترة استجمام بينما عادت أمي وإخوتي إلى جبال أديرونداك مرّة أخرى. لقد قبلت دعوة إحدى صديقات إيفلين لقضاء أسبوعين على الشاطئ الشمالي من جزيرة لونغ آيلاند. لم تكن تلك الرحلة ممكنة لو لم يسافر جاك وعائلته بعيداً. لقد فتحت لنا نانسي أبواب قصر والديها لنا ولسبعة منا، بمن فيهم أنا وإيفلين، ومنحتنا غرفاً خاصة بنا في القصر المكوّن من عشر غرف نوم، واستمتعت النساء، في ذلك القصر الجميل المترامي الأطراف ذي اللون الرمادي المطل على الخليج، بالمطالعة والرسم والتلوين، بينما قضيت معظم أيامي في كتابة مذكراتي، واستكشاف أفكاري، ومحاولة التكيّف مع عالمي الجديد، عالم من دون وجود جي. بي. مورغان، وربما يكون عالماً من دون دور لي في مكتبة بيربونت مورغان.

كنت من حين إلى آخر أقرأ الرسائل التي واصل برنارد إرسالها إلي بتمعّن، والتي زاد عددها منذ وفاة السيّد مورغان. وبعد تعبيره الأولي عن خالص التعازي، عاد ليعلن عشقه لي: أعتز بك يا عزيزتي بيل، وأتمنى أن يأتي اليوم الذي سأحملك فيه بين ذراعي مرّة أخرى، لكنّ مشاعره لم تحرّك في ساكناً؛ وعلى الرغم من أنّني لا أزال أحنّ إلى الرجل، الذي اعتقدت أنّه سيكون برنارد، لم يعد لدي رغبة في أكون معه نظراً إلى حقيقته البشعة. كنت أتساءل عما إذا كنت سأجد مرّة أخرى نوع الاتصال الذي شاركته مع برنارد أو السيّد مورغان حتى وإن كان عابراً.

لقد جعلتني أيام العزلة، التي قضيتها في التفكير في السيّد مورغان وفي مستقبلي، أشعر بالحزن والاضطراب، لكنّ الأمسيات الصاخبة التي قضيتها مع النساء الأخريات أثناء البقاء في قصر نانسي كانت بلسماً كنت في أشد الحاجة إليه. كنا نجتمع في الداخل أمام الموقد الحجري الكبير على أرائك مريحة، ونحن نلعب لعبة البريدج، ونتبادل أطراف الحديث، ونضحك ونمرح حتى منتصف الليل حين يعم السماء الظلام الدامس. وفي إحدى الليالي، روت لنا نانسي، بعد شرب العديد من كؤوس النبيذ، القصّة الحزينة لعمتها الكبرى إستيل، التي ماتت في ذلك القصر قبل مئة عام، واتفقنا على أنّنا يمكننا أن نشعر بوجودها. وصرنا منذ تلك الليلة فصاعداً نستحضرها عندما نقرّر العودة إلى غرفنا للنوم، فنقول: «ليلة سعيدة يا إستيل.» أنا الوحيدة من بينهن التي كنت أهمس أيضاً: «ليلة سعيدة يا سيّد مورغان.»

****

عند عودتي إلى نيويورك، اكتشفت أنّ عطلتي المشمسة لم تخفّف حزني ومخاوفي. وعندما عاد جاك بعد بضعة أسابيع، كنت آمل أن انقضاضي على العمل سيساعدني في طرد أو تخفيف حزني ومخاوفي تلك، ولكن في غضون أسبوع، ناداني جاك إلى مكتبه وخاطبني بلهجة جدّية إلى درجة أنّني أصبت بذعر شديد، فهل اتخذ، أثناء رحلته الصيفية، قراراً ببيع مجموعة المكتبة، وإقالتي معها؟ ماذا سيكون مصيري ومصير عائلتي إثر وفاة السيّد مورغان، وأمام وجهة نظر جاك المختلفة جدّاً عن أبيه بخصوص الفنّ والمخطوطات؟

أذن جاك لي بالدخول والجلوس في كرسيي المعتاد، لكنّه بقي صامتاً. حاولت ألا أفكّر في كيفية جلوس جاك خلف مكتب أبيه على نحو غريب، ثم وضع نظّارته، وكشف بعناية عن وثيقة قرّبها من المصباح الذي كان فوق مكتبه بينما كنت بلا حراك في انتظار قراره.

تصفّح جاك الوثيقة، فتنقّل من صفحة إلى أخرى، وفي الأخير تنحنح، وقال: «لقد طلبت منك القدوم إلى مكتبي لمناقشة وصيّة والدي.»

الوصية؟

«مؤكدٌ لديّ أنّك لن تتفاجئي لو سمعت أنّ والدي قد حدّد في وصيّته أن تنتقل ملكية مكتبة بيربونت مورغان وجميع محتوياتها إلي.»

لقد توقّعت الكثير من الأشياء، لكن لا أحد قال لي ذلك صراحة، فقلت: «يمكنني القول، على الأقل، إنّني لست مندهشة، فوالدك اعتقد دائماً أنّك خليفته الطبيعي في المكتبة.» ثم توقّفت قليلاً، وأضفت: «وغالباً ما تحدّث معي عن مدى يقينه من أنّك ستجلب للمكتبة الإشادة الدولية التي تستحقّها.»

رفع حاجبيه من وقع المفاجأة، وقال: «هل قال ذلك حقّاً؟»

قمت بهز رأسي، وشعرت بقليل من الندم بسبب مبالغتي.

فقال: «من الجميل أن أسمع ذلك يا بيل. مؤكّد لدي أنّك تعلمين أنّه لم يكن لدينا أنا ووالدي....» هنا تردّد وبدأ يبحث في قاموسه عن الكلمات المناسبة، ثم قال: «علاقات سلسة، على الرغم من أنّني كنت أحترمه وأحبّه كثيراً.»

فقلت: «لقد كان يبادلك المشاعر نفسها.» ابتسمنا أحدنا للآخر. لقد كان من المرهق جدّاً، بل سيظلّ من المنهك أيضاً؛ للمرء أن يكون ابن جي. بي. مورغان العظيم، وكان من الصعب بما فيه الكفاية مجرّد كوني أمينة لمكتبته.

ثم أشار لي بالعودة إلى العمل الذي كنّا إزاءه؛ أي موضوع الوصية. إثر تصفّح صفحة أخرى قال جاك: «هناك بندان متعلّقان على وجه التحديد بك.»

اندهشت وقلت: «أنا؟ بندان؟» على الرغم من أنّ السيّد مورغان كان يشير من حين إلى آخر إلى وصيّته، وعادةً كان يقوم بذلك بصيغة التهديد، لم يكن لدي أيَ شعور بأنّني سأحصل على أي شيء من إرثه.

«نعم، البند الأوّل يأمرني فيه على وجه التحديد بأن أحافظ على عملك لمدّة سنة على الأقل»، ثم نظر إلى السقف، وأضاف: «لم يكن والدي بحاجة إلى توضيح ذلك يا بيل، فأنا بطبعي كنت أنوي إبقاءك في عملك.»

فقلت له: «شكراً.» نظرت إلى الأسفل نحو يدي المكتوفتين، ولم أكن أرغب في أن يرى جاك أنّ عيني كانتا تذرفان دموع السعادة والراحة من الرسالتين اللتين أرسلهما إلي السيّد مورغان من خلال وصيّته. الرسالة الأولى تقول إنّه حتى بعد خصامنا، ظلّ السيّد مورغان يثق بي، وغفر لي بالقدر الكافي الذي جعله يدوّن ذلك الحكم بالنسبة إلي في وصيته. والرسالة الثانية تقول -أستطيع رؤية ذلك بين السطور- إنّه أراد مني أن أرشد جاك لبلوغ الهدف الذي تقاسمناه؛ لقد علم السيّد مورغان أنّني سأحتاج إلى الوقت لإقناع جاك بأهمّية المجموعة في حدّ ذاتها، وأهمية الاحتفاظ بها، وبأن أكون أنا رئيسة إدارتها.

ثم توقّف قليلاً وأضاف: «هناك بندٌ ثانٍ، وهو بند مالي. لقد ترك لك أكبر نصيب شخصي من كلّ أفراد العائلة»، فحبست أنفاسي، ولم أجرؤ على تخيّل أيّ مبلغ، فقال جاك: «لقد أراد والدي أن تحصلي على مبلغ خمسين ألف دولار.»

ذُهلت وقلت: «خمسون ألف دولار؟» كان ذلك المبلغ يناهز خمسين مرّة ما يكسبه الشخص العادي في السنة؛ إنّه مبلغ خيالي مبالغ فيه سيوفر لي ولعائلتي الأمن المالي مدى الحياة، والأهمّ من ذلك كلّه أنّ ما أوصى به من مال كان فعلاً دافئاً وسخياً. لقد كان بإمكان السيّد مورغان أن يلحق بوصيته كلّ التعديلات والإضافات اللازمة لو شاء ليتأكّد له أنّني سأعتني بالمكتبة

تماماً كما كان يريد، أو أنّني سأحصل على المال لاستعماله في الحالات الطارئة فحسب، لكنّه أعطاني، بدلاً من ذلك، كامل الحرية لأعيش الحياة التي اخترتها.

فقال جاك: «أنت جديرة بذلك يا بيل.» لم أزعج نفسي بكبح دموعي.

****

شعرت بخفة خطوتي، وأنا أحث السير للعودة إلى المنزل. لقد كان لدي أمل وهدف جديد لم أشعر به منذ وفاة السيّد مورغان. دفعت الباب الذي كان يربط شقتي بشقّة عائلتي. لم يكن أفراد عائلتي يتوقّعون مجيئي، لكنّني كنت أعلم أنّهم سيولونني بعض الوقت لمناقشة غيابي، وربما يتفوّهون بأيّ كلمات دنيئة عنه. لقد كانت ماما وتيدي ولويز وزوجها وإثيل وزوجها، يجتمعون حول مائدة الطعام، فحيّاني الجميع، وعانقوني عناقاً حاراً.

لقد مرّ وقت طويل منذ أن جلست مع عائلتي لتناول الطعام. كلّ إخوتي تزوّجوا ونالوا وظائف وحياة مختلفة تماماً عن حياتي؛ فراسل، الذي عاد من فلوريدا، أصبح مهندساً ويعمل في ولاية نيو جيرسي؛ حيث أصبح لديه هو وزوجته منزل. بينما بقيت أختاي في سلك التعليم، أمّا زوج كلّ واحدة منهما فبصدد البحث عن عمل؛ فزوج لويز يبحث عن وظيفة بوصفه معالجاً متخصصاً في تقويم النطق، أمّا زوج إثيل فهو مستعد للقيام بأيّ عمل.

أما تيدي فلم يبقَ أمامها سوى بعض الأشهر للحصول على شهادتها الجامعية في التدريس، وقد زادت ثقتها في نفسها، كما أصبحت أكثر سحراً في مظهرها. وبالنظر إلى أنّ زوجي أختي عاطلان عن العمل، فإنّ الجميع يسكنون هنا في الشقّة إلى أن يتغيّر وضعهم. لقد كان ترتيباً ملائماً، فالرجال كانوا يهتمّون بماما بشكل مبالغ فيه، وماما كانت تستمتع بذلك، إلا أنّه لا يوجد شيء سيفرحها أكثر من تأمين عمل لصهريها. وعلى الرغم من أنّها لم تكن تقول ذلك، فإنّني كنت أعلم أنّها لا تحب أن تعتمد الأسرة عليّ بشكل كامل.

وبينما كانت ماما تضع كومة كبيرة من الدجاج والبطاطس في طبقي، سحبت كرسياً، وجلستُ، وقلتُ لهم: «سأسوق لكم بعض الأخبار السارة.»

سألتني ماما وهي تواصل ملء أطباق أخواتي: «ما الجديد؟»

أجبتها: «لقد أدرجني السيّد مورغان في وصيته.»

في البداية توقّف الجميع عن الأكل، وأخذوا يحدقون فيّ، ثم انطلقت أخواتي وماما في الحديث دفعة واحدة. ولم يشدّ انتباهي من بين أصواتهنّ جميعاً سوى نبرة كلام ماما عندما سألتني: «هل أدرج اسمك في وصيته؟»، فشعرت بأنّها بدت مندهشة مما سمعته.

فسألتهنّ وأنا أجول بنظري بينهنّ: «احزروا ما يمكن أن تكون هديته لي؟»

قالت ماما: «ربما ترك لك ما تحبين: أظنّه ترك لك مخطوطة عصر النهضة»، ثم أومأت برأسها بشكل جازم.

فقفزت تيدي وقالت: «لا أظنّ ذلك! أعتقد أنّه ترك لك ثلاثة فساتين وجواهر تستحقّين التباهي بها أثناء خروجك إلى أيّ حفلة.»

شاطرتها لويز الرأي، وقالت: «هذا هو بالضبط ما كنت أفكّر فيه.»

ضحكت من تخميناتهنّ حين علمت أنّ أخواتي يأملن نيلي الفساتين والمجوهرات لكي يتسنّى لهنّ استعمالها.

سألتني تيدي وبريق الحماسة في عينيها: «من كان على حق إذاً؟»

أجبتها: «لا أحد منكنّ أصاب في تخمينه.»

سألتني تيدي وكانت تضرب برجليها الأرض، وقد عيل صبرها، مثلما تعوّدت أن تفعل دائماً، فأنا أعلم ذلك جيّداً: «ماذا أهداك إذاً؟»

لخّصت لهم الخبر وقلت: «لقد ترك لي مبلغ خمسين ألف دولار.»

صاحت كلّ أخواتي، وقفزت ماما أمام الطاولة، وسارعت إلى احتضاني وقالت: «أوه يا بيل. أنا ممتنة جدّاً لأنّ السيّد مورغان فكّر في الاعتناء بنا.»

التحقت أخواتي بعد ماما بالمباركة والعناق، ثم نهض صهرانا وانضمّا إلى الاحتفال.

صاحت تيدي وقالت: «أستطيع أن أحصل، بفضل ذلك المبلغ الكبير من المال، على ذلك الفستان الوردي المعروض في متجر بي. ألتمان!»

وصاحت لويز: «ويمكنك بذلك القدر من المال شراء منزل متناسق مع ذلك الفستان!»

ظلّت أخواتي يقفزنَ إلى الأعلى والأسفل ويصفقنَ بأيديهنّ، بينما بقي صهرانا واقفين يبتسمان. أما ماما فقامت بخطوات إلى الوراء لتفسح لي المجال، وبدت مبتهجة جدّاً. أصبح الجميع يرونني مصدراً للمال. آه، كم كانوا مرتاحين جرّاء ما جنيته من عملي!

جلست في مقعدي، وتسمّرت من الدهشة، فهم ليس لم يعبّروا عن أيّ امتنان تجاهي فحسب، بل فشلوا أيضاً في الاعتراف بالخسارة التي قد ترافق تلك المفاجأة والمكاسب غير المتوقّعة.

نزلت دمعة على خدي حين نظرت ماما صوبي، فسارعت إلى الجلوس بجانبي، وركعت عند كرسيي، وقالت: «أنا آسفة يا بيل. لقد كنا طائشين في عدم شكرك.»

توقّفت أخواتي وصهرانا عن احتفالهم.

فقلت: «لم أكن أقصد ذلك يا ماما، على الرغم من أنّه كان من اللطف قول كلمة «شكراً».»

«ماذا تقصدين إذاً؟»

«أنا أفتقد السيّد مورغان، وأشعر بالضياع من دونه، فكل ما لدي، ولدينا جميعاً، يعود الفضل فيه إليه. يمكن أن يكون السيّد مورغان صعب المراس وغيوراً ومتحكّماً لكنّه هو من جعلني ما أنا عليه اليوم.»

صافحتني ماما وضغطت على يدي بإحكام، وقالت: «لقد كان السيّد مورغان يمثّل قوة عظيمة وسخية في حياتك، ومن خلالك، أثّر في حياة عائلتنا. لكن لا تخطئي في تأويل هذا الأمر يا بيل، فأنت هي من جعلت نفسك هذا الشخص الذي أصبحت عليه الآن. لقد أعطاك السيّد مورغان الفرصة، لكنّ كلّ جزء من نجاحك يعود إليك، فأنت بيل دا كوستا غرين.»

الفصل الرابع والثلاثون

20 تشرين الثاني/نوفمبر 1913

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

مع رحيل جاك في شهر تشرين الأول/أكتوبر للقيام بزيارته السنوية إلى إنجلترا، احتفيت بتأجيل العمل، وخاصة بعد الضغط الذي عانيت منه أثناء تثقيف جاك حول قيمة الحفاظ على سلامة مجموعة المكتبة. لكنّ ما قلته لوالدتي منذ أشهر قليلة ظلّ صحيحاً؛ لأنّني كنت لا أزال أشعر بالضياع. لقد استيقظت في أعقاب وفاة السيّد مورغان على ما شعرت بأنّه ظلام جديد، وتهوّر متزايد.

مازلت أفتقد السيّد مورغان، وموته فتح الباب أمام حزن آخر في قلبي لم أسمح لنفسي بالاعتراف به من قبل. وخلف ذلك الباب كنت أشاهد برنارد وطفلي جنباً إلى جنب مع والدي. وجدت نفسي، في الفضاء الذي منحني إياه إرجاء العمل، أتوق إليهم جميعاً؛ أي السيّد مورغان وبرنارد والأمومة، ووالدي، وكلّي علمٌ بأنّ الالتقاء بهم من جديد أمر مستحيل.

حاولت تهدئة ذلك الشوق بالكلمات، ففتحت إنجيل غوتنبرغ الذي كان عزيزاً على السيّد مورغان، وبدأت أتلو منه بحثاً عن ولي نعمتي بين ثنايا آيات الكتاب المقدّس العظيم، وفي رسومه التوضيحية الحيّة، والزخارف التي كانت تزيّن حواف صفحاته، فضلاً عن لغة الكتاب المقدّس في حدّ ذاتها. كتبت رسالة إلى برنارد، محاولة فيها فهم روح هذا الرجل الذي كان

تواصلي معه لا مثيل له، والقرار المفجع بعدم إنجاب طفلنا، مع البقاء بعيداً عنه لحماية نفسي. وحاولت البحث عن طريقة للتواصل مع والدي من خلال قراءة كتاباته، فقمت بتحليل مقالته التي كانت بعنوان «معضلة البيض»، فأربكتني ومثّلت تحدياً لي، ثم انتقلت إلى مطالعة الكتابات التي كنت أعتقد أنّها سترضيه من قبيل كتاب (هارييت، موسى شعبها) بقلم سارة هوبكنز برادفورد، وكتاب السيرة الذاتية (سرد لحياة فريدريك دوغلاس، الصعود من العبودية) بقلم بوكر. تي. واشنطن، كما طالعت من مجموعة مكتبة بييربونت مورغان الخاصة، طبعة مبكّرة من قصائد فيليس ويتلي، وهو عبد سابق عاش في القرن الثامن عشر، وكتب شعراً جميلاً، لكنّه متضارب بشأن العبودية.

وحين اكتشفت أنّ ذلك ليس كافياً سعيت للمزيد من الانغماس في القراءة لمساعدتي على فهم والدي، واستيعاب مبرّرات قراره، وتأثيره عليّ؛ فاستنتجت أنّه لم يكن هناك شيء أكثر أهمّية بالنسبة إليه مما كان يحدث في بلادنا من الأحداث التي تجاهلتها أحياناً بينما كنت أبحث عن نجاحي الفردي. وقمت بدراسة مجموعة واسعة من الصحف، وتخيّلت غضب بابا من قرار الرئيس ويلسون بتهشيم المساواة العرقية والسماح بالفصل العنصري داخل الحكومة الاتحادية. وتصوّرت الابتسامة التي ارتسمت على وجهه عندما علم بعمل النساء صاحبات البشرة الملوّنة مثل إيدا .ب. ويلز، وماري تشيرش تيريل، والشابات الاثنتين والعشرين من جامعة هوارد، اللاتي كنّ أعضاء في نادي النساء صاحبات البشرة الملوّنة، المسمى «دلتا سيجما ثيتا»، واللاتي انضممنَ إلى آلاف آخرين في الموكب الذي كان ينادي بحق المرأة في التصويت في العاصمة واشنطن، على الرغم من حقيقة أنّ مساهمتهنّ لم تكن مرغوبة من قبل النساء البيض. وأمام إعجابي بالعمل الذي تمّ القيام به، وخاصة من قبل النوادي والجمعيات النسائية الملوّنة، شعرت بالانجذاب إلى القضية، وتساءلت كيف يمكنني المساعدة. وبحكم أنّني كنت أعيش كامرأة

بيضاء، هل يمكن لي أن أشارك في هذا العمل لإلهام الناس من أصحاب البشرة الملوّنة؟ أو هل يجب عليّ أن أتخلى عن هويّتي المزيّفة، وأنطلق في النضال من أجل المساواة؟ شعرت في الأخير بأنّه لا يوجد مكان حقيقي لي داخل عالم والدي، أو في العالم الأبيض، وتهت من جديد، وصرت بلا هدف كالريشة في مهبّ الريح.

****

قالت كاترينا: «أنا أرفض، بوصفي امرأة، أن يتم تحديد تعريفي من قبل الرجل.» شاهدتُ الطاولة المليئة بالنساء اللواتي كنّ يرتدين بلوزات وتنانير كئيبة اللون يومئنَ بموافقتهنّ. كان يمكن لأي من الحاضرين في مطعم فندق مارثا واشنطن ملاحظة أنّ النساء الأخريات كن يلبسن ثياباً بالية مقارنة بملابسي، فأنا كنت أرتدي فستاني الأنيق الأخضر المائل إلى الزرقة مع وشاحي المتناسق معه، الذي كنت أستعمله في المزادات، والذي أصبح بمنزلة بصمتي، لكنّهن كنّ في الواقع يعشنَ حياة أكثر استقلالية وراديكالية من حياتي.

أجابتها امرأة أخرى ذات شعر أحمر رطب كانت ترفض ترويضه بوساطة كعكة شعر: «بالضبط، ولاسيما أنّ معظم الرجال يعتقدون أنّ المرأة الحقيقية هي الزوجة المتديّنة والخاضعة!»

قالت كاترينا: «وهذا لا يناسب أيّ واحدة منا.»

واصلت المرأة صاحبة الشعر الأحمر تفسير وجهة نظرها، فقالت: «لا على الإطلاق، نحن أفراد مستقلون وجديرون بنيل هوياتنا السياسية الخاصة.»

ثم بدأت كاترينا والنساء الثلاث الأخريات في التكلّم معاً: «ونحن نرى أنّ هذه الحقائق بديهية، وأنّ جميع الرجال والنساء خلقوا متساوين....»

ثمّ رفع الجميع كؤوسهنَّ لشرب نخب اتفاقهنَّ، وعلى الرغم من أنّني رفعت معهنّ كأسي وانضممت إليهنّ، إلا أنّني شعرت بأنّني لا أنتمي إليهنّ. وعندما طلبت مني كاترينا الانضمام إليها هي وثلاث من صديقاتها لتناول المشروبات والحلويات، انتهزت الفرصة لتهدئة ذهني المضطرب ومواساة قلبي بالمشروبات المسكرة والمحادثات المشتتة للانتباه. لم أكن أتوقّع أنّ ذلك النقاش سيجرّني إلى تعميق إحساسي بالعزلة عن العالم.

وعندما شعرت كاترينا بما أحملهُ من أحاسيس همست لي: «كنا نقرأ جزءاً من وثيقة إعلان المشاعر المدرج ضمن اتفاقية مدينة سينيكا فولز فحسب»، فزادت حالتي سوءاً. وتساءلت: هل يجدر بي أن أعرف عن ذلك المؤتمر وعن تلك الاتفاقية؟ خطر في بالي كم كنت بعيدة كلّ البعد عن القضايا الحسّاسة المتعلّقة بالجنس والعرق والدرجة التي بلغتها من الجهل بتلك المسائل. يبدو أنّ استقلالي كان يرتكز على ذاتي وبالاسم فحسب؛ فهل أنا مجرّد محتالة؟

«عفواً، أيّها السيّدات، هل يمكنني أن أقدمِ لكنّ شراباً آخر؟»

نظرت إلى المتكلّم؛ إنّه نادل من ذوي البشرة الملوّنة. تساءلت عمّا إذا كان لدي الكثير من القواسم المشتركة معه أكثر من القواسم المشتركة لي مع العالم الأبيض الذي كنت أتظاهر بالانتماء إليه، لكنّني عندما ابتسمت له بقصد التعاطف معه، فاجأه لطفي، ولم أدرِ هل أربكته ابتسامتي أو مظهري، ويمكنني القول إنّه كان من بين القلائل من أصحاب البشرة الملوّنة، الذين لا يتعرّفون إلى ملامح الدجّال الذي كنت عليه. لقد اعتاد ذلك النادل أن يكون رجلاً أسود غير مرئيّ بين البيض.

تلعثم وقال: «آ-آنسة هل ترغبين في مشروب آخر؟»، فانفجرت كاترينا وصديقاتها بالضحك على شيء آخر لم أفهمه.

فقلت له: «نعم. من فضلك»، ثم انحنيت أقرب إليه، وأضفت: «شكراً لما تقدمه من خدمات.»

ابتعد عن الطاولة مرتبكاً لما لقيه مني من تعاطف، وقال: «حسناً سأحضر لك المشروب.» سارع بالابتعاد كما لو أنّ حسن نيّتي كان فخاً منصوباً له من شخص أبيض. فقلت في نفسي: يا له من مشهد حزين جدّاً!

عندما عاد نادل أبيض وهو يحمل شرابي، بدلاً من النادل الأسود، علمت أنّه يجب عليّ أن أتوقّف عن التصرّف بتهوّر بالغ، كما لو أنّني كنت ذاهبة من أجل اتخاذ قرار بشأن عرقي هنا في فندق مارثا واشنطن. يجب أن تكون هناك طريقة أخرى يمكنني بوساطتها تخفيف أرقي من دون المخاطرة بهويتي، على الأقل في هذه الليلة.

وبعد أخذ رشفة طويلة أخيرة من شرابي، وددت إثرها أن أودّعهنّ حينما اقترب من طاولتنا ثلاثة شبان، وسألنا شاب أشقر نحيل منهم: «هل بوسعنا الانضمام إليكن؟»، وبقي أصدقاؤه ذوو الشعور الداكنة ينتظرون.

قفزت كاترينا وصاحت قائلة: «تشارلز! ماذا تفعل هنا؟»، ثم عرفتنا إليه؛ لقد كان شقيقها. وانضم الرجال الثلاثة إلى مجموعتنا. وعلى الرغم من أنّ كاترينا وأنا كنا نعرف إحدانا الأخرى خلال سنوات دراستنا، لا أتذكّر لقاء شقيقها.

جلس أحد رفقاء تشارلز من ذوي الشعر الداكن في نهاية الطاولة على الكرسي الذي كان بجواري، وبعد قضاء فترة طويلة من الصمت المحرج، الذي قرّرت أثناءه طلب كأس شراب ثالث، سألته عن الكتاب الذي كان يحمله معه.

فقرأ لي العنوان: (أرواح السود)، ثم سألني: «هل قرأته؟»

فقلت له: «إنّه بقلم ويب دو بويز، أليس كذلك؟»

فسألني: «هل سمعت عنه؟»

انطلقت في الكذب: «لا. لا أعرفه حقاً.» ثم خطرت في بالي صور والدي، فأضفت: «أعرف عنه القليل فقط» تحسّباً لأي زلّة لسان.

فقال: «هل تعلمين أنّ هذا الرجل مرّ من هنا.» نقر على الكتاب وأضاف «ألا تعلمين أنّه قد كان أوّل رجل صاحب بشرة ملوّنة يحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد؟»

تظاهرت بالاندهاش وقلت: «لا. لم أكن أعرف ذلك!» لقد شعرت في تلك اللحظة بموجة من الفخر والحنين لسماع أنّه أوّل رجل صاحب بشرة ملوّنة قد تخرّج في تلك الجامعة الموقّرة، لكنّني لم أقل أيّ شيء عن بابا حين استمرّ الشاب في وصف حبّه لذلك الكتاب، وآماله في تحقيق المساواة العرقية؛ حيث لم يكن في وسعي القيام بتلك المخاطرة.

«لقد منحتني قراءة هذا الكتاب نظرة ثاقبة لما يعنيه أن تكون أسود في هذه البلاد. وكيف يجب أن يكون للسود طوال الوقت مجموعتان من العيون، ومجالان غير متناسقين تماماً من مجالات الرؤية؛ لأنّه يتعيّن عليهم أن يضعوا في اعتبارهم الكيفية التي يرون بها أنفسهم، والتي على الأرجح هي على عكس الطريقة التي يراهم بها العالم. لذلك يبدو الأمر لي أشبه بالمشي والبحث عن ذلك التوازن.»

اندهشت مما التقطه ذلك الشاب الأبيض من الكثير من المعلومات من ذلك الكتاب ومن حياتي. لقد بدت لي كلماته أثناء مواصلته الحديث كما لو أنّها كانت كلمات والدي نفسها، وعلى الرغم من أنّها كانت تصدر عن فم رجل أبيض، كانت جادّة بالقدر نفسه، فقلت: هذا أمر لا يصدّق: كيف يمكن لرجلين من لوني بشرة مختلفين أن يقولا الشيء نفسه؟ لقد ولد ذلك الشاب الأبيض في مكان يسوده الرخاء العائلي، لكنّه لا يزال يتوق إلى

المساواة؛ بينما ينبع شوق والدي من حنينه إلى نيل مكان للبقاء. لقد بث فيّ ذلك الشاب الأمل.

بمجرّد أن أنهيت شرب كأسي الرابعة وقع شيء آخر؛ لم أعد أرى والدي في ذلك الشاب. لقد أصبحت أرى وأشعر ببرنارد. وحين خطرت في بالي تلك الأفكار، أدركت أنّه يجدر بي الرحيل. عندما بدأت في توديعهم أمرت كاترينا ذلك الشاب، الذي كنت أتحدّث معه وقالت له: «ساعد الآنسة غرين في تأمين عربة تنقلها إلى المنزل يا جوناثان.»

رافقني ذلك الشاب طوال عبورنا البهو الأنيق للفندق إلى أن صرنا في الخارج. لم تلُحْ أيّ عربة في الأفق، فاتجهنا نحو الحديقة؛ حيث كانت العربات في بعض الأحيان تشكّل طابوراً هناك. تسلّلت يد الشاب إلى يدي، ولكن بدلاً من الحفاظ على المسافة اللائقة المعتادة بيننا ملت نحوه؛ لأنّ كأسي الأخيرة أصابتني بالدوار. واندهش عندما وقفت على أطراف أصابعي لتقبيله، فكانت قبلاته المتبادلة قذرة، ولمسات يديه خرقاء، لكنّ قلة خبرته لم تكن تعنيني، فأنا كنت أبحث عن شيء واحد؛ أي اتصال، حتى وإن كان عابراً، لأستقر.

أمسك جوناثان بيدي، وقادني إلى مبنى قريب، وانتظرته بينما كان يفتح الباب، ثم صعدنا بصمت الدرج، ودخلنا إلى غرفة مليئة بالكتب المكدّسة، فاستنتجت أن جوناثان كان طالباً، وتساءلت عن عمره بينما كنت ألقي نظرة على الأثاث البسيط المكوّن من مكتب وسرير ليس أكبر بكثير من أسرّة الأطفال، وطاولة مستديرة صغيرة ملتصقة بثلاجة، وموقد، ومغسلة صغيرة. لم أكن في تلك اللحظة أهتمّ بعمره أو بديكور منزله.

عندما مد يديه نحوي، بدأ في فك أزرار فستاني، فحاولت الاستسلام لذلك الشعور، ثم استلقينا على السرير، وسمحت له بنزع ملابسي، لكنّ القبلات والمداعبات لم تفِ بالغرض، ولم تعطِني ما كنت أحتاج إليه؛ لملء

الفراغ بمعنى نهائي. ثمّ جلست على سريره ودفعته بعيداً، وارتديت ملابسي الداخلية وفستاني من دون أن أنبس ببنت شفة، وغادرت منزله من دون أن أقول حتى كلمة وداع.

سارعت إلى العودة في ذلك الليل الدامس، ووصلت أخيراً إلى شقتي وأنا أترنّح برأس يغلب عليه الدوار وقلب محطّم. لم يعد بإمكاني البقاء في ذلك الظلام المضطرب، بل يجب عليّ أن أجد إجابات عن الأسئلة المتعلّقة بما سأصبح الآن عليه بعد وفاة السيّد مورغان، وكيف يجب عليّ أن أكون بيل دا كوستا غرين. ربما لا يتعيّن عليّ أن أكون مثلها بشكل أصيل، ولكن يجب أن أكون مثلها تماماً. استلقيت على سريري، وبقيت أقلّب ذلك اللغز في ذهني. وفي لحظة علمت ما يجب عليّ القيام به؛ فلكي أتقدّم لا بد لي من العودة إلى الوراء.

الفصل الخامس والثلاثون

4 كانون الأول/ديسمبر 1913

مدينة شيكاغو، ولاية إيلينوي

لقد كان مطعم الفندق المليء بالعشرات من الطاولات المستطيلة المغلّفة بالمفارش السوداء والأغطية البيضاء خالياً من الروّاد باستثناء وجود رئيس الخدم ورجل عجوز كان يجلس إلى طاولة تتسع لشخصين. سألت نفسي: أين هو؟ فأنا أتيت في الموعد وساعتي صحيحة؛ لقد سبق أن حدّدنا رسمياً موعد لقائنا في إحدى الرسائل التي تبادلناها خلال الشهر الماضي.

لكنّني قمت بعد ذلك بالنظر عن كثب إلى ذلك الرجل المسنّ الذي كان يرتدي بدلة رمادية اللون.

ثم وقف ذلك الشيخ، وقال لي بصوت رخيم منخفض: «هل هذه أنت حقاً يا بيل؟» تعرّفت إلى صوته. لقد أصبح الشيب طاغياً على شعره المجعّد ولحيته الآن، لكنّ ملامحه الأرستقراطية ظلّت على حالها؛ بأنفه الطويل والرقيق، وعظام خدّه المنحوتة بدّقة، ولم يتغيّر في تقاسيمه أيّ شيء.

فقال مجدّداً: «بيل!»، ثم مدّ يديه كما لو أنّه كان يطلب الإذن لاحتضاني، وبدأت أرتجف حينما جذبني بدفء مألوف بين ذراعيه، فلا أحد احتضنني بذلك الشكل منذ رحيله.

لقد كانت الطريقة، التي ذكر بها بابا اسمي مميّزة؛ وردّده فبدا صوته يشبه ترديد لازمة أغنية. لم يكن اسم بيل بالنسبة إليه مجرّد اسم، بل كان تعبيراً عن مشاعره التي يكنّها لي، ويشعر بها تجاهي.

«اجلسي يا فتاتي الحلوة.» بسرعة أخذ حقيبتي الجلدية مني، وسحب كرسياً لي، وطلب مني الجلوس.

نزعت معطفي. لقد كان الفصل في مدينة شيكاغو شتاء، وكان البرد قارساً في الخارج عندما سرتُ نحو وجهتي.

بمجرّد أن جلسنا ابتسمنا أحدنا للآخر بعصبية. كان مفرش الكتان الأبيض، الذي يغطي الطاولة بيننا، مثل محيط غير صالح للملاحة.

وفي الأخير تكلّم بابا وقال: «لا يمكنك أن تعلمي يا بيل كم كنت متشوّقاً لهذا اليوم.»

أجهشت بالبكاء. لقد افتقدت والدي على مرّ السنين، لكنّني لم أدرك إلا في تلك اللحظة أنّ ألم غيابه هو أكثر من مجرّد شعور عاطفي، بل هو أيضاً ألم جسدي، فألم حاجتي إليه كان حاضراً دائماً، وها هو يتمظهر الآن، ويخرج من داخلي.

بادر أبي بعبور ذلك المحيط، فانحنى عبر الطاولة، وأمسك بيدي، فقلت له: « لقد اشتقت إليك بشكل رهيب يا بابا.» انهمرت دموعي، فمددت يدي إلى جيبي، وسحبت منديلاً لتجفيف عينيّ وخداي. اقترب النادل منّا كما لو أنّه كان ينتظر استعادتي لهدوئي، فقمنا بتأمّل قائمة الأكل بسرعة، وطلبنا حساء الدجاج البسيط بالنسبة إلي وشرائح لحم الضأن لبابا، وحرصنا على أن نبقى وحدنا.

فقال بابا وهو يهز برأسه: «لا أصدّق أنّ سبعة عشر عاماً قد مرّت علينا. أنا ممتن جدّاً لأنّك وجدتني.»

فقلت: «لقد كان خالي موزارت يبقيني على اطلاع بالمكان الذي كنت فيه بقدر ما يستطيع، وهو الوحيد الذي أمدني بعنوانك.»

فقال: «حسناً، عندما استلمت رسالتك الأولى -.» هزّ برأسه من جديد وأضاف: «لقد كنت أواكب مراسلتك مع خالك، وكنت أتابعك أيضاً.»

«هل كنت تتابعني فعلاً؟»

«هذا مؤكّد، وكنت متشوقاً لهذا اليوم، لكنّني فقدت الأمل، ولم أجرؤ على المبادرة.»

فقلت: «لدينا متّسع من الوقت لنتدارك. من أين تريدنا أن نبدأ؟»

«ابدئي من حيث ما شئت، فأنا متعطّش لسماع كلّ شيء عنك.»

انطلقت بسردٍ حماسيّ لما أنجزته أخواتي وأخي، فقلت: «حسناً، هل تتذكّر كيف كانت لويز وإثيل لا تنفصلان حين كانتا يافعتين؟»

فأومأ برأسه.

فقلت: «لم يتغير شيء بشأنهما، لقد وجدا طريقة للعيش معاً في شقة مع زوجيهما.» لقد قرّرت عدم ذكر أنّهم جميعاً يعيشون معاً مع ماما وتيدي في شقة دفعت ثمنها، فلا حاجة إلى إدراج المشاكل أمام لمّ شملنا.

عندما مال بابا إلى الوراء ليضحك بملء شدقيه، عاد بي الزمن ثلاثين عاماً، فتذكّرت مائدة الطعام التي كانت تجمعنا لتناول العشاء، ويترأسها بابا لتسليتنا بالقصص التي كانت تملأ منزلنا بالضحك.

«إذاً، راسل لم يعد معكم؟»

فقلت: «نحمد الله أنّه غادر.» تسبّبت تلك الملاحظة في ضحكنا جميعاً، ثم أضفت، فقلت: «لقد تزوّج هو أيضاً، لكنّه يعيش هو وزوجته في ولاية نيوجيرسي. إنّه مهندس ثابت ومتين مثلما ربيته.»

فأومأ برأسه، لكن ابتسامته تلاشت، فندمت على ما قلت من كلمات. لقد كان راسل لا يزال شاباً عندما غادرنا والدي؛ وبدأ بابا في تربية ابنه، لكنّه بالتأكيد لم ينهِها، فهو لم يكمل تلك المهمّة مع أيٍّ منا.

أشرقت ملامح وجهه من جديد عندما أخبرته عن تيدي، وقلت: «دعني أخبرك عن تيدي. آه يا بابا لقد أصبحت جميلة جدّاً وقريباً ستنهي دراستها الجامعية، وستتخرّج من كلّية المعلمين.»

سألني عن بعض التفاصيل بينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث، لكنّني لم أذكر له أيّ شيء عن ماما، ولم أذكر له عن عرق أزواج إخوتي عندما تحدّثنا عن أسمائهم ومهنهم. فلا حاجة إلى الحديث عن الأعراق الآن.

ثم سألني بابا عن مهنتي الخاصة، فأسقطت ملعقتي فوق طبقي، وقلت: «لم يمرّ يوم عليّ يا بابا لم أفكر فيه فيك. كنت أتذكّرك في كل مرّة كنت أحمل فيها شيئاً في يدي يذكّرني بك، مثل نسخة سوينهايم وبانارتز من ديوان فيرجيل»، فأطلق بابا صافرة منخفضة قبل أن أواصل كلامي، وأضيف: «لقد تمنيت أن أتمكّن من مشاركة تلك اللحظة معك. لقد أتيحت لي الفرصة في إحدى المناسبات للذهاب عميقاً خلف جدران مكاننا المفضل—.»

قاطعني بحماسة وقال: «هل تقصدين متحف المتروبوليتان؟»

فقلت: «وهل تذكر ذلك المكان؟»

فقال: «كيف يمكنني أن أنسى عطل نهاية الأسبوع عندما كنا نقضي يوماً كاملاً هناك؟» لقد جعلتني فكرة أنّ تلك الذكريات مازالت عالقة في ذهنه أشعر بالسلام والدفء.

فتابع كلامه وقال: «لقد سافرتِ يا بيل إلى جميع أنحاء العالم لجمع تلك المخطوطات النادرة، وأحببتُ سماع فتوحاتك. لكنّني أعتقد أنّ ذلك المقال الذي نشر في صحيفة شيكاغو ديلي تريبيون هو الذي جعلني أكثر فخراً بك. فمتى فزتِ بنسخة الكاكستون من رواية (موت آرثر)؟ يا له من انتصار!»

ابتسمتُ لكنّني لم أنبس ببنت شفة. لقد كانت ذكرى ذلك المزاد بمنزلة النقطة المضيئة في حياتي، وربما كانت ستظلّ على ذلك النحو لو لم أعد إلى

المكتب في تلك الليلة. لكنّني أحاول الآن ألا أفكّر في ذلك، وأواصل مشاركة والدي التفاصيل الصغيرة حول عملي. لقد كان مبتهجاً بينما كنت أصف له المخطوطات، التي كنت أتعامل معها يومياً، والمجموعات ذات المستوى العالمي التي جمعتها، والمجموعات العظيمة الأخرى التي استكشفتها.

«ما أعظم النجاح الذي أنجزته يا بيل! فالصحف تكاد تكون غطّت غيضاً من فيض إنجازاتك العلمية. فأن تكوني قادرة على دراسة وجمع الكتب النادرة والأعمال الفنّية الثمينة، وتختارينه عملاً في حياتك يُعدُّ مهنة كنت أودّ أن أتابعها لو كانت متاحة لي بعد تخرّجي في جامعة هارفارد، يا لها من هدية!»

«إنّها هدية وهبتني أنت إياها. لقد كنت الشخص الذي عرّفني بجمال الفنّ وأهمّية الكلمة المطبوعة وتاريخها.»

«أنا مسرور جدّاً لأنّك تمكّنت من متابعة ما أحببته، وأتمنى فقط——.» توقّف عن الكلام وأنزل عينيه إلى الأسفل.

«ما خطبك يا بابا؟»

عندما نظر إلى الأعلى، ابتسم، لكنّ الفرح لم يصل إلى مستوى عينيه، وقال: «أتمنى لو كنت هناك معك! ليتني كنت هناك من أجلك، وليتني كنت قادراً على البقاء إلى جانبك، ولا ينتهي بي المطاف في روسيا، حيث بدأت.»

لقد كنت أعلم أنّه كان على وشك أن يقول «بدأت بناء عائلة جديدة هناك»، لكنّني لم أكن أريد أن يلهينا الحديث عن عائلته اليابانية في حين كان وقتنا محدوداً للغاية. لذلك سرعان ما قاطعته بالقول: «لا. لا يا بابا. لا توجد ضرورة للتمني، فأنت هو من زرع البذور لنجاح مسيرتي.»

«حسناً، لكنّك أنت هي التي تعهدّت تلك البذور بالرعاية. لقد قمت أكثر من أيّ فتاة سمراء بتحقيق ما حلمتِ به، وهي فرصة أكثر من تلك التي كانت متاحة لي بوصفي رجلاً صاحب بشرة ملوّنة.»

توترت من استخدامه تلك الكلمة، ونظرت من حولي ليتأكّد لي أن لا أحد سمعه، ثم توقّفت عن النظر حين أدركت أنّه ليس هناك أيّ بشر على مقربة منا، وأنّ لا أحد يعرفني في شيكاغو.

بمجرّد ملاحظته ردَّ فعلي، تلاشت ابتسامته التي استقبلني بها منذ وصولي، ودفع صحنه بعيداً، وتراجع للخلف، وقال: «لكن هذا هو الثمن، أليس كذلك؟ التظاهر بأنّك شخص آخر لا يشبهك.» كانت لهجته جافة لا تحمل أيّ حكم حين أضاف: «لقد كنت فخوراً جدّاً بك عندما رأيت صورتك في صحيفة نيويورك تايمز، لكنّني كنت أيضاً حزيناً للغاية. لقد أدركت أنّه كان عليك التخلي عن جوهر هويّتك لتحقيق حلمك، لكنّ تغيير اسمك أمر سهل، أما تغيير جوهرك فهو أمر مستحيل.»

انحنيت نحوه وقلت: «أنت لست موافقاً إذاً على ما أنجزته، أليس كذلك؟» ذلك هو السؤال الذي كنت أريد دائماً أن أعرف الإجابة عنه.

انتابته ضحكة حزينة وقال: «إنّها ليست مسألة موافقة. لقد أجبرك مجتمعنا على اتخاذ ذلك الاختيار. وتلك هي المهزلة لأنّه لم تكن هناك خيارات جيّدة لك أو لأمّك، وأنا لست مطالباً بالحكم على القرارات التي قمت بها.»

لقد كان لديه كل الحق في الحكم على أفعالي، فبشرة بابا كانت فاتحة مثل تيدي، وكان بإمكانه أن يعيش حياتنا، لكنّه ضحى بكلّ شيء ليعيش رجلاً أصيلاً صاحب بشرة ملوّنة.

فقلت: «أشعر بالضياع يا أبي منذ وفاة السيّد مورغان، وأتساءل عمّا إذا كنت سأشعر بالشيء نفسه لو كنت قد اتخذت خياراً مختلفاً»، فأومأ برأسه

في إشارة تفهّم، فأضفت: «أحياناً أتساءل ما إذا كانت التضحية التي قدمتها لتحقيق هذا النجاح تستحقّ كلّ ذلك العناء.» إنّه لأمر مريح أن أعترف بشكوكي لأبي بصوت عالٍ.

مدّ بابا يده ليمسك بيدي، ويضغط عليها، ثم قال: «عزيزتي بيل. أنت أكثر أصالة من أي شخص أعرفه. لقد عشت الحياة التي كان من المفترض بك أن تعيشيها؛ وكل ما في الأمر هو أنّه كان يتعيّن عليك أن تقومي بذلك كامرأة بيضاء بسبب العنصرية.» ثم تنهّد وأضاف: «وددت لو كنتِ على علم بالزمن، ولو لمدّة وجيزة، فحذارِ من الرجل أو المرأة من أصحاب البشرة الملوّنة حين يقف أياً منهما بشموخ ونجاح، بغض النظر عن لون بشرتهما.»

فقلت له: «أعلم ذلك يا بابا. لقد أخبرتني ماما عن مهنة تدريسك في جامعة كارولينا الجنوبية. لا بد من أن تلك الأيام كانت واعدة ومليئة بالأمل.»

عبّر عن حزنه وقال: «آمل أنّ ذلك ساعدك على فهم سبب عدم تمكّني من التخلي عن الكفاح من أجل المساواة في الحقوق، لكنّني أريدك أيضاً أن تتفهمي سبب مغادرتي.»

لقد أخطأت حين قدّمت الكثير من الأحكام حول ماما، لكنّني أنا سعيدة الآن؛ لأنّ بابا ستتاح له الفرصة ليسرد لي قصّته.

قدِم النادل لحمل صحوننا، ومسح طاولتنا، فمنح والدي بضع لحظات لجمع شتات أفكاره. وبمجرّد أن تركنا وحدنا، قال بابا: «عندما خرجت من ذلك الباب لم يكن مؤكّداً لدي ما كنت سأفعله، لكنّني كنت أعلم أنّني لا أستطيع العيش في عالمين. لقد كان من المستحيل بالنسبة إلي أن أتظاهر بأن أكون أبيض وأعيش أباً لعائلة بيضاء، وفي الوقت نفسه أناضل من أجل المساواة العرقية. الطريقة الوحيدة الأصيلة لحماية عائلتي كانت تتمثّل في الاستمرار في الاحتجاج بنشاط والكفاح من أجل حقوقنا. لقد أردت أن أمنحك مستقبلاً أكثر إشراقاً.»

ثم أمرنا النادل بجلب الحلوى، فاستعاد والدي صوته الأستاذي فقال: «لقد جعلتنا فترة إعادة البناء متساوين، فالميز العنصري كان مخالفاً للقانون، والحكومة الفدرالية كانت تحمينا. لكن عندما ألغت المحكمة العليا قانون الحقوق المدنية، بدأ الفصل العنصري في رحلته إلى الشرعية، ولم تعد هناك حماية. خسرنا حريتنا، لكنّني لم أفقد أملي في استعادتها. لقد اعتقدت أنّه بإمكاننا تغيير الحكم أو حتى تعديله. آمنت بأنّها ستكون معركة، لكنّها معركة يمكننا أن نفوز بها.» ثم هزّ رأسه وأضاف: «لكنّ الأمر كان أصعب بكثير مما اعتقده أيّ منا.»

طمأنته وقلت له: «على الرغم من أنّ الأمر كان صعباً، كنت تقاتل مع الحق يا بابا. لقد حقّقت الكثير مما يجعلك تفخر به.»

فقال: «ربما أنت على حق، لكن هذه معركة سياسية، ويتعينّ علينا أن نخوضها، وحتى القادة يتقاتلون أحياناً فيما بينهم. لكنّني محروم في الوقت الحالي من حلفائي القدامى. لقد كنت منحازاً إلى بوكر تي واشنطن؛ لأنّني أعجبت بكيفية استراتيجيته في التعامل مع رجال الأعمال والسياسيين. لكنّ التيّار قد تغيّر، فويلي دو بويز هو من يقود الحركة الآن. وأنا معجب بويلي ولاسيما خططه لتأسيس الجمعية الوطنية للنهوض بأصحاب البشرة الملوّنة، فهي مثيرة للاهتمام. لكنّني قد جعلته يتوتّر لسبب ما، وبسبب ذلك أصبحت أعيش في التيه، منفصلاً عن الحياة التي كنت أعرفها.» لا بد من أنّ تعبيري له عن قلقي قد أزعجه؛ لأنّه حاول أن يرسم ابتسامة على وجهه وأضاف: «لكنّني قمت ببعض الكتابات الجيّدة في هذا السياق.»

أومأت له برأسي عندما ذكر مقاله (معضلة البيض)، لكنّني حافظت على صمتي. لقد بدا لي بابا في دور الخطيب الذي مازلت أتذكّره، وأنا لا أريد أن أقاطعه.

«لقد بيّنت أنّ المشكلة بين الأعراق الملوّنة والبيضاء لم تكن بسبب نوع من الخلل المتأصّل في الرجال والنساء من أصحاب البشرة الملوّنة، بل كانت نتيجة التعصّب والعنصرية التي كان يكنّها الناس البيض تجاهنا. وقدّمت دليلاً على القمم التي يمكن للأشخاص من أصحاب البشرة الملوّنة بلوغها لو كانوا قد تحرّروا من الارتباطات العنصرية. ولقد أدرجت قائمة بالمئات من الرجال والنساء الملوّنين بدءاً من حرب الثورة الأمريكية إلى يومنا هذا ممن قطعوا خطوات مذهلة في مجال الفنون والعلم والسياسة والتجارة والأدب، وحتى في الجيش.

لقد كان هناك زمن كانت فيه والدتك تؤمن بالمعتقدات نفسها. لقد كانت واثقة، في وقت مبكّر من زواجنا، مثلي، بشأن كلمات من قبيل «كل البشر خلقوا متساوين»، لكنّها بمجرّد أن واجهت العنصرية وجهاً لوجه كان ذلك هو كلّ ما يمكن أن تراه، ولم تستطع أن ترى البشائر والأمل؛ كلّ ما شعرت به هو تحقيق الرغبة البدائية لحماية أطفالها، وأنا أتفهم ذلك.» توقّف عن الكلام، فتساءلت عما إذا كان والدي نادماً على مغادرتنا. ثم قال: «ما زلت أؤمن بالقضية، وما زلت أعتقد أنّ المساواة ستتحقّق في هذه البلاد في يوم من الأيام، وأنّه سيكون لنا في يوم ما قانون جديد للحقوق المدنية، ورئيس وكونغرس جديد لإنفاذه، وأنّ الجميع سيكونون قادرين على متابعة أحلامهم، بغضّ النظر عن العرق، وأن تلك الكلمات بشأن المساواة بين البشر المدوّنة في وثيقة إعلان الاستقلال ستكون صحيحة.»

لقد استمعت إلى أمله، إلا أنّه كان من الصعب عليّ تصوّر ذلك المستقبل، فعلى الرغم من أنّني كنت ملهمة من قبل الشابّات والشبّان، الذين ترعرعوا في الكلّيات المعدّة لأصحاب البشرة الملوّنة ممن اتبعوا خطوات والدي، كانت لقاءاتي اليومية هي التي تؤثر فيّ أكثر، فالصحف لا تزال مليئة بتقارير عن الضرب والإعدام خارج نطاق القانون. كنت أرى عدداً لا يحصى من الرجال

الملوّنين يعملون في أدنى المستويات عمّالاً في الفنادق، وعمالاً يوميين، وكذلك النساء الملوّنات العاملات طبّاخاتٍ وخيّاطاتِ ملابس في الفنادق؛ إنّه عمل شريف لكنّهم لا يعاملون بكرامة في مواقعهم، وخاصة عندما أسمع وجهات نظر عنصرية تنتشر في دوائر المجتمع الراقي التي كنت أتجوّل بينها. كل ذلك بالنسبة إلي يجعل من تصوّر والدي مستحيلاً.

فقمت بهزّ رأسي وقلت: «ليتني كنت أحمل أَمَلَك نفسه يا أبي. أريد أن آمل ذلك، لكنّني لا أستطيع.» توقّفت حين خطر في بالي كم كانت كلماتي تشبه تلك التي قالتها ماما لبابا في كل تلك السنوات الماضية، ثم أضفت: «لهذا السبب أبدو متناقضة للغاية. أعلم أنّ الحياة التي عشتها خاطئة في جوهرها، وفي الآن نفسه أتوق إلى عيش حياة أخرى، لكنّني خائفة بسبب العالم الذي نعيش فيه»، ثم مسحت الدموع التي بدأت تتشكّل في عيني، وأضفت: «آمل ألا تشعر بخيبة أمل كبيرة تجاهي.»

فقال بصوت ليّن: «لا يا بيل، لا يمكن أبداً أن أشعر بخيبة أمل فيك، لكنّ ما خيّب أملي فحسب هو أنّه كان عليك أن تتظاهري بأنّك بيضاء من أجل أن تنعمي بهذه الحياة. فأنا أقاتل من أجل بلوغ الزمن الذي يمكن أن يكون لديك فيه حياتك نفسها كامرأة ملوّنة.»

مسحت الدموع التي لم أستطع كبحها، وقلت: «لقد وجدت نفسي في مفترق طرق. فأنا لدي الحرية في الدفاع على طريقي الخاص، وربما بأكثر أصالة—.»

قاطعني والدي وكرّر: «طريقك الخاص! هل ترين في الإرث الذي تركه لك السيّد مورغان مصدراً للحرية؟»

لم أُفاجأ لعلمه بذلك الأمر؛ حيث تمّ الإعلان عن ذلك الخبر في الصحف قبل بضعة أشهر فقلت: «نعم جزئياً، لكنّني بصدد النظر أيضاً في ما يجب عليّ القيام به بعد ذلك في مسيرتي المهنية وفي حياتي.»

فقال وقد بدا مندهشاً: «هل أنت تفكّرين في مغادرة مكتبة بيربونت مورغان؟»

فقلت: «هذا هو ما لا أعرفه، لكنّ السيّد مورغان قد أوصى ببقائي.»

«وهل ما زلت تحبين ذلك العمل؟ وهل تشعرين بأنّك تقدّمين مساهمة قيّمة للعالم؟ وأنّك تستطيعين بناء إرث من شأنه أن يفيد المزيد من الناس أكثر من الفائدة التي نلتها أنت، ووالدتك، وإخوتك فحسب؟ هل المسار الخاص بك له معنى؟»

«نعم، هي الإجابة عن جميع أسئلتك؛ فخطّتي تقوم على تحويل مكتبة بيربونت مورغان من مكتبة خاصة إلى مؤسسة عامة كي يرى الآلاف والآلاف من الناس جمال وأهمّية الكلمة المكتوبة التي طبعت باكراً، وأهمّية المطالعة والكتب كنقطة تساوٍ عظيمة تجمع بين كلّ البشر. لكنّني لا أعيش حياتي علانية –.» خفّضت من نبرة صوتي في ما يشبه الهمس، وقلت: «بوصفي امرأة صاحبة بشرة ملوّنة، أنا بدأت أتساءل عما إذا كان ينبغي عليّ أن أكون كذلك.» توقّفت وطرحت على بابا ذلك السؤال مباشرة: «هل يجب عليّ أن أفصح عن الحقيقة لأكون بمنزلة القدوة مثلما فعلت أنت؟ ومثلما كتبت في مقالك؟»

تنهّد وقال: «يا بيل، كل ما أردته لأطفالي هو إتاحة فرصة للتحليق، وعيش حياة ذات معنى، بغض النظر عن أصولهم؛ تلك كانت معركتي، لكن في مجتمعنا الحالي وبقوانيننا الحالية، يكفي أن تنجحي، وأن تكوني قادرة على متابعة شغفك في عملك، وأن تتركي لنا إرثاً سيفيد الجماهير، وفي يوم ما سيفيد عدداً وفيراً من أصحاب البشرة الملوّنة أيضاً. ويفطر قلبي أن أقول إنّني لا أعتقد أنك في الوقت الحالي يمكنك التوفيق في القيام بهذين الشيئين على حد سواء.»

اندهشت مما قال، فما أرشدني للقيام به لم يكن بالتوجيه الذي كنت أتوقّعه من الرجل الذي كرّس كلّ حياته من أجل تحقيق المساواة في الحقوق، وأنا عندما وصلت إلى مدينة شيكاغو اعتقدت أنني سأتخلى عن كوني بيضاء، وسأسمح بتبني عرق أسلافي، وأنّ ذلك هو المسار الذي بدأت أعدّه خياراً قابلاً للتطبيق بالنسبة إلي.

فقال والدي: «واصلي عملك ومهمّتك الفريدة يا بيل، واستمري في إنجاز كلّ تلك الأشياء العظيمة؛ لأنّ الوقت المناسب لم يحنْ بعدُ لتغيير المسار؛ فأنت واحدة من أهمّ أمناء المكتبات ومؤرخي الفنّ، وواحدة من أنجح النساء العصاميات، في هذه البلاد. والأهم الآن، بالنسبة إليك، هو أن تتركي إرثك الخاص الذي وصفته لي.»

انهمرت دموع مرتبكة في عيني؛ خليط من دموع الارتياح والدهشة، وقليل من خيبة الأمل. لقد كنت أتوقّع أن يساعدني بابا في فتح باب جديد، وكنت أتخيّل أنني، بفضل مشورته، سأستعيد ذاتي، لكنّه أغلق الباب بدلاً من ذلك. لقد أعطاني الإذن بأن أنجح وأزدهر بالاسم نفسه: بيل دا كوستا غرين.

«في يوم من الأيام يا بيل، سنكون قادرين على العودة إلى الوراء عقوداً من الزمن، وسنطالب بك واحدةً منا، وستكون إنجازاتك جزءاً من التاريخ؛ وستُظهِرُ تلك الإنجازات للبيض المشكّكين ما يمكن أن يفعله الأشخاص من أصحاب البشرة الملوّنة. وحتى ذلك الوقت، عيشي حياتك بفخر.» لاحت عليه ابتسامة مليئة بالحبّ والدفء، وأضاف: «أنا فخور جدّاً بك.»

فضغطت على يد بابا، ثمّ أغمضت عينيّ، محاولةً تذوّق كلماته، واستيعاب أمله.

الفصل السادس والثلاثون

يومي 10 و22 كانون الأول/ديسمبر 1913

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

أجبرتُ نفسي على أن أبقى صامتة بينما كنت أنتظر في بهو فندق بلمونت. لقد كنت بالبرود والصمت نفسه لأيّ تمثال رخاميّ في القسم اليوناني والروماني من متحف المتروبوليتان للفنون. اعتقدت أنّني يمكن أن أكون غير قادرة على الشعور مثل تلك التماثيل، أو هكذا سأبدو. هذا ما سأشعر به: البرود وعدم الإحساس.

ثم رأيته وهو يمشي أسفل الدرج الكبير مع ماري، وعندما اقتربا منّي تواصلت معها أوّلاً، فقلت: «كم جميل أن أراك مرّة أخرى»، وصحت كما لو أنّ اللقاء تمّ ترتيبه من قِبلنا نحن الاثنين.

فقالت بإطرائها السخيّ المعتاد: «تبدين أكثر جمالاً من أيّ وقت مضى يا بيل.»

فقلت: «جميلة مثلك.» على الرغم من أنّ ذلك لم يكن صحيحاً. لقد بدت ماري ثقيلة الظلّ، وربما أثقل ممّا رأيتها آخر مرّة ببشرة ندية شاحبة قليلاً، فهل كانت مريضة؟ لم يذكر برنارد ذلك لي في رسائله، ولكن، على أي حال، هو نادراً ما كان يناقش أمرها معي.

كان برنارد يرتدي بدلة رمادية أنيقة مصمّمة بشكل جيّد. أمّا عيناه فكانتا مشرقتين وذكيّتين مثل ما عهدتهما، وشعره ولحيته لا يزالان داكنين ومشذّبين قليلاً. عندما اقترب مني لألقاء قبلة الترحيب، فاحت منه رائحة خمر كريهة ونفّاذة للغاية.

تذكّرت وجباتنا الودية التي تناولناها أحدنا مع الآخر في رحلاتنا، وتناولنا معها قصص أصدقائنا المشتركين. أستطيع أن أسمع نفسي وأنا أتحدّث بشكل مريح بالطريقة نفسها غير المعقّدة، التي كنت أتحدّث بها حين كنت أصغر سنّاً، لكنّني الآن لست المرأة نفسها التي ضاجعها برنارد في إيطاليا.

وعندما حاولت تسليتهما بذكر قصّة تلك الحادثة العنيفة، التي وقعت لي في قرية غرينتش قبل بضعة أشهر، وأحداث تلك الليلة الصاخبة التي اختلط فيها مزيج غريب من صديقاتي اللاتي كنّ يدافعن عن حقّ الاقتراع، وكذلك رفقاء الفنّ، وكيف كنت على وشك الدخول في معارك مع مجموعة من مثيري الشغب، بصق برنارد وقال: «تلك الرفقة هي أقلّ من مستواك يا بيل. أنت تستحقين أفضل من مجموعة متنوّعة من المطربين والموسيقيين والفنّانين والناشطين السياسيين، الذين يقاتلون من أجل قضية لا معنى لها.»

لقد وجّهت إليه الحديث عن المساعي التي قمت بها في قرية غرينتش، وأنا كنت أعلم أنّها ستثير عداوته. كنت أريد منه أن يرى أنّنا نعيش الآن في مدارات مختلفة تماماً، وليس لدينا شيء مشترك في ما بيننا، وأنّه لا يوجد سبب لتتقاطع مساراتنا بأيّ طريقة أخرى غير المهنية منها.

فقلت، وأنا أوجّه إليه نظرة حادّة: «أعتقد أنّه يمكن لي أن أقرّر بنفسي أيّ رفقة هي تحت مستواي»، ثم أشعلت سيجارة، وأضفت: «على أيّ حال، لا تكنْ ضيّق الأفق يا برنارد، فهؤلاء النساء بصدد نحتِ حياة مستقلّة جديدة، حياةٍ لا تتطلّب حضور الرجال.»

صدرت عن ماري ضحكة شيطانية، وقالت: «آه من كيد النساء!»

واصلت كلامي: «سيتعيّن علينا التعوّد على سبل جديدة في التفكير في ما يخصّ الطريقة التي ندير بها حياتنا، والطريقة التي يتمّ بها إنشاء الفنّ أيضاً.» لقد كنت آمل أن يفهم أنّني بصدد إرسال رسالة إليه؛ وأنا لم أكن أتحدّث عن البوهيميين فحسب أو محبّي الفنّ الذين رأيتهم في معرض 291.

فقال: «ماذا تقصدين؟»، وبدت علامات العبوس على وجهه.

نفثت حلقة من الدخان نحو السقف، وقلت: «من المؤكد أنه يمكنك أن تتكهّن، من خلال قراءة الفنجان، أنّ الفنّ غير الموضوعي سيصبح هو السائد في هذا الزمن، وسيتعيّن علينا إيجاد طريقة للترحيب بالفنّ الحداثي الذي سيزيّن الجدران جنباً إلى جنب مع لوحات أسيادنا الإيطاليين المحبوبين في عصر النهضة. ألم تزر معرض الأسلحة بينما كنت هنا؟» لقد هزّ عرض بارك أفنيو المثير والصادم وقار عالم الفنّ في مدينة نيويورك، عندما افتُتح في وقت سابق من هذا العام، وتميّز بمعرض مثير للتفكير للأعمال الانطباعية والفاوفية والتكعيبية، بما في ذلك القطع المذهلة لبول سيزان، وفنسنت فان غوخ، ومارسيل دوشامب. كانت تجربة رؤية تلك المناظر الطبيعية والبورتريهات، من منظور جديد كلياً، مثيرة تماماً مثلما وقع لي أثناء الجلوس إلى جوار تيدي، حين أرعبتنا المشاهد المثيرة والصادمة لإحدى الصور الجديدة المعلّقة في أحد المنازل المذكورة في رواية (آخر أيام بومبي).

في هذه اللحظة المتوتّرة من الخلاف الفكري والفنّي، طلب مني برنارد الإذن بالمغادرة، وسار بعيداً، فقرّبت ماري كرسيها إلي، وهمست، على عكس عادة صوتها الذي كان يصم الآذان، وقالت: «هل لي أنّ أتكلّم معك بصراحة يا بيل؟»

ماذا يمكنني أن أقول غير نعم؟

فقالت: «أعلم أنّ الأمور انتهت بشكل سيّئ عندما كنت أنت وبرنارد معاً آخر مرّة.» تنفّست الصعداء وتعجّبت من مدى معرفتها بذلك الأمر.

واصلت حديثها: «لكنّني أعلم أيضاً أنّكما ما زلتما تتبادلان المشاعر أحدكما تجاه الآخر؛ فهو يخصّص ساعات في الأسبوع ليكتب إليك، ويقرأ رسائلك بشغف، كما كان يعدّ الأيام حتى رآك، ومنذ وصولنا كان يتباهى بك؛ فلا يوجد أحد يستطيع أن يحتل مكانك في قلبه. أرجوك امنحيه فرصة يا بيل، وإذا لم تكوني مستعدّة الآن، فربما ستكونين في أفضل حال عندما نعود من مدينة بوسطن الأسبوع المقبل. أليس كذلك؟»

كم كان غريباً أن أناقش أمر حبيبي السابق مع زوجته، وكم هو خاطئ في الآن نفسه، فقلت: «ليس مؤكداً أنّني أستطيع فعل ذلك يا ماري.»

«لا أعتقد يا بيل أنّك تدركين التأثير الذي كان لديك، وما زلت تتمتّعين به، على برنارد.» حاولت أن تضغط عليّ أكثر، فأضافت: «لقد تمكّنت من تسلق الجدار، وتسلّلت إلى قلبه؛ ذلك الجدار الذي بناه في شبابه وسيلةً للبقاء على قيد الحياة في عالم مليء بالميز العنصري لأشخاص مثله. لقد كان من الصعب عليه، حين كان فتى يافعاً قادماً من ليتوانيا، العيش في مدينة بوسطن. ومؤكّد لدي أنّه أخبرك بقصصه.»

ابتسمت، لكنّني لم أقل لها إنّني لا أعلم أمرَ تلك القصص.

فتابعت كلامها: «لكنّ ذلك الجدار لم يعد موجوداً بسببك. لقد وصلت إليه، وعندما غادرت، تحطّم. حتى عندما عدنا إلى إيطاليا بعد أسابيع لم يستطع أن يأكل أو ينام. ظلّ يقضي الساعات وهو ينظر من النافذة. لقد شجعته على ملاحقتك، لكنّه قال إنّك مستاءة جدّاً منه؛ لأنّه لم يأتِ إلى لندن.»

هل يمكنها أن تفهم مدى المعاناة التي تسبّب فيها زوجها لي؟

تابعت حديثها: «لقد بقي في باريس؛ لأنّه لم يكن يعرف كيفية التعامل مع الكثير من تلك العاطفة، لكنّه منذ ذلك الحين يا بيل -.»

قاطعتها وقلت: «أنا أشكّ في أنّه كان متلهفاً لرؤيتي على مدى السنوات الثلاث الماضية يا ماري. لقد سمعت أنّه كان يواسي نفسه مع صديقته الجديدة: إديث وارتون.»

ارتعدت فرائص ماري عند ذكري اسم إديث، لكنّ انزعاجها لم يمنعني من مواصلة الحديث، فأضفت: «بالإضافة إلى معاشرته العديد من النساء الأخريات.» لم أشأ أن تعتقد ماري، أو برنارد، أنّني مازلت ساذجة.

قالت: «أنت يا بيل، من بين جميع الناس، تعلمين أنّ النساء الأخريات والرجال الآخرين-.» أخذت تحدّق فيّ طويلاً لتتيح لي معرفة أنّهما طالعا أعمدة الشائعات، ثم أضافت: «يمكن أن يكونوا بمنزلة وسيلة لإبعادك عن مشاعرك الحقيقية.»

صافحتني بيدها وضغطت بشدّة، وقالت: «إنّ إديث لا تعني له أيّ شيء، لكنّك تعنين له الكثير. عديني بأنّك ستعطينه فرصة أخرى؟»

*****

لقد كنت أحدّق في برنارد بينما كان نائماً، ثم عبّرت لماري عن شكري لكرمها وحكمتها لا لأنّني هنا معه الآن فحسب، بل لأنّ تلك الأيام الثلاثة الماضية سمحت لي بأن أفهم برنارد، والدور الذي رسمته له في حياتي.

عندما عادت ماري وبرنارد إلى مدينة نيويورك قبل ثلاثة أيام، بعد الأسبوع الذي قضياه في مدينة بوسطن، سمحت لبرنارد أوّلاً بمرافقتي إلى مسرح شوبرت الجديد؛ حيث شاهدنا مسرحية جورج برنارد شو (قيصر وكليوباترا)، ثم قمنا بالتجوّل في أرجاء قاعات متحف المتروبوليتان في فترة ما بعد الظهر. وفي هاتين المناسبتين، تجلّت لي بعض الحقائق؛ لقد أدركت أنّه لم يكن عليّ إقامة حاجز حول نفسي مثل ذلك الذي بنيته في أوّل لقاء لي مع برنارد وماري؛ لأنّني لم أعد مضطرّة إلى حماية نفسي منه؛ فأنا لم أعد أشعر، أثناء حضوره، بتأثير العاطفة والشوق إليه نفسه؛ تلك المشاعر التي

استبدلت بها علاقة مصاحبة تستند إلى رؤيتنا المشتركة للعالم بوصفنا غرباء في عالم منعزل، ويسودها احترام عميق لذكائه ومعرفته الفنّية، والكثير من الضحك والهزل.

الآن، وأنا أحدّق في وجهه وشعره الأشعث، أستطيع أن أراه حقاً كما لو أنّني ألتقيه لأوّل مرّة، وأرى الإنسان المعيب الذي يمثّله؛ إنّه رجل يخشى العلاقات الحميمة؛ لأنّه كان يعيش خلف شخصية خلقها لحماية نفسه من نبذ المجتمع، الذي شعر به -لا شك- منذ شبابه، وبالتأكيد خلال سنوات نضجه. بسبب ذلك، لا يمكنه السماح لأي شخص بالاقتراب منه وإن كنتُ أنا هذا الشخص. كنت أشكّ في ذلك منذ إشارة السيّد مورغان إلى برنارد بوصفه يهودياً، وهو شكّ تمّ تأكيده بالكلمات الروسية التي نطق بها برنارد خلال ليلتنا الأولى معاً، لكنّني لم أتفطن إلى ذلك إلا حينما ذكرت لي ماري الأحكام المسبقة التي عانى منها برنارد، عندما كان طفلاً؛ لأنّه كان ليتوانياً. كنت أعلم على وجه اليقين أنّه لم يولد في مدينة بوسطن، ولم يكن من نخب البراهمة من حيث النشأة مثلما كان يدّعي.

هل كان برنارد يدرك أنّه الوحيد الذي يعتقد أنّ تراثه اليهودي بمنزلة السرّ الكامل؟ لا أستطيع أن ألومه لمحاولة إخفائه هويّته، حتى وإن كانت تداعيات اكتشافه ستكون أقل أهمّية مما سيكون بالنسبة إلي. هذا يُعدُّ رعباً لا يمكنني السماح لنفسي بتخيّله بشكل كامل.

فتح برنارد عينيه، وقال: «صباح الخير»، ثم قبلني.

استمتعت بالإحساس بشفتيه وهما تلثمان شفتي، لكنّ تلك الأيام التي قضيتها مع برنارد أثبتت لي أنّني تخلّصت من نفوذه. لقد أصبحتُ حرّةً، على الرغم من أنّ هذه الحرية لا تعني أنّني أريد منعه كلّياً من مشاركته حياتي. سأدعوه دائماً للدخول فيها، وأستمتع به بما له من مهارة العاشق، لكن وفقاً لشروطي.

قلت: «هل يمكننا حقّاً تدبّر أمر علاقتنا؟»، وخلّصت نفسي من الملاءات، وجلست على السرير.

أغمض زوايا عينيه، ولفّني بذراعيه، ومنحني بخفّة العديد من القبلات على رقبتي. عندما أغمضت عيني، وملت برأسي إلى الخلف، تخيّلت مرّة أخرى مدى امتناني لوجودي في سريره.

بحلول الوقت، الذي تناولنا فيه العشاء معاً، مساء أمس، كنا نحن الاثنان فقط في قاعة خاصة في مطعم الديلمونيكو، وكنت على استعداد للسماح له بإغرائي بالفنّ كما كان يفعل من قبل. وبالإضافة إلى شراب البورجوندي وأكل المحار وشرائح لحم الضأن، سمحت له بإغوائي باعترافه بموقفه من عدد قليل من الرسّامين المعاصرين، الذين كان معجباً بهم، والرسّام غوستاف كليمت الذي كان من بينهم. لقد سمحت له بأنّ يجذبني بأوصافه الضعيفة للمسات كليمت بالريشة، واستخدامه أوراق الذهب والفسيفساء. استسلمت لأوصافه المغرية لكيفية التقاط كليمت الشكلَ الأنثوي المثير في فنّه. وبحلول الوقت، الذي انتهى فيه العشاء، كنت على استعداد للعودة معه إلى غرفته في فندق ويبستر. هناك استمتعت بمهاراته وسحره، وأدركت أنّه كان يفهم جسدي واحتياجاتي المادية أكثر من أيّ أحد آخر. كما استسلمت للمساته وهمساته، وشعرت كما لو أنّني كنت قد عدت إلى منزلي، لكنّني في هذه المرّة، على الرغم من أنّني انتهى بي الأمر في سريره، كنت أعلم أنّني لن أتأذى عاطفياً من قبل برنارد مرّة أخرى.

فهمس برنارد أخيراً في أذني وقال: «أظنّ أنّه يمكننا تدبّر أمر علاقتنا، فما الذي يمنعنا من فعل ذلك؟» دغدغت أصابعه ظهري العاري، فارتجفت.

قرّرت الابتعاد عنه كي أستطيع أن أتكلّم معه، وقلت: «ليس مؤكّداً لدي أنّ أيّ اثنين قد نجحا في القيام بهذا التحدّي من قبل.»

قال: «لكنّنا لسنا مجرّد اثنين»، ثم قام بمسك خصلة طويلة من شعري كانت ممتدّة خلف ظهري، ولفها حول إصبعه.

فقلت: «أعتقد أنّ ذلك صحيح.»

«سأكتب إليك الرسائل بشكل يومي، وسيبقى تواصلنا قويّاً، وأنت ستكتبين إليّ بقدر ما سيسمح لك عملك في مكتبة بيربونت مورغان. لقد استمتعت بقراءة تلك الرسائل التي كانت تشبه دفتر اليوميات. لقد جعلتني أشعر كما لو أنّني كنت معك طوال اليوم. يمكنك التحدّث عن الرسّامين المعاصرين الذين يعجبونك، وسأعترف لك بأنّ أعمال السيّد كليمت لها جاذبية خاصة بالنسبة إلي، فاستعماله للذهب يشبه، في نهاية المطاف، فنّ عصر النهضة.» ابتسمنا أحدنا للآخر. لقد استمتعت أنا وبرنارد بمحادثاتنا العاطفية حول عالم الفنّ المتغيّر.

فقلت: «يبدو اقتراحك معقولاً، فهل تعدني بأنّك لن تشعر بالغيرة من عملي عندما لا أستطيع الردّ على رسائلك رسالة برسالة؟»

قال بلا تردّد: «أعدك.»

«وعندما نكون معاً سنكون ملتزمين تماماً أحدنا بالآخر.»

فقال: «سنلتزم حصرياً أحدنا بالآخر»، وأطلق الخصلة من إصبعه، ولفّه بخصلة أخرى.

قلت: «ولكن عندما نكون منفصلين سنكون أحراراً في متابعة عواطفنا، سواء أكانت ستأخذ شكل العمل أم شكل المتعة.»

فقال: «حسناً. ما دمت تصرّين على ذلك.» ذكّرني بأنّه بصدد مناقشتي من أجل بلوغ التزام أكثر حزماً بيننا، فرفضت مشيرة إلى أنّ الإخلاص السابق في غرامنا قد تسبّب لنا فحسب في الفتنة وانعدام الأمان، سواء أكان خاصاً أم معبَّراً عنه في رسائلنا، في الماضي، وأنّنا بصدد مناقشة اتفاق جديد كلياً. لقد رضخ لهذا الترتيب الذي كان أكثر مرونة.

بيّنت له، مثلما أشرت في العديد من المرّات السابقة، فقلت: «أيّ مسار آخر سيكون محكوماً عليه بالفشل.»

فقال: «ونحن لا نريد الفشل.» قبّل أسفل ظهري وأضاف: «سنكون موجودين ضمن الرسائل و - .»

أنهيت جملته عوضاً عنه فقلت: «وفي المواعيد الغرامية»، وارتميت في حضنه الذي كان ينتظرني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع والثلاثون

23 كانون الأول/ديسمبر1913

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

سمعت الأبواب البرونزية الثقيلة للمكتبة وهي تغلق بصوتٍ عالٍ، فمن تُراه يكون قد أغلقها؟ لقد كنت وحدي هناك، باستثناء وجود حارسة الأمن، ولم يكن جدول أعمالي يحتوي على أيّ مواعيد لفترة ما بعد الظهر. في الواقع، كنت قد ألغيت كلّ المواعيد المبرمجة استعداداً لاستقبال عودة جاك من أوروبا غداً.

نهضت من مكتبي، وعبرت نحو البهو، وبمجرّد خروجي اصطدمت بجاك، فقلت: «يا لها من مفاجأة سارة.» لقد كنت قد خطّطت للعمل طوال فترة ما بعد الظهر والمساء تحسّباً للقائي الصباحي مع جاك لمّا كنت قضيت الأيام السابقة برفقة برنارد. والآن، أنا قلقة من أن يغرقني جاك مباشرة في المسائل التجارية، التي لست على استعداد تام للخوض فيها، فأضفت: «لم أكن أتوقّع عودتك إلى المكتبة إلا في صباح الغد.»

قال جاك: «لقد رست باخرة الأوسيانيك للتو، فخطر في بالي أنا وجيسي أنّنا يجب أن نأتي إلى المكتبة على الفور لرؤيتك.» لقد كان هناك بريق في عينيه يومض من تحت حاجبيه الغامقين، وللحظة شدّني التشابه الصارخ، وزاد خفقان قلبي، فهو صورة مطابقة لوالده.

حاولت التركيز مع الموقف الذي كان بين يديّ. لماذا يحتاج ابن مورغان إلى رؤيتي؟ لماذا يزورني بمجرّد نزوله من الباخرة بعد انتهاء مهمّته السنوية في لندن؟ توقّعت إمّا أن تكون الأخبار هائلة وإما أن تكون كارثية.

فقلت بنبرة حلوة مرّة من وقع التذكّر: «لقد كان والدك معتاداً على القيام بالشيء نفسه.»

قال: «أعلم ذلك»، وربت على يدي. لقد كان متفهّماً مدى صعوبة تقبّلي وفاة السيّد مورغان، وتأثيرها عليّ؛ ومستوعباً للحزن المشترك الذي يربطنا معاً، ثم أضاف: «أعتقد أنّني أقوم بالشيء نفسه للأسباب نفسها المطروحة أمامنا اليوم.»

ثم سمعت قعقعة كعب حذاء زوجة جاك، وهي تعبر القاعة المستديرة. قابلني وجهها الحلو الذي لا يزال جميلاً، بالرغم من ترهّلات الأمومة بعد إنجاب أربعة أطفال، ومرور أكثر من عشرين عاماً على زواجها. ألقت نظرة خاطفة على مكتبي بوجهها المشرق. لقد كان هذان الزوجان من عشّاق الإنجليز واللغة الإنجليزية حتى النخاع في جوهر سلوكهما، وطريقة تعاملهما ومصالحهما، وذلك يعود لا إلى أنّهما عاشا في لندن لسنوات عديدة فحسب، بل لأنّهما مخلصان أحدهما للآخر. وبعد أن توفي السيّد مورغان، وأصبح جاك لاعباً أساسياً في المكتبة، لاحظت مدى مشاركة جيسي في كلّ جانب من جوانب حياته. لقد كانت تزوّده بتوجيه ودعم حازمين ونهائيين عندما يحتاج إليها، كما كانت تردم الهوّة التي كانت في قلبه والتي خلّفها حكم والده.

قالت جيسي: «أوه يا بيل، نحن سعداء جداً لرؤيتك.» لقد كانت في صوتها لكنة إنجليزية بريطانية شبه طاغية على لهجتها بعد قضائها شهوراً عديدة في الخارج، وكانت ترتدي فستانَ سفر أزرق متناسقاً مع قدّها الممشوق المذهل، لا بد من أنّها كانت مواكبة لأحدث صيحات الموضة في لندن.

قلت لها وأنا أحضنها: «أنا سعيدة لرؤيتكما على حدّ سواء. لقد مرّت ثلاثة أشهر طويلة جدّاً على غيابكما.»

سألتني جيسي، وقد بدا تألق عينيها، التي كانت بلون الزبرجد الناعم: «هل كنت متعطّشة لسماع الأخبار التي كنا نذكرها عنك عندما كنا بعيداً؟»

فأجبتها: «ليس أكثر من المعتاد.»

فقالت: «لقد كان اسمك يتردّد على شفاه الجميع في لندن.»

قلت وقد بدت عليّ علامات الدهشة: «اسمي؟»، فأنا لم أذهب إلى لندن منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، ومن المؤكّد أنّ أخباراً أكثر إشعاعاً قد حدثت في تلك الأثناء.

فقال جاك بتناغم مع زوجته: «بلى، لقد أخبرنا جميع الرجال في عالم الفنّ والكتاب عن مدى تفكيرهم فيك، كما أجمع أغلب أمناء المكتبات والتجّار والخبراء على أنّك أنشأت مجموعة رائعة لوالدي هنا في المكتبة.»

قلت: «كم هو جميل أن أسمع ذلك، فأنت تعلم أنّه يعني لي الكثير أنّني كرّمت والدك خلال حياته والآن.»

احتجّت جيسي وقالت: «آه، يا بيل، يمكننا القول إنّ تشارلز ريد هدّدنا تقريباً في إحدى مآدب العشاء بخطفك بعيداً عنا، وأعتقد أنّه يرغب في إحضارك إلى إنجلترا للعمل معه في المتحف البريطاني.»

لقد شعرت بالإطراء؛ لأنّ أمين المتحف المحترم للغاية، المكلّف بحماية قسم الآثار البريطانية وآثار العصور الوسطى، عبّر عن مثل ذلك الاهتمام بي، حتى لو كان مجرّد ثرثرة أثناء مأدبة عشاء.

فأضاف جاك بجدّية: «وهو لم يكن الوحيد الذي قال ذلك يا بيل»، ثمّ أخذا ينظران أحدهما إلى الآخر كما لو أنّهما كانا قد تدرّبا على تمثيل هذه المحادثة، وهو الآن بصدد دفعها إلى قول الجملة التالية.

بدا وجه جيسي متجهّماً أيضاً فقالت: «لا يمكننا أن نسمح بذلك. أليس كذلك يا جاك؟ يجب أن نحافظ على بيل معنا.»

نظرت إلى كليهما، وتعجّبت مما يجري.

قال جاك وهو ينظر إلى جيسي نظرة ذات معنى خاص: «لذلك أنا -أقصد نحن- فكّرنا في الأمر كثيراً. لقد كنتِ واضحةً جدّاً في رغبتك في الحفاظ على سلامة مجموعات مورغان، وهذا أمر نفهمه ونقدّره، وهو أيضاً كان هدف والدي. في حين أنّنا مازلنا نشعر بأنّنا بحاجة إلى معالجة ممارسة والدي المرفوضة إلى حدّ ما، والمشكلة المتمثّلة في الاحتفاظ بما يصل إلى ثلثي رأس مال العائلة في الأعمال الفنّية. ربما لا يتعيّن علينا التخلّص من المجموعة الموجودة هنا في المكتبة. يبدو أنّ مكتبة بيربونت مورغان تُعدّ مهمّة للغاية، لما تمتلكه من كتب ومخطوطات نادرة خاصةً.»

فقلت من دون تفكير: «وهل تنوي فعل ذلك حقاً؟» لقد كنت أتوسّل إليه، بطبيعة الحال، للقيام بذلك منذ شهور، وقد استغرق منه الأمر انتظار أن تقنعه قاعة تعجّ بالنبلاء من البريطانيين لإقناعه بأنّني على حق.

فقال جاك: «نعم. سيتعيّن علينا بيع أجزاء معيّنة من مقتنيات أبي، والكثير منها لم يتمّ الاحتفاظ به هنا في المكتبة، وبعضها سبق حتى التحاقك بوظيفتك هنا أمينةً للمكتبة.»

شعرت بتوتّر جسدي، فعلى الرغم من أنّني لا أملك أياً من الأشياء الموجودة في المكتبة، أو في منازل السيّد مورغان، أو تلك التي تُركت على سبيل الإعارة للمتاحف، أشعر بشعور معيّن بالفخر والملكية تجاهها؛ فأخذت أبتهل بالدعاء والصلاة بصمت لأن تنجو أعزّ التحف علي، ولاسيما تلك النسخ المطبوعة في عصر بدايات اختراع آلة الطباعة، والمخطوطات التي تسرد معها تاريخ الكلمة المكتوبة، وقدرتها على رفع مستوى الإنسانية من المقصلة. فقلت: «وما هي العناصر التي خطرت في بالك؟»

فقال: «لقد درست جرد المخزون الذي أعددته أثناء وجودنا في لندن، ويبدو أن مجموعة القطع الخزفية الصينية المعروضة حالياً في متحف الميتروبوليتان للفنون تبدو بطبيعة الحال في أوّل القائمة.»

تنفّست الصعداء ببطء، على أمل ألا يكون تعبيري عن الارتياح مسموعاً. لقد كانت تلك المجموعة تضمّ أربعة آلاف قطعة، والعديد من مزهريات أسرة مينغ كانت من بينها، وهي رائعة بالفعل، لكنّها كانت، إلى حدّ كبير، مشروعاً أراد السيّد مورغان أن يحتفظ به لنفسه. وبالرغم من أنّني كنت أتمنى أن يحافظ جاك عليها من أجل السيّد مورغان، كانت المجموعة كبيرة للغاية بالنسبة إلى عائلة واحدة، والحقيقة أنه ليس في وسع متحف واحد حتى جمعُها؛ فأنا أذكر أنّني رأيت ما يُؤسَف له خلال إحدى زياراتي إلى المتحف؛ رأيت قطعاً منها متروكة بعيداً في إحدى غرف التخزين في الطابق السفلي؛ لأنَ متحف الميتروبوليتان لم تكن لديه مساحة كافية حتى لعرض المجموعة بشكل صحيح في مجملها.

فقلت: «هذا خيار منطقي يا سيّدي، وأعتقد أنّها يمكن أن تدرّ عليك ما يصل إلى مبلغ ثلاثة ملايين دولار.»

اتسعت عيناه وقال: «حسناً، هذا المبلغ سيقطع شوطاً طويلاً في دفع المبالغ المخلّدة في ذمتنا إلى السلطات الضريبية.»

سألته: «وهل لديك أيّ أفكار أوّلية أخرى؟» لقد كنت أريد أن أعدّ نفسي في صورة ما إذا كان جاك يستهدف أيّ عنصر آخر ذي قيمة خاصة بالنسبة إلي.

سألني: «ماذا عن لوحات فراغونار؟»

لقد اشترى السيّد مورغان تحفة جان أونوريه فراغونار الفنّية، وهي سلسلة تتكوّن من إحدى عشرة لوحة مرسومة بعنوان «تطوّر الحبّ»، قام فراغونار برسمها بتكليف من آخر عشيقة للملك الفرنسي لويس الرابع عشر، التي

أرادت أن تحتفل بمراحل الحبّ المختلفة، وأنشأ لها السيد مورغان قاعة خاصة لإيوائها في لندن، وأنا لم يسبق لي أن رأيت تلك اللوحات، وليس لدي أي شعور خاص تجاهها. بناء على ذلك، سأكون مرتاحة لرؤيتها في قائمة البيع على ألا أرى بعض كنوزي المفضّلة تباع، فقلت: «خيار آخر جيّد. أعتقد أنّنا يمكن أن نجني من بيعها أكثر من مليون دولار.»

فقال، بعد أن أصدر صافرة منخفضة، ورسم ابتسامة عريضة: «هل أنت مسرورة يا بيل؟»

قلت وأنا أعني ذلك: «أشعر بسعادة غامرة»، فمجموعة مكتبة بيربونت مورغان، والإرث الذي أنشأته أنا والسيّد مورغان معاً، كل ذلك سيبقى سليماً، وهذه خطوة أساسية في خلق المعنى الأكبر الذي ناقشته مع والدي.

ابتسم جاك وجيسي من ردّ فعلي، ثم قال: «أنا سعيد لسماع ذلك. سنحافظ على المجموعة الأساسية هنا، بما في ذلك الكتب والمخطوطات، والكنوز التي ترينها الأكثر أهمّية.»

آلمني خداي من كثرة الابتسام، على الرغم من أنّني كنت سأرثي بيع أيّ قطعة من الأعمال الفنّية حصلنا عليها أنا والسيّد مورغان، إلا أنّ فكرة أنّني سأكون قادرة على الحفاظ على الكثير من مجموعة المكتبة جعلتني أشعر بالخلاص، فقلت: «لا أستطيع إلا أن أشكرك—.» قاطعني صوت مألوف كان ينادي بالخارج: «جاك، جيسي! أين أنتما؟»

نادى جاك أخته: «نحن في مكتب بيل!»

اقتحمت آن القاعة بخطاها المتثاقلة الاعتيادية، وقالت من دون مقدّمات: «لقد ذهبت إلى منزلك لأرحّب بعودتك إلى الوطن، لكنّني سمعت أنّك أتيت إلى هنا أوّلاً، ولا أدري ما غايتك من القيام بذلك؟»

لم تكترث بتحيّتي، بل اكتفت بعناق حار لشقيقها وزوجته.

فقال جاك: «لقد كان لدينا بعض الأخبار السارة لبيل، ولم نرغب في الانتظار لتبشيرها بها.»

التفتت آن إليّ كما لو أنّها لاحظت وجودي في مكتبي للتو. وعلى الرغم من أنّ عينيها كانتا تحدّقان فيّ، كانت تخاطب شقيقها، فقالت: «ألا يمكن أن تنتظر تلك الأخبار إلى الغد؟ فأنتما وصلتما للتو من رحلة عبر المحيط الأطلسي.»

ابتسم جاك بثبات. لقد كان سعيداً بخطّته، فذلك كان كلّ ما يفكر فيه؛ لأنّ بيع تلك التحف الفنّية سيمكّنه من جمع الأموال التي يحتاج إليها لدفع الضرائب، والحفاظ على تجارته، وامتلاكه أكثر سيولة مالية ممكنة. أما الحفاظ على سلامة المكتبة، فسيمكّنه، إلى حدّ كبير، من المحافظة على سمعة مورغان ناصعةً في عالم جمع التحف النادرة.

أخذ جاك يشرح لآن كيف ستبقى المكتبة على قيد الحياة، وكذلك مكانتي فيها حارسةً للكتب والمخطوطات، فقال: «سنبقي بيل على رأس إدارة المكتبة، وهذا سيكون بمنزلة تحيّة إجلال وعرفان لائقة بوالدنا. أنت تعلمين أنّ ما كان يجلب لأبي أعمق متعة وسعادة هو قراءة أصوات الماضي، وجمع الكتب، ولمس الحروف والوثائق النادرة.»

لقد كان جاك على حق؛ لأنّ تلك المحادثة الحميمية مع الماضي هي التي وطّدت العلاقة بيني وبين السيّد مورغان؛ فكل كتاب في المكتبة يحتوي على عالم من الشخصيات والقصص والتاريخ. ونحن كنا نشترك في الفضول نفسه الذي لا ينضب، فكلما قرأنا أكثر زاد فهمنا لهذا العالم الذي نعيش فيه، وزادت معه أسئلتنا.

تساءلت عما إذا كانت آن تفكّر فيما إذا كان هناك أيّ طريقة للتغلّب على قرار شقيقها، لكنّها كانت تعلم أنّ وصيّة والدها تركت ذلك القرار بالكامل لجاك. كانت وصيّة والدها قد منحتها مبلغ ثلاثة ملايين دولار، إلا أنّها لم

تمنحها أيّ صلاحيات أو قوّة، لكنّ غياب الصلاحيات والنفوذ لم يوقف آن أبداً.

من الغريب أنّني رأيتها هادئة جدّاً، فهل ذلك كان يشير إلى الهدوء الذي يسبق العاصفة، وأنّ تحفّظها كان يخفي غضباً شديداً إلى درجة أنّها لم تجرؤ على التعبير عنه أمام شقيقها؟

تدخلت جيسي، عندما استشعرت تزايد منسوب الحرج، وقادت جاك بعيداً وهي تقول: «حسناً يا حبيبي، لقد بلّغنا الأخبار، أَلا يجدر بنا العودة إلى المنزل، وأن نستعد لتناول العشاء؟»

ردّ جاك: «حسناً، يا حبيبتي»، ثم التفت إلى أخته وقال: «هل ستأتين معنا؟»

ردّت آن: «سألتحق بكما، لكنّني أودّ قول كلمة لبيل على حدة أوّلاً.»

بعد انقضاء موجة من التوديع وتعابير الامتنان، بقينا وحدنا أنا وآن. لقد رأيتها أربع مرّات فقط منذ الجنازة، وفي كل مناسبة، أخبرتني أنّ وفاة والدها لم تغيّر شيئاً بيننا، مصرّحةً باستنكارها ورفضها الواضح لي.

بدأت آن حديثها: «لن أتظاهر بأنّني معجبة بك يا بيل، فأنا أعتقد أنّك كنت تتحكّمين في والدي مثلما تلفّين خاتمك حول إصبعك الصغير، وأنا لا أحب ما حوّلته إليه خلال سنواته الأخيرة.»

ضحكتُ، على الرغم من أنّ قلبي كان ينبض بقوّة، وقلت: «آن. أعتقد أنّك تعلمين أنه لا أحد يمكنه التلاعب بوالدك. لقد كان يتمتّع بقوّة أشبه بقوى الطبيعة، وقد عيّنني ببساطة للقيام بمزايداته، ولأنوب عنه في بعض المزادات العلنية.»

ضحكت آن بدورها، وقالت: «لا تظنّي أنّني غبية يا بيل. لقد وجدتِ وسيلةً ما لإخضاع والدي لإرادتك، في حين لم يستطع أيّ أحد آخر فعل ذلك.»

فجأة فهمت السبب الذي جعل آن تكرهني بشدّة. الأمر لا يعود إلى أنّني أخذت الجزء الأكبر من وقت والدها؛ لأنّ آن، في حدّ ذاتها، منشغلة في الحقيقة بحياتها الشخصية الصاخبة، ما لم يسمح لها بتخصيص مساحة صغيرة لأبيها، بل يعود إلى اقتناعها بأنّ لديّ القدرة على التأثير في ذلك الرجل العظيم، وهو أمر لم تكن هي قادرة على فعله أبداً، سواء من خلال كفاحها في الحركة السياسية من أجل حقّ المرأة في التصويت أم من خلال دعمها للعاملات المضربات من أجل تحسين ظروف العمل في المصنع أثناء إضراب القمصان العظيم الذي حدث قبل ثلاث سنوات.

فقالت آن: «لكنّ هذا ليس له تأثير فيما أريد أن أخبرك به.» تمدّد صدرها العظيم؛ لأنّها أخذت نفساً عميقاً، وبدا بوضوح أنّ كل ما تحتاج إلى الكشف عنه كان يثقل كاهلها، فقالت بنبرة أكثر ليونة: «لقد استوعبت أنّك أصحبت صديقة لبيسي.»

أجبتها: «لا أدري إن كان يمكنني القول إنّنا أصبحنا صديقات. لقد التقينا إحدانا بالأخرى في عدّة مناسبات، وبيسي كانت دائماً ودّية معي.»

قالت: «ألا تعلمين أنّ والدي كان يكره بيسي؟» لقد فاجأني التغيّر في لهجتها وفي مجرى الحديث، ولم تعطني حتى الوقت للرّد، بل استمرت وقالت: «لقد شاركت بيسي قبل عامين من وفاة والدي في مسابقة لنيل وسام الشرف الفرنسي.» بدأت آن تشرح لي على الرغم من الحزن الذي رافق نبرة صوتها، لكنّني سمعت مدى فخرها حين أضافت: «لقد شاركت لأنّها كانت تمثّل الكتّاب المسرحيين الفرنسيين، وكانت جائزة مستحقّة لها بلا جدال، لكنّ والدي قام بكلّ ما في وسعه للتأكّد من أنّها لن تحصل عليها.»

هذا الحدث لم أكن أعرفه من قبل.

قالت آن: «لقد كان ذلك الأمر بمنزلة طريقته في معاقبة بيسي على الشكوك التي كانت تنتابه بشأني وبشأن علاقتي بها. لقد كان يلقى اللوم عليها، وأراد أن يعاقبني لعدم كوني الابنة التي يريدها مثل جولييت أو لويزا.» لقد أخبرني تعبيرها المدمّر عنها وعن حبّها لبيسي أكثر من أيّ إعلان صريح يمكن أن تقدّمه لي.

اندهشت من ذلك الخبر، في حين كان لا ينبغي عليّ أن أكون كذلك. لقد كانت مدوّنة أخلاق السيّد مورغان صارمة ومن الطراز القديم، حتى وإن لم يكن سلوكه كذلك؛ فهو لم يكن ليتسامح أبداً مع صدور مثل ذلك السلوك عن أيٍّ من أبنائه، فذلك أمر لا يمكنه حتى تصوّره.

للحظة عدت إلى الوراء، وتذكّرت اليوم الذي كدت فيه أعترف بعرقي عندما اعتقدت أنّ السيّد مورغان قد اكتشف خداعي. وسماع قصّة آن وبيسي تلك جعلني أتساءل عما كان سيفعله لو علم بالحقيقة، وأصبحت تلك المعلومات علنية، فأيّ نوع من العقوبات كان سيفرضه عليّ؟ أنا أعلم الآن أنّني لن أستطيع الهرب منه من دون أن أسلم من أذاه.

ثم حاصرتني أسئلة جديدة؛ فإذا كان السيّد مورغان يعلم قصّة آن فلماذا سمحت لي بتهديدها بما اعتقدت أنّه سرّ؟ أجابتني آن عن أسئلتي قبل حتى أن أنهي طرحها، فقالت: «إذا كنت قد قلت له شيئاً عني وعن بيسي، وأخبرته، على سبيل المثال، أنّنا تقاسمنا الحجرة نفسها في الباخرة، فربما كان سيشعر بأنّه بحاجة إلى اتخاذ مزيد من الإجراءات؛ لأنّه لا يريد أن تصبح الحقيقة عني علنية فيعلمها الناس عامةً. وأنا لم أستطع تحمّل معاقبة بيسي أكثر على آثامي.»

فقلت: «أنا آسفة يا آن، فأنا لم أكن أعلم بذلك.»

استمرت آن في حديثها من دون حتى الاعتراف باعتذاري: «على الرغم من أنّني أنا ووالدي لم نتقابل وجهاً لوجه، كنت أحبّه بغض النظر عن سقوطنا أنا وبيسي في الرذيلة، وبغض النظر عما كان يعتقده عني.»

قلت: «لقد كان يحبّك أيضاً.» شعرت كما لو أنّني يجب أن أقول لها ذلك، وهو صحيح في العموم؛ لقد كان يحبّها، لكن على طريقته.

بعد أن استوقفتها، استأنفت الكلام، فقالت: «أفترض ذلك، لكنّه ترك لي ما يكفي من المال لأعيش حياتي وأدعم قضاياي من دون الحاجة إلى اللجوء إلى الزواج، وأنا مدينة له بذلك»

أومأت لها برأسي.

فقالت: «على أي حال، إنّ بيسي تعتقد أنّني قد أخطأت فهمك. وبطبيعة الحال، أنا أختلف معها في أغلب المسائل.» هنا صدرت عنها شبه ابتسامة؛ أَكانت تريد مضايقتي بتلك الابتسامة أم أنّ ابتسامتها كانت تحمل رسالة مختلفة؟ ثم تحوّلت ابتسامتها إلى تنهيدة وقالت: «هناك شيء واحد أودّ أن أعرفه يا بيل. فبالرغم من اختلافي العام مع والدي في وجهات نظرنا السياسية والاجتماعية، لا يمكنني الحفاظ على شعلة إرث والدي حيّة، حتى لو أردت ذلك»، ثم توقّفت قليلاً وأضافت: «لكنّك أنت استطعت الحفاظ عليها بفضل خبرتك وولائك لرؤيته.»

اتسعت عيناي من الدهشة.

أخذت آن نفساً عميقاً قبل أن تستمر: «ومن ثَمَّ، أريدك أن تعلمي أنّني أدعمك أمينةً لمكتبة بيربونت مورغان»، وبعد ذلك ابتسمت بتكلّف وأضافت: «بغضّ النظر عن أصولك، فأنا لا يهمني من تكونين حقاً.»

على الرغم من أنّني كنت أدرك أنّه لا ينبغي عليّ أن أسألها؛ لأنّ كل شيء في داخلي كان يأمرني بأن أدع الحديث ينتهي عند هذا الحدّ، كان لزاماً عليّ

أن أعرف، فسألتها: «كيف عرفت أصولي؟ من وشى بي، أو ما الذي أفشى سرّي؟»

توقّفت مؤقتاً عن الكلام إلى أن ظهر تعبير اعتذاريّ على وجهها الصارم، وقالت: «حتى هذه اللحظة، كنت أشكّ فحسب. أنت من أكّد لي ذلك الآن.»

توقّفت أنفاسي عند حلقي، وتساءلت: ماذا فعلت؟ هل كانت كلّ تلك الثرثرة مجرّد طعم إلى أن أقع في فخّها وأعترف بأصولي الحقيقية؟ هل كانت تغريني فقط لتدمّرني؟

ثم تحدّثت بصوت ليّن: «لا تقلقي يا بيل. أعلم كم هو مؤلم أن يحكم عليك بناء مجتمع لا معنى له، وأن يكون سبباً في أن تعيشي وفي داخلك سرّ مؤلم. لم يتمكّن أيٌّ منا من العيش علانية بذواتنا الحقيقية، وأنا آسفة للدور الذي أديته في تهديدك بهويتك المخفية. آمل أن نتمكّن من الحفاظ على أسرارنا من هنا فصاعداً.»

على الرغم من أنّ السيّد مورغان لم يعد بيننا الآن، أفترض أنّ آن، حتى لو كان على قيد الحياة، ستظلّ تحافظ على خصوصية حياتها، تماماً كما أحتاج مثلها إلى حماية سرّي الخاص من عالم لا يرحم؛ وعلى الرغم من أنّ لدي الكثير لأخسره، ابتسمت لها وقلت: «حسناً يا آن. لتكن أسرارنا آمنة بيننا.»

الفصل الثامن والثلاثون

يومي 14 تشرين الأول/أكتوبر و2 كانون الأول/ديسمبر 1916

مدينة لندن، إنجلترا

«آنسة غرين! يا آنسة غرين!»

هتف الصحفيون، بينما كنت أسير في درج الباخرة الراسية في الميناء.

لوّح لهم مرافقي في باخرة ليفربول بالابتعاد، إلا أنّهم واصلوا نداءاتهم: «ما الذي تنوين شراءه في لندن، يا آنسة غرين؟ على ماذا حطّت أعين مكتبة بيربونت مورغان أنظارها في هذه الرحلة يا آنسة غرين؟» «آنسة غرين، لقد أعلنت صحيفة شمس المساء أنّك أنجح امرأة مهنية في العالم، فما هو شعورك تجاه هذا التوصيف؟» «هل ستعملين -يا آنسة غرين- مع السيّد مورغان على مواصلة جهوده في حربه لامتلاك التحف الفنّية أثناء وجودك هنا؟»

تساءلت: ألا يوجد لدى صحف لندن مسائل أكثر إلحاحاً من الاهتمام بوصولي؟ إنّ بلادهم تعيش حالة حرب في خضمّ أكبر صراع شهده العالم حتى الآن، وهو صراع يرفض الرئيس ويلسون دخوله لسبب غير مفهوم. من المؤكّد أنّ الصحفيين لديهم عدد من القصص والأخبار المتعلّقة بالحرب لتغطيتها، على الرغم من أنّ من الممتع معرفة أنّ نجاحي بوصفي رئيسةً لمكتبة بيربونت مورغان يسجّل على هذا الجانب من المحيط الأطلسي.

لقد كانت هناك سيارة ذات محرّك ناري تنتظرني على رصيف الميناء، لتأخذني إلى منزل جاك في المدينة، وإثر ذلك ستقوم بحمل حقائبي إلى فندق

كلاريدج؛ حيث تمكّنت من الحصول على جناح بفضل سطوة اسم مورغان، على الرغم من نقص وجود الغرف الشاغرة في ذلك الفندق. لقد استدعاني جاك من نيويورك لتقييم وشراء الكتب النادرة، التي كانت تغمر المدينة خلال الحرب. كنت سعيدة بالامتثال لطلبه، بغضّ النظر عن المخاطر التي كانت تحفّ السفر عبر المحيط الأطلسي، بعد أن نسف الألمان باخرة لوسيتانيا العام الماضي، وبغضّ النظر عن رفض والدتي التي أصابتها الهستيريا بسبب رحلتي إلى أوروبا، التي كانت تمزّقها الحرب. لندن لم تقدّم لي الانغماس في عالم الفنّ الذي لا يزال يلاقي رواجاً فحسب، بل وهبت لي برنارد أيضاً. لقد وعدني بأنّه سيسافر من باريس؛ حيث كان يختبئ طوال تلك المدّة، إلى لندن لمقابلتي. وأنا لم أنسَه حتى بعد مرور ما يقرب من ثلاث سنوات من البعد؛ لأنّ دفء ما يجمعنا جعلني أفكّر فيه مجدّداً.

تساءلت وأنا أتجوّل في الشوارع المزدحمة: إلى أيّ مدى سيختلف لقاؤنا في لندن عمّا سبقه من لقاءات. لقد سبق أن اتفقنا في نيويورك على أن تكون لي الحرية في متابعة العمل ومواعدة غيره من الرجال، إذا كان لي ميلٌ إلى القيام بذلك، وأنّه سيكون على استعداد لتوفير الملاذ الآمن لي في حال احتجته، وأنّه لن يبخل في تقديم نصائحه الموثوقة وهزله وعطفه. أعتقد أنّ هذا اللقاء سيكون أقرب إلى اتحاد حقيقي لم أحظَ به في أيّ وقت مضى، ولا سيما أنّه لم تعد لديه أيّ سلطة بإمكانها تدميري.

تباطأت السيارة عندما اقتربنا من بوابة الأمير؛ حيث يقع منزل جاك الذي ورثه عن السيّد مورغان، وهذا هو أحد المنزلين اللذين يمتلكهما جاك وجيسي في إنجلترا، المنزل الآخر هو قصر وول هول الفخم وما فيه من عقارات في مدينة هيرتفوردشاير، وقد كانوا يستخدمونه في الرماية والصيد والاستمتاع بالحفلات المكلفة. لم أكن أعرف سوى القليل عن المنزل الواقع قرب بوابة الأمير، لكن يشاع أنّه منزل مذهل.

فُتح لي الباب الأمامي قبل أن أتمكّن حتى من الطرق على سطحه الخارجي، الذي بدا لي متواضعاً بشكل مدهش. شعرت بالارتياح من الواجهة والمدخل، لكن عندما قادني خادم بارع بخفّة إلى قاعة الاستقبال، ذُهِلت من فخامة ذلك الفضاء. هناك رأيت تحفة فراغونارد الفنيّة المسمّاة «تطوّر الحبّ» تزيّن الجدران، وازدانت القاعة بأكملها بتلك اللوحات لتكريم روعتها. وبتأمّلي تلك الرسوم اكتشفتُ السبب الذي جعل الناس يحتفون بها. لقد انجذبت بشكل خاص إلى تصوير المرحلة الأخيرة من الحبّ، وما تصفه من متعة هادئة لاتحاد مستقرّ يمثّله تبادل الرسائل الغرامية. فهل تراني وجدت هذه اللوحة جذّابةً بشكل خاص؛ لأنّها تعكس بمهارة نوع العلاقة التي أتقاسمها أنا وبرنارد الآن؟

أطلّ جاك برأسه أخيراً من غرفة مجاورة، وقام بنظرة خاطفة إلي، ثم دخل القاعة بحيوية استمدّها من جزء صغير من طاقته السابقة. لقد تعرّض جاك، أثناء وجوده في إنجلترا في العام الماضي، لهجوم من قبل أحد المتعاطفين الألمان الذين علموا بدعمه المالي لإنجلترا وفرنسا، وهو ما يتعارض تماماً مع أوامر الرئيس ويلسون بالتزام المواطنين الأمريكيين الحياد. وعلى الرغم من أنّه تعافى بشكل جيّد إلى حدّ ما، لم تثنِه تلك الحادثة عن مشاركته في المجهود الحربي، وأنا مرتاحة لأنّ إصاباته لم تثبط حماسته للمكتبة أيضاً.

صاح وهو يضحك، بعد أن صافحني: «كيف تمكّنتُ من العمل من دونك في لندن الشهر الماضي؟»

بادلته الضحك، وقد خطر في بالي شيء كتبته عن جاك في رسالة لي إلى برنارد قلت فيها:

أحياناً أتساءل عمّا إذا كنتُ قد تفانيت في العمل معه أكثر على حساب المكتبة وعلى حسابك؛ فهو لا يغادر المكتبة أبداً عندما يكون في مدينة نيويورك، تماماً مثل والده، ودوري، بوصفي شريكاً له في الفنّ والتمويل، يترك لي القليل من الوقت لأيّ شيء آخر.

بطبيعة الحال، لم أصف لبرنارد أبداً الطرق التي لا تعد ولا تحصى، والتي جعلتني في خلاف في علاقتي مع جاك، على عكس تلك التي كنت قد تشاركتها مع والده؛ فأنا بوضوح لم أشعر بأحاسيس أبويّة معه، لكنّ الأهمّ من ذلك غياب المغازلات بيننا، على الرغم من أنّنا متقاربان في العمر؛ إذ لم نشعر بأيّ شوق غير معترف به بيننا، كما اختزلنا الكثير من الطبقات المعقّدة التي تربطنا في اتفاق جماعي بسيط، فجاك لم تكن لديه حاجة إليّ لملء فراغ عاطفي في قلبه مثل ذلك الفراغ الذي كنت أملؤه للسيّد مورغان؛ لأنّ زوجته جيسي كانت توفّر له بالفعل كلّ الحبّ والعطف.

وقام جاك بإيماءات حول قاعة الاستقبال المثقلة باللون الذهبي؛ حيث تمّ اختيار كلّ المفارش، وقطع الأثاث، وكلّ الزخارف والزينة، لتمجيد اللوحات الفنّية المعلّقة على الجدران، ثم قال: «ما رأيك في لوحات فراغونارد؟»

أجبته: «من المستحيل تصديق أنّ هذه الروائع ستتمّ إزالتها من على هذه الجدران وتباع. أنا لا أستطيع أن أتخيّل أنّها سترحل قريباً عبر مياه المحيط الأطلسي، وستعلّق في قصر آخر. يبدو أنّها تنتمي أكثر إلى هذا القصر.»

جعلت الكآبة التي رافقت نبرة صوتي جاك يقول: «لكنّنا اتفقنا على أنّه يمكن بيعها من دون التأثير على مجموعاتنا المهمّة الأخرى أليس كذلك؟» هو لم يكن يسألني حقاً، بل كان يذكّرني بالخلاصة التي توصلنا إليها سابقاً. في الواقع، لقد بدأت بالفعل القيام بمحادثات طويلة ناقشت فيها موضوع بيعها مع الإخوة دوفين وعدد قليل من التجّار الآخرين.

أومأت له برأسي. لقد كان جاك عند وعده، فشاركني في كلّ قراراته بشأن مستقبل أعمال السيّد مورغان الفنّية والمخطوطات من بين أمور أخرى.

ثمّ أشار إليّ بالجلوس على كرسي لويس الرابع عشر ذي اللون الأزرق الفاتح، وانحنى حين قابلني، فواجهنا أحدنا الآخر، وعندما رأيته لاحظت كم بدا لي متعباً من تحت حواجبه الكثيفة الداكنة وشاربه الثقيل. أَكان ذلك

بسبب تأثير الحرب وحدها عليه، أم لأنّه مازال يتعافى من إصاباته، أم تشتّت ممتلكات والده أثقل كاهله بكلّ تلك المشاعر المنهكة؟

فقال: «إنّ عدد المخطوطات والكتب النادرة في سوق لندن مذهل يا بيل. لا يمكنني البدء في فرز الاحتمالات.» لاحظت في تعبيره فرط حماسته الذي كان يشبه الجشع تقريباً. لقد كان الناس في حاجة ماسة إلى الحصول على الأموال في زمن الحرب. فهل يمكن اعتبار رغبته في أخذ نصيبه من الكعكة ضرباً من ضروب الانتهازية؟ ولكن كيف يمكنني الحكم على ذلك، فأنا بدوري أخطّط لجني غنائم الحرب إلى جانبه؟

قلت وقد تجاهلت تلك الأفكار: «لهذا السبب أنا موجودة هنا.»

تنهّد وقال: «بالفعل إنّ وجودك هنا يشعرني بالارتياح.»

أمدني جاك بورقة مكتوبة بخط اليد فيها قائمة أسماء وقال: «هؤلاء هم التجّار الذين قابلتهم بالفعل، أو راسلوني برسائل تصف ما لديهم من مخطوطات جذّابة وكتب نادرة.»

التقطت منه الورقة، وبدأت مراجعتها. لقد كانت الأسماء المدوّنة في القائمة مألوفة بالنسبة إلي؛ وبالفعل لقد تعاملت مع العديد منهم في السابق. أدركت أنّني كنت محظوظة مع جاك؛ فهو لا يشعر بأي إحراج أثناء الاعتراف لي بخبرتي في البحث عن أصول مصدر تلك العناصر، وحرفيّتي في تحديد ثمنها.

قلت له: «سأعقد اجتماعات مع كلٍ منهم على الفور. من فضلك ليكن مؤكّداً لديك أنّني سأتعامل معهم، وسأتدبر أمرهم هنا.»

فقال: «لدي ثقة مطلقة بك.»

سألت جاك وأنا أنظر إلى القائمة: «هل بإمكاني الابحار إلى باريس بعد أن أجمع كل ما هو معروض في لندن من تحف، فقد يكون مخبأً مخفيٌّ

للمخطوطات المستنيرة ينتظرني هناك؟» لقد فكّرت في مدى اللذة التي سأنعم بها حين أتأمّل المشاهد الباريسية برفقة برنارد، بعيداً عن نطاق هيمنة جاك، الذي جعلته معاداته للسامية، التي ورثها -لا شكّ- بحسب رأيي، عن والده، ضدَّ برنارد بشكل طبيعي؛ وهو ما جعلني أحتفظ بعلاقتي المستمرة مع برنارد سرّاً خوفاً من ردّ فعل جاك نتيجةً لذلك.

قال بشكل قاطع: «أنا لن أسمح لك بذلك يا بيل.»

لقد فوجئت، فتشنّجه كان على عكس طبيعته الثابتة التي يمكن التنبؤ بها.

لاحظ جاك ردّ فعلي فقال: «أنا آسف يا بيل! من الصعب أن يتأكّد لك مدى خطورة الوضع في أوروبا، فالأخبار التي نحصل عليها في أمريكا معزولة، وتقتصر علينا فحسب، ومن ثم لن تعلمي أنّ السفر محفوف جدّاً بالمخاطر، وغير منصوح به، حتى لو كان بإمكانك الحصول على الأوراق اللازمة والتصاريح الخاصة. والله لقد اضطررت إلى أن آخذ إذناً من الشرطة المحلّية للسفر من لندن إلى الريف في هذه الأيام.»

ثم توّقف جاك قليلاً، لكنّه لم ينهِ كلامه، فقال: «اسمعي يا بيل، أنا أريد منك أن تقومي بأعمال المكتبة، وفي اللحظة التي تنتهين فيها، عودي إلى الوطن، ففي القريب العاجل ستدخل أمريكا في أتون هذه الحرب أيضاً، وأنا لا أريدك أن تكوني بالقرب من الخطر. أعلم أنّ السفر ليس مستحيلاً في الوقت الحالي، حتى مع أوزار الحرب، لكنّني أعتقد أنّه يجب اعتباره مستحيلاً بالنسبة إليك. أنت عزيزة جدّاً، فلا يجب المخاطرة.»

أومأت له برأسي. كان مؤكّداً لديَّ أنّ جاك على حقّ بشأن هذا الواقع الجديد، لكن إذا لم أتمكّن من الذهاب إلى باريس فهل سيتمكّن برنارد من السفر إلى لندن؟ وماذا سيكون تأثير هذا الروتين والبيروقراطية عليّ؟ لماذا لم يحذّرني برنارد من الخطر، ولم ينبهني إلى أنّه سيتأخّر؟ ألا يجب عليه أن

يقلق بشأن سلامتي بقدر قلق جاك؟ هل من الممكن أنّ الحرب قد أثّرت في باريس إلى حدّ أنّ برنارد لم يستطع ابلاغي مسبقاً بما يحدث؟

*****

لقد كنت متعبة جدّاً، لكنّني تغلّبت على تعبي ورغبتي في النوم. لقد كنت أسهر خلال الأسابيع الستة الماضية إلى ساعات متأخّرة من الليل احتسيت فيها الكثير من كؤوس النبيذ الفاخر، فالحرب لم توقف الحياة الراقية في لندن؛ بل يبدو أنّها غذّتها بدلاً من ذلك. وأنا ببساطة لا أستطيع أن أبدو ضعيفة بأيّ شكل من الأشكال، حتى أمام هذا الإرهاق البسيط، ولن أسمح للأخوين دوفين بأن يكونا على اطلاع على أيّ ثغرة في درعي.

لكن لماذا كنت حذرة من الأخوين دوفين أكثر من العشرات أو نحو ذلك من التجّار الآخرين، الذين التقيتهم خلال الأسابيع الماضية؟ فما الأمر المميّز في طريقتهما وأسلوب مساومتهما، الذي وضعني على حافة الهاوية؟ ليس لدي خيار سوى العمل مع هذين الأخوين المغرورين، فهما يمتلكان أيضاً الكثير من العروض الحصرية على العناصر المرغوبة، ما يجعل الحصول على بعض التحف المعيّنة أمراً مستحيلاً من دونهما؛ فهما يمثّلان الكثير من العملاء المهمّين من أصحاب المجموعات الضخمة، فلا يمكنني إذاً تجنّبهما، لكنّهما تركاني أنتظر ببرود، فارتبكت بغضّ النظر عن سمعتهما السيّئة في تجاوز آداب اللياقة.

نظرت إلى الساعة فوق رفّ الصالون في جناح فندقي، وصرت أجوب القاعة إلى أن التصقت التنورة الضيّقة الأنيقة بكاحلي. وتساءلت: لماذا تأخّر الأخوان دوفين؟ وتزايد منسوب الغضب في داخلي. وأدركت، عند مستوى معيّن، أنّني لم أكن غاضبة من الأخوين دوفين، بل كنت غاضبة في الحقيقة من برنارد.

لقد مرّت الأسابيع ولم يقدّم لي برنارد سوى سلسلة من الأعذار التي تبرّر فشله في القدوم إلى لندن، ومن بينها حديثه عن ضربات القطار، والمناورات الساحلية للجيش، وتهديدات الطوربيدات للسفن العابرة للقنال. وعلى الرغم من أنّني كنت أتفهّم صحّة ما يقول، وأنّه قد تكون هناك حقيقة في مبرّراته، لا أحد كان يشعر مثله؛ لأنّ التاجر المحترم جاك سيليغمان سافر من باريس إلى لندن الأسبوع الماضي من دون وقوع أيّ حوادث، وكان يهدف من رحلته تلك محاولةَ جذبي لمغادرة مكتبة بيربونت مورغان والانضمام إلى عمله. لقد ذكّرني سلوك برنارد المراوغ كثيراً بغيابه خلال أيامي المظلمة الأخيرة التي قضيتها في لندن. لقد كنت حمقاء حين ظننت أنّ علاقتي أنا وبرنارد ستكون فريدة، فحتى إن لم تعد لديه القوّة لجرحي، فلقد احتفظ بالقدرة على إثارة غضبي.

قُرِع الباب بطرقة موثوقة، ففتحته الخادم بينما كنت أهيّئ نفسي لاستقبال الضيفين، ثم سألتهما بهدوء: «هل تبقون عملاءكم هكذا ينتظرون دائماً؟»

على الفور تسمّر جوزيف وهنري دوفين في مكانهما. على الرغم من كلّ ألاعيبهما وشبكة الجواسيس، التي يزعمان أنّهما زرعاها في منازل الأثرياء والمنافسين لهما من التجّار، وجدت أنّ من السهل بشكل ملحوظ إزعاجهما. ربما يعود ذلك إلى أنّهما إنجليزيان جدّاً، وغير مستعدين للغاية لما هو غير متوقّع. سارع هنري، وهو الأخ الأكبر، إلى الاعتذار وقال: «نحن آسفان للغاية يا بيل، فنحن لا نحاول أبداً إبقاء العملاء في الانتظار.»

استخدمت لهجة وقحة لأربكهما أكثر وقلت: «وماذا عن السيّدة زميلتكما؟»

انحنى جوزيف وقبّل يدي برفق، ثم قال: «أنت بالتأكيد زميلتنا الوحيدة، لكن لو لم تعرقلنا قافلة عسكرية في الشارع أمام سيارتنا، لما تأخرنا أبداً.»

هل كان يتخيّل أنّه سيكسبني بلطفه ولياقته؟ يجب عليه أن يعرف بشكل أفضل الآن طريقة التعامل معي، فقلت له: «أعتقد أنّني لا يمكن أن ألومك

بسبب الحرب، أليس كذلك؟» ضحكا بعصبية، فقلت في نفسي: هذا جيّد فأنا أريدهما أن يكونا عصبيين.

جلست وأشرت إليهما بالجلوس على الأريكة التي كانت أمامي، وانتظرت إلى أن تفرغ الخادم من جمع قبعاتهما ومعاطفهما، بالإضافة إلى الاستماع لأوامر شرابهما، بينما كنت احتسي كأساً من الخمر لتهدئة أعصابي المنهارة.

انحنى الأخوان للجلوس على الأريكة التي كانت في الجانب المقابل لمقعدي، فطرحت عليهما موضوعاً تصوّرت أنّهما لن يتوقّعاه، فهما اعتادا طقوس المجاملات، فقلت: «لقد كانت لوحات فراغونارد تبدو جميلة بشكل خاص عندما رأيتها قبل أيام.»

تبادل الأخوان نظرة اعتقدا أنّها غير مرئية، فقال جوزيف: «اعتقدت أنّنا هنا اليوم لمناقشة أمر المخطوطات.»

على الرغم من أنّ الأخوين دوفين لديهما كنز من المخطوطات والكتب النادرة لبيعه لي، كلٌّ منّا كان يعرف أنّ الجائزة الحقيقية هي العمولة التي يمكن أن تُجنى من بيع لوحات فراغونارد، التي هي ملك السيّد مورغان، وأيِّ تحف فنّية أخرى سنختار السماح لهما بأن يكونا وسيطين في بيعها، إذا تمكّنت من استئجارهما.

فقلت: «سنناقش كلّ شيء في الوقت المناسب.» أخذت رشفة أخرى محاولة الاسترخاء ريثما يدفئ الخمر جسدي، ثم أضفت: «لقد خلت أنّنا سنبدأ بلوحات فراغونارد؛ لأنّني أعلم أنّ خططكما الحقيقية هي تمثيل أفراد عائلة السيّد مورغان في بيعها، في حال قرّروا بيعها بطبيعة الحال، أعني في حال قرّروا تكليفكما بالوساطة في بيعها.» لقد كانا بحاجة إلى معرفة أنّني أفهم استراتيجيتهما وأهدافهما الحقيقية، وأردت أن يؤثر ذلك في الأسعار التي سيقدّمانها لي مقابل المخطوطات التي في حوزتهما.

تنحنح جوزيف، وقال: «لمّا كنّا قرّرنا تجنّب شكلية مناقشة المخطوطات أوّلاً، ربما يتعيّن علينا أيضاً مناقشة قرار بيع نجل السيّد مورغان مجموعة العائلة من القطع الخزفية الصينية، ونحن نرحّب بإتاحة الفرصة لنا لتمثيل آل مورغان في هذه الصفقة أيضاً.»

وعلى الرغم من أنّني فوجئت بسماع ذلك، ظلَّ وجهي خالياً من التعابير؛ ففي نهاية المطاف كيف علم الأخوان دوفين بأنّنا قرّرنا بيع القطع الخزفية؟ كلّ ما أعلمه أنّ جاك لم يكن يهتم أبداً بالفن الآسيوي، ولمّا كانا لم يمدحا العناصر التي كنّا نحتفظ بها، اتفقنا على أنّنا سنجد مشترياً لها بعد بيع لوحات فراغونارد، لكنّ جاك لم يخبر أحداً، باستثناء جيسي ربّما، وأنا لم أخبر أحداً باستثناء برنارد.

ارتفع منسوب الغضب في داخلي عند إدراك ذلك. كيف يمكن لبرنارد أن يفعل ذلك؟ لقد كنت أثق به، وآمنت بأنّه من المقرّبين الذين يمكن أن أتقاسم معهم بأمان مخاوفي وأسراري، علاوة على مقاسمته حبّي، فبعد أن أعدنا حبال الودّ والتواصل في مدينة نيويورك، وأثناء تبادلنا الطويل للرسائل لاحقاً، تقاسمت مع برنارد تخوّفي من أنّ جاك سيفكّك المكتبة ويبيع الكتب. وعندما قرّر جاك الحفاظ على سلامة المكتبة، إلى حدّ كبير، وطلب مساعدتي في بيع قطع فنّية معيّنة، شاركت برنارد أفكاري بشأن الأشياء التي سيتعيّن بيعها. فلماذا أفشى برنارد أسراري للأخوين دوفين من بين جميع الناس؟

لم أسمح لنفسي بالتركيز على ذلك الآن. لقد قاطع جوزيف حبل أفكاري حين قال: «أنت تعلمين يا بيل أنّك إذا قمت باختيار الأخوين دوفين ليساعداك في بيع لوحات فراغونارد، أو قطع الخزف الصيني، أو أي تحف أخرى قد ترغبين في تصفيتها، فإنّك يمكن لك أن تكوني مستفيدة مالياً.»

لم يكن كلامه سوى مجرّد هراء لا معنى له، فسألته: «ما الذي تتحدّث عنه؟»

غيّر هنري مجرى الحديث، وقال: «سنكون ممتنين للغاية لو وقع اختيارنا لنكون الوسيط المكلّف بجميع مبيعات آل مورغان المهمّة. سنكون ممتنين جدّاً، بل سنكون سعداء لنتقاسم عمولتنا معك.»

في تلك اللحظة أصبحت متوتّرة جدّاً فقلت: «لماذا بحقّ السماء يجدر بي فعل ذلك؟»

تجاهل هنري سؤالي كما لو أنّ الجواب عليه كان بديهياً، وقال: «ألا يجدر بك أن تجني على الأقل جزءاً مما يربحه التجّار؟ ولاسيما أنّك تقومين بمعظم العمل ولا تحصلين على أيّ عمولة؟ فأنت، بوصفك موظّفة عند آل مورغان، لا تحصلين إلا على راتب شهري فحسب، ولا تحصلين على نسبة من الأرباح. يبدو أنّك لا تجنين مثل أيّ وريث فعليٍّ للسيّد مورغان، فلِمَ لا تضيفين نسبة من سعر البيع إلى خزائنك.»

قلت على الفور: «هذا فعل لا أخلاقي!» لقد أراد الأخوان دوفين منّي أن أدخل في تفاهم معهما في حال وافقت على بيع جميع الأعمال الفنّية لآل مورغان من خلالهما لحرفاء من اختيارهما، مقابل جزء من عمولات المبيعات الخاصّة بهما. وهذا يعني أنّ أفراد عائلة مورغان لن يحصلوا بالضرورة على أعلى الأسعار لأعمالهم الفنّية؛ لأنّها ستباع جميعها لحرفاء الأخوين دوفين، بدلاً من تلقّي أعلى عروض البيع. وإذا فعلت ذلك فإنّ ولائي سيكون للأخوين دوفين، وليس لآل مورغان، وهو أمر لن أفكر فيه أبداً.

«بل هو فعل أكثر شيوعاً بين الناس مما تعتقدين، وهناك اتفاقيات أخرى أيضاً. في الواقع، إنّ صديقك السيّد بيرنسون قام هو بدوره من تلقاء ذاته باتفاق مفيد معنا. لقد اشتغل معنا لسنوات؛ حيث كان يصادق على لوحات عصر النهضة الإيطالية المهمّة بالنسبة إلينا، وعندما نبيع أيّ قطعة منها يحصل على جزء من العمولة التي نربحها.»

قلت بعد أن قمت بهزّ رأسي: «لا. لن أقوم بذلك.» كيف يمكن أن يكون ما قام به برنارد صحيحاً؟ هذا أمر لا يصدّق، فحتى لو كان يصادق فحسب على الأعمال الفنّية التي يجدها جديرة حقاً، فإنّ هذا المخطّط تفوح منه قذارة الانتهازية الذاتية. وإذا علم جمهور الفنّ بذلك، فإنّ ذلك الترتيب سيدمّر سمعة برنارد بوصفه خبيراً موضوعياً غير متحيّز في مجال فنّ عصر النهضة الإيطالية. وأنا لا يمكنني حتى التفكير في إمكانية مصادقته على القطع التي لا تستحق اهتمامه.

«نعم - يا آنسة غرين- لقد سبق أن أجرينا هذا الاتفاق مع السيّد بيرنسون لعدّة سنوات.» ثمّ نظر هنري إلى أخيه وأضاف: «على الرغم من أنّ فهمنا قد يكون سار في مساره، فإنّنا قد نضطر إلى قطع اتفاقنا مع السيّد بيرنسون. أعتقد أنّنا نعلم جميعاً أنّ تجارة فنّ عصر النهضة الإيطالية لم تعد كما كانت عليه من قبل، وبدلاً منها زادت شعبية بيع العديد من أنواع الأعمال الفنّية الأخرى؛ لذلك قد لا نحتاج إلى خدماته لفترة أطول.»

استوعبت الآن لماذا خانني برنارد. لقد كان متورّطاً في تحالف معهما لسنوات، وربما كان ذلك طوال الوقت الذي عرفته فيه؛ فمن خلال تزويدهما بمعلومات عني وعن عائلة السيّد مورغان، كان يحاول إثبات نفسه، وأنّه لا يزال ذا قيمة لهما في وقت كان قد تجاوز فيه فائدته. وإذا كان بإمكانه تزويدهما بخطط آل مورغان، فربما لن ينهيا ترتيبهما المربح معه.

على الرغم من أنّني شعرت بما يشبه حالة المرض، وقفت وحدّقت في هذين المحتالين اللذين يتظاهران بأداء دور سادة نبلاء الإنجليز، وقلت لهما: «أنا أعمل لمصلحة السيّد جاك مورغان فحسب، وأدين له بولائي الكامل والحصري. والآن-» أشرت إلى الباب «استسمحكما بالخروج.»

غادرت الصالون، ودخلت إلى المكتب، وكتمت تنهيدة لم أشأ أن يسمعها الأخوان دوفين، وانهرت على أحد المقاعد. لم تكن الطبيعة الحقيقية لولائي هي الشيء الوحيد الذي تم توضيحه اليوم في هذا اللقاء الذي تمّ مع الأخوين دوفين. لقد رأيت أخيراً عمق خيانة برنارد، وسمحت لنفسي بالاعتراف بها؛ فلماذا يبدو ظاهر كل شخص مختلفاً عن حقيقته؟

الفصل التاسع والثلاثون

10 كانون الأول/ديسمبر 1916

مدينة لندن، إنجلترا

شاهدت حزمة حقائبي فوق عربة في مدخل فندق كلاريدج، فسرت في أعقابها. متى سأعود لأرى لندن من جديد؟ في غضون ذلك كيف ستتغيّر ملامح العاصمة الإنجليزية بسبب الحرب؟ هل يمكنني أن أمحو من ذكرياتي، التي أحملها عن هذه المدينة، والتي أعشقها، مشاهد خيبة الأمل التي عشتها هنا؟ لكنّني أعلم، على الأقل، أنّني سأعود إلى مدينة نيويورك مظفّرة مهنياً، إن لم أقل منتصرة على المستوى الشخصي أيضاً.

لقد كانت حقائبي مليئة بالمخطوطات والكتب النادرة التي لا تقدّر بثمن. أما تلك الكنوز التي لم أستطع وضعها ضمن أمتعتي الخاصة، فستصل في حقائب آل مورغان في غضون أسابيع قليلة. لقد كانت رحلتي إلى لندن في هذه المرّة، بما تضمّنته من لقاءات مع التجّار وجامعي التحف، وما جمعته من الكتب قبل طرحها في السوق، والرفاهية التي استمتعت بها في زمن انحطاط لندن، موفّقةً وممتعة في الآن نفسه؛ وهذا يعود فحسب إلى أنّني رفضت الانغماس في الأفكار التي تذكّرني ببرنارد بمجرّد أن أرسلت رسالتي الأخيرة إليه. وأنا أعلم أنّ مشاعر الحزن ستنتابني حين أكون على متن باخرة ليفربول، وهناك فحسب سأسمح لها بأن تنساب بحرّية؛ أي من زمن انطلاقنا من لندن إلى أن نصل إلى مدينة نيويورك، وبعد ذلك يجب أن أعود إلى الدور الذي حدّدته لنفسي وأتقمّصه بشكل كامل.

لقد كتبت في رسالتي الأخيرة لبرنارد، التي أعلنت فيها فراقه، ما يأتي:

كيف يمكنك أن تخون المودّة التي تقاسمتها معك، وتسيء استخدامها عنوة؟ لقد رفضت المجيء إلى لندن، لا في مناسبة واحدة، بل في مناسبتين، في زمن احتجت فيه إليك، ثمّ قايضت أسراري لتحقيق مكاسبك الخاصّة؟ أَكان كلّ ما جمعنا حقيقياً يا برنارد، أم أنّ مواعيدنا الغرامية كانت مرتبة دائماً لتحقيق ربحك الشخصي الخاص؟ لطالما اعتقدت أنّ لدينا على الأقل تفاهماً وثقة بيننا.

أنا ممتنّة فحسب لأنّني لم أشاركه سرّي الحقيقي، فما الذي كان يمكن أن يفعله لو علم أنّ بيل دا كوستا غرين وُلدت ذات بشرة ملوّنة؟ لعلّه كان سيبيع ذلك السرّ في مزاد علني؟! وربّما سيفرّط فيه لأعلى مزايد؟!

ثم اندفع بوّابان من الفندق يرتديان الزي الرسمي نحوي، وقال أحدهما: «آنسة غرين، لقد تم تحميل حقائبك في سيارتك المتجهة إلى الميناء، وهي في انتظارك يا سيدتي.»

تكرّمت على الرجلين بـ«البقشيش»، وتبعتهما إلى سيارة الرولز رويس، التي كانت رابضة تنتظرني، ثم لففت وشاحي المبطّن بالفراء حول كتفي، وهممت بالصعود، لكنّني سمعت صوت نداء حين كنت على وشك أن أصعد داخل السيّارة الفضيّة اللامعة «بيل!»

حين التفتُّ رأيت رجلاً يركض نحوي؛ إنّه برنارد. لقد كان برنارد الذي كنت أحترمه في السابق يركض، ويصرخ، ويقول: «لا ترحلي يا بيل!» هكذا كان يصيح بصوت عالٍ إلى درجة أنّني استطعت أن أسمعه على الرغم من ضجيج الشارع وضوضاء العربات التي تجرّها الخيول والسيّارات والدرّاجات والحافلات. «من فضلك كلّميني!»

هل كان حريّاً بي أن أهتمّ بصراخه؟ لقد تم بالفعل اتخاذ قراري بشأن برنارد، ولن أقلق من أنّ تؤثّر مشاعره فيّ؛ فأنا لم تكن لديّ أيّ رغبة في إقامة

علاقة حبّ كبيرة مع برنارد عندما سافرت لرؤيته في أوروبا، لكنّني توقّعت، على الأقل، أن أحظى بسلوك صديق يمكنني أن أثق به. والخيانة التي تلقيتها، بدلاً من الثقة، زادت من قسوة قلبي عليه إلى الأبد؛ فهل مازال يستحقّ حتى ثانية من وقتي؟ لا. لكنّني قررت أنّني أريد أن تكون لي الكلمة الأخيرة.

أمرت السائق بالانتظار، ثم نزلت من السيّارة، واتجهت إلى برنارد؛ حيث كان يقف ببؤس على الرصيف أمام فندق كلاريدج. لقد كان يلهث وجبهته كانت تتصبّب عرقاً على الرغم من برد كانون الثاني/ديسمبر. لقد استمتعت بعدم ارتياحه العام، وتمنّيت لو يلتقيه أحد رفاقه من الإنجليز الغالين عليه، ويشاهده على حقيقته.

سألته بصوت بدا أكثر هدوءاً مما شعرت: «هل أتيت للإجابة عن أسئلتي؟»

بدت عليه علامات الحيرة وقال: «أنا آسف!»

«أَلا تظنّ أنّ الوقت قد تأخّر قليلاً عن الاعتذارات؟»

بدا محبطاً، لكنّني لم أصدّق أيّ مشاعر بادية على ملامح وجهه، فقال: «آه يا بيل! لا توجد كلمات في وسعها أن تعبّر عن مدى أسفي الشديد.»

قلت له: «تفضّل. كلّي آذان صاغية. حاول تفسير ما وقع.» لقد كنت واثقة بأنّ أي جهد من جانبه لن يغيّر رأيي، لكنّني وددتُ مشاهدة جهوده. على الأقل هو لم يتظاهر بأنّه لم يفشِ أسراري؛ لأنّني لم أشعر برغبة في خوض هذه المعركة.

هز برأسه وقال: «لا أعلم السبب الذي دفعني لإخبار الأخوين دوفين بشأن التحف الخزفية الصينية. لقد كان خطأ حدث في لحظة ضعف. لكنّه كان خطئي الوحيد.» بدا وجهه جادّاً للغاية، لكنّني كنتِ أعلم أنّه يتعمّد النسيان، وهو إحجام من جانبه عن الاعتراف بمسؤوليته وتحمّلها.

أوقفت ضحكةً كانت على وشك أن تصدر مني، وقلت: «وهل تعتقد حقاً أنّك لم تخنّي سوى مرّة واحدة فقط؟»

رفع حاجبيه من الاندهاش، وقال: «أقسم لك أنّني لم أخبرهما بأيّ تفاصيل أخرى حول الخطط التي كنت تنوين أنت وجاك القيام بها لبيع المجموعة الفنّية.»

قلت: «قد تأخذ الخيانة أشكالاً عديدة، على الرغم من أنّ الكشف عن أسراري إلى الأخوين دوفين هو بالتأكيد أحد أشكالها، إلا أنّها خيانة لا تغتفر.»

أظهر لي عبوسُه أنّه كان مرتبكاً، لكنّ عينيه اتسعتا بعد ذلك، قبل أن يسألني: «هل تقصدين إديث وارتون؟ أو ناتالي بارني؟»، وأخذ يذكر أسماء من ضيّفوه من أمريكيات مغتربات في الصالون الأدبي الباريسي، يُشاع أنه تورّط معهنّ، وأضاف: «أَلم نتفق -يا بيل- على أنّه يمكننا رؤية أشخاص آخرين عندما لا نكون معاً جسدياً.»

قلت: «أوه أنا لا أهتم بهؤلاء.» قمت بموجة في الفضاء بيدي كما لو أنّني أرمي بكلماته وأسماء من ذكرهنّ بعيداً، وأضفت: «الحقيقة التي تجاهلتها حين حدّثتك عنها تجعلني أزداد يقيناً بصواب قراري. إنّ الخيانة الخاصّة التي أحدّثك عنها هي الهجر.»

أخذ يتلعثم ويقول: «لأنّني... أنا... لم آتِ الى لندن؟ إذا كنت تعتقدين أنّي لم آتِ لأنّني غير مهتم بك، فأنت مخطئة.»

«أَتعني هذه المرّة، أم المرّة الأولى عندما رفضت المجيء عندما كنت مريضة بشكل مروّع بعد الإجهاض؟»

ارتعدت فرائصه من تلك الكلمة مثلما ارتعدت فرائصي في العديد من المرّات، وعلى مرّ السنين، كلّما فكّرت في ما فعله. ولكن لماذا يتهرّب برنارد

من حقيقة أفعالنا؟ قلت له: «من فضلك، لا داعي لتقديم أيّ مبرّرات واهية لقرارك بعدم المجيء في هذا الخريف؛ ففي نهاية المطاف لقد كان جاك سيليغمان قادراً على القيام بالرحلة؛ أو لرفضك القيام بذلك قبل ستّ سنوات. أنا أعلم بالضبط لماذا اخترت البقاء بعيداً.»

حاول مسكي من معصمي، لكنّني سحبت منه يدي، فقال: «أنا لم آتِ حينئذٍ ولا الآن لأنّني أحبّك كثيراً، فأنت المرأة الوحيدة التي تمكّنت من الاقتراب مني جدّاً، وأنا كنت خائفاً من أن أفقد كلّ شيء من أجلك، لكنّك ببساطة لم تفهمي مقصدي.»

قلت له، وقد حافظت على هدوئي: «بل أنا أفهمك تماماً يا برنارد. لقد حصلت بالفعل على كلّ شيء تريده مني؛ وفي هذه الحالة نلت كلّ جزء مفيد من المعلومات حول أفراد عائلة مورغان وخططهم. وأنت أيضاً لم تخدم سوى مصالحك الذاتية، ولم تكترث لأي شيء لتكون حتى صديقي، ناهيك عن أن تكون حبيبي.»

انطلقت في الابتعاد عنه، فأمسكني من ذراعي، وقال: «أتوسّل إليك يا بيل اسمعيني.» ثم أخذ يستجدي ويقول: «أنت حب حياتي.»

لقد أوقفتني كلماته وجعلتني أناقض تصميمي، فعلى الرغم من كلّ إخفاقاته، وكل خداعه، ومرافعته المثيرة للشفقة، كان برنارد أوّل حبّ لي، وربما يكون حبّي الوحيد، وهو يعلم كيفية جذب مشاعري، إلا أنّني ذكّرت نفسي بمن هو حقاً، وكيف أنه لا يمكنه أن يكون أيّ شيء ذي معنى في حياتي، وعاد تصميمي إلي، فذكّرت نفسي بأنّني حرّة، وقلت له: «من فضلك يا برنارد، أبعد يدك عن ذراعي»، لكنّه لم يترك ذراعي، فحاولت نزع يدي بالقوّة، فشاهد بوّابا فندق كلاريدج معاناتي، فهرعا لنجدتي، ووقف كلّ واحد منهما من ناحية، وقالا له: «ابتعد عنها!»، ثم قاما بنزع أصابع برنارد عن ذراعي، وشلوا حركته، بينما سارعت إلى العودة إلى سيّارة الرولز رويس،

وركبت داخلها، ولم ألتفت لإلقاء نظرة على المشهد، بل طلبت من السائق المغادرة على الفور.

هدر محرّك السيّارة، لكنّني بقيت أسمع برنارد وهو يقول: «بيل! يا بيل!» للحظة تردّد السائق في الانطلاق، لكنّني قلت له: «انطلق من فضلك.»

قام السائق بهزّ رأسه، وقاد السيارة بعيداً عن الفندق. على الرغم من أنّني استطعت سماع برنارد وهو ينادي اسمي، أبقيت عيني ثابتتين على الطريق الذي كان أمامنا، فأنا لن أنظر أبداً إلى الوراء.

الفصل الأربعون

04 حزيران/يناير 1922

مدينة هارت فورد، ولاية كونيكتيكت

سمعت أليل الحصى تحت أقدامي، بينما كنت أسير في الدرب الطويل المتعرّج الذي يؤدي إلى المقبرة. وعلى الرغم من أنّ الشمس أوحت إلي كما لو أنّها كانت تبتسم، بدا لي السير الطويل نحو مقبرة سيدار هيل محزناً.

راقبت شواهد القبور المألوفة لعائلات هاولي وسيمور، فعلمت أنّ الآثار التذكارية للعائلات الموقّرة ذات الدم الأزرق سمحت لهم بحقوق الدفن هنا، ومرّت عدّة دقائق قبل أن أرى قمّة ضريح بارز في أعلى المسار. لم يظهر لي القبر المستطيل لعائلة مورغان بشكل كامل إلا عندما شققت طريقي إلى أسفل التلال الصغيرة.

بدا اسم مورغان المرتفع واضحاً كما كان دائماً منقوشاً على سطح الغرانيت، إلا أنّ حالة العشب المحيط بالقبر بدت سيّئة؛ إذ لا توجد أزهار تشير إلى القبر؛ وهو ما جعلني متفاجئة في البداية، لكنّني افترضت بعد ذلك أنّني عادةً كنت أزور ذلك النصب التذكاري عندما يتمّ إعداد الموقع للزوار في يوم 31 آذار/مارس من كلّ عام، موعد الذكرى السنوية لوفاة السيّد مورغان.

لكنّني كنت بحاجة إلى زيارته اليوم؛ لأنّ ذلك هو المكان الوحيد المناسب للحداد على وفاة والدي.

جلست على المقعد الحجري المقابل للنصب التذكاري، فانهمرت الدموع من دون إذني، فلم أحاول حتى التوقّف عن البكاء. لقد توفي والدي في 2 أيار/مايو، منذ أكثر من شهر، لكنّني سمعت للتوّ الأخبار عن نزفه الدماغي القاتل في رسالة من الخال موزارت.

لم يحضر جنازةَ أبي المسكين أيّ أحد من أبنائه، لكنّ هذا الرجل، الذي قضى حياته يقاتل من أجل المساواة، وضحّى بالكثير في تلك المعركة، بما في ذلك التضحية بعائلته الأولى، يستحقّ أكثر مما قدمناه له في النهاية؛ فهل عرفت عائلته اليابانية حتى بوفاته؟

بعد أن غادرنا أحدنا الآخر في ذلك اليوم في مدينة شيكاغو، وعدنا أنفسنا برؤية أحدنا الآخر مرّة أخرى، ومنّيت نفسي بتخيّل صورة مستقبلية لنا ونحن نزور متحف المتروبوليتان للفنون في فترة ما بعد الظهر، لكنّني لم أجرؤ على أن أطلب منه زيارتي في مدينة نيويورك، وأنا مؤكّدٌ لدي أنّه لم يفكّر أبداً في طلب زيارته في السنوات التي تلت لقاءنا.

بمجرّد أن أعطاني بركته للتمسّك بهويّتي البيضاء، وعيش حياة ذات معنى، بدأت أشكّ في أنّنا كنّا نعلم أنّنا لن نرى أحدنا الآخر مرّة أخرى؛ إذ لم يكن من الممكن أبداً رؤية بيل دا كوستا غرين مع ريتشارد غرينر. ولو وقع ذلك اللقاء وتم اكتشافنا أنا وأبي معاً لكانت النظرات، التي ما زلت أعاني منها، والشائعات التي ما زلت أسمع بها، ستتحوّل إلى أخبار تكتب بالبنط العريض في الصفحة الأولى لكلّ الصحف. بكلّ بساطة كان وجود والدي أمام الشخص الخطأ في مدينة نيويورك سيكشفني أنا وإخوتي وماما.

صرخت بأعلى صوتي لأعبّر عن طبيعة خسارتي: «لقد فقدت كليكما الآن يا سيّد مورغان؛ فقدتك أنت وفقدت أبي.» وانهمر المزيد من الدموع، ففهي نهاية المطاف لم يكن في وسعي البوح بتلك الكلمات لأيّ شخص، وأضفت: «أعلم يا سيد مورغان أنّ علاقتنا كانت أكثر تعقيداً من علاقة الأب

بابنته، وخاصة بعد تلك الليلة من مزاد نسخة الكاكستون.» توقّفت عند هذا الحدّ، ولم أذكر القبلة التي تقاسمناها، وحالته عندما كان على قيد الحياة، فقلت: «لكنّك شجعتني قبل تلك الليلة مثل الأب، ودعمتني مثل الأب، وآمنت بقدراتي مثل الأب. ونتيجةً لذلك، أنا مدينة لك بالكثير مما أصبحت عليه الآن امرأةً بالغة.»

فكّرت في الكلمات التي أردت قولها بعد ذلك، ثم قلت: «لكنّ بابا عرف الجانب الآخر مني، ذلك الجزء الملوّن الذي كان عليّ أن أخفيه عنك.» توقفت مؤقتاً، لأنّني وددت لو أنّ السيّد مورغان كان يمكنه سماعي، وإذا استطاع فإنّه يحتاج إلى وقت طويل لاستيعاب كلّ تلك المعلومات، وقد لا يعجبه الأمر، لكنّني يجب أن أستمر في الحديث كما لو أنّه كان ينصت: «بابا يعرف الفتاة الصغيرة صاحبة البشرة الملوّنة، التي كنت أمثّلها ذات مرّة. لقد رعاني، وأنا مدينة له بالقدر نفسه، إن لم أقل مدينة له بأكثر من ذلك.» شهقت مع انحسار الدموع، ثم خطرت في بالي فكرة.

لقد عادت بي الذاكرة إلى ذكرياتي الأخيرة عن الكنيسة، التي تعود إلى عهد الطفولة، عندما كان أفراد عائلة فليت يتوافدون وهم متراصّون في عربات تجرّها الخيول لحضور قدّاسات كنيسة المتروبوليتان المعمدانية مع القس روبرت جونسون. توقّفت طقوس الكنيسة عندما انتقلنا إلى مدينة نيويورك، لكنّ بقايا دروس مدرسة الأحد ظلّت عالقة في ذهني، وأحبّ أن أؤمن بأنّ الآخرة الجميلة تنتظرنا بعد كلّ الاضطرابات المنتشرة على الأرض.

«ولكن الآن، لا بد لي من أن أبحر من دون رفقة أيّ واحد منكما لخلق إرثٍ أنا مدينة به لكما على حدّ سواء.»

توقّفت مجدّداً لأبحث في قاموسي عن الكلمات الصحيحة، وأجد السؤال المحدّد الذي يجب عليّ طرحه؛ لأنّني الآن بحاجة إلى مساعدة السيّد مورغان وتوجيهه، فقلت: «ولكن كيف يمكنني سداد ديوني لك ولبابا، إذا لم أتمكّن

من الحصول على دعم جاك في صفّي؟ فعلى الرغم من أنّه كان رائعاً في دعمي رئيسةً للمكتبة، وساند الحفاظ على سلامة مخطوطاتنا ومجموعة كتبنا، يبقى صاحب القرار النهائي لجعل المكتبة مؤسسة عامة، وإذا تم الإبقاء على المكتبة بوصفها مؤسسةً خاصة فكيف يمكنني الحفاظ على وعدي لأبي بأن أعيش حياة ذات معنى للتأثير في عامة المجتمع، وتحقيق الخير العام.»

ثم جلست بصمت للحظة. ربّما كنت جشعة؛ إذ ألا يكفيني أنّني قد ارتقيت لأصبح أحد أكثر الأشخاص نفوذاً في عالم الفنّ، ونجحت في بناء مثل هذه المجموعة الرائعة؟ ومن المؤكّد أنّ ما قمت به سيكون مرضياً لكاثرينا وصديقاتها اللاتي دافعنَ بنجاح عن التعديل التاسع عشر، الذي لحقَ بالدستور، ونلنَ حقّ المرأة في الحصول على وظائف مهنية. إنّ القمّة التي بلغتها تكاد تكون بلا نظير بين صفوف النساء، وأنا أشعر بالرضا التام عن ذلك الإنجاز.

وعندما جلست أمام قبر السيّد مورغان، علمتُ، بطريقة ما أو بأخرى، أنّه يتعيّن عليّ أن أستدرج جاك، وأن أحصل على موافقته؛ فهل توجيه نداء مباشر لجاك يُعدُّ التكتيك الصحيح؟ لقد سبق أن لمّحت له بالموضوع، ومدحته بشكل طفيف، ما أسفر عن موافقته على السماح للباحث، أو أي عضو في أي نادٍ، أو أي محاضر في بعض الأحيان، بزيارة المكتبة. ورغم ذلك، لا يزال هذا الأمر بعيداً عن تحويل المكتبة إلى مؤسسة عامة؛ حيث يمكن للغرباء الدخول بانتظام ومن دون تصريح خاص، وحيث يمكن للأشخاص العاديين الاستمتاع بروعة الكلمة المكتوبة المبكّرة مثلما علّمني بابا. لكن لا أظنّ أنّ جاك المتحفّظ سيتراجع ويرفض بفظاظة؛ فهذا إذاً ليس هو النهج الصحيح؛ لأنه سيذكّره كثيراً بوالده.

ثم قمت بلفة حول القبر، ودفّأت نفسي بأشعّة الشمس، وتساءلت للمرّة المئة منذ لقائي بأبي، إذا كان قد سبق له أن التقى السيّد مورغان؛ فأنا لم أبدأ دراسة كتابات والدي إلا بعد رحلتي إلى مدينة شيكاغو، وقرأت المزيد من كتاباته؛ وبحثت في تاريخه وأسفاره، وعلمت بالعمل الذي قام به هو والسيّد مورغان في جمعية نصب غرانت سنة 1890. لقد عمل بابا سكرتيراً، وكان عمله مدفوع الأجر بدوام كامل، في حين كان السيّد مورغان في مجلس الإدارة، مع عدد قليل جدّاً من المسؤوليات بخلاف جمع التبرّعات. لكن رغم ذلك، كم كان سيكون الأمر غريباً لو تقاطع مسار والدي، الذي كان يعيش حياته ناشطاً سياسياً صاحب بشرة ملوّنة مدافعاً عن المساواة في الحقوق، ومسار السيّد مورغان، الذي كان يمثّل أحد أقطاب التجارة وأحد الرأسماليين البيض الكبار، وهما مساران لم يحدث أن تقاطعا أبداً، ولن يتقاطعا حتى في الآخرة، فهل يمكن أن يلتقيا؟

إنّ العلاقة بين الوالدين والطفل غير قابلة للكسر، على الرغم من نوع العلاقة التي يتقاسمانها بالفعل. والطريقة، التي لا يزال بابا يؤثر بها في حياتي، تحمل في طيّاتها الكثير من ذلك، وأنا أتصوّر أنّ هذا الأمر يجب أن يكون صحيحاً لو قسناه على جاك كذلك.

على ضوء تلك الفكرة، علمت فجأةً ما يجب عليّ فعله.

لقد كنت أتناول هذه المسألة بمقاربة خاطئة، وكنت أحاول مناشدة إحساس جاك بالفنّ، لكنّ ذلك لم يحرّك فيه ساكناً. ما يجب عليّ فعله هو استدعاء تراث آل مورغان الأكبر، واستمالة سلالة الأسرة، التي أسّسها جونيوس مورغان في القطاع المصرفي، والتي وسّعها جي بي مورغان لتصبح إمبراطورية مكوّنة من شركات تمويل عظمى تهيمن على بورصة وول ستريت وعلى الصناعة، والتي سيحوّلها جاك الآن إلى مؤسسة عالمية.

فقلت بصوت عالٍ: «مكتبة بيربونت مورغان بوصفها مؤسسة عامة»، وبقيت أردّد كما لو أنّني كنت أمارس عرضاً تقديمياً للسيّد مورغان ووالدي أوّلاً، قبل أن أقوم بتقديمه إلى جاك، فأضفت: «لِمَ لا تستمر تقاليد العائلة لتكريم العائلة التي سبقتها.»

نعم. فإن لم يرغب جاك في القيام بذلك بدافع من العاطفة، فإنّه سيرغب في القيام به انطلاقاً من إحساسه بالتقاليد. بهذه الطريقة، ومن خلال تكريمه لوالده، سيكرّم جاك نسبه، تماماً مثلما سأكرّم والدي وأسلافي السرّيين.

الفصل الحادي والأربعون

26 حزيران/يونيو 1922

جزيرة لونغ آيلاند، ولاية نيويورك

سألت السيّد بول تينانت بجدّية، فأنا لم أقدر على المحافظة على ملامح ابتسامتي أمامه: «يبدو أنّك منزعج من شراء مكتبة بيربونت مورغان بعضَ الأناجيل المذهّبة من إيرل ليستر؟» لقد كان السيّد بول تينانت على وشك الوقوع في فخّ محكم نصبتُه له هنا في حفلة أقيمت في شرفة وينفيلد هول، داخل قصر عائلة ولورث، على ضفاف ساحل الذهب في جزيرة لونغ آيلاند، في ولاية نيويورك.

فقال السيّد تينانت بلهجته البريطانية المشدّدة: «يبدو أنّ الكنوز الثقافية تغادر إنجلترا بسرعة أكبر من توافدها إليها في هذه الأيام، وهي كنوز من داخل إنجلترا، وتنتمي إلى إنجلترا، وتخرج بأيدي الأمريكان.»

قلت، كما لو أنّني كنت أناقشه في الواقع حول حجته المنافية للعقل: «لقد أثرتَ ملاحظةً مثيرة للاهتمام.»

تجمّع الرجال والنساء من حولنا مثلما كنت آمل، ومن بينهم أحد أفراد عائلة فيبس، وعائلة فاندربيلت، وعائلة فريك، وهم يومئون برؤوسهم، فهزّ السيّد تينانت رأسه هو أيضاً.

سألته: «ولكن هل الكنوز الثقافية، التي هي ملك إنجلترا، تنتمي حقاً إلى إنجلترا؟ وهل إنجلترا هي فعلاً من خلقت تلك الكنوز، التي تبدو مستاءً جدّاً

لرؤيتها بين الأيدي الأمريكية؟ وهل هي جزء من التراث الإنجليزي؟ دعنا نناقش تاريخ رخام إلجين الثمين، على سبيل المثال، الذي يعود إلى أوائل القرن التاسع عشر إذا لم أكن مخطئة، حين أخذ اللورد إلجين التماثيل من الأكروبوليس في أثينا إلى لندن، واليونان ظلّت تطالب بعودة تلك التماثيل منذ ذلك الحين.»

ظلّ فم السيّد تينانت مشدوهاً، ولكن قبل أن يتمكّن من تكوين كلمة واحدة، قلت: «هل ستُفاجأ لو علمت أنّ كتب الإنجيل الثمينة لإيرل ليستر، التي تشعر بالقلق الشديد بشأنها، أتت في الأصل من بلجيكا؟»

هدأ السيّد تينانت، وخمدت عواصف هيجانه، وغادر، وتركني مع مجموعة من الضيوف الآخرين المندهشين والمرفهين، فقالت الضيفة إيمي فيبس وهي تقهقه: «أوه يا بيل. لديك دائماً حسّ الملاحظة الدقيقة، التي تكون دائماً على أهبة الاستعداد!»

أجبتها: «هذا يعود فحسب إلى أنّني حصلت على الكثير من المواد!»، وانفجرت المجموعة بالضحك.

التفّت تنورتي المصمّمة من قماش الشيفون الأصفر حول كاحلي، وأنا أحوم في أرجاء الشرفة، أبحث عن كأس من الشمبانيا يحملها أيّ نادل عابر، إلى أن اصطدمت مصادفة بجاك، فقلت له: «يا لها من مفاجأة!»

على الرغم من أنّ مزرعة جاك، المسماة في الجزيرة ماتينيكوك بوينت، والتي تبلغ مساحتها مئتين وخمسين فداناً، تقع على بعد أميال قليلة فقط من قصر عائلة ولورث أسفل ساحل الذهب في جزيرة لونغ آيلاند، وهو -لا شك- قد تلقى هو وزوجته دعوة لحضور هذا الحدث؛ لم أتوقّع رؤيته أبداً، فجاك لا يشعر بالراحة إلا حينما يكون في المكتبة، أو بصحبة عائلته مباشرة؛ أما الدردشة والمزاح وحضور الحفلات فلم تكن تروق له، وهو يرفض حضور معظم المناسبات الاجتماعية في أمريكا على أيّ حال. «مرحباً بيل. يمكنك

القول إنّ ما جلبني إلى هنا هو تنافس بين الجيران؛ لأنّ آل ولورث يمتلكون حديقة ورود تسرّ الناظرين جعلت جيسي مصمّمة على مقارنة ورودها بها.» أخذ نفساً من غليونه المرشوميّ.

لقد أصبحت بارعة جدّاً في قراءة سلوكيات جاك بمرور السنين إلى درجة أنّني أستطيع أن أحزر من خلال الطريقة، التي يعبث بها بغليونه، أنّه كان يفضّل أن يكون في عزبة ماتينكوك بوينت. يطالع روايات روديارد كيبلينغ، أو يقوم بحلّ ألغاز الكلمات المتقاطعة.

فقلت: «في هذه الحالة، لا أحد يمكنه مقارنة وروده بورود أو زنبق أو نرجس جيسي.»

فقال: «لقد أكّدت لها ذلك يا بيل، لكنّك تعلمين جيّداً مدى عناد زوجتي وتصميمها، فهي لم تستمع حتى إلى احتجاجاتي، لذلك جئنا إلى هنا.»

فقلت: «إنّ مثابرتها من بين الخصال العديدة التي تجعلني أحبّها كثيراً.»

أومأ جاك برأسه، وقال: «وأنت تشتركين معها في هذه الخصلة يا بيل، وربما تكون هذه السمة من بين العديد من الأسباب التي تجعلني أعجب بك كثيراً؛ لأنّ رفوف مكتبة بيربونت مورغان ستكون فارغة من دونها.» قد يُعدُّ هذا التعبير أقرب ما قد يصل إليه جاك لمغازلتي، على عكس والده، الذي كان يَعدّ ذلك التدلّل، حتى لو كان يستحق هذه التسمية، بريئاً تماماً.

سألته: «ألا يجب علينا الالتحاق بجيسي في الحدائق؟»

فقال: «لا أريد أن آخذك بعيداً عن معجبيك»، ونظر إلى المجموعة، وترك لي مكاناً شاغراً في دائرتهم.

لوّحت له بموجة من يدي، وقلت: «لا تقل هذه السخافات، فلا يوجد أحد أفضّل التحدّث إليه أكثر منك أنت وجيسي.»

فأشار إلي بالذهاب نحو الحدائق، فقلت له: «قدني إليها.» سرنا في الشرفة الواسعة، ومررنا أمام مئات الضيوف أو نحو ذلك، من الذين ما زالوا يختلطون، وتبادلنا أطراف الحديث حول فخامة قاعة وينفيلد داخل المبنى الرئيسي في قصر عائلة ولورث، وأدركت أنَ بناء هيكل آخر حديث من قبل آل ولورث قد وفَر لي الفرصة لإجراء محادثة كنت قد خطَطت لها في وقت سابق من هذا الشهر عندما كنت في المقبرة.

«لقد استوعبت أنّ آل ولورث قد قاموا ببناء ضريح مذهل لهم في مقبرة ودلون، ويبدو أنَ تصميمه مشابه لهرم مصري كامل، ومعه تمثال أبو الهول، وأعمدة نُقشت عليها كتابات هيروغليفية، وفيه أبواب برونزية ضخمة مزيّنة برسوم الفراعنة، وهذا يليق تماماً بتشريف أسرهم.»

فردّ وقال بعجب: «حقاً!» على الرغم من أنّه لم يكن مهتماً للغاية.

فقلت: «هل لديك أيّ أفكار حول كيفية تكريم عائلتك؟» بدا جاك مندهشاً، فشعرت بعدم الارتياح، لكنّني كنت أعلم أنّه يتعيّن عليّ مواصلة هذا الخط من الجدل، وإلا فسأفقد هذه الفرصة، فأضفت: «كما تعلم سيكون شهر آذار/مارس المقبل الذكرى العاشرة لوفاة والدك.»

نظر إليّ، لكنّنا لم نبطئ وتيرة سيرنا، ما جعلني ممتنة لسهولة التحرّك بوساطة التنانير القصيرة الموجودة حالياً في الموضة. وأخيراً قال: «من الصعب تصديق أنّ الكثير من الوقت قد مر.»

تنهدت وقلت: «أعلم ذلك. في بعض الأيام، عندما أكون في المكتبة، أشعر بأنّه لا يزال موجوداً معي.» وفوجئت من انهمار الدموع الحارقة من عينيّ بعد مرور كلّ ذلك الوقت، ولاسيما أنّني الشخص الذي طرح هذا الموضوع مقدمةً لطلب هائل. ولكن ربما يكون والدي هو الذي كنت أبكي من أجله؛ لقد رحل منذ مدّة ستّة أسابيع فقط.

فقال: «أنا أعرف ما تعنينه، فأنا أشعر به أيضاً. أعتقد أنّه كان دائماً أكبر من الحياة، لذلك لا ينبغي لنا أن نسمح للموت بأن يجتثّه من وجودنا.»

فقلت: «كلامك في محلّه»، وتوقّفت قليلاً، ثمّ سألته بشكل سلس كما لو أنّ ما يجري هو مجرّد إجراء محادثة: «وهل فكّرت كيف يمكنك تكريم والدك؟»

فأبطأ، لأوّل مرّة منذ أن سرنا، خطواته، وقال: «ماذا تقصدين؟»

«لقد بنى والدك نصب مورغان التذكاري في مجمع متحف وادزورث اثينيوم للفنون تكريماً لوالده جونيوس، وأنا أفترض أنّه كان لديك مخطّط مماثل»، ثم سألته: «كيف تريد أن يتم تذكرك؟»

فاجأه سؤالي مثلما توقّعت. لقد نهشته مخالب الموت، ونالت منه على مدار العامين الماضيين. لقد حدث ذلك قبل عامين، في شهر نيسان/أبريل، بينما كان جاك وعائلته يحضرون قدّاسات كنيسة القديس جورج بالقرب من ساحة ستايفيسانت؛ حيث دخل ارهابي فوضوي إلى الكنيسة، وبينما كان الحجّاب يأخذون القربان، أطلق الرجل النار، وقتل الدكتور جيمس ماركو، صديق عائلة جاك وطبيب عائلة آل مورغان، وفي وقت لاحق، أشارت التقارير إلى أنّ الهدف المقصود كان جاك، ثم، بعد مرور خمسة أشهر فقط، انسحبت عربة تجرّها الخيول أمام مكاتب عمل جاك، وتسبّبت في انفجار امتدّ لنصف ميل، وقتل ثمانية وثلاثين شخصاً، بمن في ذلك العديد من موظّفي مورغان، ونجا ابن جاك جونيوس، البالغ من العمر ثلاثين عاماً، والذي كان يعمل في مكاتب مورغان، من الموت بصعوبة. وكان من المفترض أن يكون جاك في مكتبه في ذلك اليوم، لكنّه قرّر في اللحظة الأخيرة البقاء في المكتبة.

فقال جاك في الأخير: «أنا لم أفكّر في ذلك.» لكنّني لم أصدّق ما قاله.

فقلت له: «أعتقد أنّ والدك قد سبق له أن فكّر في الأمر. كما أعتقد أنّه كان يعلم بالضبط كيف يريد من الناس أن يتذكروه.»

فقال: «لكنّه لم يترك أيّ توصيات بذلك يا بيل.»

توقّفت عن المشي، وحدّقت في وجهه، وقلت: «لقد صرّح والدك في وصيته بأنّه يريد أن تكون مجموعاته «متاحة بشكل دائم لتعليم وإمتاع الشعب الأمريكي»، وأنّ «عدم وجود الوقت اللازم لتكريس ذلك هو الذي منعني حتى الآن من تنفيذ هذا الغرض»، وأنا لم أعترض عندما قرّرتَ أنّ من الأفضل أن تبيع ثروات مورغان بشكل عام، فبعت بعضاً من أفضل عناصر والدك لعائلة فريك؛ مثل لوحات قاعة فراغونارد، أو قطع الخزف الصينية، أو بورتريه رامبرانت، أو التبرع بآلاف الأشياء لمتحف المتروبوليتان، أو ما تبرعت به لمتحف وادزورث أثينيوم للفنون. وإذا لم نحافظ على المجموعة المتبقّية من المخطوطات والكتب والرسومات في المكتبة، ونجعلها متاحة بشكل دائم للشعب الأمريكي كما هو مبيّن في وصيّته، فلن يتم الوفاء بشروط إرادة والدك، ولن يتم تذكّره كما أراد.»

هز جاك برأسه وقال: «أعتقد أنّك كنت بصدد الاقتباس من وصية والدي على وجه الخطأ و -.»

تجرّأت على مقاطعة ربّ عملي، فقلت: «أَأسأت فهمها فعلاً، أم أنّ من المريح بالنسبة إليك تجاهل رغباته المعلنة بوضوح؛ لأنّها كُتبت على نحو غامض، ولم تتضمّن أيّ تفويض صريح؟»

فاحمرّ وجهه في تفاعل مع كلماتي، لكن كان عليّ اتمام هذه المحادثة؛ إذ لا يمكنني أن أسمح بتجاهل وصيّة السيّد مورغان من دون أن تتحقّق، لا بسبب ما يعنيه السيّد مورغان لي، ولكن بسبب ما طلب مني والدي أن أفعله فأنا لن أخذل أياً من الرجلين. فقلت: «أنت تعلم ما أراده والدك يا جاك. لقد حان الوقت لترك مكتبة مورغان بوصفها مؤسسةً خاصة بك، وتحويلها إلى ما كان يجب أن تكون عليه: مؤسسة عامة تكريماً لوالدك.»

الفصل الثاني والأربعون

28 آذار/مارس 1924

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

جلست في مكتبي، حيث رتبت أمامي كومة من الرسائل مع قلم حبر في يدي، حين وصل الصحفي إلى مكتبي، وأردت أن أبقي تلك المحادثة قصيرة، وهو السبب الذي جعلني أشير إلى مدى انشغالي.

لقد واصلت رفض التواصل مع جميع الصحف، بما في ذلك رفضي لقاء الصحفي الممثّل لمجلّة (بيت السيّدات) في الشهر الماضي، لكنّني قدّرت قيمة الطلب الذي تقدّمت به صحيفة النيويورك تايمز لإعطاء لمحة للجمهور عن مكتبة بيربونت مورغان والسيّدة مديرتها، ورأيت أنّها جديرة بذلك.

إيل بينيت هو اسم الصحفي الذي أرسلته تلك الصحيفة. لقد دخل إلى القاعة بكبرياء وثقة في النفس، لكنّني اكتشفت في ما بعد أنّه لا يزال فتى يافعاً، ببشرة وردية لشاب قد بلغ مرحلة البلوغ، وشارب هزيل بلون الزنجبيل. أشرت إليه بالجلوس على الكرسي المقابل لي. آه، كم بدا صغيراً وتافهاً مقارنة بالرجل العظيم، سواء بالمعنى المجازي أم الحرفي للكلمة؛ ذلك الرجل الرائع الذي كان يزورني، من وقت إلى آخر، ويجلس في كرسي الضيوف.

«شكراً لك -يا آنسة غرين- على الوقت الذي أتحته لي لإجراء هذه المقابلة.» لقد كان يحمل قلمه فوق دفتر ملاحظاته، وجلس في وضع المراسل الصحفي المثالي.

لم أكن لأسمح لهذا الصحفي، حتى بعد مرور كل تلك السنوات، بتسليط ضوئه عليّ بشكل مبالغ فيه، فالعالم يتسع، وفي الوقت نفسه يصبح مثل القرية الصغيرة. ومع اختراع الراديو، واتساع صدى الصحف والمجلّات، أصبحتُ أكثر قلقاً الآن من أيّ وقت مضى، خشية أنَ يعلم شخص ما، في مكان ما، الحقيقة.

وأن تعلن صفحات الأخبار أنّ رئيسة مكتبة بيربونت مورغان كانت امرأة سوداء تبلغ من العمر أربعين عاماً، في إطار هذا المشهد العنصري المشحون، بوسعه أن يقضي على كل شيء، ويغيّر عالمنا جميعاً. ومثلما اعترفت منذ فترة طويلة، لقد كانت مخاوف ماما في محلّها.

وعلى الرغم من أنّ نهاية الحرب جلبت معها نمواً اقتصادياً كبيراً وازدهاراً واسع النطاق للبلاد، تصاعدت التوتّرات العرقية في جميع أنحائها، وتواصلت عمليات الإعدام خارج نطاق القانون من قبل منظّمة كيو كلوكس كلان، مثلما تواصلت كذلك الحروب العرقية والمذابح للأشخاص من أصحاب البشرة الملوّنة في مدن مثل تولسان في ولاية أوكلاهوما؛ وروز وود في ولاية فلوريدا؛ وحتى مدينتي الحبيبة العاصمة واشنطن، كما تنبأت ماما بذلك منذ فترة طويلة. أما الجزء المرعب في كلّ هذا فيتمثّل في أنّ الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات قد أيّدت تلك المشاعر العنصرية المتصاعدة من خلال رفض مشاريع القوانين المناهضة للإعدام خارج نطاق القانون مثل قانون داير، على الرغم من دعم الرئيس هاردينغ، ومن خلال اعتماد تشريعات حقيرة مثل قانون النزاهة العرقية في ولاية فرجينيا، الذي كان يمنع الزواج بين الأعراق، ويعرّف «الأبيض» على أنّه الشخص الذي لا أثر في دمائه غير السلالة القوقازية. وفي بيئة كهذه لا يمكنني أنّ أغامر بمخاطر غير ضرورية.

لم يصرف انتباهي عن مثل تلك الخواطر إلا الأعمال الفنّية التي لا تقدّر بثمن، فنهضت وسألته: «هل ترغب في القيام بجولة في أرجاء المكتبة؟»

فقال: «هذا من شأنه أن يكون شرفاً عظيماً آخر لي»، ونهض وسار بجانبي، وعبرنا معاً من مكتبي إلى البهو، لكن ليس قبل أن أشير له إلى جدران مكتبي المبطّنة بألواح الجوز والسقف المطلي بفخامة، وكذلك التماثيل النصفية وبورتريهات القرون الوسطى والجرار المصنوعة من الحجر السماقي التي كانت موضوعة فوق رف موقدي.

بمجرّد أن دخلنا فضاء المكتبة الحقيقي، عرّفته بالسقف المذهل الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً، والمزيّن بشكل حقيقي بأوراق الذهب، ولوحات الشخصيات التاريخية وعلامات بروج الحظّ، وثلاثة طوابق من خزائن الكتب المليئة بالمجلّدات الثمينة. لقد قدته إلى الطاولة والصناديق التي رتبت فيها بعض التحف لعرض عيّنة من كنوز المكتبة من قبيل أناجيل غوتنبرغ، ومجموعة نسخ الكاكستون، بالإضافة إلى أجزاء رئيسة من مخطوطات مدينة الحامول القبطية، ومثله تماماً شعرت بأغرب إحساس؛ لقد شعرت كما لو أنّني كنت أقود ذلك الصحفي عبر مسار حياتي الخاصة، كما أشرت إلى المخطوطات التي حصلت عليها، والتحف التي قمت بتأمينها.

وكان السيّد بينيت يصيح في جميع اللحظات المناسبة، لكنّه بدا مذهولاً أكثر حين رأى أناجيل غوتنبرغ، لكن يمكنني القول إنّه كان ينتظر الفرصة المثالية لينقضّ عليّ بقائمة أسئلته. وإذا كان بإمكاني إجراء المقابلة الفعلية أثناء قيامنا بتأمّل اللوحات والمخطوطات، أعتقد أنّ لدي فرصة للتهرّب من الاستفسارات الأكثر حساسية، فقلت له بدافع المجاملة والإحسان: «لا تتردّد في طرح الأسئلة الخاصة بك، بينما نقوم بجولة في المكتبة يا سيّد بينيت، فأنت لا تحتاج إلى تأجيلها حتى نهاية اللقاء.»

فقال: «هذا لطف رائع منك يا آنسة غرين، يبدو أنّ ما يجمعنا هو موعد نهائي.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

كنت على وشك البدء في وصف تاريخ المقتنيات الرئيسة على مدى ما يقرب من عشرين عاماً عندما سألني السيّد بينيت: «أي تعليم أعدّك لمكانة بهذه العظمة؟ وهل تلقّيت تدريباً رسمياً في هذه المجالات المختلفة، فبطريقة ما أنت تبدين كما لو أنّك كنت ناظرة أو تاجرة أكثر من كونك أمينة مكتبة؟»

لقد كان سؤالاً منطقياً ومقبولاً تماماً، لكنّه طرحه على حين غرّة، وهو السؤال الدقيق نفسه، الذي أعدّته أمي لي أثناء الليلة التي سبقت مقابلتي مع السيّد مورغان، وقد مضى عليه كلّ تلك السنوات الماضية.

بذلت قصارى جهدي لرسم ابتسامة ساحرة، مثل تلك التي استعملتها لعقود حين كنت أمارس عمليات التضليل، وقلت: «لم يكن هناك تعليم أفضل لهذا المنصب المذهل من التدريب الذي تلقّيته أمينةَ مكتبةٍ في جامعة برينستون في قسم الكتب النادرة.»

غيّرت الموضوع بينما كان يدوّن ملاحظاته في مذكّراته، وحوّلت انتباهه إلى مجلّدات الكاكستون المعروضة على إحدى الطاولات، ومتّعته بقصص اكتسابها الزاهية، المعروفة في الأوساط الفنّية، لكنّها جديدة بالنسبة إلى الجمهور؛ إنّه تكتيك آخر طوّرته على مرّ السنين يقوم على تشتيت انتباه جمهوري من خلال إبهارهم سواء من خلال إبداء ملاحظة غريبة، أم ارتداء فستان مغرٍ، أو سرد قصّة جيّدة.

ثم طرح أسئلة أخرى: «كيف تغيّرت مكتبة بيربونت مورغان؛ حيث انتقلت مكانتها من مجموعة خاصة إلى مؤسسة عامة؛ إنّه إنجاز هائل، وبطبيعة الحال، هو هدية عظيمة لشعب هذه البلاد؟» وأضاف، بينما كنّا نتجوّل في ما كان في السابق مكتب السيّد مورغان، لكنّه أصبح مكتب جاك لأكثر من عقد من الزمان: «لقد تمّ وصفها بأنّها الهدية الثقافية الأكثر أهمّية في التاريخ الأمريكي.» كنت أبتسم له كلّما فكّرت في تحوّل المكتبة إلى مؤسسة عامة، وقد أصبح حلمي الذي طال أمده حقيقة، ورأى ذلك الإرث النور ودبّت فيه

الحياة، وشرحت له ما وقع، فقلت: «من المحتمل أنّك تعرف أنّ العملية بدأت عندما نقل السيّد جاك مورغان بسخاء ملكيته للمكتبة وحيازتها إلى مجلس أمناء بوصفها هبة إلى الناس عامةً، ثم أصبح هذا المكان الرائع، بإذن من قانون خاص من الهيئة التشريعية في مدينة نيويورك، مكتبة مرجعية عامة بأهداف دعم البحوث العلمية، وفيها أيضاً معرض فنّي.» واصلنا مناقشة لائحة البرنامج الذي وضعته للمكتبة، فضلاً عن المعرض القادم المعدّ لتقديم الرسائل والمخطوطات التي حرّرها الآباء المؤسسون للولايات المتّحدة الأمريكية من أمثال جورج واشنطن، والتي ستكون مفتوحة للجمهور.

أنهيت الجولة معه بزيارة مكتب السيّد مورغان، فالبلور المزيّن للنوافذ، التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، نابض بالحياة، ومن المؤكّد أنّ تلك الألواح الزجاجية الملوّنة، التي تم إدخالها في نوافذها العمودية الطويلة، تستحقّ ملاحظة السيّد بينيت، ومثلها خزائن الكتب المصنوعة من خشب الجوز، وثريا المرمر، واللوحات المذهلة ثلاثية الأبعاد التي رسمت في عصر النهضة، وبورتريهات هانز ميملينج، وماكرينو دالبا، وبيروجينو، ولوكاس كراناخ، ومن بينهم العديد من الرسّامين الآخرين.

وكان لزاماً عليّ أن ألفت انتباهه إلى صورة السيّد مورغان حتى وإن تجاهلت عن قصد تقديم لوحة اقتنيناها حديثاً معلّقة بالقرب من المكتب الهائل المصنوع من خشب الجوز للسيّد مورغان.

بمجرّد أن أنهينا الإجابة عن جميع أسئلته، طلب مني بخجل قائلاً: «هل في وسعي أخذ صورة لك؟»

أجبته، من دون أن أبذل أيّ جهد لإخفاء تردّدي: «لِمَ لا؟» أنا لم أكن غريبة عن عالم الصور، فعلى مرّ السنين، قام كلّ من بول هيليو، ورينيه بيو، ولورا كومبس هيلز، ووِيليام روثنشتاين، وحتى هنري ماتيس، برسمي أو أخذ صور فوتوغرافية لي، لكنّها كانت لاستخدامي الشخصي، وليست متاحة للناسى عامةً.

ثم سألني: «هل لديك أيّ مكان معيّن تفضّلين أخذ صورة فوتوغرافية فيه؟»، ثم تأمّل وقال: «في الحقيقة كلّ الأماكن جميلة هنا، ولا يوجد نقص في الخلفيات الرائعة»، ثم تركني أفكّر في غضون استدعائه المصوّر الذي كان ينتظر في الخارج.

وبمجرّد عودته إلى مكتب السيّد مورغان، اخترت المكان المثالي لالتقاط صورة مناسبة، ومن المؤكد أن أخذ تلك الصورة سيكون بمنزلة المخاطرة، إلا أنّني شعرت بأنّها مخاطرة مستحقّة ومناسبة، بل حتى ضرورية.

وصل المصوّر، فهيّأت نفسي، بينما كان يعدّ معداته، ووقفت بين طاولة مكتب السيّد مورغان، التي كانت أرجلها تشبه قوائم الأسد، ولوحة بورتريه نصحت جاك بشرائها حديثاً. لقد تم رسم تلك اللوحة، التي كانت تحمل عنوان بورتريه لرجل موركسي، في نهاية القرن السادس عشر، داخل ورشة عمل دومينيكو تينتوريتو، وتصوّر ظاهرياً سفيراً موركسياً في بلاط أحد القصور في مدينة البندقية، متألقاً في زيّه الرسمي، وإلى جانبه حزمة بيضاء من الورق مختومة بختم الشمع، رمزاً لدوره الدبلوماسي. وعلى الرغم من أنّ لمسات الفرشاة كانت بارعة، والتصوير كان خلاباً ونابضاً بالحياة، لم تكن تلك الأسباب هي التي دفعتني إلى حثّ جاك على اقتنائها. لقد كان موضوع لوحة بورتريه لرجل موركسي رسمَ رجلٍ أسود، وهو الرجل الذي يبدو تماماً مثل بابا. ومع التقاطي هذه الصورة الفوتوغرافية الآن، ستشمل صورتي الرسمية رمزين على حدّ سواء: قوائم الأسد لأرجل طاولة مكتب السيّد مورغان، ولوحة بورتريه لرجل موركسي.

وبعد ثلاثين دقيقة من التقاط الصورة، انتهى المصوّر من عمله، وحزم كاميراته الضخمة، ثم جذبني السيّد بينيت على حدة، وقال: «آمل أن لا تمانعي -يا آنسة غرين- أن أطرح عليك سؤالاً شخصياً.» قبل أن أقرّر ما إذا كنت سأوافق أو أمانع السماح له بطرح سؤاله، تابع كلامه وأضاف: «هناك

شائعات، ولن أكون صحفياً جيّداً إذا لم أسألك عنها؛ هل بينك وبين السيّد مورغان علاقة حميمية؟»

احمرّ وجهه من الإحراج، وأتصور أنَ رئيسه هو الذي أصرّ عليه لطرح ذلك السؤال. وأنا أعلم أنّه كان يتعيّن عليّ أن أكون غاضبة، أو أعبّر عن الشعور بالإهانة، فذلك سؤال لا يليق من باب الآداب طرحه على سيّدة، لكنّني في واقع الأمر كنت مبتهجة.

فقال: «أعتذر عن طرح هذا السؤال، فأنا أعلم أنّه ليس لائقًا حقاً-.»

قاطعت الشاب المتلعثم، وقلت، وقد تصنّعت ابتسامة: «لو كنت أمينة مكتبة عادية لكنت شعرت بالإهانة، لكنّني لم أكن عادية في أيّ شيء.»

«إذاً -.» ظلّ ينتظر جوابي.

أجبته وأنا أضحك: «من الكافي القول إنّنا حاولنا أن نكون أكثر حميمية.» كان مؤكّداً لدي أنّه لو كان السيّد مورغان معنا لاستمتع بردّي الإباحي الفاجر.

بدا مشوش الذهن ومرتبكاً، فهو لم يكن مؤكّداً له ما إذا كانت إجابتي نعم أو لا، فقال: «آه! حسناً»، لكنّه استعاد صوابه بسرعة، وسألني: «هل لي بسؤال أخير إذا لم يكن لديك مانع يا آنسة غرين؟»

قمت بهز رأسي في إشارة إلى موافقتي، على الرغم من أنّني كنت آمل أن يعبّر عن افتقاري إلى الحماسة أيضاً. كان ينبغي أن يكون هذا السؤال الأخير هو السؤال الختامي، فأنا قد أعطيته الكثير من المعلومات؛ لأنّني شعرت بالراحة خلال هذه المقابلة.

«هل يمكنك مشاركة برامجك الشخصية معنا؟»

أخيراً، ولأوّل مرّة، طرح سؤالاً يسعدني الإجابة عنه، فقلت: «سأكون راضية تماماً، ويشرّفني أن أعمل مديرةً لمكتبة بيربونت مورغان ما حييت.»

خاتمة

14 كانون الثاني/يناير 1948

مدينة نيويورك، ولاية نيويورك

تآكلت زوايا الرسالة بمفعول النار، وتفحّمت حين دفعتها في أتون نيران الموقد. وعلى الرغم من أنّني كنت أدرك أن تلك الحواف المحروقة ستكون ساخنة، حاولت الإمساك بها لإنقاذها من النيران، لكنّني توقّفت قبل أن تصل أطراف أصابعي إليها. لماذا توقّفت عن هذا المسعى، الذي كنت أريد من خلاله تدمير جميع سجلّاتي؟ ليس لأنّ أمر حفظ الرسائل يبدو كما لو أنّه سيعيد الأشخاص الذين تمّ إحياء ذكراهم فيها، بل لأنّني لا أستطيع أن أسمح لأيّ شيء بأن يشوّه موروثي.

هل يمكن لسحب رسائل ماما من لهيب النار إعادتها إلى جانبي؛ حيث عاشت حياتها كلّها إلى أن توفيت قبل ما يقرب من عشر سنوات، وتركتني وحيدة حقاً لأوّل مرّة في حياتي؟ وعلى الرغم من أنّنا واجهنا معاً تحدّياتنا في سنواتي الأولى من العمل، وواجهتها بالعداء والكره عندما عدت من مدينة شيكاغو إثر لقاء والدي في عام 1913؛ أقمت أنا وأمي علاقة أكثر متانة. ففي حين كان لبابا أحلام جميلة تتعلّق بتحقيق المساواة لنا جميعاً، أنقذتني ماما، وجميع إخوتي، من الميز العنصري والعنصرية في الولايات المتّحدة الأمريكية، وحرّرتني لكي أحقّق ذلك الوعد الذي رآه بابا في وقت باكر فيّ.

هل سيعيد حفاظي على الرسالة الوحيدة، التي لدي من بابا؛ والدي الذي قضى نحبه منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً من الآن، ودفنت آماله في الحرية الحقيقية معه؟ وهل أريد حقاً أن يعود الرجل الذي أعطاني الكثير إلى هذا العالم، وابتعد عن الوعد المبكّر بالمساواة الذي عاشه عندما كان شاباً في عصر إعادة الإعمار؟ إنّ أمريكا التي أسكنها هي نقيض المجتمع الذي عمل من أجله، على الرغم من أنّ مجموعات مثل الرابطة الحضرية الوطنية، والمجلس الوطني للنساء الزنجيات، ومؤتمر المساواة العرقية، احتجوا على قوانين الفصل وعدم المساواة. ولو كان والدي حيّاً، ورأى بلدنا المنفصل، والتفوّق الأبيض الصريح، الذي لا يتورّع في خداعنا بلا خجل، لتحطّم قلبه. ورغم قتال الجنود من أصحاب البشرة الملوّنة جنباً إلى جنب مع الجنود البيض في الحرب، عاد الجنود السود إلى الوطن ليجدوا قوانين جيم كرو، التي أبقت الأشخاص الملوّنين في حالة مستمرة من الدونية الاجتماعية والاقتصادية. ولا تزال عمليات الإعدام خارج نطاق القانون شائعة بين الناس، والفصل العنصري هو الممارسة اليومية، والتمييز العنصري يمنع الأشخاص من الحصول على تعليم أفضل، وعمل أفضل، ومنازل أفضل. وعلى هذا النحو، سيكون حمل اليأس ثقيلاً أكثر من أن يتحمّله بابا.

هل سيمكّنني إنقاذ الرسائل الطويلة المكتوبة بأناقة، التي أرسلها برنارد إلي من أوروبا طوال سنوات، من استعادة الحبّ الذي تبادلناه أحدنا مع الآخر؟ لن يجمع شمل الفتاة، التي كنت عليها ذات مرّة، والرجل الذي اكتشفته، ولن تعود أبداً تلك العاطفة المسروقة. بغض النظر عن الرابط الاستثنائي، الذي تقاسمناه ذات مرّة طوال تلك السنوات، لقد تغيّرنا كثيراً، وصرنا محطّمين جدّاً للعودة إلى تلك الأيام البريئة. على أي حال، كنت بحاجة إلى كسر رابط ذلك الحبّ المعيب من أجل النهوض والارتقاء.

في الأخير، تذكّرت الرجل الذي أحدث أكبر فرق في حياتي. إذا استعدت كل رسائل السيّد مورغان الشخصية من النار، فهل ستستحضره لي مرّة أخرى؟ فعلى الرغم من أنّني مستعدّة للتضحية بالغالي والنفيس لكي أرى ضحكة أخرى منه، وألعب معه لعبة البيزيك المحتدمة، تغيّر عالم الأعمال الذي تركه وراءه، وتنظّم وفق قوانين مختلفة إلى درجة أنّ عملاق المال لن يعود قادراً على الحكم كما كان يحب من دون أيّ مراقبة أو مساءلة. وكيف يمكنه أن ينجو من هذا التغيير المهيمن على الأرض؟ وماذا عن الخوف الساكن في أغوار قلبي، فإذا عاد السيّد مورغان إلى الحياة، فسأكتشف أنّه كان يشعر بالشيء نفسه تجاه الأشخاص الملوّنين، كما كان يشعر تجاه اليهود؟

لا. إنّ الحفاظ على هذه الرسائل لن يفعل شيئاً لاستعادة الأشخاص الذين أحبّهم، أو تنبض ذكرياتي بهم، والحفاظ على سجلاتي لن يخدم إلا العنصريين في هذا العالم، فيوفّر لهم سبباً لتدمير إرثٍ قد عملت طوال حياتي كلها لبنائه، وقدّمت من أجله تضحيات لا تُعدّ ولا تحصى؛ وهي المساهمة الوحيدة التي ستخلدني؛ أي مكتبة بيربونت مورغان، هديتي إلى شعب هذا العالم.

دفعت الرسالة التي ضلّت سبيلها مرّة أخرى في لهيب النيران بمسعار النحاس، فتأجّجت النار مجدّداً. ولكن إثر تحريكها بانت كلمات بابا في ذهني، واشتعلت رغبة مارقة في داخلي؛ ماذا لو تحقّقت آمال بابا؟ ماذا لو تمكّن مجتمعنا من التحوّل والتطوّر بالطريقة التي كان يحلم بها؟ هل يمكن أن نصل إلى ذلك اليوم الذي سيكون للعالم فيه قادة حكوميون جدد وقوانين جديدة من شأنها أن تمنح المساواة لجميع مواطني هذه البلاد؟ هل يمكن أن يتغيّر مجتمعنا؛ حيث نسير أحدنا إلى جانب الآخر، ونعيش أحدنا مع الآخر، وربما يحبّ أحدنا الآخر، بغض النظر عن لون بشرتنا؟ وإذا بلغنا ذلك اليوم، فهل سيعود شخص ما، في يوم من الأيام، إلى الوراء في الوقت المناسب لاكتشاف قصّتي، ويطالب بفخر بتبنّي حقيقتي بوصفي أمينةَ مكتبة شخصية لجي بي مورغان صاحبة بشرة ملوّنة كان اسمها بيل دا كوستا غرين؟

ملاحظات تاريخية

لقد سعينا، من خلال هذا العمل، إلى تقاسم حياة بيل دا كوستا غرين وإرثها بأكبر قدر ممكن من الدقّة، على الرغم من أنّنا كتبنا نسخة خيالية من سيرة بيل وعالمها في رواية (أمينة المكتبة الشخصية)، كما حاولنا ترسيخ روايتها انطلاقاً من الحقائق المتاحة لنا. وبالنظر إلى أنّ بيل كانت شخصية عامة معروفة إلى حدّ ما، مثلما كان جي بي مورغان، وبدرجة أقلّ، والد بيل، ريتشارد غرينر؛ كانت هناك معلومات وافرة يمكننا الاعتماد عليها.

وهكذا، إنّ تصوير بيل في حدّ ذاتها، وريتشارد غرينر، وجينيفيف فليت، وجي بي مورغان، وجاك مورغان، وبرنارد بيرنسون، بالإضافة إلى تصوير المزيد من الشخصيات الثانوية القائمة على الأفراد الواقعيين، اقترب بشكل وثيق من التفاصيل المعروفة. لقد سعينا أيضاً إلى التقاط السياق التاريخي، الذي عاشت فيه بيل بأكبر قدر ممكن من الأصالة؛ فتناولنا عرض نشأتها، ومسيرتها المهنية بوصفها أمينة وناظرة لمكتبة مورغان، وحياتها الاجتماعية في السلّم العلوي من مجتمع العصر الذهبي، وتجربتها على هامش العالمين: عالم البوهيمية وعالم النساء المدافعات عن حقّ الاقتراع. والأهم من ذلك أننا حاولنا تخيّل وتصوير تضحياتها ومجهوداتها منذ دخولها إلى مهنتها على أنّها امرأة بيضاء في مجتمع عنصري معادٍ للأمريكيين الأفارقة.

لقد تبنينا، في بعض الأحيان، عندما اقتضت الضرورة التسريع من مجريات القصّة أو مجاراة القوس الناري لأحداث هذا الكتاب، الحريات في التعامل مع التواريخ والتفاصيل التاريخية، فعلى سبيل المثال، لقد أشرنا

إلى الفضيحة التي تنطوي على إطلاق النار على ستانفورد وايت العضو في شركة الهندسة المعمارية الشهيرة مكيم وميد آند وايت فيما حدث في كانون الثاني/يناير من عام 1906، في حين أنّ جريمة القتل وقعت في الحقيقة بعد عدّة أشهر من ذلك التاريخ. وبالمثل، أشرنا إلى حفل زفاف شخصيتين من جمعية مدينة نيويورك ألا وهما مارجوري جولد وأنطوني دريكسل في مشهد مؤرخ في شهر آذار/مارس من سنة 1908، لكنّ حفل الزفاف حدث في عام 1910. مثلما ذكرنا أنّ معرض الأسلحة في مدينة نيويورك قد أقيم في شهري شباط/فبراير وآذار/مارس من عام 1913، لكنّنا ذكرنا في هذا الكتاب أنّه كان لا يزال مستمراً في كانون الأول/ديسمبر 1913. أما بالنسبة إلى معرض الفنون المسمى معرض 291، فقمنا بجمع عرضي رودان وماتيس في عرض واحد أقيم في شهر أيار/مايو من عام 1908، بينما ما حدث في الواقع هو وجود معرضين في عام 1908. بالإضافة إلى تخيّلنا إقامة بعض الحفلات في العصر الذهبي؛ مثل سهرة الصيف التي تصوّرنا وقوعها في قصر ولورث في ساحل الذهب؛ في حين أنّها حفلة خيالية صمّمناها على غرار ما يقع من أحداث في الحفلات الفخمة الأخرى. أما في ما يتعلّق ببيع مجموعة اللوحات الشهيرة بعنوان «تطوّر الحبّ»، التي رسمها جان أونوريه فراغونارد، فلقد ذكرنا، في ثنايا هذا الكتاب، أنّ جاك مورغان فكّر في بيعها في عام 1913، في حين أنّ هنري كلاي فريك في الواقع اشتراها في عام 1915. أما توقيت شراء مكتبة بيربونت مورغان لوحة بورتريه لرجل مورسكي، التي عُلّقت في مكتب السيّد مورغان، فتم في عام 1929 ولم يتم في عام 1924، وما قمنا به من تشابه بين موضوع اللوحة ووالد بيل، الذي دفعها لشرائها، هو من قبيل افتراضنا الفنّي.

لقد واجهتنا فجوات من حين إلى آخر متعلّقة ببعض الفروق الدقيقة في علاقات معيّنة، وهذا أمر مألوف، أثناء التعامل مع قصص النساء وسجلاتهنّ

التاريخية خاصةً. وفي كثير من الأحيان، لم تتم المحافظة على هذه السجلات، ولم يتنبّه الناس إلى أنّها تستحق الحفظ إلا حديثاً. علاوة على أنّ قصّة بيل صعبة؛ لأنّ بيل، في حدّ ذاتها، كانت مصمّمة على إبقاء الجوانب الأكثر خصوصية في حياتها مخفيّة. في هذه الحالات، قمنا بتنظيم القصّة وبنائها اعتماداً على ما قمنا به من بحث، وحين تحدث فجوات كنا نقوم باستقراء منطقي لملء الفراغات.

مثالاً على ذلك، كانت علاقة بيل الرومانسية مع برنارد بيرنسون موثقة جيّداً؛ في حين كانت التفاصيل الحميمية بينهما مجهولة. وكان علينا أن نستخلص استنتاجات مهمّة حول الأحداث الرئيسية، مثل تفاصيل حول تقاربهما وعلاقتهما الغرامية في أمريكا وأوروبا، والطريقة التي ربطت وضعهما بوصفهما غرباء معاً. وتشير بعض الرسائل والتواريخ إلى أنّ بيل تعرّضت لعملية إجهاض، وكان تأثير هذه العملية عليها طويل الأمد، لكنّ التفاصيل غير موثّقة. وتشير هايدي أرديزون، مؤلفة كتاب سيرة بيل الرائعة، بعنوان (حياة مستنيرة: رحلة بيل دا كوستا غرين من التحيّز إلى التميّز)، (وهايدي تُعد من بين أحد المؤرخين القلائل الذين نظروا عن كثب إلى حياة بيل)؛ تشير إلى أن ذلك حدث بالفعل، وقد أخذنا بعض الأحداث من هناك، وتصرّفنا فيها بدافع حرّية الخيال. زد على ذلك أنّ برنارد كانت له علاقة عمل طويلة مع الأخوين دوفين، وتشير بعض الدراسات الأكاديمية الأخيرة إلى بعض الممارسات التي ربما وجدتها بيل مرفوضة، لذلك تصوّرنا تأثيرها على بيل وتعاملاتها التجارية. ونحن نعترف بأخذ ترخيص إبداعي كبير في ما يتعلّق بالاستنتاج المثير لعلاقة بيل ببرنارد. أما علاقتهما فاستمرت لعقود في حياتهما الفعلية، لكنّنا ربما اخترنا إنهاء العلاقة كما كنا نتمنى، وكنا نأمل، من خلال ذلك، أن يتوافق مع تصوّراتنا الدرامية.

كما قمنا بافتراضات مماثلة في ما يخصّ العلاقات العميقة الأخرى التي كانت موجودة في حياة بيل بناء على فهمنا للسياق والشخصيات. فعلى سبيل المثال، علاقتها مع السيّد جي بي مورغان؛ حيث تم توثيق الكمّ الهائل من الوقت الذي قضاه هو وبيل معاً من قبل العديد من الأشخاص المرتبطين بهذا المموّل الشهير، وكذلك أنواع الأنشطة والمناسبات الاجتماعية التي تقاسماها، ودرجة قربهما العام أحدهما من الآخر. لكنّنا لم نكن نعرف المدى الكامل لعلاقتهما، لا في ذروته ولا في حدّه الأدنى، على الرغم من الشائعات العديدة التي انتشرت بشأنهما، وحقيقة أنّ بيل في حدّ ذاتها قالت: «حاولنا بناء علاقة حميمة!»، عندما ردّت على سؤال الصحفي في الفصل الختامي حول إمكانية كونها عشيقة للسيّد مورغان. وهو ما جعلنا ننسج علاقة معقّدة تعجّ بالتوتّر الجنسي استناداً إلى ما تصوّرنا أنّ من المفترض أن يكون، بناء على شخصيتيهما.

وبالمثل، تعاملنا مع علاقة بيل بوالدها، فنحن لا نعرف مدى ارتباطها به طوال فترة شبابها، على الرغم من وجود تقارير عن تعاطفهما أحدهما مع الآخر، ومصالحهما المشتركة، لذلك تصوّرنا ما قد يكون بينهما. كما لم يكن لدينا أيّ تأكيد لما حدث في سنواتهما الأخيرة، بعد أن ترك ريتشارد بيل وغادرعائلتها للسفر إلى الخارج وبناء عائلة أخرى. لكنّنا عندما قرأنا سيرة هايدي أرديزون عن بيل، التي تقول إنّها قامت برحلة في توقيت غريب إلى مدينة شيكاغو؛ رحلة لم يكن لها أي غرض تجاري، شعرنا بالتأكيد أنّها التقت والدها، الذي كان يعيش هناك آنذاك. وهكذا تصوّرنا حدثَ لمّ الشمل مع والدها الذي تستحقّه بيل بجدارة.

وبين ثنايا كلّ السطور التي كتبناها، عندما علمنا أنّ آن مورغان كانت تكره بيل، على عكس جاك مورغان وأخواته الأخريات، كنّا نأمل خلق علاقة صعبة بين آن وبيل؛ علاقة كانت كلّ واحدة منهما تحاول فيها إخفاء

أسرار هويّتها. كما أثّرت التكهّنات حول الحياة الجنسية لآن، التي كانت موجودة حتى في حياتها، مدفوعةً بعلاقتها مع مثليات جنسيات معروفات مثل إلسي دي وولف وإليزابيث ماربوري، بالإضافة إلى رفضها الزواج ومواقفها السياسية؛ في هذا القرار الذي اتخذناه بخصوص علاقتها ببيل، كما فعلت الفرصة لاستكشاف الضغوط المجتمعية على كلٍّ من آن وبيل ليكونا غير ذاتيهما الأصيلتين.

لذلك كان علينا أن نفكّر في كيفية معالجة المنحدرين من أصل أفريقي خلال أوائل القرن العشرين، وكذلك كيف كانت بيل ستفكّر في ذاتها. وما اكتشفناه هو أنّ مصطلح «ملوّن» كان يستخدم بشكل بارز خلال الفترة الزمنية المبكِّرة في الرواية؛ في ما يتعلّق بالأشخاص من ذوي الأصول المختلطة خاصةً، وكذلك مصطلح «الأسود»، ثم تطوّرت هذه المصطلحات إلى كلمات مراجع مثل «الزنجي» مع تغيّر القانون والتصوّرات في الولايات المتّحدة الأمريكية. ومع تطوّر عمر بيل في الرواية، استخدمنا في البداية كلمة «الزنجي»، التي تبدو أكثر ملاءمة للعصر، ولكن عندما تأمّلنا بعمق في الأمر شعرنا أنّ بيل ربّما لم تستخدم مصطلح «الزنجي» أثناء تفكيرها في ذاتها. وعلى الرغم من أنّ هذه المسائل الثقافية المتنوّعة قد وقع تناولها، وتغيّرت في المجتمع بمرور الزمن، لم تكن بيل جزءاً من هذا التغيير، وشعرنا أنّه كان من الصعب عليها أن ترى نفسها من هذا المنظور مثلما يرى الكثيرون من بني جنسها أنفسهم، باستثناء استخدامها مصطلح «ملوّن» الذي ترعرعت على استخدامه.

وللغوص أعمق في أيٍّ من هذه الموضوعات، أو دراسة أيٍّ من الشخصيات التاريخية، نوصي بمطالعة العديد من الكتب والكتابات غير الخيالية، بما في ذلك، على سبيل المثال لا الحصر، كتاب (حياة مستنيرة: رحلة بيل دا كوستا غرين من التحيّز إلى التميّز) بقلم هايدي أرديزون، وكتاب (بيت

مورغان: سلالة مصرفية أمريكية وصعود التمويل الحديث) بقلم رون تشيرنو، وكتاب (برنارد بيرنسون: حياة في تجارة الصور) بقلم راشيل كوهين، وكتاب (ريتشارد غرينر: ناشط سياسي عنيد) بقلم كاثرين رينولدز تشادوك، ومقال ريتشارد غرينر الخاص «معضلة البيض»، وكتاب (الطريق المتحجّرة: إعادة الإعمار، وتفوّق البيض، وصعود جيم كرو) بقلم هنري لويس غيتس الابن. كما نقترح أيضاً مراجعة المنشورات الممتازة لمكتبة مورغان، بالإضافة إلى القيام بجولة في هذه المؤسسة الرائعة.

وعلى الرغم من أنّنا عشقنا الكتابة عن بروز بيل في المجتمع، وما تتمتّع به من مهارة، ونظرتها الثاقبة في عالم الأزياء والموضة، فضلاً عن سلوكها الإباحي الجريء في بعض الأحيان، واجهنا أيضاً تحدياً هائلاً؛ فنظراً إلى المدّة الطويلة المتعمّدة التي استغرقتها بيل في تدمير رسائلها، تاركة وراءها مراسلاتها التجارية فحسب ورسائلها إلى برنارد (التي وعد بتدميرها، لكنّه فشل في القيام بذلك، والتي لم تناقش أبداً الأصول العرقية لبيل)، لم يكن لدينا سوى سجلٍ محدود للغاية عن شعورها حيال ما حدث في ذلك العالم العنصري الذي عاشت فيه، والمحادثات المنبثقة عن تلك المشاعر. وغنيّ عن القول أنّها لم تتحدّث علناً عن أصولها للأسباب نفسها. ومن الواضح أنّ بيل لم ترغب في أن يتم اكتشاف هويّتها الحقيقية، وهذا ليس مفاجئاً بالنظر إلى عنصرية عصرها، وقلقها المشروع من أنّه إذا كانت خلفيتها معروفة على نطاق واسع فانّه سيتم اجتثاث إنجازاتها في مكتبة بيربونت مورغان.

لذلك عندما بدأنا الكتابة عن الحياة الداخلية لبيل، ولا سيما مشاعرها حول العيش بيضاء، دخلنا العالم الذي غالباً ما تصفه ماري بأنّه الفضاء بين أركان العمارة التي شكّلتها الحقائق؛ مساحة استخدمنا فيها مزيجاً من البحث، والتجارب الشخصية، والخيال، والاستقراء المنطقي، للوصول إلى الذات الداخلية لبيل. واعتمدنا أيضاً على تجارب فيكتوريا الخاصة بوصفها امرأة

أمريكية من أصل أفريقي، وتجارب عائلتها، ولا سيما تجارب جدّتها، التي كانت ذات بشرة فاتحة، وغالباً ما كنا نوظّف ذلك عند الضرورة. وبالاعتماد على هذه التجربة العائلية، وقرنها بالأبحاث القائمة على الحالات التاريخية التي ذكرت مرور بعض السود من البشرة الفاتحة إلى تبني البشرة البيضاء مثلما هي موثّقة في كتب مثل كتاب (المنفى المختار: تاريخ من النجاح العرقي في الحياة الأمريكية) بقلم أليسون هوبز، نأمل أنّنا حقّقنا العدالة التي كانت بيل تناضل من أجلها، وجلبنا إلى الحياة الظلمَ الرهيب والألم الذي عانى منه الناس من ذوي البشرة الملوّنة، والذي تسبّبت فيه العنصرية والميز العنصري الممارس على الأفراد داخل الولايات المتّحدة الأمريكية ككل.

لقد أتيحت لبلادنا فرصة لتحقيق المساواة العرقية في السنوات التي تلت الحرب الأهلية؛ وهي المساواة التي عاشها ريتشارد غرينر وأسرته لفترة وجيزة، ودعا إليها طوال حياته كلّها، لكنّ التفوقّ الأبيض ومنسوب الميز العنصري ارتفع بوصفه ردًّ فعل على تلك الجهود. نأمل أنّ هذا الكتاب قد وُفّق في عرض لا الحياة المذهلة والمثيرة لبيل دا كوستا غرين فحسب، بل أيضاً إماطة اللثام عن التضحية والمعاناة التي تحمّلها السكان الأمريكيون الأفارقة نتيجة ردود الفعل المروعة بوعد المساواة في الماضي والحاضر. والأهم من ذلك أننا نأمل أن يلهم هذا الكتاب الناس في إثارة نقاش حول هذه القضايا المهمّة، والمحادثات التي ستعزز الفهم والتعاطف، وفي النهاية تحقيق التغيير المنشود.

كلمة الكاتبة ماري بينيديكت

لا تمثّل هذه الملاحظات مجرّد كلمة عادية عابرة لكاتبة؛ لأنّ رواية (أمينة المكتبة الشخصية) لا تمثّل لي، في نهاية المطاف، رواية عادية، ولم تكن لدي أيّ فكرة عن أنّ تأليف كتاب عن بيل دا كوستا غرين، أمينة المكتبة الشخصية للسيّد جي بي مورغان، ومبدعة مجموعة المخطوطات الشهيرة في مكتبة بيربونت مورغان، والمرأة التي يكتنف حياتها الكثير من الأسرار، من شأنه أن يغيّرني، فمن خلال إحياء بيل أنا نفسي استيقظت، واكتسبت أختاً لي في هذه العملية.

لقد اكتشفت بيل لأوّل مرّة منذ سنوات، عندما كنت إنسانة مختلفة أعيش حياة مختلفة. وكنت في تلك الأثناء أعمل في مدينة نيويورك بصفتي مدّعية قضائية تجارية لدى إحدى أكبر شركات المحاماة في العالم، وكنت حينها غير سعيدة بشكل رهيب. لقد كنت أعلم أنّني لم أولِ حياتي أيّ هدف، ومثّلت مكتبة بيربونت مورغان أحد أهمّ الملاجئ التي آوتني خلال تلك الأيام الحالكة. يمكنني، من خلال التجوّل أمام خزائنها المتلألئة، التي تعجّ بالكنوز والجواهر، أن أدعي أنّني كنت مؤرخة أو عالمة آثار أو كاتبة تحاول نبش الماضي والكشف عن كنوزه المخبّأة، فصرت أعيش الحياة التي كنت أتوق اليها، بدلاً من الحياة التي كنت أعيشها.

وفي إحدى فترات ما بعد الظهر عثرت على بيل. لم يظهر لي هذا الاكتشاف من خلال لوحة إعلامية تخبرني عن دورها في مكتبة بيربونت مورغان، أو من خلال معرض حول مساهماتها، أو حتى عرض إحدى صورها؛

فمثل تلك المراجع لم يقع تسليط الضوء عليها في ذلك الوقت، بل علمت عن بيل عن طريق أستاذة محاضرة عابرة قامت بتخصيص بضع لحظات من جدول أعمالها المزدحم لوصف هذه المرأة المذهلة، وبفعل ذلك قدّمت لي عدسة جديدة أمكنتني، من خلالها، من مشاهدة مكتبة بيربونت مورغان ومجموعتها، والوقت الذي تمّ إنشاؤها فيه، والكثير من المعلومات القيّمة الأخرى.

سكنت بيل في فؤادي، عندما بدأت النبش في أعماق خلفيتها خاصةً، وعلمت أنّ والدها، ريتشارد غرينر، كان أوّل خريج أمريكي من أصل أفريقي في جامعة هارفارد، وكان مدافعاً شرساً عن المساواة في العشرية التي تلت الحرب الأهلية، ومنادياً متميّزاً بتبني قانون الحقوق المدنية لعام 1875؛ وهو قانون كان يؤكد المساواة بين جميع الناس وينصّ على المساواة في المعاملة في وسائل النقل العام والأماكن العامة للجميع؛ قانون ألغته المحكمة العليا في عام 1883، وبذلك قوض الكثير من التعديلين الثالث عشر والرابع عشر، اللذين حظرا العبودية، وضمنا حماية متساوية للقوانين، على التوالي. ونتيجة لذلك، أجبرت ابنة ريتشارد غرينر على إخفاء هويّتها الحقيقية. ومن أجل أن تصبح أنجح أنثى في مسيرتها المهنية في عصرها، تبنّت العيش بوصفها بيضاء. فما الذي يجب أن يكون عليه الحال عندما تكون بيل دا كوستا غرين؟ لم يسعني إلا أن أتساءل، وبدأت أفكّر في كتابة رواية عنها.

ورغم ذلك، أدركت أنّني لا أستطيع كتابة هذه القصّة وحدي. لقد كنت قادرة، أثناء تأليف كتبي السابقة، على تخيّل حياة الكثيرين من النساء الأخريات بأصول وتجارب متنوّعة، ولكن كنت أعرف أنّني لا أستطيع أن أستحضر بيل وحدي؛ فكيف يمكنني تصوّر ما سيكون عليه الأمر حين تكون امرأة أمريكية من أصل أفريقي في السنوات التي تلت الحرب الأهلية، عندما كان من المفترض أن تكون العبودية قد ألغيت، في حين تزايد التفوّق

الأبيض، وطبّقت قوانين جيم كرو، وارتفعت عمليات الإعدام خارج نطاق القانون؟ وكيف يمكنني اتخاذ هذه الخطوة، ومن ثم أتقدّم وأتصوّر ما سيكون عليه الحال، عندما حاولت تلك المرأة أن تمر باللون الأبيض، عندما كان حلم والدها هو تشكيل عالم يمكن لجميع الناس أن يعيشوا فيه بحرّية، بينما يحتفلون علناً بأصولهم، خاصةً؟ لن يكون مثل هذا التمرين مجرد افتراض فحسب، إلا أنّ بيل تستحق أن تُروى قصّتها من قبل مؤلف أمريكي من أصل أفريقي.

مرّت السنوات، وأحياناً كنت أسمع تقريباً بيل وهي تدوس بقدميها الأرض، تنتظرني بفارغ الصبر عندما تركتُ مهنة المحاماة، وبدأت الكتابة عن نساء تاريخيات أخريات. وفي يوم من الأيام، بدأت قراءة كتاب (قف على أرضك) بقلم فيكتوريا كريستوفر موراي. وبين ثنايا صفحات هذا الكتاب الساحر، وهذه الرواية المهمّة الحائزة العديدَ من الجوائز، والتي تسرد قصّة حول إطلاق النار على صبي أسود من قبل شرطي أبيض، وقد سُردت من وجهة نظر والدة الصبي وزوجة الشرطي، كنت آمل أن أجد شريكي المنشود.

لم أستطع الانتظار لمقابلة هذه الكاتبة المذهلة التي صاغت هذه الرواية، التي تعالج المشكل العرقي بمثل تلك الدقّة، والفحص الحاسم من منظورين مختلفين للغاية. لكنّني كنت خائفة قليلاً، وانهالت عليّ الأسئلة: كيف ستتقبّل فيكتوريا الأمر؟ هل سترغب حقاً في العمل معي على تأليف هذا الكتاب؟ ففي نهاية المطاف، من المؤكّد أنّ لديها مجموعة خاصة بها من المشاريع المتراكمة، بالإضافة إلى مشاريع السفر التي لا نهاية لها، وقلقت من أنّها قد تجدني جريئة حتى في محاولتي سرد قصّة بيل. فمن تُراني أكون لأنجز مثل هذا المشروع وحدي؟

لكنّني شعرت من أوّل حديثٍ لنا بالارتباط بهذه المرأة الرائعة الدافئة، وخبرنا، في ما بعد، كم كنا متشابهتين في بعض النواحي، فكلانا كان يكافح

من أجل أكبر بناته، وحريص على إرضاء والديه بتحقيق نجاحات تقليدية، لكنّنا كنا نتوق، في الآن نفسه، إلى اتخاذ مسار آخر. كنا لا نختلف عن بيل؛ لذلك كنا نأمل معاً أن ننبش عن قصّة بيل، ونزيل غبار الماضي، ونتقاسم المساهمات المذهلة لهذه المرأة الحاسمة، جنباً إلى جنب مع الحديث عن تاريخ حقبة ما بعد الحرب الأهلية، وهي حقبة حاولت فيها الولايات المتّحدة الأمريكية إرساء المساواة، لكنّ تفوّق البيض عارض هذه الفكرة. ومن حسن حظّي أنّ فيكتوريا وافقت على أن تكون شريكتي في الكتابة، وشرعنا في هذه المهمّة.

لقد كانت كتابة قصّة بيل مع فيكتوريا، بعد أن حلمت بها لسنوات عديدة، عملاً مفرحاً بالنسبة إلي، وكثيراً ما فكّرت في مدى حسن حظّي في أنّني فزت بشراكتها وصداقتها الثرية. وعندما أنهينا كتابة مسودتنا الأوّلى، وضغطنا على زر الإرسال إلى محرّرنا الرائع، اعتقدت أنّنا جلبنا بيل إلى الحياة، وجلبنا معها عالمها العنصري الجائر الذي ظلّ ساكناً داخلها. واعتقدت أنّني سأتعرّف تماما إلى فيكتوريا من خلال هذه العملية، لكنّني لم أكن أعلم أنّني كنت قد بدأت للتو معرفتها.

تزامن وصول مخطوطتنا المعدّلة للتحرير مع انتشار وباء فيروس كورونا، وبداية الحجر الصحي. لقد حظيت أنا وفيكتوريا بالوقت الكافي بفضل التكنولوجيا (وهنا أوجّه شكري الخاص إلى تطبيق زوم!) الذي أتاح لنا فرصة التحدّث الشخصي يومياً تقريباً، وأحياناً لساعات في اليوم نفسه. وعلى الرغم من أنّ هذه المحادثات الطويلة ركّزت في البداية على العمل الشاق لمراجعة رواية (أمينة المكتبة الشخصية)، لكنّها سرعان ما تحوّلت إلى الحديث عن تجاربنا الشخصية مع الوباء، وعن قضايا الميز العنصري التي كنا نستكشفها في ثنايا صفحات كتابنا. وعندما كانت العنصرية الكامنة دائماً في مجتمعنا، منذ فترة طويلة قبل الأيام التي نكتب عنها هنا، أطلّت لنا العنصرية برأسها

القبيح بشكل لا جدال فيه مع جورج فلويد وكريستيان كوبر، وخروج الناس إلى الشوارع احتجاجاً، بالرغم من انتشار الوباء، وأصبحت تلك المناقشات أكثر كثافة وحميمة وتعمّقت صداقتنا.

وإثر تكريمي وتشريفي بثقتها بي، استمعت إلى فيكتوريا وهي تقاسمني تجاربها السابقة مع العنصرية، ومع ذلك النوع من التدهور اليومي الذي تعاني منه، وكذلك معاناتها مع الأفعال الفظيعة التي مورست عليها. كان قلبي مشدوداً عندما أخبرتني بمحاولات والديها تغيير النظام العنصري أثناء مشاركتهما في مسيرات الحقوق المدنية في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، كما وصفت لي الفصل العنصري الذي عانى منه أجدادها خلال سنوات سنّ قوانين جيم كرو وتطبيقها، التي أجبرت، في بعض الأحيان، جدتّها ذات البشرة الفاتحة على أنّ تتظاهر أنّها بيضاء. وازداد وجعي أنا وفيكتوريا عندما شاهدنا تفوّق البيض المريع المستشري في مجتمعنا مباشرة أمام أعيننا، بنقاط التشابه المرعبة نفسها للأحداث التي اكتشفناها أثناء بحثنا، وكتبنا عنها في صفحات كتابنا، ووجدت غضبي يتزايد نيابة عن فيكتوريا وبيل.

التغيير لم يطل كتابنا فحسب أثناء عملية التحرير؛ فأنا بدوري تغيّرت. لقد قدّمت لي فيكتوريا بسخاء عدسة يمكن من خلالها رؤية العالم، وغيّرتني، وهي لا تزال تفعل ذلك. فأنا طالما اعتقدت أنّني من دعاة تحقيق المساواة للجميع، لكنّ محادثاتي مع فيكتوريا أوضحت لي مدى ضآلة معرفتي بالنضال ومدى قلّة معرفتي بذاتي. وكلّما استمعت إلى فيكتوريا، أدركت كم كنت معزولة، وكم كنت محمية بامتيازي الأبيض حقاً، وكم كان عليّ أن أتعلّم، وكم كان عليّ أن أفعل. هذا العمل مهدى إلى شريكتي، وصديقتي، وأختي فيكتوريا، وإلى جميع إنسانيتنا المشتركة، وإلى بيل.

كلمة الكاتبة
فيكتوريا كريستوفر موراي

«فيمَ تفكّر ليزا؟»

تلك كانت فكرتي الأولى، عندما أرسلت إليّ وكيلتي الأدبية (المذهلة) اقتراحاً للعمل مع كاتبة أخرى. فكرة التعاون لم تكن بالجديدة بالنسبة إلي؛ لقد اشتغلت مع الكاتبة ريشوندا تيت بيلينجسلي في إنجاز ستّ روايات، وأحببت الكتابة معها أكثر بكثير من الكتابة بشكل مستقل؛ لذلك كنت دائماً منفتحة على هذا النوع من الفرص.

لكنّ إنجاز هذا المشروع كان استثنائياً، والسبب يكمن في أنّ ماري بينيديكت مؤلفة صاحبة أكثر الكتب مبيعاً بحسب صحيفة نيويورك تايمز، وكتبت قصصاً رائعة عن نساء قويّات نُسِيت أسماؤهن في ثنايا التاريخ. لقد تأثّرت، لكنّني لم أستطع معرفة سبب رغبة مؤلفة متخصّصة في مجال الخيال التاريخي في العمل مع كاتبة معاصرة مثلي.

ولأنّني لم أستوعب هذه الفكرة، استغرق الأمر منّي بعض الوقت كي أتمكّن من قراءة الاقتراح، فالأمر لم يكن منطقياً؛ ولم يكن مناسباً.

هذا هو السبب الذي يجعل من فعل القراءة أمراً أساسياً.

لأنّه بمجرّد أن قرأت أخيراً مقترح تأليف كتاب (أمينة المكتبة الشخصية)، واكتشفت هويّة بيل، صرت مفتونة بإنجازه لأسباب عديدة؛ فكيف ساعدت امرأة أمريكية من أصل أفريقي السيّد جي بي مورغان في بناء مجموعته الفنّية،

وتجميع تلك المخطوطات الضخمة، من دون أن يعرف أيّ أحدٍ أنّها سوداء؟ لأنَ حياتها، قبل أن أدرس المزيد عنها، بدت وكأنّها حياة العديد من أجدادي وأجداد أصدقائي، الذين كانت بشرتهم علامة على أحد أبشع أعمال العبودية. وفي عائلتي مثلاً، شاركت جدّتي (التي كانت بشرتها فاتحة جدّاً إلى درجة أنّ أختي الصغرى سيسيل سألت ذات مرّة عن الصور الموجودة على رف الموقد «من هي تلك السيّدة البيضاء؟») قصصَها الخاصة عن المرور إلى تبنّي البشرة البيضاء أحياناً بدافع الضرورة، أو لتسهيل الحياة.

لقد عرفت بيل من خلال تجاربي العائلية، وعلمت ألم القرار الذي اتخذته لتترك وراءها أصولها، والخوف من التعرّض للانكشاف الذي يحفّ بهذا الاختيار. يمكنني أن أتخيّل كيف كان عليها في كلّ يوم، بمجرّد أن تكون خارج أبواب منزلها، أن تقدّم عرضاً تُجاز عليه بأضخم الجوائز في النهار، ولكن عندما تعود إلى المنزل في الليل، تخلع «زيّها»، وتضع رأسها على الوسادة لتدرك أنّها لا تزال سوداء.

لقد أردت أن أكون جزءاً من هذا المشروع، وأن أجلب بيل دا كوستا غرين إلى الحياة.

كان الاقتراح، على أي حال، مجرّد عقبة أولى لا غير. العقبة التالية كانت ضرورة لقاء ماري، فخوض مشروع كهذا يعني أنّنا سنقضي ساعات معاً. وأنا كنت مستعدّة لذلك، لكن هل كانت ماري بدورها مستعدّة مثلي؟ وهل سيكون لدينا الكيمياء نفسها لنتحمّل كلّ الوقت والجهد والعمل الذي كان ينتظرنا؟

قام وكلاؤنا الأدبيون بإعداد الدعوة لنا للتحدّث إحدانا مع الأخرى عن بعد، وقلت: «مرحباً»، فقالت ماري «مرحباً.».. وكان الأمر مقضياً. أعتقد أنّنا تحاورنا لدقيقتين أو ربما لثلاث دقائق، قبل أن نصبح كاتبتين متعاونتين محتملتين؛ بل كنّا بالفعل صديقتين. ومن خلال مكالمتنا الثالثة أو الرابعة،

صارت كل واحدة منا تنهي جملة الأخرى. وبحلول الوقت الذي التقينا فيه شخصياً ومباشرة صرنا بمنزلة الأخوات.

خلال الأشهر القليلة التالية، عملنا بلا كلل أو ملل، وقضينا ساعات على الهاتف للتخطيط لكلّ فصل وجلب بيل إلى الحياة. انتهينا من كتابة المسودة الأولى للمخطوطة، وفي النهاية، كلّ ما يمكنني قوله هو أنّ العملية برمتها كانت مذهلة بالنسبة إلي. لقد أحببت العمل مع ماري، وهي علّمتني الكثير عن كتابة التاريخ. صرت باحثة بطلة عندما بحثت بعمق لاكتشاف الحقائق المخفية المتعدّدة عن بيل. كان التحدّي الأكبر بالنسبة إلي هو الحوار الوردي الذي حدث في أوائل القرن العشرين. كانت هناك أوقات أردت فيها فحسب أن تقول إحدى الشخصيات: «هل أنت بصدد المزاح معي يا صديقتي؟»

من الواضح أنّ ذلك لم يكن لينجح، لكنّه لم يكن مهمّاً؛ لأنّه كلّما استسلمت وكتبت شيئاً من هذا القبيل، تابعت ماري ما بدأنا نسميه فرشاتها التاريخية السحرية. فإذا كتبت شيئاً من قبيل قال جي بي مورغان: «هذا هو ما سيحدث يا بيل»، فإنّ ماري ستغيّر ذلك إلى «أشعر كما لو أنّه يجب علينا أن نرحّب بك في موكب عسكري مهيب يا بيل» (حسناً، ربما لم يكن الأمر بهذا السوء، لكنّه كان قريباً من الواقع).

وبمجرّد أن أرسلنا مخطوطتنا إلى قسم التحرير، أدركت أنّه أصبح لدي صديقة مدى الحياة. لكن ما لم أكن أعرفه هو ما كان ينتظرنا أنا وماري. لم يكن لدي أيّ فكرة عن أنّ وباء فيروس كورونا سيتركنا عالقتين في منازلنا، نراجع المخطوطة عن بعد، كما لم يكن لدي أيّ فكرة عن أنّنا سنقضي ساعات أكثر من ذي قبل معاً، ونعمل على قصّتنا بمعدّل يومي تقريباً. لم يكن لدي أيّ فكرة أيضاً عن أنّه سيتعيّن علينا أن نواصل العمل بعد أن شاهدنا رجلاً يُسحل في شوارع مدينة مينيابوليس خاصةً. كما لم يكن لدي أيّ فكرة

عن أنّه في حين كان المرض يهدّد أجسادنا، كانت الاضطرابات المدنية تمثّل تحدياً لذواتنا، وازدادت لحمتنا أنا وماري، فتجاوزت تجربة الكتابة معاً.

لقد كانت حالة الفوضى، التي تعاني منها بلادنا، بمنزلة الموسيقا الخلفية لنا، بصفتنا امرأتين بيضاء وسوداء تعملان معاً، وتخبران الناس من خلال عواطفنا عمّا شعرت به بلادنا وهي تنهار من حولنا. كانت ماري تتفقّدني كلّ يوم، وتعطيني منفذاً للتعبير عن الغضب الذي كان يحترق في داخلي، على الرغم من أنّه كان عليّ أن أكون بدوري بمنزلة ذلك المنفذ لها في العديد من المرّات. لقد أنشأنا مساحة آمنة بيننا بينما كنا نناقش تاريخ أمريكا السوداء، وتاريخ أمريكا البيضاء، والأمل في أن تلتقي هاتان الأمريكتان يوماً ما في بلاد واحدة.

كل تلك الأفكار، وكل تلك المشاعر، انعكست في قصّة بيل؛ لأنّ الكثير مما كنا نعيشه في مجتمعنا أثناء الكتابة هو ما أرادت بيل تجنّبه من خلال المرور باللون الأبيض منذ أكثر من مئة عام؛ فهي لم تكن تريد أن يستخدم لون بشرتها سلاحاً ضدّها، أو ذريعة لإبقائها في أدنى الوظائف، وأسوأ الأحياء السكنية، مع إمكانية ضئيلة لعيش حياة أفضل.

لقد كانت كتابة قصّة (أمينة المكتبة الشخصية) تجربة غيّرت حياتي، وأنا ممتنّة جدّاً لنيل هذه الفرصة. ولا يمكن أن أحظى بوقت أفضل، ولا يمكن أن يكون هناك مشروع أفضل، والأهم من ذلك كلّه، بالنسبة إلي، أنه لا يمكن أن يكون هناك شخص أفضل للإبحار معه في مثل هذه التجارب من ماري بينيديكت. لا أعرف ما يخبّئه لنا مستقبل الكتابة، لكنّ ما أعرفه هو أنّني حظيتُ بأخت جديدة لي سترافقني لباقي حياتي. وأملي ورغبتي أنّ كلّ من يقرأ هذه القصّة سيشعر بالعواطف والتجارب التي حاولنا تضمينها بين ثنايا هذه الصفحات، وأنّها ستجعل القرّاء يحبّون بيل دا كوستا غرين بالقدر نفسه لمحبّتنا لها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وامتنان

الكاتبة ماري بينيديكت

لقد استحوذت بيل دا كوستا غرين على مخيّلتي وقلبي منذ سنوات، لكنّ قصتها الأساسية، التي رأت النور في الوقت المناسب، مثلما اكتشفته أنا وفيكتوريا، وحاولنا كشفه في رواية (أمينة المكتبة الشخصية)، كانت ستبقى مخفية مثل هويّة بيل الخاصة خلال حياتها من دون دعم وتشجيع الكثيرين. وكما هو الحال دائماً، يجب أن أبدأ بشكر محاميتي الشخصية، ووكيلتي الرائعة والكريمة، لورا ديل، التي من دونها لم يكن هذا الكتاب سيرى النور. وأنا ممتنّة للغاية لمحرّرتنا الرائعة، كيت سيفر، التي كانت رغبتها وشغفها بمشاركة قصّة بيل واضحة منذ البداية، والتي وجّهت هذا الكتاب بشكل جميل. كما أقدّم جزيل الامتنان للناس المذهلين العاملين في دار بنغوين راندوم هاوس للنشر، ولاسيما: إيفان هيلد، وكريستين بول، وكلير صهيون، وجين ماري هدسون، وكريغ بيرك، وأنطوني راموندو، وجين يو، ولورين بورنشتاين، وداش روجرز، وناتالي سيلارس، وميشيل كاسبر، وماري جيرين.

لكن من دون الحب والدعم المستمر والثابت لأولادي جيم، وجاك، وبن، لم يكن هذا المشروع سيكون ممكناً، ومن دون شريكتي الموهوبة والرائعة، وصديقتي، وأختي فيكتوريا كريستوفر موراي، لم تكن رواية (أمينة المكتبة الشخصية) لترى النور على الإطلاق.

شكر وامتنان

الكاتبة فيكتوريا كريستوفر موراي

لقد بدأ هذا المشروع في التشكّل حتى قبل أن أشارك فيه، وأنا ممتنّة جدّاً لوكيلتي الرائعة، ليزا داوسون، لاقتناص هذه الفرصة، ومعرفة كم سيكون الأمر رائعاً بالنسبة إلي. كانت تلك مجرّد البداية. ومنذ اللحظة، التي تحدّثت فيها أنا وماري مع كيت سيفر، كنّا نعلم أنّنا نريد العمل معها محرّرةً لنا. شكراً لك كيت على الإيمان ببيل بقدر إيماننا بها، كما نشكرك على القيام بهذه الرحلة معنا. وأشكر أيضاً كامل الفريق العامل في دار بنغوين راندوم هاوس للنشر، وأستطيع أن أبشّرهم بهذا النجاح الباهر؛ فحين كانت هذه الرواية مجرّد فكرة، آمن كلّ واحد من هذا الفريق برؤيتنا، وتقاسم معنا حماستنا. شكراً للجميع ولاسيما: إيفان هيلد، وكريستين بول، وكلير صهيون، وجين ماري هدسون، وكريغ بيرك، وأنطوني راموندو، وجين يو، ولورين بورنشتاين، وداش روجرز، وناتالي سيلارس، وميشيل كاسبر، وماري جيرين.

لا يمكنني إنهاء هذا الشكر من دون الاعتراف بدور أهمّ الأشخاص الذين ساعدوني في مسيرتي المهنية، وأشكر معهم آلاف القرّاء الذين كانوا معي في هذه الرحلة التي استمرت على مدى عشرين عاماً. شكراً لكونكم كنتم متحمّسين لرواية (أمينة المكتبة الشخصية)، وآمل أن تحبّوا بيل بقدر ما أحبّها.

وأخيراً، أتوجّه بالشكر إلى ماري. وماذا يمكنني أن أقول عنك؟ لقد ظننت أنّني كنت سأقابل شريكة جديدة في الكتابة، لكنّني حصلت على أخت أخرى بدلاً من ذلك وسأظلّ ممتنّة إلى الأبد لبيل دا كوستا غرين لمنحي هذه الأخت.

جدل

MARIE BENEDICT
& VICTORIA CHRISTOPHER MURRAY

telegram @soramnqraa

ماري بينيدكت وفيكتوريا كريستوفر موراي

أمينة المكتبة

تروي «أمينة المكتبة» قصّة المرأة السمراء الاستثنائية بيل دا كوستا غرين، المتميّزة بفكرها وأسلوبها وذكائها والتي تتقاسم مع والدتها سمة حماية عائلتها وإرثها عن طريق تبنّيها هويّة البيض في عالم عنصري مقيت.

يتمّ تعيين بيل دا كوستا غرين، وهي في العشرينات من عمرها من قبل جي بي مورغان أحد الأثرياء للإشراف على مجموعة من المخطوطات والكتب والأعمال الفنّية النادرة في مكتبته «بيربوت مورغان» التي تمّ بناؤها حديثاً، ثمّ تصبح بيل بفضل التحاقها أمينةً شخصيةً لمكتبة السيّد مورغان، لاعبًا أساسيًا في مجتمع مدينة نيويورك، وإحدى أقوى الشخصيات في عالم الفنّ والكتاب، متميّزةً بذوقها الفنّي الخارق، وحذقها مهارةَ التفاوض لكسب مزادات التحف الفنّية والمخطوطات.

لكنّ بيل لديها سرّ كانت تحرص على كتمه، فاسمها الحقيقي لم يكن بيل دا كوستا غرين، بل بيل ماريون غرينر؛ وهي في الأصل، ابنة ريتشارد غرينر، أوّل خريج أسود في جامعة هارفارد، كان يُعرَف عنه أنّه مدافع شرس عن المساواة.

تُعدُّ هذه الرواية من أكثر الروايات مبيعاً لسنة 2021 بحسب صحيفة النيويورك تايمز، كما اختارها نادي الكتاب الأمريكي بوصفها أفضل رواية لهذا العام، وتعدّها الإذاعة الوطنية الأمريكية وصحيفة الواشنطن بوست أبرز كتاب يجسّد الخيال التاريخي في أبهى حلّته.

9 786030 428335

JADAL.PUBLISHING
JADALBOOKSTORE.COM